موسوعة أعلام التفسير في الجزائر



إشراف وتحرير:

أ.د حمو عبد الكريم

المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية وهران- الجزائر

مراجعة عامة:

د. بلخير عمراني

مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة، الأغواط – الجزائر

تأليف مجموعة من الباحثين

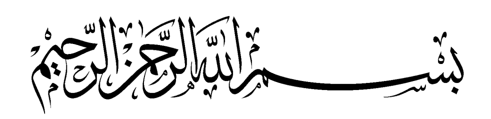
الجزء الأول

ISBN : 000–0000–000–00-0

الطبعة الأولى

ربيع الآخر 1442 هـ/ نوفمبر 2020م

مطبعة مركز البحث في العلوم الإسلاميّة والحضارة بالأغواط الجزائر



موسوعة أعلام التفسير في الجزائر

الطبعة الأولى

1442 هـ- 2020 م

ردمك : 0-00-000-0000-000

مركز البحث في العلوم الإسلاميّة والحضارة، مقابل المستشفى الجامعيّ

صندوق البريد رقم: 4082، بريد الواحات الشماليّة بالأغواط الجزائر

للاتصال برئاسة المشروع:

hamou.abdelkrim@gmail.com

الهاتف الثّابت: 029146189 (00213)

الفاكس: 029146190 (00213)

اللجنة العلمية للكتاب

رئيس المشروع: أ. د حمو عبد الكريم

المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية وهران- الجزائر

أعضاء اللجنة العلمية

22	د. مختار حسيني	مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة، الأغواط/ الجزائر
23	د. مختار حسيني	مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة، الأغواط/ الجزائر
24	د. أحمد بن الصغير	مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة، الأغواط/ الجزائر
25	د. عبد القادر جعيد	مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة، الأغواط/ الجزائر
26	د. هازل العيد	مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة، الأغواط/ الجزائر
27	د. حسين شنينة	مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة، الأغواط/ الجزائر
28	د. بسباسي زكريا	مركز البحث الوطني في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية وهران/ الجزائر.
29	د بولعشار مرسلي	المركز الجامعي تسمسيلت. الجزائر
30	د بوداعة نجادي	جامعة سعيدة. الجزائر
31	د. شطة مصطفى	جامعة عمار ثليجي، الأغواط، الجزائر
32	د. حبيبة شهرة	جامعة عمار ثليجي، الأغواط، الجزائر

بين يدي الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

كان التّشوّف والتّوق ، عند نخبة من الباحثين، وثلّة من المهتمّين ، إلى وضع موسوعة للتّفسير والمفسّرين في الجزائر العامرة، مطمحا نبيلا، وغاية جُلّى ، تنوءُ بحملها العُصبة أولواْ القوّة، حتّى انبرى لذلك باحثون متخصّصون من مركز الأنثروبولوجيا الثّقافية بوهران ، وبالتّعاون مع المجلس العلميّ لمركز البحث في العلوم الاسلاميّة والحضارة بالأغواط، ومع باحثيه المتخصّصين ، و مع هيئات شتّى في الوطن وخارجه ، ومع شخصيّات أكاديميّة لامعة، لها بهذا المجال البحثيّ إلمامٌ واهتمامٌ ، لتحقيق هذا المطمح العلميّ السّامق.

لقد بدأت المبادرة فكرة، ثمّ ٱنقدحت أملا، ثمّ أضحت وسيلة لكلّ غاية نبيلة ، لتستوي على سوقها، وتُؤتي أُكلها ضعفين بإذن ربّها ، فانهمرت على اللّجنة العلميّة عشرات البحوث الرّزينة، والمقالات القيّمة المفيدة، لتبادر إلى تحكيمها لدى الثّقات من علماء الدّراسات القرآنيّة ، والمتخصّصين في هذا الفنّ العلميّ الدّقيق، فأثمرت زبدتها هذا العمل البديع ، في صورته النّهائية من التّصفيف والتّصنيف، وفي ملمحه الأرقى من التّنقيح والتّقويم، وكأنّ شكله ومضمونه، يُذكرّنا بقول بلقيس لقومها، حين جاءها كتاب سليمان: "**إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ**" [النّمل/ 27].

ولا ريب أنّ التّفسير القرآنيّ، من أهمّ ما يجب أن تعتني به الأمّة، وأنْ تركّز عليه جهودها العلميّة، وأن تتيح المجال فسيحا للباحثين المهتمّين بهذا المجال، لكي ينفضواْ الغبار عن تراث خصبٍ ثمين.

ولقد كان علم التّفسير من الظّواهر التّي ميّزت الأمّة الاسلاميّة عن سواها من الأمم، وكانت قرائح العلماء الثّقات، والمفسّرين الأثبات، متّجهة بعزيمة غير وانية، وبإرادة غير واهية، إلى تتبُّع النّص القرآنيّ في حكمته وعمقه، لاستجلاء أسراره، والتّنقيب عن بدائعه ولآلئه، وقد ٱضطلع بذلك علماء الأمّة منذ فجر تاريخها، لأنّهم الأعلم بمراد الله في قرآنه ، وقد خصّهم النّص الكريم

بذلك، حين قال تعالى: " **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ** "[الزّمر/ 31]، والّذين يخشون ربّهم على بصيرة، إنّما هم العلماء، لقوله تعالى: " **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** " [فاطر/ 28].

والقرآن يؤكّد أنّ تأويل الآيات، أمرٌ يرجع إلى الله ٱبتداء، وأنّ الله يفتح لأولي العلم ما به يستنبطون المعاني، ويستخرجون الأحكام، ويرجّحون الدّلالات القريبة من فحوى النّص القرآنيّ، والمتلائمة مع مقاصد الدّين، وأحكام الشّرع المتين، وقد قال الله تعالى: " **هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ** " [آل عمران:07].

ولقد كان التّفسير منذ بدايته ، يضمُّ ثلّة من الأوّلين، وثلّة من الآخرين، منهم من اشتهر، ومنهم من غمر، وطواه النّسيان فلم يذكر، فكان في المشهورين مجاهد (ت 104هـ)، والثّوري (ت 161 هـ)، ويحي بن سلّام (ت 200هـ)، وابن وهب (ت 308 هـ)، والطّبري (ت 310هـ)، وابن أبي حاتم (ت 327 هـ)، والسّمرقندي (ت 375 هـ)، وابن أبي زمنين (ت 399 هـ)، واشتهر في العصور اللّواحق: الماوردي (ت 450هـ)، والكرماني (ت 505 هـ)، والبغوي (ت 516 هـ)، والزّمخشري (ت 538هـ)، وابن عطيّة (ت 541 هـ)، والرّازي (ت 606 هـ)، والقرطبيّ (ت 671 هـ) والبيضاويّ (ت 682 هـ)، وابن كثير (ت 774 هـ)، والفيروز آباديّ (ت 816 هـ)، والألوسيّ (ت 1270 هـ)، والقاسميّ (ت 1332 هـ)، والمراغيّ (ت 1371 هـ)، ومحمّد رشيد رضا(ت 1354 هـ)، والسّعدي (ت 1376 هـ)، وابن عاشور (ت 1393 هـ)، ومحمّد الأمين الشّنقيطيّ (ت 1393 هـ)، وغيرهم .

أمّا المغمورون فهم كثرٌ، لا يكاد يسعهم هذا الحيّز المخصّص للتّقديم، ويمكن الرّجوع في ذلك بتوسّع وتفصيل ، إلى كتب الطّبقات والتّراجم ، نحو (وفيات الأعيان) لابن خلّكان، و(معجم

المفسّرين من صدر الاسلام وحتّى العصر الحديث) لعادل نويهض، و(طبقات المفسّرين) للإمام السّيوطي، وكتاب (الأعلام) لخير الدّين الزّركلي، وكتاب (التّفسير والمفسّرون في غرب إفريقيا) لمحمّد بن رزق طرهونيّ، و(تاريخ الجزائر الثّقافي) لأبي القاسم سعد الله السّوفي، وكذلك البحث المنشور على الشّابكة بعنوان: (المفسّرون في الجزائر)، لأبي إبراهيم عبد الرّحمن أمجد، وغير ذلك من المصادر الموثوقة في هذا المضمار.

ولئن كان المشرق قد ٱزدهى وازدهر، بهذه الفلول المتعاقبة، من المفسّرين المشهورين والمغمورين، فإنّ المغرب الاسلاميّ والجزائر خاصّة، قد شهدت البذور الأولى لحركة التّفسير ،في المحاولة الرّائدة للمفسّر الجزائريّ محكّم بن هود الهوّاري (ت 250 هـ)، وهو عالمٌ فطحلٌ ، من منطقة الونشريس الشمّاء، وقد توالى من بعده مفسّرون كثرٌ ،كأبي جعفر الدّاودي (ت 402 هـ)، وأبي يعقوب الورجلانيّ (ت 570 هـ)، وأبي زكرياء الزّواوي (ت 611 هـ)، ويحي بن علي الزّواوي (ت 743 هـ)، وأبي عبد الله الشّريف التّلمساني (ت 771 هـ)، وأحمد بن محمّد المسيليّ (ت 785 هـ)،وعبد الرّحمن بن مخلوف الثّعالبي (ت 874 هـ)، ومحمّد بن عبد الكريم المغيليّ (ت 909 هـ)، ومنصور بن أحمد البجائيّ المشدّالي (ت 864 هـ)، وأحمد بن علي الزّموري (ت 1001 هـ)، وابن خليفة الجزائريّ (ت 1094 هـ)،وأحمد بن محمّد المقريّ التّلمساني (ت 1041 هـ)، والرّاشدي القسنطينيّ (ت 1194 هـ)، وأحمد بن القاسم البونيّ (ت 1139 هـ)، ومحمّد بن الحسن بن العنّابي (ت 1150 هـ)، وعثمان بن سعيد المستغانميّ المتوفّى في القرن 13 هـ ، ومحمّد بن يوسف اطفيّش (ت 1385 هـ)، وعبد الحميد بن باديس الصّنهاجي (ت 1359 ه)، وفضيل اسكندر الحنفي (ت 1402 هـ)، و إبراهيم بيوض القراري (ت 1401هـ)، و محمّد الطّاهر العبيديّ (ت 1387 ه)، و الطيّب المهّاجيّ الوهرانيّ (ت 1389 هـ)، و مرزوق بن الشّيخ الحسين (ت 1410هـ)، و محمّد المكّي بن عزّوز الهامليّ (ت 1334 هـ)، و أحمد بن الشّيخ العلويّ(ت 1353 هـ)، و أبو بكر الجزائريّ (ت 1439هـ)، و من الأحياء محمّد الصّالح الصّديق، و التّواتي بن التّواتي في تفسيره (الدّر الثّمين في تفسير الكتاب المبين)، و سعيد كعباش في تفسيره (نفحات

الرّحمن في رياض القرآن)، و هناك من لا يزال يزاول التّفسير باللّغة الأمازيغيّة كالسّعيد بويزري بتيزي وزّو، ومصطفى باجو بغرداية ، وكان للشّيخ الأخضر الدّهمة بمتليلي، باعٌ في تفسير سور القرآن ،وقد نشر بعضه، و غير هؤلاء كثر، ممّن زخرت بهم أنحاء الجزائر، على ٱختلاف في المناهج والمذاهب ، وتباين في المشارب والتوجّهات....

ونحن على يقين أنّه سوف لن يخلو الزّمان، من قائم لله بحجّة، ومن مفسّر بصير بصراط المحجّة، لتجسيد قوله تعالى: " **إِنَّا نَحْنُ نَـزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**" [الحجر/ 09]، متجلّيا بصدق ويقين في عالمنا الّذي نحياه، وسوف يتجدّد على المدى، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

و نأمل أن يكون للجزائر ٱحتفاءٌ دائمٌ بالقرآن الكريم و تفسيره ،كما هو عهدها في كلّ العصور، حفظا و قراءة، وإسنادا ورواية ، و تفسيرا و تأويلا، إلى جانب الدّراسات الأكاديميّة التّي تنجزها قرائح أكثر الطّلبة نجابة وعبقريّة ، و أكثرهم اهتماما بالإعجاز القرآنيّ في مناحيه المختلفة.

و إنّ هذه المبادرة الّتي أثمرت هذا النّتاج الطيّب، هي بحقّ لبنةٌ في هذا الصّرح الممرّد ، من الدّراسات المتلاحقة في القديم و الحديث، و ستشدّ عضد ما صنّف قبلها من مصنّفات ، و سيكون لها ما بعدها ، لأنّ العطاء القرآنيّ، و التّأريخ للدّراسات و التّفاسير، و محاولات التّنظير و التّطبيق ، في ميدان التّفسير القرآنيّ والإعجاز، ممّا يبقى على المدى نفعه، و ينتقل إلى الأجيال مدده، لأنّه متعلّق بكتاب الله المجيد، الّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه، لأنّه كما عبرّ القرآن: " **تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**"[فصّلت/ 42].

و نظرا لأهميّة الموضوع و جدّيته ، و طرافة البحث و جدّته، فقد تهاطلت على اللّجنة العلميّة مشاركاتٌ كثيرةٌ ، من شتّى الأصقاع ، و مختلف البقاع، و هذا يدّل على الشّغف الكبير بالدّراسات القرآنيّة و التّراثّية ، لأنّه ما من منهج يطبّق عليها، إلاّ و له مقامٌ معلوم ، إذ يعطي أفكارا جادّة، وينفسح إلى رؤى عميقة ، يتبنّاها الباحثون، و يجعلونها منطلقا للتّحليل والتّعليل ، ومرتكزا

للتّفكيك و الترّكيب ، ممّا تبدع فيه القرائح، و تنقشع سحائب ضبابه، عن فهوم شتّى، و مجالات عدّة، يتطلّبها التّأويل ، و يقتضيها التّعليل، و يظهرها مسلك التّحليل .

ولقد اطّلعت على مضامين هذه الإسهامات المفيدة، فوجدت منها ما يعالج مناهج التّفسير، ومنها ما يركّز على الجهود المبذولة عبر العصور ، و منها ما يتعلّق بالتّدريس و التّأليف ، لدى عدد محترم من المفسّرين الجزائريين، كالمغيليّ، و طاهر الجزائريّ، و الرّاشدي، و أبي راس النّاصري، والبهلول، و الشّاوي، و العنّابي، و غيرهم، و هذا يدّل دلالة واضحة على كثافة التّفاسير، ومدى اهتمام الأجيال المتعاقبة بها، ووجودها في الحواضر كتلمسان، ووهران، و بجاية، و عنّابة، ومستغانم ،و الجزائر العاصمة ، و قسنطينة، و بلاد ميزاب، و بلاد توات، ناهيك عن تنوّع المذاهب و الاهتمامات في هذه المقالات ، إذ منها المالكيّ و الحنفيّ و الإبّاضي، و هو دليل على ثراء التّراث ونفاسته، مع الاهتمام بالتّفسير بالأثر، و التّفسير التّأويليّ، و التّفسير بالإشارة، و كلّ ذلك يؤكدّ على خدمة علماء المغرب الأوسط (الجزائر) لعلوم التّفسير، و مشاركتهم البنّاءة في إثراء هذا العلم ، ونشره بين طلبة العلم، و بين العوامّ و الخواصّ، لتحقيق مراد الله الّذي جعله كتابا مفصّلا، لا تنتهي عجائبه، و لا يخلق على كثرة الرّد، و لا يشبع منه العلماء.

إنّ هذه المبادرة الفاعلة و الواعية، إسهامٌ مشكور، من القائمين على هذا الكتاب الموسوعة الذّي تتنوّع فيه المباحث و المطالب، و تجلى فيه ذخائر من التّراث المخطوط و المطبوع ، للجمع بين علم التّفسير ، و علم التّراجم، و علم المقاصد، و الملمح العقائدي، و التّذوّق العرفانيّ، و نفض الغبار عن تأويلات مختلف المدارس و الاتّجاهات في التّفسير الّتي لم تكن الجزائر عنه غائبة، في كلّ العصور والظّروف ، بل كانت مسهمة بعطاء وافر، وكان لها القدح المعلّى، الّذي لا ينكر أثره ودليله، إلاّ جاحدٌ كنود، أو معاندٌ لدود.

و إنّ التّعاون بين المراكز البحثيّة ، التّابعة لوزارة التّعليم العالي و البحث العلميّ، على هذه الشّاكلة، سيثمر بحوثا جادّة ناجعة، و مبادرات مبدعة رائعة، لأنّ في ضمّ الجهود بعضها إلى بعض، نفع كُبيرٌ

و عطاءٌ غزيرٌ، و توقٌ إلى مستقبل قائم على التّكاتف و التّآزر، خدمة للثّقافة، و إبرازا لمناحي العلوم، ذات الأثر في العبقريّة الجزائريّة الّتي حُقّ لنا أن نذكرها بفخر و اعتزاز ...

و لا يسعنا في الأخير، إلاّ أن نشّد على أيدي السّاهرين، على هذا العمل الجليل، و المسهمين فيه، و على رأسهم الأستاذ الدّكتور جيلالي مستاري، مدير مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعيّة و الثّقافية بوهران، و الدّكتور عبد الكريم حمّو، المسؤول عن هذه الموسوعة الرّائعة البديعة، و نشكر كلّ مسهم فيها و مدعمّ لها .

و نتمنّى أن يتواصل العمل في المستقبل، لإنجاز أكبر الأعمال، و تحقيق أشرف الآمال، ترقية للعلم، و ترسية للبحث ، و تواصلا مع الأجيال، للوصول إلى ما نطمح إليه و نرجوه، من مستقبل رائق، يدرك فيه الخلف ما انقدحت عنه قرائح السّلف ، وما انبثقت عنه هممهم السّامية ، من مفاخر عالية، و مآثر راقية .

و الله الموفّق للسّداد، و عليه وحده الاتّكال و الاعتماد.

د. مبروك زيد الخير

مدير مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة – بالأغواط

وعضو المجلس الاسلامي الأعلى بالجزائر

بين يدي الكتاب

قطع علماء التفسير شوطا كبيراً في فهم مقصدية الخطاب القرآني، من خلال عنايتهم بجانب علوم القرآن وبالجانب اللغوي والصرفي والدلالي للصيغ والتراكيب القرآنية، فَهُم من أوائل المنظرين للدراسات التي تدور حول الألفاظ ومعانيها؛ حيث نظروا إليها في حالة إفرادها وفي حالة تركيبها، وبحثوا في أوجه الأدلة ومدلولاته، وفي النص والسورة جميعا، على اعتبار أن النص القرآني مبني على الوصل لا الفصل، كما سعوا للوقوف على المقاصد والمساقات من حيث إفادتها أحكاماً شرعية معينة، والتي تعتبر بحق ضوابط أساسية يستفيد منها المجتهد والفقيه والأصولي والمفسر لدى عملية ترجيج رأي على رأي أو وبناء حكم على أصل من دلالة اللفظ المتبادر إليه فيما يحتمله خطاب الشارع الحكيم.

وإنّ جميع العلوم المستحدثة التي أسسها العرب بعد نزول القرآن الكريم وخاصة العلوم الإسلامية والعلوم العربية كان مُنْطَلَقها القرآن، التي كانت في خدمته ووفق ما دعا إليه.

ومن هنا جاء القرآن حمالا لوجوه عديدة من المعاني، وكان أمرا طبيعيا ما يتجدد فيه كل يوم من فهوم ونطوق، وستظل تلك التأويلات والتفسيرات متجددة بما انتهت إليه أفهام الراسخين في العلم، قال تعالى: **﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾** آل عمران الآية 07. وسيظل العلماء ينهلون من معين القرآن، يدرسون أسلوبه البليغ، ويستخرجون منه الدرر والمعاني والدلالات والإشارات...رضي الله عنهم وجزاهم الجزاء الأوفى.

ويأتي هذا المشروع العلمي الأول من نوعه في الجزائر الموسوم بـ: **"موسوعة أعلام التفسير في الجزائر"** ليبرز لنا مشهدا من مشاهد تاريخ الجزائر الثقافي والديني، ويرصد بذلك قائمة لا بأس بها من أعلام التفسير، بتتبع آثارهم ومحطاتهم الفكرية والمعرفية، وما أنجزوه من قضايا متصلة بالدرس التفسيري الجزائري.

وهذا العمل هو ثمرة مجهود قام به ثلة من الباحثين والمفكرين والمختصين في جامعات ومراكز البحث بالجزائر، وأخص بالذكر هاهنا **مركزي البحث في العلوم الإسلامية والحضارة بالأغواط، ومركز البحث الوطني في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية بوهران**. الذين نالا الإشراف والتنسيق والمراجعة العلمية واللغوية على هذا المنتوج العلمي الكبير. وإنّه لشرف لي أن أكون مساهما في إنجاحه، الذي أتمنى من كل قلبي المواصلة في إخراج الطبعات المتبقية منه...

كما أجزي شكري الخاص لكل المشاركين في هذه الموسوعة وما بذلوه من جهد وعطاء، وفقكم الله جميعا وسدد خطاكم لما يحبه ويرضاه.

د. جيلالي المستاري

مدير المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا

الاجتماعية والثقافية وهران- الجزائر

تقديم منسق المشروع

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وأصحابه الغر الميامين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

إنّ الإسلام دين عالمي أنزله الله تعالى للناس كافة، فقد أحيا به القلوب وأنارت به الدروب، ورضيت به النفوس الزكية وانشرحت له الجوارح المرضية، فهو منهج حياة وطريق وهديه وسبيل نجاة، وكان محمد عليه السلام خير مبلغ عن ربه، فقد بلّغ الأمة بدعوته وأخرجها من غياهب الظلم إلى نور الاسلام السّمح، قال تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا** ﴾ الأحزاب، الآية:43.

ومن أسرار هذا الدين أنْ يؤمن به الأنبياء والمرسلون ويدعون قومهم لاتباعه، لأنّه كتاب سماوي يدعو إلى التوحيد والطاعة والى فعل الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى آمراً نبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ**﴾. المائدة، الآية: 67.

فكانت هذه الرسالة معجزة إلهية بين يدي خير البرية، تحدى بها قومه أنْ يأتوا بمثل هذا القرآن، لكنهم خرصوا وخذلوا، واستمرت دعوة الاسلام قرونا وقرونا بمنهج دعوي واضح المعالم والحدود، بيّن في محتواه ومقتضاه.

ومن سمات الخطاب القرآني أنه خطاب إلهي رباني متفرد عن غيره من الخطابات، في كل مستوياته الصوتية، والصرفية والنحوية المعجمية، والتركيبية، فأصواته منسجمة متماسكة، وألفاظه ذات دلالة ومقصد، وأسلوبه معجز في لفظه ونظمه، وليس لأحد أنْ يأتي ولا بآية من مثله، قال تعالى: ﴿**وَإِن كُنتُم فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾، سورة البقرة، الأية:23.

ولقد شغل علم التفسير حيزاً كبيراً أذهان المسلمين، ومنذ الوهلة الأولى عكف المفسرون وأهل البيان والمجاز على شرح وتيسيره، ووضعوا له آليات وشروطاً وجب التقيد بها منها: وجوب امتلاك ناصية اللغة العربية في تفسير ألفاظه وتراكيبه ومعانيه، ومعرفة مباحث علوم القران التي تتعلق بمكان وسبب النزول والمكي والمدني والناسخ والمنسوخ والقراءات والرسم القرآني... كما تحرجوا من استخدام الهوى والرأي في التفسير واستشهدوا بالحديث الشريف عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ». رواه الترمذي رقم:234

وقد تكلف علماء الجزائر بنشر دعوة الاسلام والتبليغ عن مراد الله، جاعلين من "التفسير القرآني" مائدة علمية وارشادية واصلاحية تنور أذهان وعقول المنصتين والسامعين لهداية الحق، وإذا أردنا الحديث عن أعلام التفسير في الجزائر خلال الفترات الزمنية المتلاحقة، فإننا نقول أنّ مجالس التفسير لم تنقطع البتة، مثله مثل حلقات التعليم في الحديث النبوي الشريف ومجالس الفقه والصرف والبيان....لكن الأمر المسجل هنا أن بداية الاشتغال بعلم التفسير كان موجها على شكل حلق تعليمية إصلاحية، ولم ترق – في بدايته-إلى مصاف التأليف والتصنيف المُحكم، عكس ما شهدته بلاد الحجاز والمشرق العربي عامة، وربما يرجع هذا إلى وضعية المغرب الاسلامي حينها، بحيث كانت تتحكم فيها ظروف سياسية واجتماعية متغيرة، خصوصا في القرن الثامن والتاسع هجري.

رغم هذا وجدنا في الجزائر بعض العلماء اشتغلوا على نشر العلوم الشرعية كعلم الفقه والحديث والتفسير والأحكام.. منهم على سبيل التمثيل الإمام أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي(ت: 402 هـ)، الإمام أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الورجيلاني (ت: 570 هـ) والشيخ أبو الفضل يوسف بن محمد بن يوسف التوزري التلمساني (ت: 513هـ)، والشيخ يحيى بن محمد بن منداسي التجني (التوجيني) التلمساني (ت652هـ)، والشيخ الإمام أبو زكرياء يحيى بن على الزواوي (ت:611هـ)، والشيخ عبد الرحمان الوغليسي (ت: 786هـ) والشيخ عبد الرحمان الثعالبي

(ت:875هـ) والشيخ المازوني (ت: 883هـ) والامام السنوسي (ت:895هـ) والشيخ أحمد الونشريسي(ت: 914هـ)...والشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي(ت: 909هـ)، والإمام أبو الفضل محمد المشدالي... دون أن ننسى الشيخ أحمد البوني والشيخ حسين العنابي، والمحدث أبي راس الناصري المعسكري، والامام محمد الزجاي، وشيخ الاباضية محمد بن يوسف أطفيش وشيخ جمعية العلماء المسلمين عبد الحميد بن باديس... ومؤخرا طبع تفسير الشيخ سي حاج محند محند طيب وهي الترجمة الأولى لمعاني القرآن الكريم إلى الأمازيغية، وآخر تفسير بلغني هو تفسير التواتي بن التواتي بمدينة الأغواط المسمى بــ" الدر الثمين في تفسير الكتاب المبين"

ويأتي هذا المشروع العلمي الوطني الأول من نوعه في الجزائر الموسوم بـ: "موسوعة أعلام التفسير في الجزائر" ليزيل اللثام على محطة من محطات تاريخ الجزائر الاسلامي والثقافي، ويضع لنا قائمة أعلام التفسير بالجزائر الحبيبة، ويرصد لنا أهم القضايا التفسيرية التي أثارتها الحواضر التفسيرية، غير مقيدين بتاريخ زمني أو فترة دون أخرى أو منطقة جغرافية على غيرها؛ بل الدراسة تخص حياض الجزائر وعلماءها ومشايخها، والتركيز هاهنا ينصب على الأعلام والمدونات التفسيرية المعروفة والمجهولة. راغبين في تبيان تفسير القرآن الكريم ومباحثه.

كما يمكن يمكننا إحصاء هؤلاء الأعلام الذين سجلت المعاجم والسير والمصنفات أسمائهم عبر حقب مختلفة،(المطبوعة والمخطوطة)، ونبرز دور المدارس التفسيرية وتقصي اخبار الجزائريين في مرحلة من تاريخ الجزائر الديني، ونقرب إلى الأذهان لطلبتنا وباحثينا التفاسير المجهولة والمفقودة، مع الوقوف على طريقتهم في التفسير والتأويل والترجمة، فكانت الحاجة ماسة لمثل هذه الأعمال، وهي حاجة الأمة العربية والاسلامية إلى مدونة ورقية وإلكترونية تكون جامعة للموروث التفسيري الجزائري. وحاولنا أن نعالج مجموعة من المحاور منها:

- تعريف التفسير: النشأة، الأصول، الأنواع، الخصائص..
- التفاسير القرآنية في الجزائر: (التسمية، الأنواع، المضامين)
- أعلام التفسير في الجزائر.(ترتيب ألفبائي- موضوعاتي- تاريخي....)

- مدارس التفسير في الجزائر (الحواضر العلمية-المشيخات والزوايا الدينية...).
- بيبلوغرافيا التفاسير الجزائرية المخطوطة والمطبوعة والمجهولة.
- طبقات المفسرين ومراتبهم من خلال: المصنفات- التراجم- الموسوعات..
- اجتهادات علماء التفسير في مجال: المصطلح القرآني، التأويل والتفسير، البحث القرآني، التخريجات والنكتات البلاغية والبيانية...
- مناهج البحث اللغوي والبياني عند المفسرين.
- التفسير وصور الإعجاز (عرض نماذج وصور تطبيقية).

والجدير بالذكر هنا وجوب تقديم الشكر الموصوف بالمحبة الصادقة إلى كل المشاركين الذين اتحفونا بما جات به قرائحهم الفكرية والاجتهادية، والشكر موصول للسيد الفاضل العزيز الأستاذ الدكتور مبروك زيد الخير مدير مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة بالأغواط، على استجابته الفائقة لهذا المشروع وتسخير كل ما امكن لإنجاحه وإخراجه بالشكل الحالي.

فالحمد لله الذي سير وأعاننا على إتمام هذا العمل وإخراجه في هذه الصورة الطيبة، وأرجو الله جلت قدرته أنْ يوفقنا إلى إتمام الأجزاء المتبقية، إنّه ولي ذلك والقادر عليه. أمين يا رب العالمين.

أ.د حمو عبد الكريم

مدير وحدة البحث حول الثقافة والاتصال والآداب

واللغات والفنون- وهران- الجزائر

المحور الأول:

التفاسير القرآنية في الجزائر: (النشأة، الأصول، الأنواع، الخصائص المضامين...)

البعد الصوفي في تفسير القرآن الكريم عند الشيخين "محمد بن يوسف السنوسي"(ت: 1489م) و"الأمير عبد القادر الجزائري"(ت: 1882م).

د. زهرة بن يمينة، قسم الدراسات الأدبية والنقدية، جامعة
عبد الحميد بن باديس، مستغانم ، الجزائر

الملخص:

يمثّل النّصّ القرآني عند علماء التّفسير مصدرا معرفيّا انبثقت منه العلوم العقليّة والنّقليّة، ويرجع سبب التّأويل فيه إلى طبيعته المنفتحة على آفاق في القراءة متعدّدة بتعدّد مسالك المعرفة، فهي تجربة تزداد عمقا كلّما امتلكنا أدوات قرائيّة جديدة ومغايرة تنتقل من الظّاهر إلى البطن، وتخلق مزيدا من الاحتمالات الّتي لا تتوقّف عند معنى واحد، وعند فحص تفاسير القرآن في التّراث الجزائري ذات المضمون الصّوفي، نجد منها ماطبع بالطّابع الإشاري، والشّهودي، ومنها ما غلب عليه المواعظ الرّقائق..ولا ضير أن يتقاسم هذا المنجز الروحي الواعد صوفية تتوّعت تجاربهم الروحية، وتنوّع على إثرها تفسيرهم للنّصّ الكريم مثل: الشيخ "محمد بن يوسف السنوسي"(ت:899ه) و"الأمير عبد القادر الجزائري" (ت:1882م).

تروم ورقة البحث هذه البحث في مصنفات تفاسيرهما مأخوذةً بالإشكالات الآتية: ما الذي ميّز أعمال المفسّرين الصوفيين من حيث الفهم والتفسير لكتاب الله؟ وإلى أيّ مدى أسهم التفسير الصوفي في إبراز المكنون من المعاني القرآنية؟ وهل يمكن الحديث عن تفسير صوفي يوافق مقتضيات العقل وأحكام الشريعة؟ وماهي الإضافة التي قدمها التفسير الصوفي بخصوصيته

الجزائرية في مجاله؟ وبالمجمل فإنّ هذه الدراسة تتجاوز العرض البيليوغرافي السردي لمدونات التفسير الصوفي، إلى ضرورة الوقوف على المنهج، والآليات، والخصوصية في التعامل مع القرآن الكريم عرضا وتحليلا.

أولا: التربية الروحية في تفسير الشيخ السنوسي التلمساني للقرآن الكريم:

إنّ فهم الشّيخ "محمد بن يوسف السنوسي" للقرآن الكريم وتوظيفه له في إطار التّربية الرّوحية، يعدّ تجربة فارقة في مجالها اتّخذت طابعا خاصّا، لأنّها ارتبطت بمجال العقيدة الذي أسهم الشّيخ "السّنوسي" في إثرائه، ولاضير أن يكون فهم القرآن الكريم متمّما لبناء هذا المشروع العقائدي السّليم، وفي هذا المجال فسّر الشّيخ "السّنوسي" بعض آيات القرآن الكريم وربطها بمقام التربية الروحية، مثل ربط مقامي الشّريعة والحقيقة بآيات سورة الفاتحة التي ألهمت الصّوفية أسرار نورانية وعرفانية بها استلهموا طريق المشاهدة والمكاشفة "مقام الشّريعة والحقيقة أشارت إليه آية الفاتحة وهي قوله على سبيل التعلّم للمكلّفين ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيّاكَ نَسْتَعِينُ اِهْدِنَا﴾[الفاتحة، الآية 5] إلى آخر السورة، فقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تمسّك بالشّريعة ظاهرا، قوله: ﴿وَإِيّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إلى آخر السّورة تمسّكا بالحقيقة باطنا"[1]، فكلّ آية من سورة الفاتحة تحقق درجة من درجات ارتقاء الروح وعروجها إلى خالقها، لتدرك وقت ذاك كنه وجودها.

لقد اعتبر الفاتحة أمّ العلوم الدّالّة على التّوحيد ومعرفة مقام الربوبية وذلك بالاعتقاد السليم الخالص من الشّوائب "فلمّا بُعث نبينا مولانا محمد ﷺ عرّفهم أنّ الحمد لا يستحقّه إلا الله تعالى إذ لا كمال قديما ولا حادثا إلا له، وأنّه هو ربّ العالمين وحده.. وأنّه هو ربّ العالمين وحده وبلّغهم قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا اَلنَّاسُ اُذْكُرُواْ نِعْمَتَ اَللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ اُللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ اَلسَّمَاءِ وَالَارْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُوفَكُونَ﴾[فاطر، الآية 3] ونحو ذلك مما هو كثير في القرآن، وقد اختصر ذلك في

[1]- محمد بن يوسف السّنوسي: المنهج السّديد في شرح كفاية المريد، تح:مصطفى مرزوقي، دار الهدى، ميلة، الجزائر، (د.ط.ت.ش)، ص:467.

الفاتحة ولهذا كانت أمّ الكتاب"[2]، وإذا اختصّت سورة الفاتحة بهذا القدر من التّأمّل والمعرفة الباطنية، فإنّ باقي القرآن الكريم لا يقلّ دلالة عن هذه القيم الروحية في عرف الصّوفية، إذ اعتبرت بعض معانيه تربية من أجل إدراك كنه العبودية التي لا يُنال شرف العروج في المقامات إلا بها، وقصّة موسى عليه السّلام مع الخضر خير دليل على ضرورة التحلّي بالأدب خاصّة في موضع طلب العلم " فالتمس منه بطريق الأدب بالعبارة أن يكون تابعا له متعلّما منه..فهذا التّواضع وقع من هذا السّير في علم لم يضطرّ إليه في ظاهره ولا في باطنه، وله الفضل العظيم والرّتبة الفائقة"[3]، وحاصل القول في رؤية الشّيخ السّنوسي وفهمه للقرآن الكريم أنّه لم يكن تفسيرا متخصّصا لكنّه استطاع توظيف القرآن الكريم يمنحى عرفاني هدف إلى بلوغ مقام التّزكية الذي تصحّ به العقيدة.

ثانيا: صوفية التأويل القرآني بين الموقف والإشارة:

1- الوقفة ومشروع بناء المعنى الصوفي في القرآن الكريم:

يحيل عنوان (المواقف) من جهة أخرى إلى طريقة مغايرة في تلقّي الخطاب الصّوفي لأنّه يتطلّب نوعا من المتلقّين له" يتبيّن أنّ العنوان موجّه نحو قارئ معيّن، بل يقودنا إلى قارئ محدّد هو ما كان يقصده المتصوّفة حين رفعوا شعار" من لم يفهم إشاراتنا لا تسعفه عباراتنا "وهم بذلك يعرفون جيدا طبيعة القارئ الذي يوجّه إليه الكتاب، بل والمتلقّي الّذي يتمنّون أن يقرأ لهم، بل إنّهم وبهذه العناوين ذات الوظيفة الإيحائيّة(الرّمزية) يزيحون نمطا من القرّاء هم أصحاب العبارة"[4] فتتمثّل هنا مغامرة العنوان ومكابدته عبر مسالك المعنى للظّفر بمتلقٍّ نوعيّ يستوعب سرّ الإشارة، وعلى منهج التّأويل أن يضمن التقاء العتبة مع النّص-الرّسالة- وتجانسهما حتّى لا يُهدَر للسّياق مقصديته.

---

[2]-محمّد بن يوسف السّنوسي: شرح صغرى الصغرى في علم التوحيد،علق عليه: سعيد فوده، دار الرازي، عمان، الأردن، ط1، 2006، ص:37.

[3] - المصدر نفسه، ص: 41.

[4] أمينة بلعلى: تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة، منشورات الإختلاف، الجزائر، ط1، 2002م، ص: 257.

لقد سار "الأمير عبد القادر" على نهج الصّوفية الأوائل[4] لأنّه استوعب تجربة الوقفة الّتي تُعتبر في هذا المقام جزءا من الرمزية الصّوفية لأنّها تمارس الاختزال والتّكثيف المعبّر عن وحدة الفكر الصّوفي، لكنّها تبقى تجربته مميّزة نظرا لاحتكامها للذّوق وللإشارة التي تلقّاها على شكل وحي"أمّا عند الأمير فيبدو أنّ كلمة موقف تشير إلى ترقّي وعي الولي العارف من الشّعور بالزّمان المقيّد الحادث إلى حضرة الآن الدّائم فوق الأزمنة، فكأنّ دفق تيّار الزّمان بين الماضي والحاضر والمستقبل يتوقف في مركز ديمومة الدّهر الواحد الذي لا يتجزّأ، مثلما كان يقع لـرسول اللهﷺ عند تلقّيه الوحي، أو خلال معراجه حيث انطوى الأزل والأبد بقاب قوسين أو أدنى"[5]، ولقد تخلّلت هذه الوقفات أبواب في الفلسفة وعلوم اللّغة تدلّ هي بدورها على العبور من اللّاوعي الذي تشكّل فيه المعنى، إلى الوعي به وربطه بضرورة الواقع.

إنّ الوقفة تعني لحظة تجلّي وانكشاف لبؤر الصّمت بين الصّوفي والله وتجاوز حدود العقل، واستجابة للوعي الصّوفيّ الّذي "تجاوز الحرف، سواء تأوّلناه بمعنى الموجود أو بمعنى اللّغة، لأنّها إلى الفراغ تتّجه. ولعلّ هذا ما شكل الخطاب وفق ما يسمح به موقع تأويلي آخر، شاهدا عليه بالتّشظّي والتّقطّع"[6]، فالوقفة في تجربة "النّفري" أو "المواقف" في تجربة "الأمير عبد القادر" هي رؤيا مضمونها السّفر الروحي لإيجاد معنى للنّصّ القرآني وفق أساليب جديدة تعتبر ولادة تتكشّف في غياب أي معنى مزاحم لها "يكون الشكل التعبيري الذي اختاره الصوفية كالنّفري لتأسيس هذا

---

[4]- من الكتب التي اشتملت على عنوان (المواقف) لفظا ومضمونا إضافة إلى كتاب(المواقف والمخاطبات)لـ"النفري"، نجد "الشيخ عبد القادر بن محمد المعروف بابن البان(ت:1040ه بحلب) وهو أيضا أكبري المشرب، وله كتاب(المواقف الإلهية) المؤلّف من ثمان وعشرين موقفا، أولها(موقف نفس الرحمن) وفيه وصف لمشاهده الروحية ومخاطبات الحق تعالى له، والثالث هو عبد الله البوسناوي(ت:1054ه) له كتاب (مواقف الفقراء)"/ الأمير عبد القادر الحسني الجزائري: المواقف في بعض إشارات القرآن إلى الأسرار والمعارف، تح: عبد الباقي مفتاح، ج1، من مقدمة المحقق، ص:30.

[5]- المصدر نفسه، ص:30.

[6]- خالد بالقاسم: الصّوفيّة والفراغ-الكتابة عند النّفري- المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء، المغرب/ بيروت ، لبنان، ط1، 2012، ص: 98.

الأفق نوعا أدبيا جديدا تحوّل فيه نص المناجاة العرفاني التقليدي الذي كان مجرد متتاليات دعائية، تعبير عن معان دينية وأخلاقية وذا اتجاه واحد: من أنا إلى أنت(الله) وسماها القدماء: حديث النفس إلى حديث حواري الشكل في شكل محادثة فيها تبادل تخاطبي وإن كان المتكلم هو نفسه المخاطب"[8] وإزاء هذا الحوار فإنّ مواقف "الأمير عبد القادر" قد أغنت المعرفة الصّوفية من خلال جمعها لمتفرّقات تخصّ عالم التّصوّف، فهي حقل اجتمع فيه التّصوّف النّظري مع العملي، كما تداخل في كتاب(المواقف) مفهوم الوقفة مع مفهوم الرّؤيا، فهذه الأخيرة ترد بمعنى الحلم، الذي يقف وسطا بين عالم الحقيقة والخيال وبالتالي تمثّل حالة انفصال عن الواقع وتمثّله في الوقت نفسه.

2 ـ مصطلح الوقفة وعلاقته بالتأويل الإشاري:

1.2ـ التفسير الإشاري، تعريفه وخصائصه:

للموقف أثر في تلقّي القرآن ومن ثمّة في طريقة تأويله، وتلقّيه بهذه الطّريقة هو مسوّغ للتفسير الإشاري الّذي يختلف عن باقي التّفاسير من حيث المنهج وكيفيّة تأويل المعنى" فالتّفسير الفيضي الإشاري هو تأويل آيات القرآن الكريم على خلاف ما يظهر منها بمقتضى إشارت خفيّة تظهر لأرباب السّلوك، وهو لا يرتكز على مقدّمات علميّة، بل يرتكز على رياضة روحيّة يأخذها الصّوفي نفسه حتّى يصل إلى درجة تنكشّف له فيها هذه الإشارات القدسيّة، وتنهلّ على قلبه من سحب الغيب ما تحمله الآيات من المعارف السّبحانيّة"[9]، والإشارة عند الصوفي يأخذها من مصدرين هامّين " الأوّل: الإشارات الخفيّة الّتي يدركها أهل التّقوى والصّلاح والعلم عند تلاوة القرآن الكريم لتكون مواجيد لها معان، الثّاني: الإشارات الجليّة الّتي تتضمّنها الآيات الكونيّة في القرآن الكريم والّتي تشير إشارات واضحة إلى كثير من العلوم الحديثة الاكتشاف"[10]، إنّه التّفسير الّذي لا

[8]– أحمد زايد: أدبية النّص الصّوفيّ بين الإبلاغ النّفعي والإبداع الفنّي، عالم الكتب الحديث، أربد، الأردن، ط1، 2011 ، ص: 210.

[9]– محمد حسين الذّهبي: التّفسير والمفسّرون، القاهرة، مكتبة وهبة (د.ط.ت.ش) ج2، ص:261.

[10]– خالد عبد الرّحمن العك: أصول التّفسير وقواعده، دار النفائس، بيروت، لبنان، ط2، 1406ه، 1986م، ص: 206.

يتقيّد بأسباب التّنزيل" فالعبرة بما تحمله الآية من عموم يحمل مدلولات كثيرة تتجاوز السّبب وهو ما يكسبها استمراريّة الإعجاز ودوام تجدّد فهم الخطاب الرّبّاني"[11] وإن بدت للمفسّر الإشاري هذه اللّمحات الإشاريّة، فهذا لا يلغي استعانته بقوانين العرب في القول، و قواعد اللّغة وأسرارها وجمال بيانها.

2.2ـ علاقة الموقف بالتفسير الإشاري:

عند الحديث عن علاقة الموقف بالتّفسير الإشاري فإنّا نعمد إلى تقصّي طبيعة هذه العلاقة، فهي عند كثير من صوفية الجزائر -أصحاب التّفسير الإشاري- أمثال الشّيخ "العلاوي"، سبيلا لامناص منه بعد إيراد التّفسير الأوّلي للآية، وفي هذا يقول:" ثمّ اعلم أنّه ظهر لي في ترتيبه أن نذكر شيئا من التّفسير وهو المقصود العام من كتاب الله، ثمّ نذكر ما يستنبط من أحكامه، وهو أخصّ ممّا قبله، ثمّ نأتي بشيئ ممّا تتوسّع فيه الإشارة على مصطلح أهل الله، ثمّ نذكر كلاما أخصّ منه معبّرا عنه بلسان الرّوح، وهي أنهار أربعة تراهم قد علم كلّ أناس مشربهم"[12] كما يُبنى الفهم بفهم العلل والمناسبة بين الآيات وارتباط دلالتها، فمسوّغ التّأويل هو الإقرار بوجود الظّاهر والباطن في القرآن الكريم، لأنّ علومه ليست متوفّرة للعامّة/ وإنّما هي لأهل الإختصاص وهم أهل المشاهدة القلبيّة.

يتجلّى لنا منهج التّفسير الإشاري في كتاب (المواقف) وابتعاده عن اللّامعقول الّذي يغرقه في الباطنية، ذلك في قول" الأمير عبد القادر" حين يعلّل علاقة الوقفة بالإشارة في قوله":" قيل لي زد تسمية كتابك بالمواقف في بعض إشارات القرآن إلى الأسرار والمعارف، إذ القرآن من القرء، وهو يجمع، ولّما كان جامعا تجاذبته الحقائق الإلهيّة والكونيّة، وترجمة أحكامها وأحكام تفاصيلها، وترجمة المظهر المحمّدي، وترجمة أحواله وأخلاقه... فالقرآن من العلم الإلهي بمنزلة الإنسان من العالم،

[11]- حسن عزوزي: الشيخ أحمد بن عجيبة ومنهجه في التفسير، وزارة الأوقاف والشّؤون الإسلاميّة، المملكة المغربيّة، (د.ط)1422ه، 2001م،ج2، ص: 285.

[12]- أحمد بن مصطفى العلاوي: البحر المسجور في تفسير القرآن بمحض النّور، المطبعة العلاوية، مستغانم، ط1، (د.ت.ش)، ص: 30.

فالإشارة بتلك الأعيان الخارجيّة المحسوسة والخياليّة آيات وعلامات على ما في الكتاب العلم الإلهي"[13]، فالإشارة إذن هي معنى غير لغوي توصّل إليه الصّوفي بفضل واسع رؤيته ومشاهدته الّتي لاتتاح لغيره، إذ تقف على نقيض العبارة مُمثّلة للباطن، لذلك عُدّت سبيل الخاصّة" وأمّا كلام السّادة الصّوفيّة فهو من باب الإشارات إلى دقائق تنكشف عن أرباب السّلوك، ويمكن التّطبيق بينها وبين الظّواهر المرادة، وذلك من كمال الإيمان ومحض العرفان، لا لأنّهم اعتقدوا أنّ الظّاهر غير مراد أصلا، وإنّما المراد الباطن، إذ ذاك اعتقاد الباطنية الملاحدة توصلوا به إلى نفي الشّريعة بالكليّة، وحاشا ساداتنا من ذلك"[14]، فالرّؤيا بعين الباطن هي أداة للمعرفة عند الصّوفيّة الّذين يتّخذون طرائق قددا للصول إليها.

3ـ منهج التفسير الإشاري:

3 .1ـ اتساع الإشارة:

اتّخذ التّفسير الإشاري في كتاب" المواقف" طرقا عدّة، كان أوّلها تلقّي العارف للإشارة وهو في حال يشبه الغياب عن العالم المحسوس أو الفناء في ذات الله، ويذكر "الأمير عبد القادر" في إحدى مواقفه مع الله عز وجل في تلقيه لآية وهي قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اِللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَة لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ اُللَّهَ وَالْيَوْمَ اَلَاخِرَ وَذَكَرَ اَللَّهَ كَثِيرا﴾ [سورة الأحزاب، الآية 21] إذ يقول:" هذه الآية تلقيتها تلقيّا غيبيا روحانيّا، فإن الله تعالى قد عوّدني أنّه مهما أراد ان يأمرني أو ينهاني أو يبشرني أو يحذّرني أو يعلّمني علما أو يفتيني في أمر استفيته فيه، إلاّ ويأخذني منّي مع بقاء الرّسم، ثمّ يشير إليّ ما أراد بإشارة آية كريمة من القرآن، ثمّ يردّني إليّ فأرجع بالآية قرير العين، ملآن اليدين ثم يلهمني ما أراد بالآية وأتلقى الآية من غير حرف ولاصوت ولا جهة، وقد تلقيت والمنّة لله تعالى نحو

[13]- الأمير عبد القادر الجزائري: المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد، دار اليقظة العربية، دمشق، سورية، ط2، 1966، ج 3، ص:1276،1277.

[14]- أبو الفضل شهاب الدين الآلوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، دار إحياء التّراث العربي، بيروت، لبنان،(د.ط.ت.ش)، ج1 ص:9.

النصف من القرآن بهذا الطّريق"[15]، فالجذبة تمثّل وحيا وكشفا يجدّد الصّلة بين العارف وربّه، هؤلاء الّذين تغيّرت معهم كلّ أنماط المعرفة " الإشارة هي الحريّة، من الوجه الخاص، في التّوصّل بالقرآن، وتأويل آياته، وأحداثه، وشيئيّته النّصيّة عندما تنتهي العبارة بسجن هذه الحركة في التّأويل والفهم في قوالب تفسيرية وحكميّة جاهزة"[16]، ومن هنا يظهر لنا أنّ الصّوفي في اتباعه منهج الإشارة، لا يكتفي بالتّمثّل للسرّ الّذي يلقى عليه في لحظة غياب عن عالم الحسّ، بل يقف أيضا على أسرار اللّغة وما تجود به من غنى دلالي، بل ، وهنا يصبح المعنى أكبر من أن يُلخّص في عبارة.

نجد في كتاب المواقف مواقفا عدّة تتضمّن تلقّي إشارات لايمكن البوح بها، وكأنّها شبيهة بالسرّ الّذي يخصّ الصّوفيّة به تجربتهم، كما في قوله" أخذني الحق مني، وقرّبني منّي، زالت السّماء بزوال الأرض، وامتزج الكلّ بالبعض، وصار النّفل إلى الفرض، وانتهى السير، فانتفى الغير، وصحّ النّسب بإسقاط الإضافات والاعتبارات...ثمّ قيل لي مثل قول الحلاّج، غير أنّ الحلاج قالها وأنا قيلت لي ولا أقولها، وهذا الكلام يعرفه أهله ويجهله وينكره من عاب جهله"[17]، إنّ هذا الصّمت ليس افتقارا إلى اللغة، وإنّما راجع إلى طبيعة المعرفة الصّوفية التي تقتصر على العارفين بوضعها لقوانين خاصّة بها يعاد تمثّل المعنى القرآني " وقد يصاب الصّوفي أحيانا بالعجز عن التعبير، لأنّ حالته تستعصي على الوصف فاللغة البشرية قد تضيق بالحمولات الإشراقية التي تعترض أحوال الصّوفي"[18]، فهذا الإجراء هو المشروع الذي يسعى الصّوفي من خلاله قراءة القرآن مضمّنا إيّاه وارداته الرّوحية، وفيض إشاراته.

[15]- الأمير عبد القادر الجزائري: المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد ، ج1، ص :21.

[16]- محمد شوقي الزين: الصورة واللغز-التأويل الصوفي للقرآن عند محيي الدين بن عربي- مؤمنون بلاحدود للدراسات والأبحاث، أكدال، الرباط، المملكة المغربية، ط1، 2016، ص: 305.

- الأمير عبد القادر الجزائري: المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد،ج1 ،ص: 38.[17]

[18]- أحمد الطريبق: الكتابة الصوفية في أدب التستاوي(1045-1127م)(الحياة-الكتاب- الخطاب)، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية،(د.ط) 2003، ج1، ص:319.

يعرض المصنِّفُ في الموقف الرّابع طريقة أخرى لتلقّيه الإشارة في قوله تعالى ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُّومِنُونَ﴾ [سورة سبأ، الآية:41] ما نصّه: "كنت ليلة بالمسجد الحرام قرب المطاف، متوجّها للذّكر وقد نامت العيون، وهدأت الأصوات، فجلس بالقرب منّي يمينا وشمالا، أناس وجعلوا يذكرون الله-تعالى- فخطر في قلبي أيُّنا أهدى سبيلا إلى الحقّ تعالى؟ فبعد الخاطر بقريب؛ أخذني الحقّ-تعالى- عن العالم وعن نفسي، ثمّ ألقى إليّ قوله﴿ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الجِنَّ﴾ فعلمت أنّ عبادتهم فكانت مشوبة بأغراض نفسيّة، وحظوظ شهوانيّة"[19]، إنّ الإشارة هنا تراهن على عارف يملك استعدادا لتّلقّي المعنى وربطه بالواقع في سياق مناسب، فهي رؤيا تعوّل على القلب والعقل معا "فالقلب المتقلّب مع الحقائق الّتي يدركها قد تلتبس عليه الصّور، ويحتاج بالتّالي إلى تأويل لاعتبارها وإدراك حقيقتها، فيكون القلب في وضعيّة العاقل الّذي يعقل الصّور"[20] إنّ هيمنة الوجدان على التّفسير الإشاري يجعله ينفلت من أيّ رابط عقليّ الأمر الّذي يتعارض وطبيعة التّأويل الّذي يقوم على العقل، غير أنّ لا يعني غياب اليقين الذي يؤسسه العقل، وعليه فإنّ التفسير الإشاري تجربة روحية مرنة ومتشعبة في الوقت نفسه.

إنّ فهم بعض الآيات وإيجاد معادل لغويّ لها في التأويل الإشاري يمثّل حالة عصيّة عن التعبير، وتشكو اللّغة أمامها غياب العبارة وحضور الإشارة مثل قول المفسّر في قوله تعالى:﴿وَإِذَا اَلسَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾[سورة التكوير، الآية:11] "لا أطيق التّعبير عن معناها"[21] بينما يشكل البعض الآخر موطن السرّ الذي لا يبوح عن نفسه، كقوله في الآية﴿وَإِذَا اَلْجَنَّةُ زْلِفَتْ﴾[سورة التكوير، الآية:13] "لا أستطيع النّطق بمعناها"[22]، فنقف إثر هذا على نماذج من الفهم والتأويل في مؤّلف واحد، وتّجاه نصّ واحد، أي انفتاح الدّلالة واتّساع المعنى"فلغة الإشارة تبقى«حُبلى» بالمعاني

[19]- الأمير عبد القادر: المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد، ج1، ص: 34، 35.

[20]- محمد شوقي الزين: ابن عربي ومشكلة التّأويل، مجلّة دراسات فلسفيّة، قسنطينة، الجزائر، العدد2، جوان 2014، ص:20.

[21]- الأمير عبد القادر: المواقف(المصدر السابق) ج2، ص: 894.

[22]-المصدر نفسه، ص: 895.

والإيحاءات لأنّها تستجيب لأكثر من «تجربة صوفيّة» وتحتلّ بالتّالي أكثر من إشارة"[23]، وهذه التجربة رغم وجدانيّتها لم تقع في شطط المعنى الّذي وقع فيه غلاة المؤوّلين والصّوفيّة، لأنّ الصّوفي المعتدل الّذي يرى بعين قلبه لا يمكن إلاّ أن يحدث معه التقاء الرّورح بالرّوح" إذ في الوقت الذي نستطيع فيه تحديد معنى كلّ مفردة، نفقد السّيطرة على المعنى السّياقي، فالمعنى يكمن في الغياب المؤجّل فيها لأنّها عبارات احتماليّة"[24]، وهذا بسبب عمق الكلام الإلهي الّذي يشكّل معينا لا تنفذ موارده.

من المواقف الّتي تبيّن التّأويل الّذي لايخضع لتلازم اللّفظ مع المعنى ما نجده في تأويل الآيات من سورة الرّحمن، إذ أُولت معانيها تأويلا مفارقا مثل الموقف (224) في قوله تعالى﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ [الآية48، سورة الرحمن] إذ يربط الأفنان بالتّجليات واختلافها حسب اختلاف استعداد العارفين، ويوؤّل قوله تعالى من السورة نفسها ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ [سورة الرحمن، الآية49] بأنّ العينان هما العلوم الموهوبة للإنسان بقوله:" إشارة إلى جريان العلوم اللدنيّة والإلهاميّة، وتتابعها على الدّوام، لمن دخل هاتين الجنتين، فالعلم اللّدني هو الوارد من الوجه الخاص الذي هو لكلّ إنسان، والعلم الإلهامي هو الوارد بواسطة العلم غير المحسوس، فبين العلمين فرقا الواسطة وعدمها"[25]، إنّ هذا النّوع من التّأويل تجاوز العلامات الواقعيّة ويتحرّر منها " إنّه ضرب من البحث في البعد الثّالث لأنّه يقوم على استنطاق العلامات ويتجاوز الأحداث والمعنيّات والدّلالات لإدراك القيم المجرّدة، واستشعار البعد الكياني للإنسان"[26].

[23]- حسن عزوزي: الشيخ أحمد بن عجيبة ومنهجه في التفسير، وزارة الأوقاف والشّؤون الإسلامية، المملكة المغربيّة، (د.ط)،1422ه، 2001م، ج2 ص:285.

[24]- عامر جميل شامي الراشدي: النص الصوفي، دراسة تفكيكية في نصوص أبي يزيد البسطامي نموذجا، دار الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2014، ص: 139.

[25] - الأمير عبد القادر، المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد ، ص:497.

[26]-محمّد بن عيّاد: في المناهج التّأويلية، مطبعة التّسفير الفني بصفاقس، ط1، 2012م، ص:7.

وإنّ مثل هذا التّأويل يلجأ إليه الصّوفي من منطلق مايكوّنه في مخيّلته من صور تتناسب وهذه المعاني، فيربط بينها من باب التشّابه واستحضار البنى الذّهنيّة المناسبة "فالمعاني الظّاهرة تطلب الباطنة أوتطلب ظاهرة مثلها، أو تطلب معان خارجيّة تتّضح على ضوؤها أو تتوسّع من خلالها، فالمعاني تكمّل أخرى، أو غير ذلك من التّطلّبات الحاصلة عند الفهم والتّأويل، أو عند التّفهيم"[27].

لقد اتّخذت الرّؤية الصّوفيّة فهم الإنسان مهمّة لها، ومنحته تلك النّظرة المقدّسة التي حفّه بها الله تعالى، لذلك فإنّ الصّوفية يربطون بين هذا المنطلق وبين البنية الإشارية في تأويلاتهم الّتي تجعل الثّالوث(الله، العالم، الإنسان) في رباط وثيق، ونجد إشارة الآية الكريمة﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اَللَّهَ رَمىٰ﴾ [سورة الأنفال، الآية:17] تشير إلى المعنى العميق الّذي فهم به الصّوفية الإنسان"مفهوم الآية عن طريق الإشارة:ما أنت محمّد إذ تدعى محمّد! ولكنّ أنت الله. أو تقول مارميت من حيث ظاهرك إذ رميت من حيث باطنك، ولكنّ الله رمى.يعني باطنك حق وباطنك خلق[28]، كذلك هنا، ما هو العبد إذ يدعى بالعبد، ولكنّه الحقّ-تعالى- فالصّورة والمعنى من العبد له تعالى، إذ الإشارة بلغت عين الكل، فما كان العبد عبدا إلا به تعالى"[29] إنّ التّوحيد بين الله والإنسان غلوّ لايقبله الدّين؛ إلاّ أنّ باطنه معنى تشرّعه التّجربة الصّوفيّة، فهدفه هو وحدة الوجود الجامعة بين الخالق والمخلوق، وإعادة بناء العلاقة مع الذّات المكوّنة للوجود " التّأويل الصّوفي هو النّظر في منتهى ما يصل إليه الوجود من رقائق متشابكة، وحقائق منعطفة على الذّات. التّأويل الصّوفي هو تأويل وجودي لأنّ أقصى مايصل إليه الوجود هو الوجدان، والوجدان، قبل كلّ شيئ، وبعد كلّ

---

[27]-محمد بازي: نظريّة التّأويل التقابلي-مقدمات لمعرفة بديلة بالنّص والخطاب- منشورات الاختلاف، الجزائر / ناشرون، لبنان ،بيروت، ، ط1431،1هـ-2010م ص: 177.

[28] - الأمير عبد القادر: المواقف في الوعظ والإرشاد، ج2، ص:1218

[29] - الأمير عبد القادر: المواقف في الوعظ والإرشاد، ج2، ص:1218.

اعتبار، في الذّات الواجدة؛ تدرك الوجود متضايفا لايفارقها، ظاهرة مُستبطنة فيها، وصورة باطنة في المستظهر منها"[30]، وليس غريبا أن تعدّهذه الرؤيا جامعة لتناقضات مؤتلفة.

3.2ـ الترجيح التأويلي وتعدد المعنى:

يعتمد الترجيح على الانتقال من معنى إلى آخر مع توخي الفهم السليم للمعاني القرآنية وللبنيات اللغوية التي تكون بمثابة مقدمة لما سبقها، فالعدول عن هذه القاعدة في العمل بالترجيح الدلالي واللغوي؛ من شأنه أن يخلق حالة تبعثر المعنى المؤوّل في بحثه عما يوافق فيه ظاهره باطنه، لذلك عُدّ هذا العمل ذو أهميّة في التأويل لأنه يعوّل على الدليل الذي يقيمه المؤوّل على معناه الذي تحصل عليه "إنّ البنيات المحتاجة إلى الترجيح، هي مجال الاختلاف والتأويل بامتياز، لانّها محوجة إلى جهد ذهني، وإلى بحث عميق ودقيق عن أقوى المرجحات والأدلة، ويتم ذلك بالعودة إلى الذخيرة، ولأن المؤوِّلين متفاوتون في هذه القدرات الذّهنية من جهة، وفي معارفهم القلبية وذخائرهم من جهة أخرى، كان محصل ذلك تباين واختلاف في الفهم"[31]، فتتعدّد الأوجه التّأويليّة للآية الواحدة نتيجة اختلاف الآلية الّتي يتمّ من خلالها القراءة.

من أمثلة التّرجيح التّأويلي في كتاب المواقف، ما نجده في الموقف 37 في قوله تعالى﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْر لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[سورة الزخرف، الآية:44] وما ذكر فيه من أوجه متعدّدة لمعنى لهذه الآية "وإنّه أي القرآن؛ لذكر لك تذكر ربّك بتلاوته، وتتعبّد بترديده، ولقومك أمّتك، مجازا، ولاشكّ أنّ تلاوة القرآن ذكر لله بل هو أجلّ الأذكار عند العارفين بالله فقط..الثّانية:وإنّه لذكر لك ولقومك، بمعنى مذكّر يذكِّرك أنت وقومك(أمّتك مجازا)..الثّالث: وإنّه لذكر لك ولقومك، بمعنى تذكَّر أنت بالقرآن ويذكِّر به قومك أي العرب، على ظاهر اللّفظ..الرّابع: وإنّه لذكر لك بمعنى مذكّر،

---

[30]- محمد شوقي الزّين: الصّورة واللّغز-التأويل الصوفي للقرآن عند محيي الدين بن عربي، مؤمنون بلاحدود للدراسات والأبحاث، أكدال، الرباط، المملكة المغربية، ط1، 2016 ص:433،434.

[31]- محمد بازي: التأويلية العربية نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات-الجزائر منشورات الاختلاف/ لبنان ،بيروت، ناشرون، ط1431،1هـ-2010م ، ص:30.

ولقومك(أمّتك مجازا) أي وعظ وواعظ..الخامس: وإنّه لذكر لك ولقومك العرب خاصّة، بمعنى شرف لك ولقومك، أمّا شرفه ﷺ بالقرآن فلكونه معجزته لإعجاز الخلق عن أن يأتوا بأقصر سورة من مثله، ولما فيه من الأخبار بالمغيّبات والأنباء عن الأمم البائدة، والقرون الخالية"[32] إنّ الاحتمالات التّرجيحيّة يكون هدفها غالبا يتوسّم التّوسيع في تحصيل المعنى وإهمال النّظر والتّدبّر فيما خفي منه، وهذا من خواص النّص المفتوح" فالنّصّ المفتوح هو الذي يحفّز قراءات لانهائية، دون إقرار أيّ قراءة ممكنة"[33]؛ بل إنّ التّعدد القرائي آلية من آليات الفهم التي ترمي الوصول إلى لبّ النّص.

4- المنهج اللغوي في التفسير الإشاري:

تختلف بنية النّص الصوفي نثريّا كان أم شعريّا عن غيره بسبب الرّمزية التي تغلفه والتي تشتغل على ثنائية الظّاهر والباطن والحضور والغياب، ومدار الحديث هنا على طبيعة اللّفظ الذي يؤدّي فيه الجانب الاصطلاحي، والعرفي، والاشتقاقي، والنحوي، والبلاغي وظيفة إبلاغيّة مهمة لتأسيس تأويل المعنى الإجمالي، واللغة إن ولجت الحقل الصوفي فإنّها ستصطبغ بمعجمه ومادته العرفانية والفلسفية وتخلق حالة من التفرد في هذه التّجربة المُعاشة، وخرقا للتداول المألوف" إنّ التّجربة الصّوفية هي بالأساس عديمة الشّكل، لامحدّدة وغير متماسكة، حتّى النّص المقدّس تحت أنظار الصّوفي يفقد شكله ويتّخذ شكلا مختلفا"[34]، إنّها لغة مغلّفة بالإشارة والرّمز يمثّل المعنى فيها أفقا يبعد كلما اقترب القارئ منه، ويتعدّد عندما يوشك على وحدة معناه " إنّها تمدّ جسورا بين المُشار والمشار إليه وبين معان غريبة وغامضة يجب عليه اكتشافها، واستبطان سرّيّتها، كلّ هذه العوامل أثارت فعلا العارف الصّوفي، ولذلك نراه يلجأ على الدّوام إلى لغة الإشارة والرمز واللغز حتّى في

[32] – الأمير عبد القادر: المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد، ج1، ص:84، 85.

[33] -Umerto Eco: les limites de l'interprétation, Grasset, et Fasquelle pour la traduction française, 1992, p125.

[34] – أمبرتو إيكو: السيميائية وفلسفة اللغة، ، تر: أحمد الصمعي، بيروت، لبنان،ط 1، 2005، ص: 351.

استعماله للغة المتواطأ عليها"[35]؛ أي أنّها لغة تحيل إلى إدراك الوجود الإنساني في قمّة وعيه بنفسه رغم ما تقدّمه من انزياح يستدعي اللجوء إلى نصوص غائبة ليربط بها أواصر التصورات المتفرّقة.

1.4ـ معرفة معنى اللفظ وتأويله:

يعتبر المنهج اللّغوي مهمّا في تفسير القرآن لأنّه من أهمّ ما يقوم عليه علما التّفسير والتّأويل، فمن خلاله يتمّ رفع اللّبس عن بعض المعاني المبهمة ، فإدراك دلالة الظّاهر ، كما في قوله تعالى: ﴿واسْتَغْفِرْ لِذنْبِك﴾ [سورة غافر: الآية 55]وقوله:﴿واسْتَغْفِرْهُ كَانَ توّاباً﴾ [سورة النصر: الآية 3]موضوع مشترك بين الآيتين وهو الاستغفار الوارد بصيغة الأمر للمخاطب الدّال على المفرد وهو النبي ﷺ، وهو أمر يحمل بعض الالتباس فيما يتعلّق باستغفار الأنبياء، وقد فسره "الأمير عبد القادر" بقوله: " لا يقال الرسل-عليهم الصلاة والسلام- معصومون من المعاصي، فكيف أمروا بالاستغفار؟ لأنّا نقول: استغفار الأنبياء ليس هو من مفارقة الذنوب والمخالفات كغيرهم، وإنما استغفارهم: بمعنى طلب الغفر، وهو الستر عن المخالفات، والحيلولة بينهم وبينها فلا يلابسونها..وهو استغفار خاصّة الخاصّة، المشار إليه في دعاء الملائكة بقولهم:﴿وَقِهِمُ السّيِّئاتِ﴾ [سورة غافر: الآية 9] والثّاني: استغفار الخاصّة وهو طلب الغفر والسّتر، بمعنى عدم الفضيحة، وإذا انتفت الفضيحة بالذّنب، انتفت المؤاخذة لا محالة"[36] فإقامة الحجّة باللّغة هو عين تحصيل المعنى بعقلانية تحقق اتساقا بين النص ومسوّغاته الإفهامية، لأنّ اللّفظ في وضعه المعجمي هو غير معناه عندما يوضع في السياق، فالتّأويل في الآيات السابقة كان هدفه توضيح معنى الاستغفار الذي لاينطبق على الرسل، بينما ورد مجازا.

نجد في مواقف أخرى إخراج معنى اللّفظ من معناه المتّفق عليه عند عامّة المفسّرين إلى معناه العرفاني الذي تعارف عليه الصّوفية في معجمهم الخاص، كتأويله لقول الله تعالى﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ

[35]-منصف عبد الحق: الكتابة والتجربة الصّوفية، نموذج محي الدين بن عربي-منشورات عكاظ، الرّباط، ط2، 2011 ص: 134.

[36]- الأمير عبد القادر الجزائري: المواقف في التصوّف والوعظ والإرشاد، مج2، ص: 817.

فَحَدِّثْ﴾[سورة الضحى، الآية:11] بقوله "هذه الآية الكريمة ألقيت عليّ بالإلقاء الغيبي مرارا عديدة لا أحصيها(هكذا) ولايخفى ماقاله فيها عامّة أهل التّفسير، وممّا ألقي عليّ فيها: أنّ من المراد بالنّعمة هنا؛ نعمة العلم والمعرفة بالله تعالى، والعلم بما جاءت به الرّسل، عليهم الصّلاة والسّلام، من المعاملات والأمور المغيّبات، ولاشكّ أنّ هذه النّعمة من أعظم النّعم. وإطلاق النّعمة على غيرها مجاز بالنّسبة إليها، والمراد بالتّحدّث إليها؛ إنشاؤها وبثّها لمستحقّيها المستعدّين لقبولها"[37]، إنّ هذا الاحتمال يجعل المعنى في حالة إرجاء دائم لا تفيه اللّغة أو الرّمز تصوّره النّهائي لأنّ عالم الإشارة عالم مليئ بالرّمزية.

2.4.آليات التّأويل النّحوي:

يمثّل التّأويل النّحوي عند الصّوفية سبيلا لدرء تعارض الإشارة مع معنى الآية، وقد اقتفى معظم المفسّرين الصّوفيين ذوي المنهج الإشاري هذا المنهج من أجل استخراج الأحكام من القرآن الكريم "فالتّحليل النّحوي وما يتعلّق به من قواعد نحويّة، وتخريجات نحوية، واختلافات بين النّحاة، لحمة هامّة بانية لنسيج خطاب التّفسير، وأساس من أسس صناعته، تبعا للتّرابط المشار إليه بين النّحو والمعنى، وتحقيقا للقوّة الاحتجاجية الّتي يمثّلها عالم النّحو في الدّفاع عن هذا المعنى أو ذاك"[38] واختصّت التّأويلات النّحويّة بتأويل لحروف وما يطرأ على المعنى من تغيير، مثل الموقف 347 في قوله تعالى﴿ وَيُطْعِمُونَ اَلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينا وَيَتِيما وَأَسِيراً (8) اِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اِللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُوراً﴾ [سورة الانسان، الآية:8،9] "اعلم أنّ «على» في قوله (على حبّه) يصحّ أن تكون بمعنى عن، أي متجاوزين حبّه إلى بذله لوجه الله -تعالى-ويكون الضّمير عائدا على الطّعام، ويصحّ أن تكون بمعنى في على تقدير مضاف أي في وجه حبّه، أي حبّ الطّعام كما قال:﴿أَوْ إِطْعامٌ فِي يوْمٍ ذِي مسْغبة﴾ ويكون الضّمير عائدا على الطّعام، أيضا، ويصحّ أن تكون

[37] - المصدر نفسه، ج1، ص:159.

[38]- محمد بازي: صناعة الخطاب- الأنساق العميقة للتّأويلية العربيّة- دار كنوز المعرفة والنشر، عمان، ط1، 2015، ص:87.

بمعنى اللّام أي لأجل حبّه، أي لأجل حبّه، ويكون الضّمير عائدا على الله-تعالى- في قوله:﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ﴾[39] وتعدّد هذه الاحتمالات يعني تعدّد السياق الذي يكسب النّصّ حياة، وهذا الاجراء في الفهم يردّ على الّذين واجهوا الصّوفية بمغالاتهم في فهم القرآن وتسييره حسب ذوقهم، في حين أنّ الصّوفي مهما أخذت منه تجربته مآخذ مبهمة، إلا أنّ احتكامه لآليات لغوية يجعل المعنى يأخذ طابعه الإقناعي البعيد عن الوهم.

يتوافق المعنى النّحوي في بعض المواقف مع المعنى الوارد في السّياق، فالاستدلال بالجانب اللغوي في التفسير الإشاري هو تجسيد للإشارة في شكل واقعة لغوية لها ما يعضّدها، مثل الموقف**203** الّذي ورد فيه قوله تعالى﴿الْحَمْدُ للهِّ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[سورة الفاتحة، الآية: 2] إذ قال فيها: " بالجملة الاسميّة المفيدة الدوام والاستمرار، و"بأل" العهديّة التي معهودها حَمد الحقّ تعالى حمد نفسه نفسه بأزله، وقال" لله" باللّام المفيدة، أنّ الحمد صادر منه تعالى، راجع إليه، فهو الحامد وهو المحمود، وهو معنى ماورد في الخبر الصحيح(وَإليه يرجع عواقب الثّناء) وما قال "بالله" لأنّ الباء لا تفيد هذا، ولهذا قال بعضهم (اللّاميون أفضل من البائيّين)"[40]، إنّ العرفان الصّوفي يطبّق خصاص الألفاظ على ما تجود به مواجيده، فيخلق عالما لغويّا خاصّا يكون قد تفلّت من أصله ليوافق الإشارات وما توحي به" ومن العبث إن ينظر إلى هذه اللغة الإشارية على أنّها فضفاضة في دلالتها، أو أنّها ميكانيكية لا تخضع لعوامل التّرابط بين التّجربة الرّوحية من جهة وبين الدّلالة اللّغويّة في تجنيحها الإشاري من جهة أخرى"[41] مثل ما نجده في الموقف **239** في تأويل سورة الإخلاص، خاصّة فيما تعلّق بالآية الأولى﴿ قُلْ هُوَ اللهُّ أَحَدٌ﴾ إذ نقول هنا أنّ اللّغة عالم طيّع تابع لما

---

[39] - الأمير عبد القادر: المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد، ج3، ص:1134.

[40] - المصدر نفسه ، ج1،ص:440.

[41] - أحمد الطريبق أحمد: الكتابة الصوفية في أدب التستاوي،(1045-1127م)(الحياة-الكتاب- الخطاب)، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية،(د.ط) 2003، ج1 ص: 925.

تتطلّبه مقتضيات التّعبير، ولعلّ عبر هذا المدخل وجد الصّوفيّة ما يترجمون به عالم الإشارة إلى عبارة غير متحرّرة كليّا، إذ تبقى ملك الخاصّة لما تتميّز به من لغة خاصّة.

استكمالا للتأويل اللّغوي في سورة الفاتحة، نجد أنّ الآية السادسة من هذه السورة قد تفرّدت هي الأخرى بمعنى ساعدت على إظهاره اللّغة، فقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة،الآيات5] عبارة ظاهرة فيها معنى باطن لايؤول إليه إلاّ فهم بنية اللّفظ وكيفيّة وروده على إحدى الأوجه دون أخرى، فهي كما تمّ تفصيل معناها" خبر بمعنى الأمر، فهو تعليم لنا وأمر لنا، أن ندعوه بهذا الدّعاء، فليس المراد الإخبار بذلك فحسب، بل نمرّ بالآية مرور الحاكي لكلام الله- تعالى- من غير قصد الدّعاء، بالحصول على ذلك، بل نقصد الإنشاء والطّلب، كما أنّ جملة الحمد؛ خبريّة لفظا، إنشائيّة معنى، وإلاّ فلا يسمّى القائل "الحمد لله" حامدا..فأمر العبد المؤمن بسؤال ربّه أن يجعله مشاهدا له في كلّ مظهر يحصل منه له تذلّل وخضوع وانقياد، بحيث تكون عبادته بمعنى تذلله وخضوعه وانقياده للظّاهر، تعالى بذلك المظهر الخلقي، أي مظهر كان"[42]، لقد عُدّت اللغة مُتفسّحا لدى الصوفية إذ لم يحصروا المعاني في قوالب جاهزة، بل كانت طيّعة تخدم عالمهم النّوراني الذي ينسجون من خلاله طبقات عميقة لبناء معاني النّصوص.

3.4.آليات التأويل البلاغيّ:

لقد أدّى توظيف البنيات البلاغيّة دورا في إثراء شبكة العلاقات باعتبارها آلية من آليات الفهم، غير أنّ ما يختلف فيه الصّوفي عن غيره من المفسّرين هو اتّخاذ هذه الآليات مثل: المجاز والاستعارة والكناية بالمصطلح وفق تصوّره وتمثّله للمعاني، وخير موقف يصادفنا تمثّل التّأويل بالكناية هو تأويل سورة الضّحى في الموقف(86) إذ يقول في معناها:" هذه الأشياء المقسم بها: هي كناية عن بعض مراتب تجلّيه، وتعيّن تنزّله وتدلّيه، وهي مراتب كليّة، فما أقسم الحقّ-تعالى- في

[42] - االأمير عبد القادر: المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد ،ج1، ص: 398.

الحقيقة إلاّ بذاته"[43] فكلّ صور الوجود إنّما ترجع في مآلها إلى الله تعالى، وماموجوداته إلاّ دليل عليه، لكنّ التّعبير القرآني يرد مرموزا أحيانا اختبارا لمن يتدبّر.

تحضر الكناية في قوله تعالى﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾[سورة الإسراء، الآية:12] في قوله" اللّيل كناية عن النّفس العنصرية الظّلمانية، والنّهار كناية عن الرّوح العلوية النورانية، ءايَتَيْن علامتين على الموجد-تعالى- وكمال اقتداره، وإطلاقه على ظهوراته وتعيّانته، ولو تقيّد بمظهر، وتعيّن لما ظهر وتعيّن بالضدّين، كالليل والنّهار، والنّفس والرّوح..وماعُرف الحقّ إلاّ بظهوره على الضدّين، وتعيّنه بالنّقيضين"[44] فمفهوم الضدّ يتحوّل في الخطاب الصّوفي إلى أمر إيجابي تتضح عبره المكنونات" يعتبر المنحى الصّوفي في بناء معاني النّصّ القرآني، نموذجا تأويليّا في صناعة الخطاب، في عبوره من القشر إلى اللّباب، من الظّاهر إلى الباطن، ومن الصّدف إلى الجوهر، في بحثه عن المعنى وراء أستار الظّاهر، للوقوف على مالم يقله النصّ. ويظهر فيه بجلاء تطويع النّص لبناء اتّجاه معرفي وتشكيل لغته وخطابه عاكسا بذلك وجها من وجوه التّأويلية العربية"[45]، وهذا الاستدعاء للوظائف اللّغويّة في صورتها النّحويّة، والبلاغيّة، وغيرها إنّما هو سعي لتحقيق انسجام الخطاب عبر التّأويل التّقابلي العمودي[46]، ودليل أيضا على اتّساع البنى العميقة له، إذ تتطلّب توظيف إجراءات متعدّدة رغبة في تحقيق انسجام الفهم، ويتحقّق بهذا في فهم بنية الخطاب.

---

[43] - المصدر السابق، ص: 168.

[44] - المصدر نفسه، ص: 413.

[45] -محمد بازي: صناعة الخطاب- الأنساق العميقة ي للتّأويلية العربية- ص:86.

[46]- التأويل التّقابلي فهو أداة بيان المعنى وتفهيمه، عبر إحداث التّقابل بين المعاني بما يوضّحها أكثر، لأنّ التّقابل حاصل في تفكير المنتج للغة، وفي انتظام الكلمات والمعاني، أمّا التقابل العمودي فهو بيان معنى في البنية الظّاهرة مع عنصر في البنية العميقة عبر التلميح، أو الاستعارة، أو الكناية، أو الرمز، او المجاز، أو غيرها من الأساليب التعبيرية/ ينظر: محمد بازي: نظرية التأويل التقابلي، ص: 81.

5ـ القرآن والمعرفة الصوفية:

5 .1ـ المعرفة الصوفيّة وبناؤها على الكتاب والسنّة:

إنّ موضوع المعرفة يشمل محورين هامّين، وهما معرفة ماذ؟ وكيف نعرفه؟ والمتفحّص لكتاب المواقف يلاحظ جليّا بأنّ نظريّة المعرفة الصّوفيّة قد جعلت موضوع المعرفة هو وسيلتها، أي معرفة الله بالله "إنّ المعرفة الصّوفيّة تقلب مبدأ الاستدلال العقلي الّذي يقوم بالاستدلال بالكون على المكوّن، من خلال الاتّصال الصّوفي المباشر بالحقيقة الوجوديّة المطلقة، فالصّوفي هو الذّي اهتدى إلى الكون ثمّ عرف الكون بالمكوّن"[47]، إنّ العقل مهما علا دوره يبقى قاصرا نوعا ما عن إدراك كلّ الحقائق، بينما تتّسع الرّوح بما يعتريها من حالات الفيض، والجذب، والإلهام لمثل هذا الإدراك الّذي يعوّل عليه الصّوفي في بناء معرفة صوفيّة سليمة كما هو مبيّن في كتاب المواقف منهجها القرآن الكريم، ونجد دليلا في قول "الأمير عبد القادر" في الموقف(197) مستدلّا بقوله تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا اَلذِينَ ءَامَنُواْ اُتَّقُواْ اُللَّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيْهِ اِلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِے سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[سورة المائدة، الآية:35] وكيف أنّه عدّها منطلقا لبناء هذه المعرفة" في الآية إشارة لبيان سلوك طريق المعرفة، أمر تعالى المؤمنين بالتّقوى، وهو المعبّر عنه عند القوم بمقام التّوبة، الّذي هو الأساس لسلوك الطّريق، والمفتاح للوصول لمقام التّحقيق، فمن أعطيه أعطي الوصول، ومن حرمه حرم الوصول"[48] فإذا عدّت التّوبة وباقي المقامات هي سبيل بناء المعرفة؛ فإنّ هذا يعني قيامها على أساس أخلاقيّ متين يقوم على الاتّصال بالله، ومعناه أيضا أنّ هذه المعرفة تهدف إلى التّعالي عن الملذّات الحسيّة المؤقّتة، وطموحها إلى بناء إنسان كامل الّذي هو مبدأ المذهب الصّوفي عامّة.

إنّ المعرفة عند الصّوفيّة هي قوام مذهبهم يتمّ الوصول إليها بإدراك حقيقة الوجود، وحصولها يمكن أن يكون في الدّنيا والآخرة، وأوّل سبيل للمعرفة الصّوفيّة هو معرفة الله عن طريق الكتاب

---

[47]- ناجي حسين جودة: المعرفة الصّوفيّة-دراسات فلسفيّة في مشكلات المعرفة، دار الهادي، بيروت، لبنان،ط1، 2006م، ص:129.

[48]- الأمير عبد القادر: المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد، ج1، ص:430.

والسنّة، والاعتدال في الأخذ بكلّ ماجاء به الأنبياء والمرسلين، فقد ذكر "الأمير" في الموقف(14) عدّة آيات دالّة على سبل معرفته عزّ وجلّ منها ما اختصّت به الآية الخامسة من سورة الفاتحة﴿اِهْدِنَا اَلصِّرَٰطَ اَلْمُسْتَقِيمَ﴾ [سورة الفاتحة، الآية6] بـتأويله للصّراط على غير معناه الّذي ورد عند المفسّرين الدّال على الطّريق القويم، "والصّراط المستقيم هو صراط أهل معرفته-تعالى- ومعرفته-تعالى لانهاية لها، لأنّ معرفته هي معرفة كمالاته-تعالى-لانهاية لها..والمنعم عليهم؛ هم الّذين أراهم الحقّ-حقائق الأشياء، كما هي..فانكشف عنهم الغطاء، وتقشّع سحاب الجهل، بطلوع شمس المعرفة لقلوبهم، فعرفوا الحقّ والخلق، معرفة يقين، ولايدخلها شكّ، ولا تتطرّق إليها شبهة، حتّى صار الغيب عندهم شهادة، وهم الرّسل والأنبياء-عليهم الصّلاة والسّلام- وورثتهم السّالكون طريقهم"[49] إذا تحقّقت المعرفة، تحقّق اليقين بالله الّذي يرتضيه لهم.

لقد توجّب على الّذي ينوي اقتفاء معاني القرآن الكريم أن يعرف الله حقّ معرفته لتكتمل أواصر إيمانه" والمعرفة بالله تعالى- على طريق الأنبياء والأولياء، هي الّتي توصل إلى المشاهدة والمكالمة، لا على طريق العقلاء، الّتي تقتضي البعد منه-تعالى- وتنزيها عمّا أثبته تعالى لنفسه على ألسنة رسله"[50]، وممّا يتوجّب عن الأخذ بما أتى به القرآن والسّنّة ما عليه ما ذُكر في الموقف **20** بعد طلبه-الأمير عبد القادر- من الله عزّ وجلّ أن يهب له نورا يكشف به، فكان الجواب هو الكتاب والسّنّة الذي ورد لقوله تعالى﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اَللَّهِ نُور وَكِتَٰب مُّبِين (15) يَهْدِے بِهِ اِللَّهُ مَنِ اِتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُ سُبُلَ اَلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ اَلظُّلُمَٰتِ إِلَي اَلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمُۥٓ إِلَيٰ صِرَٰط مُّسْتَقِيم﴾ [سورة المائدة، الآية:15،16] وفي معناها سبيل معرفة الذّات وقهرها والارتفاع بها عمّا يهينها لأنّها ذات مكرّمة عند الله " تتمثّل نظريّة المعرفة عند الصّوفيّة في الاعتماد على المجاهدة النّفسيّة، وتصفية القلب من الأغيار للوصول إلى المعرفة الإلهاميّة، والكشفيّة، حيث ترتفع الحجب وتنكشف

[49]-المصدر السابق ج1، ص:49.

[50]- المصدر نفسه، ، ص: 393.

الأستار، ويشاهد أنوار الجلال، والجلال والعظمة، وتُنتقش الحقائق في الرّوح الإنسانيّة"[51]، إنّها علاقة بين العبد وربّه خاصّة إذا عرف الإنسان نفسه، ففي الموقف 163 قوله تعالى ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾[سورة الأعراف، الآية:205] وهي معرفة أشرف من معرفة العقل "اعرف ربّك في ضمن معرفتك نفسك، فإنّ معرفة الرّبّ والنّفس كاللاّزم والملزوم، وأقلّ. كالظلّ والشّاخص"[52] إنّها العلاقة الّتي تنبثق منها التّجربة الصّوفيّة في أكمل دعائمها ناقلة لعاطفة الحبّ، والإرادة، والاضطراب أيضا، أي أنّها تجربة تفضي إلى اللاسكون، وهو الفاعل المحرك لهذه المعرفة الرّوحيّة.

لقد عدّ الصّوفيّة أنّ الذّات المحمّديّة هي مركز الوجود والغاية المقصودة منه، وفي كتاب (المواقف) استكمال لهذه النّظرة الكليّة الجامعة بين القرآن والسنّة، فإذا كان القرآن هو محلّ المعرفة العقليّة والقلبيّة، فإنّ الرّسول ﷺ هو المحلّ الثّاني لهذه المعرفة أي الواسطة المحقّقة لها، وقد ورد في الموقف **161** في قوله تعالى: ﴿وَذْكُرُوهُ كَمَا هَداكُمْ﴾[سورة البقرة، الآية:198] ووردت إشارتها دالّة على الكلام الّذي تقدّم" أي اذكروا محمّدا بتعظيم وتوقير، واعرفوا له قدر وساطته لأجل هدايتكم إلى الله-تعالى- وإلى معرفته، وإرشادكم إلى الصّراط المستقيم، كما قال:﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمْ ﴾ صراط الله، فهو ﷺ الممدّ لكلّ نبيّ ووليّ من لدن خلق العالم إلى غير نهاية، عرف ذلك من عرفه، وجهله من جهله"[53]، لقد استطاع الصّوفيّة أن يحوّروا معطيات الوجود إلى رموز مرجعيّة عليها دائرة بناء المعنى القرآني والتّجربة العرفانيّة، وكأنّها بحث لا ينتهي " والمعرفة كتجسيد للوصول، وتعبير عن العلاقة بالله هي علاقة حبّ، وهي تبدو عند الصّوفيّة بداية الطّريق، ونهايتها لاحدّ لها، لأنّها فعل لايشبع، بدايته معرفة بالله، ونهايته مالاحدّ له، لذلك، فإنّ ما يتحصّل عليه الصّوفي في مراحل الطّريق هو مجرّد ظلال المعرفة تجلّت بعدّة أشكال، عبّر عنها المتصوّفة

[51]-جودة محمد أبو اليزيد المهدي: الاتّجاه الصّوفي عند أئمّة تفسير القرآن، دار الجودية، مصر، ط1، 2007م، ص:79.

[52] - الأمير عبد القادر: المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد، ج1 ، ص: 364.

[53] -المصدر نفسه، ج1، ص:362،361.

بالمقامات والأحوال"[54]، وإنّ المعرفة الصّوفية متّسع على مدى التّجربة والذّوق، والإدراك، لذلك شرّع الصّوفيّة للوصول إليه كلّ سبيل.

2.5ـ الجذب طريق بناء المعرفة:

اتّخذ الصّوفيّة بدءا من "ابن عربي" منهج الجذب طريق تلقّي الموارد الغيبيّة، بل وبابا لولوج عوالم الرّوح اللّامرئيّة، إذ يتسنّى لهم من خلاله معرفة مايعجز العامّة عن معرفته، لكن "الأمير عبد القادر" يرى أنّ الجذب هو أسلم طريق يتمكّن العارف من خلاله من تلقّي مالايحصى من المشاهدات مقارنة مع عالم الحسّ الّذي هو متاح للجميع، ويقول في هذا الصّدد: " وكنت ممّا رحمه الله–تعالى–وعرفه بنفسه وبحقيقة العالم عن طريق الجذبة لاعن طريق السّلوك؛ فإنّ السّالك أوّل ما يحصل له الكشف عن عالم الحسّ، ثمّ عن عالم الخيال المطلق، ثمّ ترتقي بروحه إلى السّماء الدّنيا، ثمّ إلى الثّانية، ثمّ إلى الثّالثة، ثمّ إلى العرش. وهو في كلّ هذا من جملة العوام المحجوبين، إلى أن يرحمه الله–تعالى– بمعرفته، ويرفع عنه الحجاب؛ فيرجع عن طريقه فيرى الأشياء حينئذ بعين غير الأولى..وهذه الطّريقة–وإن كانت أعلى وأكمل– ففيها طول على السّالك وخطرها عظيم"[55]؛ فالجذب هو قوّة تعلو قوّة الإنسان، لاتفسّر وعلى إثرها تكون الموارد المتلقّاة غير مفسّرة، فالصّوفي يهدف إلى دفع كلّ شكّ وزيغ يشوّه المعرفة، وكأنّها معرفة لاتقبل إعادة النّظر، بل تأخذ بالمسلّمات.

6ـ التصوف الفلسفي وأثره في فهم القرآن:

1.6ـ الحقيقة الإلهية في القرآن:

يعتبر الكون بحقائقه مصدر الحكمة والمعرفة عند الصّوفيّ، فهو يمدّه بمجموع أفكار لامتناهية عن الحقيقة الإلهيّة بفضل مَلكة العقل التي تمدّ الإنسان بالفرادة والتّميّز، لذلك نجد ربطا وثيقا بين

---

[54] – أمنة بلعلى: تحليل الخطاب الصّوفي في ضوء المناهج المعاصرة، ص: 22.

[55] – الأمير عبد القادر: المواقف في التصوّف والوعظ والإرشاد، ج1، ص:57.

مباحث الفلسفة والعقل وتأويل القرآن، هذه العلاقة الّتي تعطي للعقل مجالا آخر للتّدبّر والفهم المعمّق، "فالصّورة الجميلة الّتي يتّخذها العقل في تصّوره الحكيم أن يعلم أنّ كشفه لمواطن الحكمة في هذا الوجود إنّما هو كشف خاص، وخصوصيته ليست في ذاته، لكنّه موصول بروافد شتّى أهمّها وأصدقها، أنّ قوّته معلّقة على غيره...فالله هو الذّي يمدّه القوّة، والله هو الّذي يرعى فيه هذه القوّة، وهو الّذي يطلعه على مصدر الكشف لكلّ نور يراه في الوجود"[56]، وعلّة اعتماد الكشف واستعمال العقل يكون بدافع ثقافيّ محض كان يهدّد العقيدة ، لذلك توجّه متصوفة الجزائر للبرهنة على وحدانيّة الله عزّ وجل بدلائل خلقه معتبرين هذا أساسا للعقيدة ومتمّما لإدراك الذّات الالهية في تمام صورتها" إنّ ألذّ المعارف أشرفها وشرفها يحصل بشرف المعلوم، فإن كان في المعلومات ما هو أكمل وأشرف وأجلّ وأعظم، فالعلم به ألذّ العلوم وأشرفها، وهل هناك في الوجود أشرف وأكمل من خالق الأشياء ومبدئها(هكذا) ومعيدها، وهل يُتصوَّرُ أن تكون حضرة في الملك والجمال والجلال أعظم من الحضرة الرّبانيّة التّي لا يحيط بها اشتملت عليه من الكمال والبهاء وصف الواصفين"[57].

إنّ الرّؤيا الصّوفية البليغة اتّخذت البحث في الإلهيات هدفا تبغي من خلاله توجيه النّظر إلى الكيفية التي تتجمّع بها أجزاء الكون لتدلّ على الله، مثل التعرّض بالوصف والتّحليل لطبيعة الكواكب والنجوم وحركتها، ولقد وضع "الأمير عبد القادر" فصولا في كتابه المواقف سمّاها مثلا: آيات الله في السماء، نور القمر ونور الشّمس، عالم الألسباب...و بحث في حقيقتها وأسباب حدوثها وتأثيراتها، لذلك اتّسمت لغته بالعلميّة في المنهج والطّرح، واستعمال كلّ ما تعلّق بالفيزياء والرياضيّات وعلم الفلك والأبراج والجاذبيّة" فليست العملية التأويلية وإن تنزلت في أنساق صارمة بمنأى عن الحيثيات الخارجية التي نزعت التأويل في أحيان كثيرة من مرجعية النص لتدفع

[56]- مجدي محمد إبراهيم: التّجربة الصّوفيّة بحث في تحقيق العلاقة بين اعتقاد الثّنائيّة ورؤية الواحدية في تجربة العارف الرّوحانية، مصر 2002،(د.ط.ت.ش)، ص: 147.

[57] – عبد القادر بن عبد الله المجاوي: القواعد الكلامية، مطبعة فونتانا، الجزائر(د.ط) 1329ه،1911م،ص:38.

به في اتجاه الاستجابة لشروط العمران ومطالب الانتماء ومقتضيات أعراف الجماعة وتقاليدها وما تريد ترسيخه من مواقف تحقق من خلالها مكاسب في الوجود أولا وفي الانتشار والسيادة ثانيا"[58]، فالمتأمّل في هذه التّأويلات يستدلّ على وعي فكريّ تحدّى استلهم عناصر التّجربة الذّوقية التي تناسلت من ثقافات عدّة، واكتملت في رؤية تبدو رغم تشعّبها موحّدة الهدف.

تدخل الحقيقة الإلهيّة ضمن فلسفة الوجود الصّوفيّة، فقد دلّ على هذا قول الله تعالى في سورة الرّحمن﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[سورة الرحمن، الآية:46،] فمقام الرّبوبيّة هو ما تعالى عن الحسّ المدرك وإنّما يُدرك بالكشف لأصحاب العقول" والحضرة الربيّة الآلهيّة جامعة للأرباب كلّها، دلّ على ماذكرناه المعاينة الكشفيّة لأهل الكشف والعقول، من حيث مرتبتها لا تعرف إلا بتعريف إلهيّ"[59]، ويعتبر الرّبط بين مقام الرّبوبيّة والمقام المذكور في القرآن الكريم إحالة مرجعيّة على أوْل النّفوس والموجودات إلى خالقها ومن ثمّة دخولها في علمه، وهذا من مظاهر الوحدة المطلقة التي نادى بها المتصوّفة الفلاسفة أمثال:"عبد الكريم الجيلي" و"ابن عربي" و" أبو حسن الششتري" " إنّ هذا "الشّيئ وراء" الّذي يدلّ عليه كلّ ما يُدعى بالظّوهر الطّبيعيّة بوصفها علامات، هو في التّصّور القرآني الله نفسه، أو بكلام أدقّ، هذا الوجه أو ذاك لله مثل كرمه، وقدرته، وسطوته، وعدله.. إلى آخره"[60]، فما من موضع قصده "الأمير عبد القادر" في المواقف مهما تباين موضوعه فإنّما يرمز إلى الله وإليه يعود.

لقد أقرّ "الأمير عبد القادر" مورد تلقّيه الصّوفي في باب العلم ما نصّه:" ولقد أجمع أهل هذا الشّأن الرّاقون إلى ذروة التّحقيق بالشّهود والعيان، هو أنّه أوّل تعيّن للذّات من الغيب المطلق، هو

---

[58]- عثمان صادق شريحة: التأويل بين شروط النص ومقتضيات العمران، الملتقى الفكري للإبداع www. almultaka.net، 26/ 2/ 2013، 21h،ص1.

[59]-الأمير عبد القادر الجزائري: المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد، ج:3، ص: 995.

[60]- توشيهيكو إزوتسو: الله والإنسان في القرآن- علم دلالة الرؤية القرآنية للعالم- تر:هلال محمد الجهاد، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط1، 2007، ص: 215.

المرتبة المسمّاة عندهم بالوحدة المطلقة، وهو علمه تعالى بذاته عن ذاته، وعلمه بجميع المعلومات الحسيّة والعقليّة والخيالية على وجه الإجمال من غير تمييز بعضها عن بعض"[61]، ويعدّ استثمار رؤية الواحديّة في المعرفة الصّوفية الّتي تروم تتبّع الأثر الإلهي عبر النّص المنزل، هدفا مشروعا في تعزيز علاقة الربّ بالعبد ضمن مبدأ الارتباط ببعده الروّحي، وما التّأويل الّذي اعتمد عمليّة الكشف هذه إلاّ أداة ربطت أواصر المعرفة بين ثلاثة أقطاب: (الله، الوجود) القرآن ليبتعد التأويل الصوفي للقرآن عن شطط اللاّمعقول ويؤسّس لشرعية المعقول البعيدة عن التفكير الباطني الذي عُرف عند المغالين" إنّ التّأويل المعقول هو الّذي يستطيع بلورة فرضيّات حول العلامات القابلة للاختيار ووفق شروط محدّدة، وضمن حدود اقتصاديّة من خلال إقصاء التّشابهات المغلوطة، والأمارات السّطحيّة الّتي من شأنها الخروج بالتّأويل إلى متاهات غير مرغوب فيها"[62]؛ ومعقوليّة هذا التأويل إنّما نبعت من طبيعة النّصّ الذي تلاحمت بنياته واتّسقت بناه، فاختار المؤوّل الممكنات المعقولة لتفسيره، ومن ثمّة استقامة معانيه.

2.6ـ الحقيقة الإلهية:

كان مدار البحث في الفلسفة الإسلاميّة وبناء المعرفة انطلاقا من القرآن الكريم، مبنيّ أساسا على استلهام حقيقة الوجود وحقيقة الخالق، لذلك فإنّ جلّ المباحث الفلسفيّة التأويلية تتأسّس على إثبات الحقيقة الإلهيّة، ونجد على سبيل المثال ما ارتبطت به الآية الكريمة ﴿وَيُحَذِّرُكُمْ اللهُ نَفْسَهُ﴾[الآية30، سورة آل عمران] من معنى التّحذير، فالمقصود من باطن الآية هو التّحذير من التّفكّر في ذات الله، ويعرض"الأمير عبد القادر" في إحدى مواقفه موقف الفلاسفة من الحقيقة الإلهيّة من مثبت ونافٍ بقوله:" فإنّ بعض العباد يُجزم في اعتقاده أنّ الله تعالى كذا وكذا، وبأنّ الله ليس بكذا وكذا، ويحكم على الله بفكره، فمنهم من يقول أنّه جوهر ومنهم من يقول أنّه ليس

[61]- الأمير عبد القادر الجزائري: المواقف (مصدر سابق): ص:111،1116.

[62]- رضوان صادق الوهّابي: الخطاب الشّعري الصّوفي والتّأويل، منشورات زاوية، أكدال، الرّباط، ط1، 2007، ص: 91.

بجوهر، ومنهم من يقول جسم، ومنهم من يقول أنّه في جهة، ومنهم من يقول أنّه ليس في جهة، والكلّ مخطؤون، لا المثبت ولا النّافي"[63]وعلّة الخطأ أنّ الله يُعرف دون صفة أو دليل معيّن، فإدراكه فطرة جُبل الانسان عليها وما عليه إلاّ الرّجوع إلى نفسه للتيّقّن من ذلك، وهذا ما أقرّه معظم الصّوفيّة بل وجعلوه أساس هذا المذهب، يقول "ابن عربي" في هذا الشّأن:" فكيف يدّعي العاقل أنّه قد علم ربّه من جهة الدّليل، وأنّ البارئ معلوم له؟ ولو نظر إلى المفعولات الصّناعيّة، والطّبيعيّة، والتّكوينيّة، والانبعاثيّة، والإبداعيّة ورأى جهل كلّ واحد منها بفاعله، لعلم أنّ الله تعالى لايعلم بالدّليل أبدا، لكنّ يعلم أنّه موجود، وأنّ العالم مفتقر إليه افتقارا ذاتيّا لا محيص عنه البتّة"[64]، وهنا يجوز لنا القول أنّ الدّلالات والمقاصد من القرآن الكريم تختلف ، وبالتالي فإنّ النّظرة الصوفية الفلسفية مخالفة لمباحث الفلسفة بصفة عامة لما تضفيه من طابع تفسيري تخييلي يغلب عليه الذوق ومعرفة أسرار القوم ومواضعتهم.

لقد كان لنتائج البحث الصوفي العقائدي في الحقيقة الإلهية أهدافا خفية نجح خطاب التفسير في تمريرها، وهي الإقرار بالحقيقة الإلهية منزهة عن كل حلول، أو ممازجة أو اتّحاد أو تشابه بين الخالق والمخلوق وهو ما سمّي بالتوحيد الإرادي "وهذا اللّون صاغه شيوخ الصّوفية الذين التزموا بقواعد الشرع نصوص الكتاب وهي النبوة، وبه حالوا تفسير الإسلام تفسيرا ذوقيا في ضوء العقل والمعاناة الروحية، وهذا التّوحيد مع حرصه على تقرير مبدأ الإرادة، وصاحب هذا المقام تذوب إرادته في إرادة الله تعالى وتفنى رغائبه في رغائب الله..وهو المقام الذي أسماه"ابن تيمية" بمقام الفناء عن عبادة السّوى، وهو حال النبيين وأتباعهم"[65]، وهذا ملمح آخر من ملامح الوسطية في التّفكير الذي استقلّ بنفسه، ووضع أبجدياته التي راهنت على رؤيتها.

---

[63] – الأمير عبد القادر: المواقف، ج3، ص:1246.

[64] – ابن عربي: الفتوحات المكيّة، تح: عثمان يحي، مرا: إبراهيم مدكور، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ط2(د.ت.ش) ج2، ص:188.

[65] – عرفان عبد الحميد فتاح: نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1413م، 1993م، ص: 180.

3.6.طبيعة النفس وأقسامها:

شغلت حقيقة جوهر النّفس حيزا من التفكير الفلسفي عند المسلمين، لقد عُرضت قضية طبيعة الروح لدى الفلاسفة منذ نشأة الفكر الفلسفي الذي ظلّ يبحث في كلّ ما من شأنه أن يكشف عن جوهر الإنسان، ونستطيع الإحاطة بهذا الخلاف على النحو الذي صورته مدونات الفلسفة "قد انتقل الخلاف حول طبيعة النفس من الثقافة اليونانية إلى الثقافة الإسلامية، فكان في مذاهب المسلمين إزاء هذه المشكلة تباين وتنافر ويمكن إجمال هذه المذاهب في أربعة اتّجاهات كبرى.. إنكار النفس أو بعبارة أخرى إنكار وجود الجوهر غير هذه البنية وهو رأي طائفة من المعتزلة..ماديّة النّفس وهو مذهب الجبائي الذي كان يقول بأنها جسم..اتّجاه وسط بين الماديّة والروحيّة..المذهب الروحي القائم على أنّ النّفس ليست جوهرا ولا في مكان بل هي جوهر عقلي، وهو معتقد سقراط وأفلاطون، وقد أخذ من المسلمين، معمر أحد شيوخ المعتزلة، وكثير من الإماميّة، وبعض الأشاعرة كأبي حسن الحلبي، والإمام الغزالي وأبي القاسم الراغب الأصفهاني، وسائر فلاسفة الإسلام"[66] أمّا الصّوفيّة فقد ساروا على عقيدة الفلاسفة مع إضفاء الطّابع العرفاني على هذا النّوع المعرفي الّذي أخذ بعدا مختلفا.

لقد قسّم "الأمير عبد القادر" النّفوس الحيوانيّة وكيف اشتراها من النّفوس النّاطقة، وذلك ممّا تمّت الإشارة إليه من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ﴾[سورة التّوبة، الآية:111]، فمعنى الآية حسب المفسّرين متعلق بالنفوس التي باعت نفسها لله، لكن "الأمير عبد القادر" يضفي عليها تصورا صوفيا فلسفيا إذ يخرجها من دائرة النفوس الحيوانية، ويدخلها في دائرة النفوس الطيبة الناطقة استنادا إلى أنّ الخير طبيعة في الإنسان وأنّه جُبل على معرفته بفطرته، على نحو ما ثبت من الفلسفات الإشراقية في المشرق والأندلس،

[66]- يُنظر محمد صالح الزركان: الرازي وآراؤه الكلامية، دار الفكر،(د.ط.ت.ش)، ص: 469،470.

ويمكن القول هنا أنّ الفكر الصوفي فكر نسقي، يبنى معارفه في دائرة مكتملة تحقق الوحدة والمعرفة.

7ـ التّصوف العملي:

1.7ـ العلاقة بين الشّيخ والمريد:

مبحث الأخلاق أساسيّ في فلسفة التّصوّف الإسلاميّة تعرّض له الصّوّفيّة معتبرين إياه أنّه ينمّ عن الرّياضة الباطنيّة الّتي تظهر ثمارها على السّلوك، ونظرا لهذه الأهمّيّة فإنّ هذا المبحث اشتمل على محاور عدّة منها: الأخلاق العامّة مثل الخير الشرّ، والسّعادة،.. والأخلاق الّتي يتحصّل عليها المريد بفضل شيخه، وفي كتاب المواقف استدلّ "الأمير" على القيمة الأخلاقيّة في كثير من الآيات القرآنيّة في الموقف **195**، وهو بهذا قد أنزل المعنى من التّأويل منزلته الّتي ارتضاها له الله في نيّة تنزيله، فنجد قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ البَحْرَيْنِ﴾ [سورة الكهف، الآية:61] وكيف أنّ معناها قد دلّ على أصول التّربية الّتي وجب على الشّيخ الالتزام بها قبل المريد لأنّه صورة عاكسة له" فالشّيخ للمريدين أمين الإلهام، كما أنّ جبريل أمين الوحي، فكما لا يخون جبريل في الوحي، لا يخون الشيخ في الإلهام، وكما أنّ رسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوى، فالشيّخ مقتد برسول الله ﷺ ظاهرا وباطنا لا يتكلّم بهوى النّفس"[67]، وأوّل هذه الأصول هو التّواضع واقتفاء آثار الحكمة أينما وجدها، ورمزيّة موسى عليه السّلام وبحثه عن الخضر في هذه الآية دالّة على ذلك.

من الصّفات الّتي يجب على الشّيخ الاتّصاف بها هي الصّبر، وعدم ردّ المريد مهما بدا عليه صعوبة تحمّل مشاق العلم "الشيّخ لا يردّ من جاءه بطلب العلم، ولو عرف عدم استعداده لما طلب، فإنّ الخضر -عليه السّلام- عرف عدم صبر موسى-عليه السّلام- أوّل ما لقيه،

[67]- شهاب الدين أبو حفص عمر السُّهروردي :عوارف المعارف، تح: عبد الحليم محمود، محمود بن شريف، دار المعارف، القاهرة، (د.ط.ت.ش)ج2،ص:. 207.

فقال:﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا﴾[سورة الكهف، الآية:67] مع هذا ما ردّه"[68] والشّيخ هو الوسيلة الّتي يتحقّق بها تقوى الله، كما في الموقف 197 في قوله تعالى﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[سورة المائدة، الآية:35] ومنزلته لا تقلّ عن منزلة الأنبياء والمرسلين "وقد انعقد إجماع أهل الله-تعالى: أنّه لابدّ من الوسيلة، وهو الشّيخ في طريق العلم بالله-تعالى- ولا تغني عنه الكتب، وذلك عند ورود الواردات، وبوارق التّجلّيات والواقعات، ليبيّن للمريد المقبول من المردود، والصّحيح من السّقيم، وأمّا بداية السّلوك فيكتفي بالكتب المصنّفة في المعاملة والمجاهدة المطلقة"[69]، إنّ علاقة الشّيخ بالمريد هي علاقة تربية في الأصل التي مناط الفكر الصوفي عليها، لأنّ بها تحصل الواردات ويستقيم عود المعرفة.

2.7ـالمجاهدة والسلوك:

تتكامل معالم التّربية السّلوكيّة في التّصوّف وإذا كانت المعرفة هي منطلق هذه التّجربة، فإنّ المجاهدة وتصفية الباطن هما مكمّلتان لها باعتبار أنّ التّصوّف هو التّوفيق بين ظاهر الشّرع وباطنه، وتكون نظريّة الأخلاق الصّوفيّة حلقة مكمّلة لهذا المشروع الرّوحي " مبدأ اقتران العلم بالعمل، وهو ما يعبّر عنه الصّوفيّة باجتماع المقال والحال ذلك أنّ المعرفة لاتستقيم على قوانين علمهم إلاّ إذا كانت تلابس السّلوك،كما أنّ النّظر لايطّرد مع أصول مذهبهم إلاّ كان يلابس العمل، فلا ينطق النّاطق منهم إلاّ وهو متحقّق بما يقول"[70] إنّ السّلوك وما يظهر به من تمام الأخلاق، هو تكوين لصورة العبادة المتّصفة بالكمال الّتي يسعى الصّوفي لتحقيقها " ويستند مفهوم الأمير عبد القادر للعبادة نحو الله على التأمل الذي هو مفتاح الرؤية الباطنية"[71]، والباطن هو العمق واللاتناهي في

---

[68] - الأمير عبد القادر: المواقف في التّصوف والوعظ والإرشاد، ج1، ص: 425.

[69] - المصدر نفسه، ص: 431.

[70] - طه عبد الرّحمن: العمل الدّيني وتجديد العقل، المركز الثّقافي العربي، بيروت، ط2، 1997م، ص:151.

[71] -ibrahim işitan: le développement psycho-spirituel selon l'emir abdelkader al-jazâirî, p:54.

تلقّي المعارف في سياق التأمّل والتدبّر الذي حثّ عليه الإسلام كثيرا وجعل الإعراض عنه إهدار لبناء علاقات مهمّة، مثل العلاقة التي تجمع الله، والقرآن، والإنسان.

ورد في الموقف69 قوله تعالى:﴿ اِنَّمَا اَلْمُومِنُونَ اَلذِينَ ءَامَنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِے سَبِيلِ اِللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ اُلصَّٰدِقُونَ﴾[سورة الحجرات، الآية15] والّذي تدلّ إشارته على الرّياضة والسّلوك " المراد من هذا الإلقاء، الحثّ على المجاهدة والرّياضة، فإنّه حصر الإيمان(بإنّما) في المجاهدة بماله ونفسه، والمراد من طريق الاعتبار، الجهاد الأكبر الّذي قال فيه-عليه الصّلاة والسّلام- لأصحابه الكرام(رَجَعْتُمْ مِنَ الجِهَادِ الأَصْغَرِ إِلَى الجِهَادِ الأَكْبَرِ) أي ابذلوا جهدكم وطاقتكم في طلب معرفته-تعالى- والوصول إليه بأموالكم..لأنّ السّالك إذا كان له مال زائد على ضروراته تعيّن عليه إخراجه في وجوه، ولاتغنيه مجاهدة نفسه بغير إخراج المال الزّائد في أنواع المجاهدات والرّياضات"[72]، والتّغلّب على النّفس بكبح جماحها هو ما يصبو إليه الصّوفي ويسعى لغرسه في غيره لأنّه قدوة لغيره، كما خرج معنى بعض الآيات عن مقتضى ما تعارف عليه المفسّرون، فالقتال الوارد في الآية واضح المعنى أنّ المقصود به هم المشركون، لكنّ القصد الصّوفي قد وسّع معناه وأضاف عليه من رؤيته الّتي تفضي بأنّ الجهاد الجهاد الحقيقي هو الّذي تنتقل منه المؤمن إلى إدراكات أوسع، ورد في الموقف 71 في قوله تعالى ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ الله الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾[سورة البقرة، الآية 190] ما نصّه:" الأمر بجهاد النّفس وقتالها، هو على وجه مخصوص، وحدّ محدود، ووقت معيّن وهو ألاّ يكون إلاّ في سبيل الله، أي لأجل معرفة الله وإدخال النّفس تحت الأوامر الإلهيّة، والإطمئنان والإذعان لأحكام الرّبوبيّة، لالشيئ آخر من غير سبيل الله"[73]، لقد تحدّدت في التّفسير الإشاري طبيعة المنهج الذي يروم فهم القرآن، عبر آليات عدّة تشكّل لحمة أساسية في الجمع بين أجزاء الإشارة لتحقيق النّزعة الصّوفية التي عليها مدار فهم

[72] - الأمير عبد القادر: المواقف، ج1، ص: 138.

[73] - المصدر نفسه ج1، ص 141.

القرآن، فالإشارة وإن كانت تجربة خاصّة؛ إلا أنّها لا تستنكف الخروج إلى عالم القرائن الفلسفية واللغوية، وجعلها تخدم هدف النصّ المفتوح الذي لا يتحدّد بآلية قراءة واحدة.

خاتمة الدراسة:

إنّ البحث في التّفسير الصّوفي بحر عميق لأنّه يجمع بين العقل والقلب، وكلّ صوفي له مشاربه في التّفسير التي تضفي على المعاني المستنبطة دلالات يكون للتجربة الذّوقية النّصيب الأوفر في تشكّلها، إنّ تفسير الشّيخ "السّنوسي" للقرآن الكريم لم يكن تفسيرا متخصّصا ومستقلا في مدوّنة، لكن استطاع توظيفه من أجل العقيدة أي أنّه لم يكن نصّا مستقلّا عن الحياة، بل كان منتجا لأنساق المعرفة، والفلسفة، وعلم الكلام..أي أنّه النّص المركز، بينما شكّلت رؤيا "الأمير عبد القادر للقرآن الكريم" تجربة استكملت في بنيتها نسق التّصوّف في اعتماده على الموقف والإشارة، وخلقت فيضا عرفانيا انتقل من اللامفسّر-الإشارة-إلى المفسّر-توظيف الدّوائر التّأويلية الكبرى والصّغرى في فهم القرآن، فأبعدت بهذا المعنى القرآني عن المغالطات المعروفة عند الصّوفية والتي جعلته فضاء للدّروشة إن صحّ القول، إنّ تجربتي "الشّيخ السنوسي" و"الأمير عبد القادر" رغم الفوارق في الزمن بينهما والتنوّع الذي احتفى به كتاب المواقف مقارنة مع ما كتبه الشيخ السّنوسي، إلا أنّ جامعا مهمّا جمع بينهما وهو: السعي إلى تحديد رؤيا عميقة للنّصّ القرآني وربطها بالتربية الروحية وجلّ مناحي الحياة التي لا تفصل القرآن عنها، فهاتان التّجربتنان تعدّان فعلا سبقا في تأمّل القرآن وتأويله ولازالتا تحتاجان إلى كثير من الدّراسات.

قائمة المصادر والمراجع:

1. **القرآن الكريم برواية ورش عن الإمام نافع.**

2. (أحمد) الطريبق أحمد: الكتابة الصوفية في أدب التستاوي،(1045-1127م)(الحياة- الكتاب- الخطاب)، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية،(د.ط)2003.

3. (إزوتسو) توشيهيكو: الله والإنسان في القرآن- علم دلالة الرؤية القرآنية للعالم- تر:هلال محمد الجهاد، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط1، 2007.

4. (الآلوسي) أبو الفضل شهاب الدين: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، دار إحياء التّراث العربي، بيروت، لبنان،(د.ط.ت.ش)، ج1.

5. (الذّهبي) محمد حسين: التّفسير والمفسّرون، القاهرة، مكتبة وهبة (د.ط.ت.ش) ج2.

6. (الراشدي) عامر جميل شامي: النص الصوفي، دراسة تفكيكية في نصوص أبي يزيد البسطامي نموذجا، دار الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2014.

7. (الزركان) محمد صالح: الرازي وآراؤه الكلامية، دار الفكر،(د.ط.ت.ش).

8. (الزين) محمد شوقي: ابن عربي ومشكلة التّأويل، مجلّة دراسات فلسفيّة، قسنطينة، الجزائر، العدد2، جوان 2014.

9. (الزّين) محمد شوقي: الصّورة واللّغز-التأويل الصوفي للقرآن عند محيي الدين بن عربي، مؤمنون بلاحدود للدراسات والأبحاث، أكدال، الرباط، المملكة المغربية، ط1، 2016.

10. (السّنوسي) محمد بن يوسف: المنهج السّديد في شرح كفاية المريد، تح:مصطفى مرزوقي، دار الهدى، ميلة، الجزائر، (د.ط.ت.ش).

11 . (السّنوسي) محمّد بن يوسف: شرح صغرى الصغرى في علم التوحيد،علق عليه: سعيد فوده، دار الرازي، عمان، الأردن، ط1، 2006.

12 . (السُّهروردي) شهاب الدين أبو حفص عمر :عوارف المعارف، تح: عبد الحليم محمود، محمود بن شريف، دار المعارف، القاهرة، (د.ط.ت.ش)ج2.

13 . (العك) خالد عبد الرّحمن: أصول التّفسير وقواعده، دار النفائس، بيروت، لبنان، ط2، 1406ه، 1986م.

14 . (العلاوي) أحمد بن مصطفى: البحر المسجور في تفسير القرآن بمحض النّور، المطبعة العلاوية، مستغانم، ط1، (د.ت.ش).

15 . (المجاوي) عبد القادر بن عبد الله: القواعد الكلامية، مطبعة فونتانا، الجزائر(د.ط) 1329ه،1911.

16 . (المهدي أبو اليزيد) جودة محمد: الاتّجاه الصّوفي عند أئمّة تفسير القرآن، دار الجودية، مصر، ط1، 2007م.

17 . (الوهّابي) رضوان صادق: الخطاب الشّعري الصّوفي والتّأويل، منشورات زاوية، أكدال، الرّباط، ط1، 2007.

18 . (إيكو) أمبرتو: السيميائية وفلسفة اللغة، ، تر: أحمد الصمعي، بيروت، لبنان،ط 1، 2005 .

19 . (بازي) محمد: التأويلية العربية نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات- الجزائر منشورات الاختلاف/ لبنان ،بيروت، ناشرون، ط1431،1هـ-2010م.

20. (بازي) محمد: صناعة الخطاب- الأنساق العميقة للتّأويلية العربيّة- دار كنوز المعرفة والنشر، عمان، ط1، 2015.

21. (بازي) محمد: نظريّة التّأويل التقابلي-مقدمات لمعرفة بديلة بالنّصّ والخطاب- منشورات الاختلاف، الجزائر / ناشرون، لبنان ،بيروت، ، ط1431،1هـ-2010م.

22. (بلقاسم) خالد: الصّوفيّة والفراغ-الكتابة عند النّفري- المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء، المغرب/ بيروت ، لبنان، ط1، 2012.

23. (بلعلى) أمينة: تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة، منشورات الإختلاف، الجزائر، ط1، 2002م.

24. (ابن عربي) محيي الدين الحاتمي الطائي: الفتوحات المكية، تح: عثمان يحي، مرا: إبراهيم مدكور، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ط2(د.ت.ش)، ج2.

25. (بن عيّاد) محمّد: في المناهج التّأويلية، مطبعة التّسفير الفني بصفاقس، ط1، 2012م.

26. (جودة) ناجي حسين: المعرفة الصّوفيّة-دراسات فلسفيّة في مشكلات المعرفة، دار الهادي، بيروت، لبنان،ط1، 2006م.

27. (زايد) أحمد: أدبية النّص الصّوفيّ بين الإبلاغ النّفعي والإبداع الفنّي، عالم الكتب الحديث، أربد، الأردن، ط1، 2011.

28. (عبد الحق) منصف: الكتابة والتجربة الصّوفية، نموذج محي الدين بن عربي-منشورات عكاظ، الرّباط، ط2، 2011.

29. (عبد الحميد فتاح) عرفان: نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1413م، 1993م.

30. (عبد الرّحمن) طه: العمل الدّيني وتجديد العقل، المركز الثّقافي العربي، بيروت، ط2، 1997م.

31. (عبد القادر الجزائري) الأمير: المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد، دار اليقظة العربية، دمشق، سورية، ط2، 1966، ج3،2،1.

32. (عبد القادر الجزائري) الأمير: المواقف في بعض إشارات القرآن إلى الأسرار والمعارف، تح: عبد الباقي مفتاح، ج1.

33. (عزوزي) حسن: الشيخ أحمد بن عجيبة ومنهجه في التفسير، وزارة الأوقاف والشّؤون الإسلامية، المملكة المغربيّة، (د.ط)،1422ه، 2001م، ج2.

34. (محمد إبراهيم) مجدي: التّجربة الصّوفيّة بحث في تحقيق العلاقة بين اعتقاد الثّنائيّة ورؤية الواحدية في تجربة العارف الرّوحانية، مصر 2002،(د.ط.ت.ش).

35. ibrahim işitan: le développement psycho-spirituel selon l'emir abdelkader al-jazâirî.
36. umerto eco: les limites de l'interpretation, grasset, et fasquelle pour la traduction française, 1992.
37. www .almultaka.net.

التفسير العقدي عند الإمام يحيى بن محمد الشاوي الجزائري، من خلال كتابه "توكيد العقد فيما أخذ الله علينا من العهد"[1]

د. سمية شهبون، أستاذة التعليم الثانوي التأهيلي لمادة التربية الاسلامية. وكتوراه في العلوم العقدية والفكرية في الغرب الإسلامي

أولا: التعريف بالإمام الشاوي:

ـاسمه ومولده ونشأته في الجزائر:[2]

هو أبو زكريا، يحيى بن محمد بن محمد بن عبد الله بن عيسى النائلي، الشاوي، الملياني، الجزائري، كني بأبي البركات:

النائلي؛ نسبة إلى قبيلة أولاد نائل بالقطر الجزائري.

الشاوي؛ تسمية لا نسبا، وبها اشتهر.

[1]- هذا الكتاب هو حاشية على شرح الإمام السنوسي على عقيدته الصغرى، واعتمدت في هذا البحث على نسخة المكتبة الوطنية المغربية بالرباط التي وضعت تحت رقم(967ق).

[2]- "خلاصة الأثر" للمحبي (4/ 486) المطبعة الوهيبة، 1284هـ، و فهرسة النخلي المسمى "بغية الطالبين لبيان المشايخ المحققين المعتمدين" ص:32، مخطوط موضوع بمكتبة جامعة الملك سعود، بالرياض، تحت رقم: 1250. و"مشيخة أبي المواهب" ص:91، و"تاريخ الجزائر الثقافي" (2/ 103). أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1998.

الملياني؛ نسبة إلى مدينة مليانة[3] ببلاد الجزائر.

الجزائري؛ نسبة إلى مدينة الجزائر التي نشأ بها.

أبي البركات؛ أشار في نهاية المخطوط إلى أنها كنية منحت له بإشارة السادات الوفائية، وكناه بها النخلي في فهرسته.[4]

وهو ابن الفقيه الصالح محمد بن عيسى الشاوي، انفرد الكتاني[5] بتكنيته أبي عبد الله.

ولد بمدينة مليانة، ولم أجد تاريخ ولادته محددا فيما اعتمدته من كتب التراجم سوى في "معجم أعلام الجزائر"[6] حيث انفرد مؤلفه عادل نويهض بتحديد سنة ولادته في 1030ه، بينما اكتفى الدكتور سعد الله بالترجيح أنها في أوائل القرن الحادي عشر الهجري.[7]

نشأ وسط أسرة اشتهرت بتحمل العلم، وكانت بدايات تعليمه بمسقط رأسه (مليانة)، حيث قرأ على الطريقة المتبعة آنذاك في الكتاتيب من حفظ القرآن الكريم والمتون، ودراسة بدايات العلوم.

حفظ القرآن وهو ابن الثمان سنوات، وقد يكون والده أول شيوخه، فلقد وصفه الإمام محمد السعدي أبهلول بالعلم والصلاح، حيث قال في رواية مصافحته للإمام الشاوي: ((أبا زكريا يحيى نجل الفقيه الصالح سيدي محمد بن عبد الله، أدام الله النفع بعلومه، وبارك في عمره.))[8]

---

[3]- تقع غرب مدينة الجزائر، في سفح جبل زكار الغربي. "وصف إفريقيا" للحسن الوزان، (2/ 35) تحقيق: محمد حجي، ومحمد لخضر، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1983م.

[4]- "فهرست النخلي" ص:32.

[5]- "فهرس الفهارس" للكتاني، (2/ 1132)، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، 1402 ه- 1982م

[6]- "معجم أعلام الجزائر" عادل نويهض، ص:186، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت- لبنان، 1400ه- 1980م

[7]- "تاريخ الجزائر الثقافي" (2/ 108)

انتقل بعدها إلى زاوية (أبهلول المجاجي)[9] قرب (تنس)، وكان أهل مليانة وغيرهم يقصدونها للدراسة الثانوية، وفيها تلقى التفسير، والحديث، والفقه، والنحو، والمنطق، ثم توجه إلى تلمسان، فأخذ العلم على بعض شيوخها، وقضى فترة من حياته في مدينة الجزائر تلميذا ومدرسا، وهناك تتلمذ على شيوخها الأجلاء منهم: علي بن عبد الواحد الأنصاري(ت1057ه)، وسعيد قدورة (ت1066ه) مفتي الجزائر، وهذا الأخير روى عنه عقائد السنوسي عن سعيد المقري عن محمد بن جلال (ت981ه) عن الشيخ سعيد الكفيف (ت929ه) عن الإمام السنوسي، ودرس أيضا على علي عيسى الثعالبي (ت1080ه) ، وسار معه ثماني مراحل وهو في طريقه إلى المشرق لكي يأخذ عنه علم المنطق.[10]

- **مغادرته الجزائر وسيرته العلمية:**

لم تتحدث المصادر التاريخية عن توجه الإمام الشاوي إلى المغرب الأقصى، في حين أن أغلب العلماء وطلاب العلم كانوا يحجون إلى مدينة فاس؛ المركز العلمي والثقافي الذي يضم جامع القرويين، التي كانت تنافس أكبر المؤسسات العلمية كالأزهر بمصر والزيتونة بتونس، لكن يرجح أن يكون الشاوي قد زار المغرب، وأن هذه المصادر قد أغفلت ذكر هذا الجانب من حياته؛ بدليل ما جاء في كتابه "المحاكمات"[11] حين تحدث عن طائفة بمدينة فاس كانت تمارس طقوسا منحرفة، ومخالفة للشريعة الإسلامية، فأفتى بجواز قتلهم، وأشار إلى أنه عاينهم مباشرة لا عن سماع، ومع

[8]– مخطوط موضوع بمكتبة الحرم المكي تحت رقم: 754، ضمن مجموع يضم مجموعة من الإجازات والمصافحات، بعنوان "ثبت عبدالقادر الفاسي" وجاءت هذه المصافحة ص:82.

[9]– هي زاوية بالقرب من (تنس)، اشتهرت بنشر العلم، وكانت تشد إليها الرحال للدراسة والتعلم، وكانت لها مكانة لدى الحكام العثمانيين.

[10]– "تاريخ الجزائر الثقافي" (2/ 104)

[11]– "المحاكمات بين أبي حيان وابن عطية والزمخشري" يحيى الشاوي (2/ 124) ، بتحقيق محمد عثمان، ط1، دار الكتب العلمية، 1430ه.

ذلك لا يمكن الجزم؛ لأن معاينته لهذه الفئة من الناس قد يقصد بها معاينته لأتباع الطريقة عامة، خاصة وأنه ذكر وجودهم في عدة مناطق منهم مليانة، مسقط رأسه.

وإذا كنا لم نستطع الجزم بتوجهه إلى المغرب الأقصى، إلا أن مغادرته بلاده الجزائر وتوجهه نحو المشرق أمر لا ريب فيه.

قصد الإمام الشاوي المشرق لأداء فريضة الحج، سنة 1074ه، فتوقف في مصر أولا، ثم عاد إليها بعد قضائه الحج، واستقر بها حتى وفاته، لكن بقائه في مصر لم يكن عن تخطيط مسبق، وهو ما يستنتج من كلام أبي سالم العياشي في "رحلته"[12]؛ فلقد ذكر أنه التقى به في الإسكندرية وهو عازم على المغادرة مع ركب الحج الجزائري سنة 1074ه، - وهي السنة التي ألف فيها هذه الحاشية- لكنه تخلف عنهم بأهله لاستصعاب المشي في البر مع استقبال أيام الشتاء وشدة البرد، فاختار ركوب البحر، وانتظر قدوم سفينة تقله، لكنه غير رأيه في الاسكندرية لسبب مجهول لم يذكره العياشي، واكتفى بالتلميح بقوله: ((وكان ذلك لأمر أراده الله به.))[13] كما يظهر من كلامه أنهما لم يكونا على وفاق، بدليل قوله: ((إلا ان الرئاسة إذا سكنت قلب إنسان لا تقصر عن ذهاب عقله.))[14]، إلا أن ذلك لم يمنعه من الاعتراف بعلمه وفضله، حيث وصفه بقوله: ((وكان من الطلبة الأذكياء، له معرفة حسنة بعلم النحو، ومشاركة في غيره، مواظب على التعليم والتعلم.))[15].

بعد عودته إلى القاهرة اجتمع بفضلائها، وأخذوا عنه وروى هو عن علمائها، كالشيخ سلطان المزاحي، والشمس الشبراملسي، وأجازوه بمروياتهم،[16] ثم تصدر للإقراء بالأزهر، وتولى إفتاء

---

[12]- "الرحلة العياشية" أبو سالم العياشي،(2/ 487).

[13]- المصدر السابق.

[14]- نفس المصدر.

[15]- نفس المصدر.

[16]- "خلاصة الأثر" (4/ 486)

المالكية،[17] واشتهر بالفضل، فصار له صيت عند المغاربة، وتقلد إمارة ركب الحج المغربي المتوجه من مصر إلى الأراضي المقدسة.[18] واستمر في القراءة مدة، قرأ فيه "مختصر الخليل" و"شرح الألفية للمرادي" وعقائد السنوسي وشروحها، و"شرح الجمل للخونجي" لابن عرفة،[19] كما درس بالمدارس العثمانية المعروفة: الأشرفية، والسليمانية، والصرغتمشية.[20]

حظي عند أكابر الدولة، خلال استقراره في مصر، ثم بدأ يتردد على الحجاز حاجا، ومن ذلك حجه سنة 1085ه، وفيها سمع منه النخلي[21] حديث الرحمة المسلسل بالأولية، بمكة المكرمة.

كما كان يتردد على بلاد الروم مارا بالشام، ويتوقف بها فترة من الزمن، فتكررت زياراته لها، وجعلوا له مجلسا علميا مهيبا بالجامع الأموي[22]، حيث التقى بعلماء دمشق، وشهدوا له بالفضل التام، وتلقوه بما يجب له، ومدحه شعراؤها، واستجاز منهم نبلاؤها.

واجتمع في استانبول بأكابرها، وأكرمه فيها شيخ الاسلام، الصدر الأعظم يحيى المنقاري[23]، كما حضر الدرس الذي كان يجتمع فيه العلماء بحضرة السلطان العثماني، باحثا وعالما، وأنزله مصطفى

---

[17]- "تاريخ الجزائر الثقافي" (2/ 105)

[18]- "الرحلة العياشية" (2/ 487)

[19]- "مشيخة أبي المواهب" ص:91، تحقيق محمد مطيع حافظ، دار الفكر المعاصر، ط1، 1410ه-1990م.

[20]- توجد هذه المدارس في القاهرة: (الأشرفية) نسبة إلى السلطان الأشرف برسباي الدقماني، و(السليمانية) نسبة إلى السلطان سليمان ابن السلطان سليم، و(الصرغتمشية) نسبة إلى الأمير صرغتمش. انظر: "الحركة العلمية في مصر في القرن السابع عشر" ص:115.

[21]- "فهرسة النخلي" ص:32.

[22]- جامع بني أمية الكبير، ويعرف اختصارًا بالجامع الأموي، وهو المسجد الذي أمر الوليد بن عبد الملك بتشييده في دمشق، ويُعد رابع أشهر المساجد الإسلامية بعد حرمي مكة والمدينة والمسجد الأقصى. انظر: "تحفة النظار في غرائب الأمصار" لابن بطوطة، (1/ 102)، تحقيق محمد العريان، دار إحياء العلوم، بيروت، ط1، 1407ه-1987م.

[23]- سبقت ترجمته.

باشا صاحب السلطان في داره، وهي الفترة التي درَّس فيها في دمشق، وكان ممن درّسهم المحبي وأبي المواهب وغيرهما.[24]

عاد بعدها إلى مصر، وألّف فيها كل تآليفه، ومن ضمنها هذه الحاشية.

وانفرد مقديش[25]عن غيره في ثلاث أحداث رواها عن الإمام الشاوي:

- **الحدث الأول:** تحدث فيه عن سبب سفر الإمام الشاوي إلى مقر الخلافة باستانبول أول مرة، وكان باتفاق فقهاء الأزهر بعد أن هابوا جميعهم التوجه إلى الحضرة، فأرسلوا الشاوي المغربي حتى إذا لم يكن في المستوى المطلوب لم يلحق بالأزهر، وإذا أجاد في ذلك نسبوه للأزهر.

- **الحدث الثاني:** روى فيه عن موقف أظهر منه جرأة وشجاعة كبيرة من خلال رده على السلطان، بعد أن صافحه بدل تقبيل يده -كما جرت العادة- فكان تفسيره مقنعا للسلطان، وزاده تقربا منه.

- **الحدث الثالث:** تحدث عن توليته مشيخة الأزهر، و بقائه فيها حتى وفاته، واعتبر الكتاني هذه الرواية غريبة[26]؛ لأنه لم يذكرها غيره، كما اعترض عليها بعض الباحثين المعاصرين مستدلين بأن مشيخة الأزهر يشترط فيها المذهب الشافعي، لكن اعتراضهم من هذه الناحية مردود؛ لأن هناك من شيوخ الأزهر من لم يتوفر فيه هذه الشرط؛ كالإمام محمد الخرشي (ت1101ه) صاحب الشرحين الكبير والصغير على متن الخليل. وعموما لم تشر المصادر التاريخية إلى توليته مشيخة الأزهر غير مقديش في "نزهة الأنظار".

---

[24]- "خلاصة الأثر" (4/ 486)

[25]- "نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار" لمحمود مقديش، (2/ 381) تحقيق علي الزواوي ومحمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1988م.

[26]- "فهرس الفهارس" (2/ 1132)

- **مؤلفاته.**

ترك الإمام الشاوي مؤلفات عدة في مختلف العلوم؛ كالتوحيد، والنحو، والمنطق، والتفسير، وغيرها، ورغم انتشار التصوف خلال عصره، وتأثيره على الحياة العلمية سواء بالجزائر أو بالمشرق، إلا أن مؤلفاته تكاد لا تخرج عن علوم الظاهر، ولاشك أن ذلك يعكس موقفه من التصوف، وهو الموقف المعتدل الذي يأخذ من التصوف ما يوافق الكتاب والسنة، ويرفض غيره الذي يصب في الخرافة والبدعة.

كما أن مؤلفاته لا تعكس حقيقة ما وصل إليه من نبوغ علمي، وشهرة واسعة بين علماء المغرب والمشرق، وما قيل فيه من مدح وثناء من علماء عصره ومن بعدهم كما سنرى، وهذا ما تأسف له الدكتور سعد الله[27]، الذي يرى أن الإمام قضى عمره في الشروح والحواشي، ولم يعمد إلى تأليف الجديد، رغم ما يكتسبه من علم غزير في مختلف العلوم، لا سيما التوحيد والنحو والمنطق.

لكن هذا لا ينفي تفرده وتميزه في تآليفه؛ بحيث أغنى المتون بشرحه وتحشيته، فاحتوت مؤلفاته على ما لا يوجد في المتون الأصلية، ولا في غيرها من الشروح والحواشي والتعليقات.

وهذا جرد لأهم مؤلفاته حسب العلم الذي تنتمي إليه:

- **في علم التفسير:**

في القرن الحادي عشر الهجري، عصر الإمام الشاوي، شاع تدريس التفسير والقراءات بالجزائر أكثر من التأليف فيه، فممن درسوا التفسير نجد محمد بن علي أبهلول (ت1008ه) وعيسى الثعالبي (ت 1080ه) ، وكانوا يعتمدون في ذلك على الكتب المأثورة في التفسير، كتفسير ابن عطية، وتفسير الطبري، و في القراءات، كمنظومة "حرز الأماني ووجه التهاني" للشاطبي.

[27]- "تاريخ الجزائر الثقافي" (2/ 111)

أما التأليف فلم يأخذ التفسير حيزا كبيرا من مؤلفات القرن الحادي عشر الهجري، وذكر المحبي[28] تفسيرا لعلي بن عبد الواحد الأنصاري (ت1057) بلغ فيه إلى غاية قوله تعالى ﴿وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى﴾[29]، ويبقى تفسير يحيى الشاوي من أهم التفاسير الجزائرية خلال تلك الفترة، وهو كتابه "المحاكمات بين أبي حيان وابن عطية والزمخشري" ذكر فيه اعتراضات أبي حيان الأندلسي صاحب تفسير البحر المحيط على الإمامين ابن عطية والزمخشري في تفسيريهما، وقام بالتعليق على هذه الاختلافات، كما له رسالة في تفسير قوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[30]، وهذه نبذة عن هذه المؤلفات:

- "المحاكمات بين أبي حيان وابن عطية والزمخشري"[31]: تأليف في التفسير، ألفه في مدة شهر ونصف سنة 1086ه، كما جاء في نهايته: ((وهنا انتهى ما التقطناه، وتكلمنا على ما ظهر لنا بها أبدينا في منسلخ رمضان، وابتداء من وسط شعبان، لمؤلفه يحيى الشاوي المغربي، لسنة تؤخذ من اسمه ولقبه.))[32] وهو كتاب ضخم في 360 ورقة، جمع فيه اعتراضات أبي حيان الأندلسي من خلال كتابه "تفسير البحر المحيط" على تفسير ابن عطية "المحرر الوجيز" وتفسير الزمخشري "الكشاف عن حقائق التنزيل"، وقام بالتعقيب عليها وترجيح قول على آخر، بالاستدلال بالأدلة العقلية والنقلية، ورتبه على ترتيب سور القرآن الكريم.

وبالنظر إلى حجم الكتاب ومضمونه ومدة تأليفه نصل إلى أن مؤلفه كان واسع العلم، متمكنا من علوم النقل والعقل، ضابطا لأقوال الأئمة والعلماء.

---

[28]- "خلاصة الأثر" (3/ 174)

[29]- سورة البقرة، الآية: 189.

[30]- سورة الشورى، الآية: 11.

[31]- طبع الكتاب بتحقيق محمد عثمان، عن دار الكتب العلمية، سنة: 1430ه.

[32]- "المحاكمات" (2/ 366)

– "تفسير ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾": رسالة ألفها الشاوي سنة 1077ه، ولم يكن قد التقى بعد بشيخ الاسلام يحيى المنقاري، بل كانت هذه الرسالة هدفا منه للقائه وصحبته، وهو ما يفهم من كلامه في مقدمتها: ((طالما تمنت النفس والروح والعقل من يحيى أن يحيى بيحيى، أعني من تطاير ذكره في الآفاق، ومدت إليه الأعناق، وحاز قصب السباق، مفتي الدولة العثمانية، وحائز الذروة الربانية، الكامل الأكمل الأكبر، مفتي الاسلام يحيى بن عمر... وكنت أخادع نفسي بالأماني، وانتظر وجه التهاني، وأرجو دفع ما عناني، وأطلق ناشرا بمدحه لساني.))[33]

فواضح أن رغبته كبيرة في اللقاء به، فهيأ لذلك هذه الرسالة بعد أن علم بوجود الوارثي البكري بمصر مدة قصيرة، فقام بتأليف هذه الرسالة على عجل ليجيزه بها، فاختار تفسير آية التنزيه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ وكان له ذلك، فعرضها على الشيخ يحيى المنقاري لعله يقبل بصحبته، ويجالسه في مجلسه العلمي، وأشار إلى ذلك بقوله: ((فجعلتها محط محادثة بيني وبين ذي القدر الكبير، بقصد العرض عليه لعله يرى أني ممن يصلح له سمير.))[34]

- في علم التوحيد:

– "قرة العين في جمع البين"[35]: رسالة كتبها الشاوي، في يوم بين آذان الظهر والعصر، بدليل قوله في نهايتها ((... وافق بدؤه وختمه آذان الظهر والعصر))[36] وهذا يدل على سعة علمه، وقوة حافظته، وكانت جوابا على السؤال: هل يمكن التوفيق بين الأشعرية والماتردية، أم لا؟ ورد عليه ممن إسعافه حتم، وإجابته غنم – كما أشار في مقدمته– فذكر إحدى وعشرين مسألة اختلفوا فيها،

---

[33]– "رسالة في تفسير (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)" ص: (1/أ)، مخطوط موضوع بمجمع اللغة العربية، بدمشق، تحت رقم: 966. حصلت على جزء منه.

[34]– المصدر السابق، (1/ب)

[35]– لازال الكتاب مخطوطا، وحصلت على ثلاث نسخ منه: نسختين موضوعتين بمكتبة الحرم المكي تحت رقم: 1426 و1340. ونسخة ثالثة موضوعة بمكتبة الملك عبد العزيز تحت رقم: 1205، ضمن مجموع من (141أ) إلى (144أ)

[36]– "قرة العين" (6/أ) نسخة الحرم المكي، رقم:1426.

دون أن يضر خلافهم أو يفسد العقيدة[37]، ومنها: حقيقة الإيمان والإسلام، والفرق بينهما، وزيادة الإيمان ونقصانه، ومكانة الأعمال من مسمى الإيمان، والاستثناء في الإيمان...

والغالب أن السائل كان من السلطة العثمانية، التي كانت تتبنى المذهب الماتردي، وهي أهم مراحل انتشار هذا المذهب، بمباركة العثمانيين، في حين أن المؤلف أشعري؛ وكما رأينا فقد كان مقربا من السلاطين العثمانيين، وله حظوة عندهم، وتأليفه لهذا الكتاب قد يكون من باب مناصرتهم، ورغبته في إظهار التقارب بين مذهبه الأشعري ومذهب سلطان البلاد، كما أن ذلك يعبر عن العلاقة التي سادت بين المذهبين الأشعري والماتردي؛ فمعلوم أن الشاوي كانت لو حظوة عند أكابر العثمانيين، يحضر مجالسهم، ويشارك فيها، وسؤاله التوفيق بين المذهبين تعبير عن رغبة السائل في تقريبهما، فحاول المجيب أن يكون عند حسن ظن السائل، فذكر رأي كل من المذهبين في المسألة المثارة، ثم حاول التوفيق بين القولين ما أمكن، ومن ذلك: قوله في تأثير قدرة العبد في الفعل: ((قالت الأشعرية بعدم تأثير قدرة العبد في الفعل لا تخليقا، ولا كسبا، والماتريدية على أن للعبد اختيارات جزئية، فإذا صرفها في فعل ينسب الكسب إلى العبد، والخلق للرب؛ والتوفيق أن الأشعرية نفوا التأثير؛ أي لا أثر لقدرة العبد في المفعول، ولا فيما تولد منه؛ كالألم، وإن كان اقترانها يسمى كسبا، وكتبهم مملوءة بهذا، والماتردية تثبته كسبا لا تأثيرا، فلا خلاف أن قول الماتردية أن للعبد اختيارات جزئية، يظهر منه للعبد إرادة عليها ترتب ثوابه وعقابه، ولا فعل لله في تلك الإرادة، وهو غير صحيح، فيعدل على معنى أن له إرادة يخلقها الله تعالى فيه وقدرة، ولا تأثير لهما، والله أعلم.))[38]

- "النبل الرقيق في حلقوم الساب الزنديق": رسالة أخذت طابعا فلسفيا، ألفها حوالي سنة 1092ه، للرد على آراء نور الدين إبراهيم الكوراني، واتهمه باتباع آراء المعتزلة، والقول بالاتحاد،

[37]- المصدر السابق (1/ أ)

[38]- "قرة العين" (5/ ب) نسخة الحرم المكي، رقم: 1426.

بزعم أن الله موجود في كل جرم، واستنقاص الرسل، فحكم عليه بالكفر، وطالب بقتله، وقد يكون هو المقصود في قول الإفراني: ((بلغه أن بعض الفقهاء بالمدينة أنشأ محرابا في المسجد النبوي، فذهب إليه من مصر بنية قتله، فأدركته المنية في الطريق.))[39]

وانتصر محمد بن رسول البرزنجي للكوراني، وألف رسالة للرد على الشاوي بعنوان: "العقاب الهاوي على الثعلب العاوي، والشهاب الكاوي للأعشى الغاوي، والشهاب الشاوي للأحول الشاوي". وذكر الدكتور سعد الله[40] أنه يتوفر على صورة من هذه الرسالة وضمنها فقرات من "النبل الرقيق".

- "التحف الربانية في جواب الأسئلة اللمدانية"[41]: وهي أجوبة من أسئلة وردت عليه في مسائل العقيدة، يرجح أنها من شيخ الإسلام، أو الصدر الأعظم بالقسطنطينية، حيث وصفه بقوله ((خلاصة الخلان ممن ضمني وإياه المكان، وحضر معنا بعض درس العقائد في بعض الزمان.))[42] وأشار إلى أنه التقى به خلال انتقاله وتجواله، وربما يقصد انتقاله بين الشام ومصر والحجاز، فلقد كان كثير التنقل بينهما.

ولقد أجاب على هذه الأسئلة العقدية مستشهدا بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وآراء العلماء، بعد تردده واحتراسه في الجواب، واصفا نفسه بالضفدع وسط اليم، الذي إن نطق ألجمها الماء، وإن سكتت ماتت من الغم.[43]

---

[39]- "تعريف الخلف" (1/ 191)

[40]- "تاريخ الجزائر الثقافي" (2/ 107)

[41]- طبع الكتاب بتحقيق الدكتور جمعة الفيتوري، عن دار المدار الاسلامي ببيروت، سنة: 1423ه2002م.

[42]- "التحف الربانية" ص:37.

[43]- المصدر السابق، ص:38.

واحتراسه في محله، إذ هي أسئلة صعبة، خاض فيها كبار العلماء من قبله، واختلفوا فيها، وتجرؤه على الإجابة عليها إنما هو نابع عن سعة علمه وتمكنه من علم التوحيد.

ومن هذه الأسئلة:

ما هو الدليل الجملي الذي يخرج المقلد بمعرفته من الخلاف الواقع؟

إذا كان المصيب في العقليات واحد، مع تعدد أقوال أهل السنة؛ كالأشعري والرازي في الأحوال نفيا وإثباتا فمن المخطئ؟ ومن يُتبع؟ ومن لا يتبع؟

صفة الإرادة، هل لها تعلقان؛ صلاحي وتنجيزي كالقدرة؟ أم لها تعلق تنجيزي فقط؟

- "توكيد العقد فيما أخذ الله علينا من العهد": وهو الحاشية موضوع البحث، وسيتم تفصيل الحديث عنها لاحقا.

- "القضيب البتار لحسم مادة الافتقار" [44]: تأليف صغير في ثمان ورقات، ألفه الشاوي بين صلاتي المغرب والعشاء، للتعليق على قول شاع في عصره وصف شناعته بقوله: ((كلمة تكاد السموات منها أن تزول، وقرار الأرض يحول.))[45] وهو: القول بقدم الافتقار، حيث قال: ((كل من سمعناه يتعاطى علم الكلام يزعم بل يحقق بقدم الافتقار، ولهم في ذلك شبه))[46] ويستدلون على ذلك بأنه الافتقار لو لم يكن قديما، لكان حادثا، ولو كان حادثا لم يثبت في الأزل، وحيث كان كذلك ثبت غنى العوالم الحادثة، وهو محال. وعارضهم الشاوي برد سبع شبه أحصاها في ادعائهم، واعتبر أن القول بقدم الافتقار كفر، ومما فسر به اعتراضه أن الافتقار ليس جزء من الألوهية حتى

[44] - الكتاب لا زال مخطوطا، وحصلت على نسخة منه، وهو موضوع بالمكتبة الحسنية، تحت رقم: 12197، ضمن مجموع (28-42) ورقة.

[45] - "القضيب البتار في حسم مادة الافتقار" (1/أ)

[46] - المصدر السابق: (1/أ)

يلزم قدمه، بل هو وصف لها، ((فلا يلزم من تفسير الألوهية به قدمه، وإلا لزم كون العبادة والتجرد وغيرهما قديمة... كما أن الافتقار والغنى فرع ثبوت من يحكم عليه بذلك، وتقبل ذلك العوالم في الأزل ليست بثابتة إجماعا وعقلا، وما ليس بثابت كيف يقال فيه حالة استحالة إيجاده، إن لم يكن غنيا كان فقيرا، فإن هذا إنما يقال وفق دليل: قابل المحل القابل للشيء، لما يخلو عنه أو عن ضده أو عن مثله، وحيث لم يكن محلا فلا يقال ذلك.))[47]

- **في علم الحديث:**

- "الترجيح في بيان ما للبخاري من التصحيح": ذكره النخلي في "فهرسته"[48] وهو مما أجازه به وجميع مؤلفاته الأخرى. ولم أجد له ذكرا عند غيره.

- **في علم النحو:**

- "فتح المنان في الأجوبة الثمان": شرح لنظم العلامة فرج بن قاسم بن لب، المسمى "الأجوبة الثمان"، ألفه باسم محمد بن محمد بن ميرزا، ولد قاضي مكة المكرمة، في مدة تقل عن كمال اليوم الواحد، كما أشار في مقدمته[49]، دون مطالعة أي كتاب، بل معتمدا على ما تحفظه ذاكرته من كتاب "التسهيل" و"ألفية بن مالك" وغيره، وعلى كتاب بن لب، بغرض أن ينتفع به الكهول والصبيان.[50]

- "ارتقاء السيادة في علم أصول النحو": مؤلف صغير في أصول النحو، جعله على أسلوب كتاب "الاقتراح في أصول النحو" للسيوطي، باسم السلطان شاه زاده؛ وهو محمد بن إبراهيم بن خان قبل توليه السلطة؛ وقال في ذلك: ((فهي حليلة لشاه زاده، رزقه الله الإفادة بأتم

(47)- نفس المصدر (2/ أ)

(48)- "فهرسة النخلي" ص:65.

(49)- "فتاح المنان في الأجوبة الثمان" ص:223، تحقيق سعد محمد عبد الرزاق، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

(50)- المصدر السابق، ص:289.

دليل...وسبب وقوع الفكرة عليه أني رأيته يوم ارتحال وتعزيل وعليه أنوال الملك والهيئة الاجتماعية ناطقة بأنه الثاني بعد عمر للأكبر طويل.))[51]

قرظه له شيخ الاسلام يحيى المنقاري بقوله: ((لا يخفى على الناقد البصير أن هذا التحرير كنسج الحرير، تأليف ما نحى نحوه إلى هذا الأمر في النحو ناح، لطيف بمطالعته، تنشرح الصدور، وتتلذذ الأرواح، نحو قد أسس بنيانه على قواعد الأصول، حري بأن يتنسم عليه قبول القبول من أهل المعقول...))[52] وذكر تلميذه العصامي أنه رأى هذا التقريظ بخط صاحبه على ظهر الكراس عندما اطلعه ولد الإمام الشاوي الشيخ عيسى بن يحيى على هذا التصنيف.[53]

ذكر الشاوي في هذا الكتاب أقوال أئمة النحو؛ كسيبويه والخليل، ليكون ((مرجعا للنحوي في التعويل))[54]، ورتبه على مقدمة وسبع كتب:

الكتاب الأول في السماع.

الكتاب الثاني في الإجماع.

الكتاب الثالث في القياس.

الكتاب الرابع في الاستصحاب.

الكتاب الخامس في أدلة شتى.

الكتاب السادس في التعارض والترجيح.

الكتاب السابع في أحوال مستنبطة.

---

[51] - "ارتقاء السيادة في أصول النحو" ص:28. تحقيق: عبد الرزاق عبد الرحمن السعدي، دار الأنبار، ط1، 1411هـ-1990م.

[52] - "المصدر السابق" ص:26.

[53] - "سمط النجوم" (4/ 566)

[54] - المصدر السابق، ص:32.

- "الدر النضيد في إعراب كلمة التوحيد" أو "اللامية في إعراب لفظ الجلالة" أو "منظومة في إعراب لا إله إلا الله وبنائها": وهي منظومة لامية في إعراب (لا إله إلا الله)، نظمها في ساعة محادثة ومكالمة مع بعض الأصحاب، فأعجبوا بها، وأومأ بعضهم إلى أنه نظم مستغلق يحتاج إلى شرح،[55] فأسعفهم وألف عليه شرحا، كما سيأتي لاحقا.

وبداية اللامية:

وفي لاَ إِلَهَ من بنـــاء وضـده *** وإعمال لا في الاسم خُلْفٌ تحصَّلاَ

أو الكل والتضمن أو أنها لهـا *** امتزاج فحصِّل أربعا كـن أولا

لعمرو وبنا التركيب والضمن ضـائع *** وإعراب زجاج فخذه وكملا[56]

- "شرح الدر النضيد": ألفه بطلب ممن سمعوا منه "الدر النضيد" ليشرح ما استغلق عليهم في المنظومة، فجاء الشرح متضمنا لأقوال أئمة النحاة في إعراب كلمة التوحيد، كما شرحها شرحا وافيا، ختمه بإدراج العقائد على طريقة الإمامين المقترح والسنوسي.

- "حاشية على شرح المرادي"[57]: الشرح معروف باسم "توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك"، والحاشية كتاب ضخم في النحو، قصد به الشاوي تحرير المتن وشرح المرادي بما لايخفى، لتتبع احتمالاته،[58] وسار في تأليفه وفقا لمسار المرادي في شرحه، والذي بدوره اتبع تسلسل

[55]- "شرح الدر النضيد" (2/ أ) مخطوط موضوع بالمكتبة الأزهرية، تحت رقم: [316867]. حصلت على نسخة منه.

[56]- المصدر السابق (8/ أ)

[57]- حقق جزء من الكتاب لنيل درجة الدكتوراه، من طرف د.وفاء بنت عبد العزيز بن علي الجزائري، بعنوان "حاشية على شرح المرادي للخلاصة، لأبي زكريا علي بن محمد الشاوي" (من أول باب النكرة والمعرفة، إلى آخر فصل الموصول)، بكلية التربية بالمدينة المنورة، سنة 1428ه-2007م.

[58]- "حاشية على شرح المرادي للخلاصة" (2/ 826)

الأبواب النحوية في أبيات الألفية، فجاءت الحاشية شارحة لأهم متنين في علم النحو، وألفت في مرحلة متأخرة من حياة المؤلف، بدليل ذكره مجالسة السلطان محمد الرابع فيها.[59]

- "حاشية على شرح الدماميني للتسهيل": ذكرها الشاوي في كتابه "المحاكمات"[60] وفي حاشيته على "شرح المرادي"[61] وأشار لها النخلي في "فهرسته"[62] والمحبي في "خلاصة الأثر".[63]

- **وفاته:**[64]

توفي الإمام الشاوي –رحمه الله– وهو على ظهر سفينة قاصدا الحج، وذلك يوم الثلاثاء عشر ربيع الأول لسنة 1096ه، وأراد الملاحون إلقاءه في البحر لبعد البر عنهم، فقامت ريح شديدة قطعت شراع السفينة، فقصدوا البر ودفنوه، وذكر المحبي أنه دفن بمكان يسمى (رأس أبي محمد) بينما ذهب العصامي إلى أنه مدفون بقرية (الطور).

بعد بلوغه خبره استأذن ولده عيسى صاحب مصر، فنبش عنه القبر، ونقله إلى مصر، ودفنه بالقرافة الكبرى، بتربة السادة المالكية، التي كان جددها ورممها.

ومما ذكره المحبي: أنه لما أرسل ولده عيسى بن يحيى بعض العرب ليكشفوا له عنه القبر ويأتوا به إليه، تاهوا عن قبره، فإذا هم برجل يقول لهم: ما تريدون؟ فقالوا قبر الشيخ يحيى، فأراهم إياه، فكشفوا عنه، فوجدوه بحاله لم يتغير منه شيء، فوضعوه في تابوت وأتوا به مصر، ودفنوه.

---

(59) – "المصدر السابق" (1/ 159)

(60) – "المحاكمات" (2/ 90)

(61) – "حاشية على شرح المرادي" (2/ 738)

(62) – "فهرسة النخلي" ص:65.

(63) – "خلاصة الأثر" (4/ 488)

(64) – "خلاصة الأثر" (4/ 488) و"سمط النجوم" (4/ 567)

ثانيا: التعريف بكتابه "توكيد العقد"

- **عنوان الحاشية ونسبتها إلى المؤلف:**

- **عنوانها:**

عنوان الحاشية "توكيد العقد فيما أخذ الله علينا من العهد"، ذكره المؤلف واضحا كاملا في آخر الصفحة بقوله: ((...وسميتها "توكيد العقد فيما أخذ الله علينا من العهد" قال جامعها يحيى بن محمد...)) وبنفس الاسم ذكرت في "فهرس المكتبة الأزهرية"[65]، وفي كتاب "الأعلام"[66] للزركلي، وغيرها من فهارس المخطوطات، بينما اكتفت الكتب التي ترجمت للشاوي بتسميتها: "حاشية على شرح أم البراهين للسنوسي"[67].

- **نسبتها إلى المؤلف:**

تثبت نسبة الحاشية "توكيد العقد فيما أخذ الله علينا من العهد" للإمام يحيى الشاوي، بدليل أنه ذكر اسمه واضحا صريحا في بداية المخطوط، وفي نهايته، في النسخ العشر التي حصلت عليها، فجاء في بدايته ما نصه: ((...فيقول كثير الذنوب والمساوئ يحيى الشاوي...)) و في نهايته ما نصه: ((...قال جامعها يحيى بن محمد كني أبا البركات)).

هذا بالإضافة إلى وجود عبارات على هامش المخطوط من صنيع النساخ، والتي تشير إلى أن اسم مؤلفه يحيى الشاوي مثل: (...على جواب شيخنا الشاوي- ...أورده شيخنا الشاوي - ...على السؤال لشيخنا الشاوي- ...جواب شيخنا سيدي يحيى الشاوي- ...على جواب شيخنا سيد يحيى الشاوي حفظه الله.)

[65]- "فهرس المكتبة الأزهرية" (3/ 130)، مطبعة الأزهر، 1366ه- 1947م.

[66]- الأعلام" للزركلي، (8/ 169).

[67]- "خلاصة الأثر" (4/ 488) و"هدية العارفين" للبغدادي، (2/ 533) و"شجرة النور الزكية" (1/ 317)

- **مكان وزمان وسبب تأليف الحاشية.**

لم يصرح الإمام الشاوي بتاريخ تأليف هذه الحاشية، لكنه ذكر في بدايتها أن تأليفها كان بثغر الإسكندرية، لما اجتمع بفضلائها، سنة أدائه لفريضة الحج، والغالب أنها سنة 1074ه، وهو التاريخ الذي انتقل فيه إلى المشرق قاصدا الحج أول مرة؛ إذ ذكر ناسخ النسخة الأصل في نهايتها تاريخ نسخه لها، وهو سنة 1074ه، وما تذكره كتب التاريخ أنها نفسها سنة مغادرته الجزائر متوجها إلى المشرق حاجا، فلا يرجح أن يكون تأليفها قبل هذا التاريخ، لأنه كان لازال في الجزائر، والتأليف كان في مصر، وبذاك تكون هذه الحاشية من بين مؤلفاته الأولى، إن لم تكن الأولى على الإطلاق.

وما يؤكد الطرح الذي وضعته حول سنة التأليف هو ما ذكره أبو سالم العياشي في "رحلته"[68] حيث أشار إلى لقائه بركب الحجاج الجزائريين في القاهرة سنة 1074ه، ومعهم الإمام يحيى الشاوي، والتقى به ثانية، بعدها بأيام، في الاسكندرية، ولم يغادر الشاوي إلى الجزائر مع الركب الجزائري، بل ظل بالإسكندرية، ثم رجع إلى القاهرة عازما البقاء فيها، والغالب أنه ألفها قبل رجوعه إلى القاهرة، وقد كان على عجلة من أمره، غير مستقر في الاسكندرية، بدليل قوله في الحاشية: ((..انظر في ذلك فإني على جناح سفر، ولم أطالع المادة))[69]

كما ذكر في حاشيته ما يؤكد وجوده في هذه السنة بالقاهرة، ونصه: ((وقفت سنة أربع وسبعين وألف بجامع الأزهر من مصر...))[70] فيكون الشاوي موجودا بالإسكندرية في نفس السنة التي نسخت فيها النسخة الأصل، و يتردد بينها وبين القاهرة.

---

(68)- "الرحلة العياشية" (2/ 487).

(69)- "توكيد العقد" (33/ ب)

(70)- "توكيد العقد" (49/ أ)

أما عن سبب تألفيها فلقد صرح به في بداية الحاشية بقوله: ((...فيقول كثير الذنوب والمساوئ، الجزائري يحيى الشاوي: لما اجتمعت بثغر الاسكندرية، سنة أداء الفريضة، واجتمع بي أناس فضلاء لدرس الصغرى للشيخ القطب الرباني السنوسي، وقد سمعوا مني دقائق وأبحاث، حرك ذلك منهم ما كان شبه ساكن، إلى تقييد ما سمعوه، ليكون كالحافظ لما وَعَوْهُ، فأسعفتهم وإسعافهم غنم، وإجابتهم حتم.)) فكان تأليفها بطلب من فضلاء الاسكندرية الذين اجتمعوا به لدراسة "العقيدة الصغرى" فأعجبوا بشرحه، وطلبوا منه أن يقيد لهم ذلك، فألف هذه الحاشية.

ثالثا: التفسير العقدي للإمام الشاوي في كتابه "توكيد العقد":

- منهجه في الاستشهاد بالآيات القرآنية في "توكيد العقد":

كان في أغلب الأحيان تابعا للإمام السنوسي في شواهده القرآنية في "شرح العقيدة الصغرى"؛ فيأتي بالآية التي استشهد بها المصنف، ويفسرها، وغالبا ما يركز على بيان أوجه إعرابها، ومناقشتها، لإثبات رأي، أو الرد عليه، ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[71]؛ استشهد بها الإمام السنوسي للتأكيد على انفراده تعالى بالإيجاد والتدبير بلا واسطة أو مؤثر، وقال فيها الإمام الشاوي: ((الكلام عليها لتوهم جاهل في النصب وفي الرفع تتكلم عليها بإبداء احتمال يدفع مراد الخصم، وبيانه؛ أن النصب على الاشتغال، وجملة الاشتغال تفسيرية...))[72] ثم سار يناقش كل حال إعراب على حدى، ويرد على الخصوم، ويدفع كل توهم مخل.

وكثيرا ما يورد الآية دون إتمامها، بل يكتفي بذكر عبارة منها، إشارة لها فقط، كاستشهاده بقوله تعالى: ﴿اذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾[73] وقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ﴾[74].

---

[71]- سورة القمر الآية رقم: 49.

[72]- "توكيد العقد" (29/ ب)

[73]- وردت الآية في موضعين من القرآن الكريم: سورة "المزمل" الآية رقم: 7، و سورة "الانسان" الآية رقم: 25.

[74]- سورة البقرة، الآية: 261، وتمامها:﴿ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ﴾

وتكرر ذكره للشاهد القرآني دون أن يسبقه ب (قول تعالى) أو ما يناسب هذا المقام من الألفاظ؛ فتأتي الآية داخلة في سياق كلامه، ومثاله: ((فلوكان الأمر مخلوقا كان في معنى ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ وهذا من فاسد الكلام.))[75] وقوله: ((...ليس فيه حذف الفاعل، بل على معنى حذف المضاف للفاعل، نحو﴿جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾[76] أي أمره، فتأمله، وعلى تأويل المصدر بالمفعول يكون المعنى.))[77]

- **نماذج من تفسيره العقدي في "توكيد العقد":**

- قال تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْء وهو السميع البصير﴾[78]: استدل بهذا الآية على صفة مخالفة الله تعالى للحوادث، وإن كان قوله تعالى 'ليس كمثله شيء' يعني في ظاهره فقط مخالفة الحوادث له تعالى، إلا أن اعتبارها دليلا على مخالفته تعالى للحوادث صحيح؛ لأنه (لما كان من يماثلك فقد ماثلته ، صح ذكر الآية التي فيها نفي المماثلة الحوادث له، دليلا لنفي مماثلته للحوادث.)[79]

ومنطوق الآية شامل، ولا يقتصر على استلزام الذات والصفات، فلا يدخلها الخلاف في أن عموم الأشخاص يستلزم عموم الأحوال؛ لأن أوصاف الحوادث وذواتها منطوق العبارة، فالجميع لا يماثل الله، ذواتا وصفاتا.

(وهو السميع البصير) جاء ذكر صفتي السمع والبصر بعد نفي المماثلة، لتقديم دفع الوهم عن التشبيه، والإتيان بشيء يجد ما قبله دافعا لما عساه أن يوقع في وهم التشبيه، ومن المعلوم مقابلة

[75]- "توكيد العقد" (29/ ب)

[76]- سورة هو د، الآية:75. وتمامها: ﴿يَاإِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾

[77]- "توكيد العقد" (4/ ب)

[78]- سورة الشورى الآية رقم:9. والآية بتمامها: ﴿ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوالسَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾

[79]- "توكيد العقد" (31/ أ)

الذات بالذات والصفات بالصفات، لا مقابلة العكس، فإنه غير مفيد، وحيث كان كذلك أخذ نفي مماثلة أوصافه بالمطابقة، لا بالاستلزام وبالاتفاق، ولا بالاختلاف.

- قال تعالى ﴿إِنَّا كُل شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[80]:اختلف في قراءة (كل) بوجهين؛ النصب والرفع:[81]

أولا: تفسيرها على قراءة النصب: إنَّا أصلها إننا؛ (نا) هو اسمها، والفعل الواجب الحذف المفسَّرُ بالمشتغل بالضمير خبرها، وهو: خلقنا خُلْقٌ، من ضمير المفعول، ليتفرع للعمل في (كل) أي: إنا خلقنا كل شيء خلقناه، وبقدر يتعلق بالفعل الأول أو الثاني، فيلزم عموم خلقه الأشياء، ولئن سلمنا ما هو كالحال من جعل الجملة صفة مع الاشتغال، والتقييد بالخلقية فيكون المعنى: إنا خلقنا كل شيء مخلوق بقدر؛ فيحترز من شيء ليس بمخلوق، فهو ليس بقدر، وذلك ذاته وصفاته القديمة، فغاية ما دلت عليه الآية أن هناك شيئا لم يخلقه، فنحن نقول: ذاته وصفاته وهم لا يخالفون فيه، وهم يقولون: المراد أفعال العباد الاختيارية، ونحن نخالفهم فيها، والتفسير بالمتفق عليه متعين، والتفسير بغيره دعوى من المخالف، يحتاج لإثباتها، وهذا الوجه ذكر مثله ابن رشد في رواية الرفع[82]، أعني كون الاحتراز من ذاته وصفاته لا من أفعال العباد، فصح لنا أخذه هنا على إرخاء العنان، وتسليم الوصفية مع الاشتغال، ولا شك أن الجمع بينهما من توهم جاهل بالعربية.[83]

ثانيا: تفسيرها على قراءة الرفع: أما على قراءة الرفع (فخلقناه) يحتمل الخبرية، و(بقدر) متعلق بفعلها، فيلزم عموم خلق الأشياء، يعني الممكنات بإجماع، إذ لا تعلق للخالقية بغيرها، ويحتمل الوصفية، و(بقدر) هو الخبر، وهو احتمال صحيح في نفسه ليس فيه ما يدفعه صناعة، لكن هو غير

---

[80]- سورة القمر الآية رقم: 49.

[82]- "فتاوى ابن رشد" لأبي الوليد ابن رشد (3/ 1533)، تحقيق د.المختار بن الطاهر التليلي، دار الغرب الاسلامي، ط1، 1407ه-1987م. .

[83]- "توكيد العقد" (35/ ب)

متعين لها لما سبق من احتمال الخبرية المفيد للعموم، والاحتمال يسقط للاستدلال سلمناه أي أنه صفة، لكن لا نسلم الاحتراز من أفعال العباد، بل الاحتراز من المجمع عليه، وهو ذاته وصفاته؛ يعني أن الشيء الغير المخلوق ليس بقدر، وهو ذاته وصفاته، وهم يقولون أفعال العباد، والمجمع عليه مقدم على المختلف فيه، سلمنا تساويهما، فالاحتمال يسقط الاستدلال[84].

- قال تعالى ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[85]: إن (ما) تحتمله المصدرية والموصولية بمعنى (الذي)، والأول المختار؛ إذ لا رابط للحرفية بلا حذف، إذ لا ضمير نقدره وهو مختار سيبويه؛ أي: خلقكم وخلق عملكم، والحجة لنا فيه ظاهرة، فليس العبد يخلق أفعاله، هذا على المصدرية.

وعلى أنها بمعنى (الذي) فيحتمل أن يكون العائد منصوبا، أي: وخلق الذي تعملونه، أي: العمل الذي تعملونه، فهو صادق على العمل أيضا، ويرجحه كونها مصدرية، فيتعاضد الإعرابان / ويعضده أن الآية سيقت للتوبيخ على عباده أفعالهم، حيث قال تعالى: ﴿تَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُون﴾[86] أي نحتكم الذي صارت به الحجر صنما، فإنهم ما لم يصورونها بصورة مخصوصة لم يعبدوها، فهم إذاً قد عبدوا عملهم، ثم تمم الرد عليهم بأن الله خلقهم، وخلق ما عبدوه، وقد علمت أنهم عبدوا عملهم، فيتسق النظام في مساق الآية، وفي الذي تحتمله (ما) حرفية أو اسمية، ويحتمل أن العائد مجرور؛ أي وخلق الذي تعملون فيه؛ أي الأجساد التي يقع عملكم فيها، فيكون في الآية: أن الله خلقنا، وخلق ما تحل فيه أعمالنا من أحجار لبنَّاء، وشاة لجزَّار، وقرطاس لكتاب، وخشب لنجار، إلى غير ذلك، فتكون الآية ليست فيها دلالة على أن الله خالق أفعال العباد، لكن هذا يضعفه قوة ما قبله، ويضعفه كون حذف العائد المنصوب أصلا، وأنه الأكثر بتقدير لو حصل للمجرور شروط

[84]- "توكيد العقد" (36/ أ)

[85]- سورة الصافات الآية رقم: 96.

[86]- سورة الصافات ص95.

جواز حذفه من كونه جر بما جر به الموصول، والموصول هنا لم يجر، وإن جوزه الأخفش[87]، فالمعتمد خلافه.

- ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾[88] و﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾[89] استشهد الإمام الشاوي في الخلاف حول مسألة الاسم هل هو المسمى؟ فبعد أن ذكر أقوال المذاهب في المسألة، بين من قال بأن الاسم هو المسمى، ومن قال أنه غير المسمى، فاستثنى من الخلاف المشروع الحشوية لقولهم إن الاسم هو عين المسمى، وحاول التوفيق بين القولين بأن الاسم هو المسمى إن أريد مدلول الكلمة، وهو غير المسمى إن أريد اللفظ، لأن اللفظ ليس المسمى، وإلا لاحترق من قال نارا، ولا مات من قال سما. واستدل بالآية الأولى ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ على دلالة الاسم على المسمى؛ لأن المذكور اللفظ، واستدل بالآية الثانية ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ على دلالة الاسم على المدلول؛ لأن المقصود من الآية هو تنزيهه سبحانه وتعالى عن النقائص، والتنزيه عنها من خواص الذات.

- ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [90] استدل بهذه الآية لبيان صنفين من النافين للصفات:

الصنف الأول: وهم عبدة الأوثان؛ وذلك باعتبار ما في الآية من باب قصر الصفة على الموصوف، فالله تعالى هو السميع البصير لا غيره من الأصنام، فهي رد على عبدة الأوثان من حيث لازم قولهم بالألوهية لها، لا أنهم صرحوا بأنها تسمع وتبصر؛ لأن المشاهدة تكذبهم.

---

[87]– هو أبو الحسن سعيد بن مسعدة المجاشعي، النحوي البلخي المعروف بالأخفش الأوسط ، أحد نحاة البصرة، وهو من أئمة العربية، وأخذ النحو عن سيبويه، وهو الذي زاد في العروض بحر الخَبَبِ، من مؤلفاته " تفسير معاني القرآن" وكتاب"المقاييس" في النحو، وكتاب "العروض" وكتاب "الاشتقاق" توفي سنة 215ه. انظر " وفيات الأعيان" (2/ 380) و"شذرات الذهب" (3/ 73).

[88]– وردت الآية في موضعين من القرآن الكريم: سورة "المزمل" الآية رقم: 7، و سورة "الانسان" الآية رقم: 25.

[89]– سورة الأعلى، الآية رقم: 1.

[90]– سورة "مريم" الآية:42. وتمامها: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾

الصنف الثاني: وهم النافون لكل الصفات، فترد عليهم الآية بإثبات صفتين، وهو من باب قصر الموصوف على الصفة، أو قصر الموصوف على الصفتين قصر قلب؛ أي متصف بها لا ينافيها، ففيها الرد على من نفاها، ولا يصح قصره على الصفتين على معنى أنه متصف بها، لا بصفات أخرى؛ كالقدرة ونحوها.

اعتبر الأمام الشاوي مسألة كلام الله تعالى من أصعب المسائل التي خاض فيها علماء الكلام حيث قال: ((مسألة الكلام هي المسألة الدهباء، والمعضلة الزباء، وفيها دارت الرؤوس مثل شرب الكؤوس، ونجا فيها الأشعري وأهل مذهبه من كل بؤس وحاصل القول فيها بذكر المذاهب، والختم بما نرجو به الختم بعد تمييز حقيقة كل مذهب.))[91] وراح يستعرض أقوال المذاهب في المسألة، (المعتزلة، والحنابلة، والسلف، والأشاعرة) ثم استشهد بآيات وفسرها للتوفيق بين مذاهب أهل السنة، فاستدل بقوله تعالى: ﴿قُل لَّوكَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾[92] وقوله: ﴿مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ﴾[93]: ورد كلام الله تعالى بصيغة الجمع في هاتين الآيتين (كلمات) كما وردت في قوله تعالى ﴿حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾[94] ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾[95] فله أمر واحدٌ ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ﴾[96] بصيغة المفرد؛ وتفسيره أن الأمر أثبت بلفظ الوحدة،

---

[91]- "توكيد العقد" (61/ أ)

[92]- سورة الكهف، الآية رقم: 104، وتمامها: ﴿ قُل لَّوكَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوجِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾

[93]- سور لقمان، الآية رقم:2، وتمامها: ﴿ وَلَوأَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

[94]- سورة السجدة، الآية رقم:13، وتمامها: ﴿وَلَوشِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ .

[95]- سورة الزمر، الآية رقم:68، وتمامها: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾

[96]- سورة القمر، الآية رقم:50، وتمامها: ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾

وأثبتت الكلمات بلفظ الكثرة؛ فله أمر واحد، وكلمات كثيرة، وأمره أزلي، به الخلق والفعل، وكلماته أزلية قديمة لا تشبه كلماتنا، وهي حروف قدسية علوية غير حادثة.

قائمة المصادر والمراجع:

1. **القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.**

2. "ارتقاء السيادة في أصول النحو" يحيى الشاوي، تحقيق: عبد الرزاق عبد الرحمن السعدي، دار الأنبار، ط1، 1411ه-1990م.

3. "الرحلة العياشية" عبد الله بن محمد العياشى، دار السويدى ، 2006 م - 1427هـ.

4. "المحاكمات بين أبي حيان وابن عطية والزمخشري" يحيى الشاوي، بتحقيق محمد عثمان، ط1، دار الكتب العلمية، 1430ه.

5. "تاريخ الجزائر الثقافي" أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1998.

6. "تحفة النظار في غرائب الأمصار" لابن بطوطة، تحقيق محمد العريان، دار إحياء العلوم، بيروت، ط1، 1407ه-1987م.

7. "ثبت عبدالقادر الفاسي" مخطوط موضوع بمكتبة الحرم المكي تحت رقم: 754، ضمن مجموع يضم مجموعة من الإجازات والمصافحات.

8. "حاشية على شرح المرادي للخلاصة" حقق جزء من الكتاب لنيل درجة الدكتوراه، من طرف د.وفاء بنت عبد العزيز بن علي الجزائري، بعنوان "حاشية على شرح المرادي للخلاصة، لأبي زكريا علي بن محمد الشاوي" (من أول باب النكرة والمعرفة، إلى آخر فصل الموصول)، بكلية التربية بالمدينة المنورة، سنة 1428ه-2007م.

9. "خلاصة الأثر" للمحبي، المطبعة الوهبية، 1284هـ،

10. "رسالة في تفسير (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)" مخطوط موضوع بمجمع اللغة العربية، بدمشق، تحت رقم: 966.

11. "شرح الدر النضيد" مخطوط موضوع بالمكتبة الأزهرية، تحت رقم: [316867].

12. "فتاح المنان في الأجوبة الثمان" ص:223، تحقيق سعد محمد عبد الرزاق، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

13. "فتاوى ابن رشد" لأبي الوليد ابن رشد، تحقيق د.المختار بن الطاهر التليلي، دار الغرب الاسلامي، ط1، 1407ه-1987م. .

14. "فهرس الفهارس" للكتاني، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، 1402 ه-1982م

15. "فهرس المكتبة الأزهرية" (3/ 130)، مطبعة الأزهر، 1366ه- 1947م.

16. "قرة العين" نسخة موضوعة بمكتبة الحرم المكي، رقم:1426.

17. "مشيخة أبي المواهب" تحقيق محمد مطيع حافظ، دار الفكر المعاصر، ط1، 1410ه-1990م.

18. "معجم أعلام الجزائر" عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت- لبنان، 1400ه- 1980م

19. "نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار" لمحمود مقديش، تحقيق علي الزواوي ومحمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1988م.

20. "وصف إفريقيا" للحسن الوزان، تحقيق: محمد حجي، ومحمد لخضر، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1983م.

21. [1] - "التحف الربانية" تحقيق الدكتور جمعة الفيتوري، عن دار المدار الاسلامي ببيروت، سنة: 1423ه2002م.

22. [1] - "القضيب البتار في حسم مادة الافتقار" مخطوط موضوع بالمكتبة الحسنية، تحت رقم: 12197، ضمن مجموع (28-42) ورقة.

23. فهرسة النخلي المسمى "بغية الطالبين لبيان المشايخ المحققين المعتمدين" مخطوط موضوع بمكتبة جامعة الملك سعود، بالرياض، تحت رقم: 1250.

الشيخ أحمد بن مصطفى العلاوي المستغانمي إماما مُفسّرا بين التفسير الأثري والتفسير الإشاري

أ.د. عصام طوالبي الثعالبي، أستاذ التعليم العالي بجامعة الجزائر 1

ومدير وحدة بحث كرسي اليونسكو الأمير عبد القادر

لحقوق الإنسان وثقافة السلام

الملخص:

تثير دراسة التراث العلاوي منذ بضعة سنوات اهتماما متزايدا لدى الباحثين الأكاديميين، سواء في العالم العربي أو الغربي. لكن أكثر الدراسات الجامعية المخصصة لأستاذ الطريقة العلاوية تتمحور حول منهجه الصوفي، وخطابه العرفاني، وأسلوبه الروحي. من هنا، تهدف هذه المقالة العلمية تسليط الضوء على جانب من جوانب الشخصية العلمية للشيخ العلاوي الذي لم يحظ بعد بالعناية الكافية: التفسير.

هل نستطيع اعتبار الإمام المستغانمي مفسرًا بالمعنى الدقيق للكلمة؟ وإن كان الأمر كذلك، في أي نوع من أنواع التفسير يندرج عطاؤه في هذا المجال: أهو تفسيرٌ إشاريٌ محضٌ على نمط رجال التصوف أمثال ابن عربي أو الأمير عبد القادر؟ أم حاول بن عليوة تجاوز التصنيف التقليدي بين الأثري والإشاري ليقترح مقاربة جديدة جامعة بين الظاهر والباطن؟

1ـمولده ونشأته:

وُلد أحمد بن مصطفى بن عليوة المُكنّى بـ"الشيخ العلاوي" في مستغانم سنة 1285هـ/ 1869م، في عائلة شريفة مشهورة بالعلم والقضاء. رغم صعوبة الظروف الاجتماعية التي نشأ فيها والتي حالت دون التحاقه بالمدرسة العمومية، لم يمنعه ذلك من تعلّم القراءة والكتابة وحفظ ثلثي القرآن على يد أبيه. توفّي والده وهو في سنّ السابعة عشر من عمره، فاضطرّ إلى مباشرة عدّة حرف، منها صناعة الأحذية، قبل أن ينتقل للتجارة؛ فأخذ يكرّس نهاره لأسباب المعيشة، ويخصّص ليله للعلم والمعرفة، ملزما نفسه بحضور حلقات العلم في مساجد مستغانم[1] إلى حين التحاقه بالشيخ محمد بن الحبيب البوزيدي الشاذلي الدرقاوي[2] الذي سيلزم صحبته قرابة خمس عشر سنة.

لعب بن عليوة المريد في قيد حياة أستاذه دورا هاما في نشر تعاليم الطريقة الشاذلية؛ كما يذكّرنا بذلك الشيخ الحالي للطريقة العلاوية، الأستاذ خالد بن تونس، "يجب العلم أن الشيخ البوزيدي بعد عودته من المغرب الأقصى، رغب في التعريف بالطريق في مستغانم، إلا أنّه اصطدم بمعارضة كبيرة من طرف الزوايا الكبيرة الموجودة آنذاك. فرأى يوما من الأيام النبي (ص) يأمره بالسكوت، ولم يلقّن المعرفة بعد ذلك إلى حين ملاقاته بالشّيخ العلاوي. فبعد أن أذن لمريده بنشر تعاليم الطريقة، التحق بها عدد كبير من الأتباع الجدد"[3]. ندرك من هنا لماذا بادر مريدو الشيخ البوزيدي، مباشرة بعد وفاة شيخهم سنة 1327هـ/ 1910م، إلى مبايعة بن عليوة شيخاً على رأس الطريقة.

---

[1] أكثر من حضر مجالسهم الشيخ علال محمد ولد مصطفى. أنظر: بوغانم غزالة، الطريقة العلاوية في الجزائر ومكانتها الدينية والاجتماعية (1909–1934)، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة منتوري قسنطينة، 1429هـ/ 2008م، ص. 68.

[2] وليد مستغانم سنة 1222هـ / 1824م، استخلف على رأس الطريقة الدرقاوية بعد وفاة شيخه الوكيلي. اعترض عليه بعد المغاربة فاضطر بالعودة إلى مستغانم والإقامة بها إلى حين وفاته سنة 1327 هـ/ 1909 م.

[3] Bentounes Khaled, « Nouveau regard sur la vie et l’œuvre du cheikh el-Alawî », A l’épreuve de la diversité : Droit, Société et Education, Issam Toualbi (dir.), Casbah Editions, Alger, 2017, p. 23-43.

تولى بن عليوة المشيخة لمدة أربع وعشرين سنة، كرّسها للنضال في سبيل الحفاظ على الهوية الجزائرية في زمن تنوّعت فيه مكائد المستعمر للقضاء على معالمها، وللدبّ عن طريق التصوّف في فترة انتشر فيها المدّعون الذين شوّهوا حقيقته بممارسات دخيلة عليها. من مبادراته الإصلاحية إلغائه لعادة "الوعدة" أو الاجتماع للذبح والدعاء عند ضريح الولي لتعويضها بالمؤتمرات السنوية، ومباشرته لسلسلة من السّياحات في القرى الجزائرية لمكافحة الحركات التبشيرية، وتدشينه للعديد من الزوايا في كبار المدن كالجزائر وتلمسان وعنّابة وغليزان، وتأسيسه لصحيفتي "لسان الدين" و"البلاغ الجزائري" لترقية تعاليم إسلام متسامح ومتفتح.

علاوة عن جهوده للدفاع عن الدين والوطن، خلّف الإمام المستغانمي تراثا علميا معتبرا يضمّ أكثر من أربع وعشرين مؤلفا في مختلف مجالات العلوم الشرعية[4]: التصوف، الفقه، الشعر الروحي، الفلسفة الإسلامية، وكذا التفسير.

تثير دراسة التراث العلاوي منذ بضعة سنوات اهتماما متزايدا لدى الباحثين الجزائريين. لكن أكثر الدراسات الجامعية المخصصة لأستاذ الطريقة العلاوية، كأطروحة بهادي منير (1427هـ/ 2007م)[5]، ومعلم سعاد (1428هـ/ 2008م)[6]، وجاب الخير أحمد (1440هـ/ 2019م)[7]، تتمحور حول منهجه الصوفي. كذلك تدور جلّ المقالات العلمية حول الشيخ العلاوي في فلك

[4] نخصّ منها بالذكر في التصوف: المنح القدسية في شرح المرشد المعين بطريقة الصوفية، والمواد الغيثية الناشئة عن الحكم الغوثية؛ وفي الفقه والعقيدة: الرسالة العلاوية في بعض المسائل الشرعية، ومبادئ التأييد في بعض ما يحتاج إليه المريد؛ وفي الفلسفة الإسلامية: القول المقبول فيما تتوصل إليه العقول، والأبحاث العلاوية في الفلسفة الإسلامية.

[5] بهادي منير، الإنسان والتجربة الصوفية عند الأمير عبد القادر ومصطفى العلاوي، تحت إشراف عبد اللاوي محمد، جامعة وهران 1، 1427هـ/ 2007م.

[6] معلم سعاد، التصوف عند الشيخ أحمد بن مصطفى العلاوي دراسة تحليلية، إشراف زرمان محمد، جامعة الجزائر 1، كلية العلوم الإسلامية، 1428هـ/ 2008م.

[7] جاب الخير أحمد، أحمد بن عليوة المستغانمي ومذهبه العقدي والصوفي، تحت إشراف اسعيد عليوان، جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة، 1440هـ/ 2019م.

فكره الروحي، على غرار مقالات بعيطيش يحي (1423هـ/ 2003)[8]، وحميدي خميسي (1424هـ/ 2004)[9]، وبن عومر رزقي (1439هـ/ 2018)[10].

ندرك من هنا أهمية هذه المقالة العلمية التي نقترحها ضمن موسوعة أعلام التفسير في الجزائر: تسليط الضوء على جانب من جوانب الشخصية العلمية للشيخ العلاوي لم يحظ بعد بالعناية الكافية: التفسير. هل نستطيع اعتبار الإمام المستغانمي مفسرًا بالمعنى الدقيق للكلمة؟ وإن كان الأمر كذلك، في أي نوع من أنواع التفسير يندرج عطاؤه في هذا المجال: أهو تفسيرٌ إشاريٌّ محضٌ على نمط رجال التصوف أمثال ابن عربي أو الأمير عبد القادر؟ أم حاول بن عليوة تجاوز التصنيف التقليدي بين الأثري والإشاري ليقترح مقاربة جديدة جامعة بين الظاهر والباطن؟

سنحاول الإجابة على هذه التساؤلات من خلال وقفة مع مؤلّفين الشيخ العلاوي في تفسير الكتاب العزيز: منهل العرفان في تفسير البسملة وسور من القرآن (المبحث الأول) والبحر المسجور في تفسير القرآن بمحض النور (المبحث الثاني).

المبحث الأول: منهل العرفان في تفسير البسملة وسور من القــرآن

طبع كتاب "منهل العرفان في تفسير البسملة وسور من القرآن" تحت لواء المطبعة العلاوية بمستغانم سنة 1418هـ/ 1998م بعناية وتقديم الأستاذ يحي برقة. يضم الكتاب 111 صفحة، وهو عبارة عن مجموع ثلاثة رسائل للشيخ العلاوي ألّفها ما بين 1913 و1933: الأنموذج الفريد

---

[8] بعيطيش يحي، "الشيخ أحمد العلاوي شاعرا متصوفا: قراءة أولى في أغراضه الشعرية"، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة قسنطينة، المجلد 14، العدد 1، 1423هـ/ 2003م، ص. 25-44.

[9] خميسي حميدي، "الشيخ أحمد العلاوي عارفا ومتصوفا"، مجلة الصراط، جامعة الجزائر، المجلد 5، العدد 1، 1424هـ/ 2004م، ص 138-153.

[10] بن عومر رزقي، "مقام الحقيقة المحمدية وأدوارها في كتابات الشيخ أحمد العلاوي"، مجلة أبعاد، جامعة وهران، المجلد 4، العدد 6، ص. 77-96. وهو أيضا صاحب أطروحة دكتوراه في الفلسفة بعنوان: العرفان عند الشيخ أحمد بن مصطفى بن عليوة المستغانمي، تحت إشراف عبد اللاوي محمد- جامعة وهران، 1439هـ/ 2012م.

المشير لخالص التوحيد (المطلب الأول)، لباب العلم في سورة والنجم (المطلب الثاني)، ومفتاح علوم السر في تفسير سورة والعصر (المطلب الثالث).

المطلب الأول: الأنموذج الفريد المشير لخالص التوحيد

نُشرت الرسالة لأول مرة بالمطبعة التونسية سنة 1331هـ/ 1913م بعنوان "الأنموذج الفريد الموصل لعين التوحيد في شرح النقطة المشيرة إلى الوحدة". طبعها الشيخ من جديد سنة 1344هـ/ 1926م تحت عنوان: "الأنموذج الفريد المشير لخالص التوحيد".

الرسالة عبارة عن تفسير للبسملة، بصفة أدق للحرف الأول من البسملة أي "الباء"، حيث يسعى الشيخ في رفع الستار عن بعض المعاني المكنونة وراء شكله ورسمه.

يفتتح المؤلف رسالته بمقدمة يبرز فيها سبب تدوينه لها: "الباعث على تحريرها رغبتي في هذا الفن العظيم [أي التفسير الإشاري] واهتماما بما ورد في الأثر الفخيم من أن "كل ما في الكتب المنزلة في القرآن، وكل ما في القرآن فهو في الفاتحة، وكل ما في الفاتحة فهو في بسم الله الرحمن الرحيم، وكل ما في بسم الله الرحمن الرحيم فهو في الباء، وكل ما في الباء فهو في النقطة التي تحتها."[11]

يخصص المؤلف الجزء الثاني من المقدمة لتحديد مدلول الرموز التي يستعملها: "كلما ذكرت النقطة فنعني بها غيب الذات المقدسة [...] كلما ذكرت الألف فنعني به واحد الوجود [...] وكلما ذكرت الباء فنعني بها التجلي الأخير المعبر عنه بالروح الأعظم."[12]

يشرع الأستاذ بعد ذلك في التفصيل في كل مدلول من هذه المدلولات الرمزية، أولها النقطة. تتميّز هذه الأخيرة بكونها "لا يقع عليها حدّ التعريف كما يقع على غيرها من الحروف، [فهي] لا

[11] العلاوي أحمد، منهل العرفان في تفسير البسملة وسور من القرآن، المطبعة العلاوية، مستغانم، 1331هـ/ 1998م، ص. 18.

[12] مرجع سابق، ص. 20-21.

تُعقل بما يُعقل به الحرف رسما ولفظا [كما أن] معناها لا تحويه الألفاظ"[13]. من هنا المناسبة الرمزية مع "كنه ذات الباري جل شأنه، ليس له لفظ يفصح عن ماهيته"[14]: { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } (الشورى: 11). "فهو ذات والحروف صفات، وتنوّع الصفات لا يناقض لازم الذات الذي هو التنزيه"[15].

أول هذه الصفات التي تجلى بها الخالق جل وعلا "الأحدية" المشار إليها عند الشيخ بالألف (اسم): "إن أول ما تجلت به النقطة وظهرت به ظهورا يقتضي التعريف هو وجود الألف [...] ولهذا كان هو أو الحروف الهجائية"[16].

بعد التدقيق في الألف وما يحمله من معاني إشارية، يصل المؤلف للمراد من رسالته: رفع اللثام عن رمزية حرف "الباء". فهذا الحرف بالنسبة للشيخ إشارة إلى ما يُسمى في مصطلح الصوفية بـ"روح العالم". يقول المؤلف في هذا الخصوص: "إن الباء هي أول صورة ظهر بها الألف، ولهذا تجلّى فيها بما لم يتجل به في غيرها [...] ولا أرى في الحروف ما هو أقرب للألف من الباء، فلهذا جاءت الباء بأوصافه "خلق الله آدم على صورته"؛ وليس المراد بآدم إلا الإنسان الأول، وهو روح الوجود"[17].

يُخصّص المؤلف الفقرات الأخيرة من رسالته لتنبيه القارئ إلى كون تجلّي "الألف"، أو ظهور الحق، لا يقتصر على العالم في كليّته المشار إليه بحرف الباء. بل يُعرِّف أيضا نفسه في كل جزئية من جزئياته وفي كل خلق من مخلوقاته المشار إليهم بالحروف الأبجدية: "أما ظهروه في الحروف فهو

---

[13] مرجع سابق، ص. 24–26.

[14] مرجع سابق، ص. 24.

[15] مرجع سابق، ص. 43.

[16] العلاوي أحمد، منهل العرفان في تفسير البسملة وسور من القرآن، مرجع سابق، ص. 29–30.

[17] مرجع سابق، ص. 38.

معقول، إن تأمّلته تجد ما من حرف إلاّ ومادته ومساحته مأخوذة من الألف، فما الحاء إلا ألف مجدوب، وما الميم إلا ألف مستدير..."[18]

يستنتج الشيخ من هنا أن كل مخلوق، مهما بدا قبيحاً من حيث فعله، يبقى حسناً من حيث سريان المشيئة الإلهية فيه. يضيف المفسّر الصوفي: "{ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ} (البقرة: 205): والمعنى أنه لا فساد؛ ففي الشقاق والنفاق واعوجاج الحروف استقامة لمظروفاتها؛ فلولا اعوجاج الجيم ما اتّضح معنى الميم"[19]. من هنا كانت الشريعة سمحاء في فرض تكليف الاستقامة؛ كذلك يتسنى على المؤمن أن يكون متسامحاً مع نفسه ومع إخوانه: "{فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} (التغابن: 16)؛ أي حسبما سمح لكم به ذلك الاعوجاج اللازم لذواتكم؛ {وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفًا} (النساء: 28)، أي لا بدّ من شيء يناقض استقامته، ولمّا نتحقّق نجد الاستقامة في عين الاعوجاج."[20]

المطلب الثاني: لباب العلم في سورة والنجم

يعرّف الأستاذ الكيالي عاصم إبراهيم (1427هـ/ 2007م) رسالة لباب العلم في سورة والنجم بأنها "شرح إشاري على طريقة أهل الفهم الخاص والذوق السليم، الموافق للقرآن الكريم والحديث الشريف"[21]. وقد سبقه في وصف هذه الرسالة الشيخ محمد المدني (ت. 1378هـ/ 1959م) حيث يصفها بأنها "كتاب صغير لطيف التعبير، ثبت التحرير فيه من الحقائق والإشارات ما لا عين رأت يعجز عنه التعبير ويقف دونه عقل الناقد البصير، وقد قال فيه بعض العلماء: إن الذي ألف هذا الكتاب هو النجم إذا هوى."[22]

---

[18] مرجع سابق، ص. 30.

[19] مرجع سابق، ص. 45.

[20] مرجع سابق، ص. 45-46.

[21] الكيالي عاصم إبراهيم، رسائل الشيخ أحمد بن مصطفى بن عيلوة المستغانمي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1427هـ/ 2007م، ص 5.

[22] المدني محمد، برهان الذاكرين، تحقيق بدري المدني، تونس، الطبعة الثالثة، 2007، ص25.

تتشكّل رسالة لباب العلم من 40 صفحة (من الصفحة 52 إلى 92 من كتاب منهل العرفان). يخبرنا الشيخ في آخرها أنه انتهى من تأليفها صبيحة يوم الأحد 15 من ذي القعدة سنة 1333، الموافق لـ 24 سبتمبر 1915[23]. نشرت الرسالة بالمطبعة الأهلية بتونس سنة 1334هـ/ 1916م في ست وعشرين صفحة، تولّى تصحيحها الأستاذين علي بن الصادق الصحراوي والطاهر بن الحاج العربي[24]. طُبعت من جديد تحت لواء المطبعة العلاوية بمستغانم سنة 1367هـ/ 1947م.

أشار المؤلف في مقدمة الرسالة إلى سبب جمعها: إلحاح بعض المحبين لدى الشيخ، تبعاً لرؤية وقعت لهم، ليؤلف تفسيرا إشاريا في بعض آي القرآن الكريم. "هذا وقد سألتني أيها المحب أصلح الله عاقبتنا وإياك على أن نجعل تفسيرا في القرآن الكريم على طريقة أهل الفهم الخاص والذوق السليم؛ فتصديقا لرؤياك وامتثالا لها جعلت أتفكّر على أي شيء من القرآن أقتصر، بعدما تبرأت من فهمل وانسلخت عن وهمي فأخذتني سورة والنجم."[25]

أما بخصوص محتوى رسالة لباب العلم في تفسير سورة والنجم، فهو يتمحور حول "حقيقة محمد (ص) ومقامه من ربه كما أشارت آيات سورة النجم، وهو الإنسان الكامل نموذج العرفاء وقدوتهم"[26]، يقول الشيخ العلاوي في تفسير آية {وَالنَّجْمِ}: "المقسم به كناية عن نور ثاقب تنتهي فيه الأنوار، وتستمد منه البصائر والأبصار. ولا يصرف بهذا الاعتبار إلا للنفس المحمدي والروح الأبدي [...] والمناسبة، أو نقول وجه الشبه بين النجم والنفس المحمدي، وجود الاهتداء في كل منهما زيادة عن النور المتحد فيهما."[27]

[23] العلاوي أحمد، منهل العرفان في تفسير البسملة وسور من القرآن، مرجع سابق، ص. 48.

[24] بوغانم غزالة، مرجع سابق، ص. 100. أنظر أيضا: التليلي العجيلي، "صدى الطريقة العليوية بالبلاد التونسية بين 1920 و1934"، المجلة التاريخية المغربية، عدد 69-70، مايو 1413هـ/ 1993م، ص 147.

[25] العلاوي أحمد، منهل العرفان في تفسير البسملة وسور من القرآن، مرجع سابق، ص. 52-53.

[26] بن عومر رزقي، العرفان عند الشيخ أحمد بن مصطفى بن عليوة المستغانمي، مرجع سابق، ص 70.

[27] العلاوي أحمد، منهل العرفان في تفسير البسملة وسور من القرآن، مرجع سابق، ص. 54.

بالنسبة لصاحب الرسالة، أهم ما يميّز الكائن المحمدي فناؤه في الألوهية قولاً وفعلاً: "{ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى} ؛ فالمتبادر من الفهم أنه لا يتكلم بالقرآن عن هوى نفسه، والأعم من ذلك أنه لا يفعل فعلاً ما من سائر الأفعال الظاهرة والباطنة إلا والله سبحانه وتعالى هو الفاعل به فيها: { وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللهَّ رَمَىٰ} (الأنفال: 17)"[28].

الميزة الثانية التي ينفرد بها النبي (ص) عن غيره من الأنبياء والمرسلين هو قوته وتمكّنه في مقام المحبّة المشار إليه بالهوى. ""ثم أقول أن الأحسن من تفسير الهوى أنه المحبة، وعلى هذا يحمل قوله تعالى: { وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى} أي أنه لا يُفشي ما أكنّه فؤاده من أسرار المحبة التي خُصّص بها دون بقية البشر، وقد قلّ من يطيقها حتى قيل في قوله تعالى { نَارُ اللهَّ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ} (الهمزة: 6-7) إنها المحبة [...] إن محمدا كان قويا في حمل الأسرار على غيره، لم يظهر منه ما تستبعده الأفكار بسبب تعليم الحق له سبحانه وتعالى كيفية حمل الأسرار وهو قوله : {عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى} "[29].

بعد إفاضة الكلام عن المقام المحمدي، يُرغّب الشيخُ القارئَ في سلوك طريق الآخرة بمنحه لمحةً عن مشاهدات السالك الصادق الذي يعرج في مقامات اليقين، أهمها مشاهدة الاستغراق حيث تضمحلّ الكائنات بأسرها أمام تجلي الحق في مرآة الكون المشار إليها في السورة بسدرة المنتهى. يقول المؤلف بهذا الخصوص: "السدرة هنا عبارة عن المظهر عن أصله، ومنهم من يعبّر عن ذلك بشجرة الكون [...] { إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ} أي عمّها وغطّاها وغشّاها ما غشّاها من أنوار الألوهية حتى غابت كل الكائنات على اختلاف مراتبها من جلي وحقير في ظهور أنواء الأسماء والصفات: { اللهَّ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} (النور: 35)"[30].

---

[28] مرجع سابق، ص. 55.

[29] مرجع سابق، ص. 56-57.

[30] العلاوي أحمد، منهل العرفان في تفسير البسملة وسور من القرآن، مرجع سابق، ص. 62.

يعود المؤلف مرة ثانية لموضوع الفناء عند تفسيره لقوله تعالى { وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى}: "هذه غاية العبد من ربه، وهي المعبّر عنها بالفناء في الله، لأن الانتهاء إليه مقتضى للفناء فيه ضرورة لعدم ثبوت الحدوث مع القدم: { فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا} (الأعراف: 143) [...] يجد لا موجود مع الله ولا ظاهر سواه: { وأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا...} وأنه هو هو... إلى ما لا نهاية الهوية في ظهور الأنانية، { هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ} (الحديد: 3)؛ وهذه غاية يصل إليها الواصل"[31].

في مقابل حال الفناء الذي يمنّ به الحق جل وعلا على السالك الصادق الذي بذل النفس والنفيس للوصول إلى مولاه، يحذّر الشيخ بن عليوة المريد المتراخي من العدول عن طريق الله دون تحقيق المراد بقوله تعالى: { أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى * وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى}. بالنسبة للشيخ، "السبب الواحد في كل من رجع عن الله لأن النفس في الغالب لا تسمح ببذل الكل"[32]. ليضيف متسائلا: "فعلى أي شيء حصل من رجع عن الطريق؟ { أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ}؟ فالهمزة للاستفهام الإنكاري على مقصوده العقيم وسيره السقيم المعدوم النتيجة، فكأنه يقول: فغاية وصوله الحرمان لعدم تحصيله على شيء ممّا للقوم من العلوم الغيبية والأسرار الذوقية"[33].

فلا يسع الشيخ إذن إلاّ أن يدعو المريد إلى إتباع أسوة الأنبياء والمرسلين الذي ضحوا بكل شيء للوصول إلى مولاهم: {أم لم ينبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفّى}. يعلّق المؤلف على الآية: "من المعلوم أنه لو كان اطلع على أثر النبيين وخواص الموحدين لما اعتراه فصلٌ في طريقه، ولهذا ذكر سبحانه وتعالى إبراهيم بقوله {الذي وفى}، فكأنه يقول: الاتصال منوط بالوفاء [...] ومن وفائه عليه السلام أنه سلّم نفسه للحريق، وامتثل لذبح ولده الشفيق"[34].

[31] مرجع سابق، ص. 62.

[32] مرجع سابق، ص. 84.

[33] مرجع سابق، ص. 84.

[34] مرجع سابق، ص. 88.

لم يكن الشيخ العلاوي ليصف أهم محطات السلوك الروحي والمخاطر التي قد تعترض همة سالكه دون الإشارة إلى ما يعرف عند القوم بـ"علماء الحرف" الذي اتّخذوا من علم الكلام والأدلة العقلية ركيزة إيمانهم، بدلاً من المشاهدة القائمة على الكشف واليقين. يقول في استنباط الإشارة من قوله تعالى { وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَ } : "فسائر الطّالبين من غير أهل اليقين والنور المبين ما لهم بما عند الحق من علم، إن يتبعون إلا الظن، فلهذا يتقوى إيمانهم تارة ويضعف أخرى، ولا يدري في العاقبة على أي حالة يكون؛ ومن الغريب أن أهل هذا المقام لا يبغون عنه حولاً مع ما يكابدون فيه من الشكوك والوساوس."[35]

يلوم الشيخ بن عليوة أكثر من ذلك على علماء الظاهر إنكارهم على رجال التصوف تلك المشاهدات التي تقع لهم، فها هو يحمل في حقهم الآيات الأخيرة من السورة: { أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ} ؛ "تشكّون استخفافا واستهزاء بمن يتكلم به [من العارفين] وهو على بصيرة من ربه؛ {وَلَا تَبْكُونَ} على ما فاتكم من الله، فقد ضيعتم وضاعت حياتكم سبهللا؛ {وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ} أي غافلون عن جميع ما يطرقكم من الإشارات ويتلى عليكم من الآيات؛ وعلى كل حال { فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا} أي وإن كان فاتكم ما فاتكم من معرفته، فلا يلزم من ذلك التقصير في عبادته"[36].

المطلب الثالث: مفتاح علوم السر في تفسير سورة والعصر

كما يدل على ذلك عنوان الرسالة، مفتاح علوم السر كتيّبٌ في تفسير سورة العصر، وهي سورة مكية، المائة والثلاثة في ترتيب سور القرآن الكريم. تتألف الرسالة من عشرين صفحة.

طُبعت الرسالة على حد تعبير صاحبها "بمدينة تونس بواسطة أحد الأصدقاء المشغوفين باستطلاع الحقائق وانتقاء الرقائق"[37]. لم يرد في المقدمة اسم هؤلاء الأصدقاء ولا تاريخ النشر.

[35] العلاوي أحمد، منهل العرفان في تفسير البسملة وسور من القرآن، مرجع سابق، ص. 74.

[36] مرجع سابق، ص. 91.

[37] مرجع سابق، ص. 98.

يخبرنا الأستاذ فقط بأن النسخ التونسية انقرضت "مع استمرار الطلب من عشّاقها، واشتداد رغبة المريدين في مطالعتها"، مما دفع به إلى تقديمها "للطبع مرة ثانية مع زيادة جمل طفيفة على الأصل التي لا تخرج به عن الاختصار حرصا على فائدة المريد"[38]. نُشرت هذه الطبعة الثانية تحت لواء المطبعة العلاوية بمستغانم سنة 1351هـ/ 1933م، أي سنة قبل وفاة الأستاذ.

كما هو الأمر بالنسبة للرسائل السابقة، يعود سبب تدوين رسالة مفتاح علوم السر لالتماس "بعض العلماء الأعيان" من الشيخ "بعض الحديث في شأن ما يتعلق بسورة والعصر على طريق الفهم الخاص"[39].

باعتبار المعنى الغالب على سورة العصر، وهو الإنسان بين خسران النسيان وفلاح الإيمان، يتمحور موضوع الرسالة "في الحديث عن مقام الإنسان الحيواني المعلوم الصورة والحقيقة، والإنسان الرباني المجهول الحقيقة والذي خلقه الرحمن على صورته؛ والمقصود به الإنسان الكامل وهي درجة تكون للأنبياء بالسجية وللعرفاء بالتكلّف تسهل عليهم الوراثة في ذلك"[40].

يغتنم الشيخ تفسير ورود القسم بـ"العصر" في افتتاح السورة لمنحنا لمحة عن مفهومه لما يصفه بـ"أغرب الموجودات مطلقًا": الزمن. استنادا لم نعرفه من الزمن أنه "عبارة عن الوقت المقرون بحركة الفلك لِأنّه متولّد عن حادث"، يتساءل المُفسّر: "هل يكون ما نعلمه من الزّمان متلاشيا في تلك المادّة ذات الوجود الصّرف أم له طرف في الاستقلال؟" انطلاقا من متن الحديث: "لاَ تّسُبُّوا الزَّمانَ، فَإِنَّ الزَّمانَ هو الدّهرُ، و الدَّهْرُ هُوَ اللهُ"، يتوصّل الشيخ العلاوي بعد تحليل دقيق إلى الاستنتاج بأن للعصر معنيين: معنى مطلق "لا يستطيع العقل أن يُثبِت له نظير ما لغيره من الموجودات، من جهة كون الماضي منه والمستقبل معدومين والحاضر منه جزء لا يتجزّأ [...] فهو

[38] العلاوي أحمد، منهل العرفان في تفسير البسملة وسور من القرآن، مرجع سابق، ص. 98.

[39] مرجع سابق، ص. 98.

[40] بن عومر رزقي، العرفان عند الشيخ أحمد بن مصطفى بن عليوة المستغانمي، مرجع سابق، ص 75.

أدقّ شيء عن ملامسة الوهم له"[41]؛ ومعنى معقول "إذا نظرنا على تطوّره فصولا وانقسامه شهورا وأيّاما وأعواما، واعتبرناه محكوما عليه بالإقبال والإدبار والزّيادة والنّقصان، خرج بتجسّمه ذلك عن دائرة الوهم إلى ما يُثبته الحِسّ وتعترف بوجوده النّفس"[42].

يرى الشيخ العلاوي على غرار غيره من المفسرين في ورود القسم بـالعصر "لتأكيد خسران الإنسان [...] كون الإنسان يجهل خسرانه ويبعُدُ أن يُدركه"[43]. لكن قد نتساءل ما هو هذا الخسران العظيم؟ يُجيبنا المؤلف: "فقدانه لحياته الرّوحانيّة قبل تعلّق الرّوح بالبدن عندما كانت الرّوح تسرح بين أفراد الملأِ الأعلى، وتسبح في محيط أنوارٍ يبعُدُ كلَّ البُعد عن ملابسة الأغيار [...] في كرامة عظيمة وحالة جسيمة، تتلقّى نِداها من الله من غير واسطة وتجيب جوابا خاليا من كلّ شبه"[44]. لكن وللأسف، إن "الرّابطة بالجسم أكسبتها صبغة غير التي كانت عليها؛ فلم يشعر الإنسان إلاّ وهو نوع من أنواع الحيوان، يعمل بحكم الطّبيعة داخل الجنس العام"[45].

يضيف الشيخ العلاوي في إبراز الاختلاف بين وضع الإنسان بعد الهبوط وقبله: "شتّان ما بين المرتبتين وبُعُدٌ ما بين الحالتين [...] أحدُهما هو هذا الإنسان الذي نعتبره أحد أنواع الحيوان المشهود بالحسّ المُدرك باللّمس المخصّص بالفصل من الجنس، والثّاني له لوازم وخصائص تجعله في الحيّز المقابل؛ الأوّل المسمّى بالإنسان المحسوس والثّاني بالإنسان المعقول، أو نقول الأوّل يُسمّى بالإنسان الحيواني والثّاني بالإنسان الرّبّاني"[46].

---

[41] العلاوي أحمد، منهل العرفان في تفسير البسملة وسور من القرآن، مرجع سابق، ص. 100.

[42] العلاوي أحمد، منهل العرفان في تفسير البسملة وسور من القرآن، مرجع سابق، ص. 101.

[43] مرجع سابق، ص. 99.

[44] مرجع سابق، ص. 103.

[45] مرجع سابق، ص. 103.

[46] مرجع سابق، ص. 103.

متى يكون الإنسان ربّانيّا؟ يتساءل صاحب الرسالة قبل أن يُجيب: "إذا سافر من ظاهره إلى باطنه، وارتقى على كاهل نفسه لينظر ما حجب عنه من شرفه وعُلوّه، وهناك يجد سِعة وملكا كبيرا [...] وتلك هي السّعادةُ الأبديّة"[47].

يبدو جلياً مما سبق أن الشيخ العلاوي، كما أحسن الأستاذ أبو لحية نور الدين (1437هـ/ 2015م) التعبير عن ذلك، "ينطلق من الفهم الصوفي للحقيقة الإنسانية، وأن ما هي عليه الإنسان الآن مجرد نشأة من النشآت، وأن هناك نشآت كثيرة سابقة كان الإنسان فيها في أعلى عليين، ويُعبّر العرفانيون عن ذلك النزول بـ"قوس النزول"؛ ثم يذكر أثر هذه النشأة في تحديد مصيره في النشآت الأخرى فيما يسميه العرفانيون "قوس الصعود" [...] وهكذا نجده يعود من العرفان إلى الشريعة، وهو كشأن الصوفي المحققين الذين لا يدلهم عرفانهم إلاّ على المزيد من التمسك بالشريعة وأحكامها، ولكن في درجة أمتن وأرفع وأحكم"[48].

بالفعل، يرى الشيخ العلاوي أن "الخلاص النّهائي لا يتحقّقُ ولا يُتصوّر بمعناه اللاّزم إلاّ باسْتِجْمَاع تلك الخِصال الأربعة وهي: الإيمان، والأعمال الصّالحة، والتّواصي بالحقّ، والتّواصي بالصّبر عليه"[49].

يؤكّد صاحب الرسالة في هذا الخصوص أن إيمان العبد لا يكمل "إلاّ إذا أحبّ لِأخيه ما يحبّه لنفسه، وهذا هو الباعث الوحيد والمساعد الأكيد للمرشد على بدل النّصيحة في ذات الله"[50]. من هنا كان الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر رأس الأعمال الصاّلحة كما يستنبط ذلك المفسر الجزائري من قوله تعالى: {وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}. يضيف في هذا السياق: "ولّما كانت هاته

[47] مرجع سابق، ص. 103.

[48] أبو لحية نور الدين، جوانب الخلاف بين الجمعية والطرق الصوفية وأسبابها، دار الأنوار للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1437هـ/ 2015م، الفصل الثالث: "حول العرفان الصوفي".

[49] العلاوي أحمد، منهل العرفان في تفسير البسملة وسور من القرآن، مرجع سابق، ص. 107.

[50] مرجع سابق، ص. 109.

الخصال، أعني قول الحقّ وملازمة الحقّ والتّواصي بالحقّ، في الغالب تجلُب لصاحبها من الأذى ما قد تكرهه نفسه، قرنها تعالى بالتّواصي بالصّبر؛ فمن لم يتذرّع بالصّبر قلّ أنْ يثبُت في مقام الدّعوة إلى الله عزّ وجلّ.

وخلاصة القول أَنَهُ يدخُل في التّواصي بالحقّ الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر كما تقدّم؛ ويدخل في التّواصي بالصّبر حملُ الأذى وكفّ الأذى [...] جهاد هذا النّوع من بني الإنسان مُتواصلٌ"[51].

يبدو جليا مما سبق أن كتاب منهل العرفان في تفسير البسملة وسور من القرآن تفسيرٌ إشاريٌ محضٌ. علاوة عن اجتهاد الشيخ العلاوي في استنباط المعاني الرمزية المكنونة وراء المعنى الظاهر للآيات، إنّ "المنهجيّة المتبعة في هذا التفسير يغلب عليها الاستدلال أو الاستشهاد بآيات أخرى من القرآن تبدو للقارئ أن لا صلة لها بالموضوع"[52]. بالنسبة للأستاذ جلطي بشير (1432هـ/ 2011م) الذي حاول تفسير هذا الأسلوب الاستدلالي، "ربما يتعلق الأمر بالجانب الذوقي في فهم [الشيخ] للقرآن والذي لا يمكن للقارئ أن يدركه ما لم يمر بتجربتـ[ـه] الذوقية"[53]. لكن الأمر يبدو مختلفاً تماماً في كتاب البحر المسجور في تفسير القرآن بمحض النور، حيث منح الإمام المستغانمي الأولوية للتفسير الأثري ليتخذ منه ركيزة يعرج منها نحو المعنى الإشاري.

---

[51] مرجع سابق، ص. 107–108 و110.

[52] جلطي بشير، حقيقة التصوف بين التأصيل والتأثير: دراسة علمية نقدية للتصوف الإسلامي ما له وما عليه، دار الكتب العلمية، بيروت، 1432هـ/ 2011م، ص 53.

[53] مرجع سابق، ص 54.

المبحث الثاني: البحر المسجور في تفسير القرآن بمحض النـــور

يصف الشيخ محمد المدني التونسي(1307هـ/ 1888م-1378هـ/ 1959م)، مؤسس الطريقة المدنية، كتاب البحر المسجور للأستاذ العلاوي بأنه "تفسير جليل على القرآن العظيم، وهو تفسير جميل ليس له مثيل، أتى فيه بالأذواق الغريبة والأفهام العجيبة"[54].

يُعتبر كتاب البحر المسجور في تفسير القرآن بمحض النور من آخر ما أملاه الشيخ من كتبه، ولم ينشر لا في حياته ولا في حياة خليفته الشيخ الحاج عدة بن تونس (1315هـ/ 1898م – 1371هـ/ 1952م)[55]؛ فسّر فيه المؤلّف سورة الفاتحة ومائتين وست آيات من سورة البقرة على التفسير الإشاري[56].

استوجب انتظار قرابة نصف قرن، أي إلى غاية 1403هـ/ 1983م، كي تصدر طباعة جزئية أولى للمخطوط تحت لواء المطبعة العلاوية بمستغانم. كيف يمكن تفسير هذا التأخّر؟

يخبرنا محقق المخطوط، الأستاذ يحي برقة، أن الإمام بن عليوة استمر في إملاء تفسيره على كاتبه السيد محمد بن صالح التمساني إلى حين عاجلته المنية سنة 1352هـ/ 1934م. احتُفظ بعدها بالمخطوط الأصلي في مكتبة الزاوية حتى خرمته الأرضة فتآكلت بعض أراقه. خشيةً من تعرض المخطوط للمزيد من التلف، كلّف الشيخ الحاج المهدي بن تونس (1346هـ/ 1928م-1394هـ/ 1975م) كاتبه الخاص السيد عبد العزيز أعراب، بمساعدة الأستاذ يحي برقة، بمهمة الاعتناء به. لكن ظروف حرب التحرير، ثم الضغط المفروض على الزاوية العلاوية بعد الاستقلال، لم تسمح بمواصلة هذه المهمة. فلزم انتظار سنة 1413هـ/ 1983م لينشر الجزء الأول من كتاب البحر المسجور الممتد من سورة الفاتحة إلى غاية الآية 107 من سورة البقرة، أي ما يفوت

[54] المدني محمد، مرجع سابق، ص25.

[55] بوغانم غزالة، مرجع سابق، ص 101.

[56] خدوسي رابح (مشرف)، موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، منشورات الحضارة، 1435هـ/ 2014م، ج1، ص 149.

نصف الكتاب. سيُنشر النصف الثاني من المخطوط مع الجزء الأول في كتاب جامع للجزأين سنة 1415هـ/ 1995م، أي بعد اثني عشر سنة من صدور الجزء الأول[57].

أما بخصوص محتوى الكتاب، يفتتح الشيخ كتابه بمقدمة يؤكد فيها على حق المتأخرين في تفسير كتاب الله، وذلك ردّاً على القائلين بوجوب التقيّد بأقوال المتقدمين في القرآن: "أحمده سبحانه وتعالى وأشكره، حيث لم يجعل فهمنا منه مرتهناً في فهم السابقين"[58]. تضمّ المقدمة ست فصول يذكّر فيها الشيخ القارئ بالنصوص الشرعية الدالة على وجود العلماء الربانيين المؤهلين لتفسير القرآن في كل زمان، وأن للقرآن وجوه عديدة وأسرار مكنونة ومعان لا متناهية لا يمكن حصرها في تفسير المتقدمين مهما عظم شأنها. "فأقول: إن ما تمتعت به البصائر والأبصار، وجالت فيه العقول وتعلقت به الأفكار، كتاب الله العزيز الغفار؛ فلن يزال روضة يانعة ودوحة جامعة [...] غضا طريا في كل عصر وأوان، فحاله في السابق كحاله الآن؛ قال تعالى ولم يزل قائلا: { أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ} (محمد: 24)"[59].

فلا يتردد المفسّر الجزائري في معاتبة القائلين: "ما ترك الأول للأخر شيئا"؛ مقولة يصفها بأنّها "كلمة قضت على النفوس الكريمة والعقول السليمة بالتعطيل[60]. فنجده يوجّه الكلمات التالية لأنصار مذهب التقيّد بالتفاسير المأثورة: "ولعل القائل يقول: قد كفانا الله ما أهمّنا من استخراج جواهره على يد من تقدمنا. فأقول: وإذن لضاع حظنا من التدبر فيه حاشا لله ! لا يقول بهذا عاقل ولا من هو بالإيمان حافل! وإن كان ذلك، لِمَ لمْ يكتف أهل القرن الثاني عن الكلام فيه بكلام من تقدمهم من أهل القرن الأول [...] فدّل هذا على أن الحقّ جل ذكره لم يخصّص بالتدبر في جيل

[57] العلاوي أحمد، البحر المسجور في تفسير القرآن بمحض النّور، المطبعة العلاوية، مستغانم، 1415هـ/ 1995م، ج1، ص. 11.

[58] العلاوي أحمد، مرجع سابق، ج1، ص. 11.

[59] العلاوي أحمد، البحر المسجور في تفسير القرآن بمحض النّور، مرجع سابق، ج1، ص. 17.

[60] مرجع سابق، ج1، ص. 14.

دون جيل، وأيضا لكان التخصيص يشعر بانقضاء معانيه، والحالة بخلاف ذلك. قال (ص): " وَلاَ تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ"[61].

بعد إفاضة الحديث في ضرورة تجديد تفسير كتاب الله في كل عصر، يجتهد الشيخ العلاوي في إثبات شرعية التفسير الإشاري. يستند المفسّر الجزائري إلى أحادث عديدة لإقامة الدليل على احتواء القرآن على أسرار مكنونة، منها قوله (ص): " لن تَفْقَهُ كُلَّ الْفِقْهِ حَتَّى تَرَى لِلْقُرْآنِ وُجُوهًا كثيرة"؛ " إنّ للقران ظاهراً و باطناً وحداً و مطلعاً"؛ " أَعْرِبُوا الْقُرْآنَ ، وَالْتَمِسُوا غَرَائِبَهُ"؛ "إنَّ مِنَ الْعِلْمِ كَهَيْئَةِ الْمَكْنُون، لا يَعْرِفُه إلا العلماءُ بالله". وكذا أقوال الصحابة الدالة على عدم نفوذ معاني الكتاب العزيز على غرار ما روي عن الإمام عَليّ: "لو شئت لوقرت أربعين وقرأ من شرح الفاتحة".

بالطبع، باعتبار أسرار القرآن مواهب ربانية، ليست متاحة إلا للسالك الصادق. "قلتُ: ولا يقع على علومه ويتفرس في وجوهه إلا مفتوحٌ عليه. وأما المحجوب فإنه يُنادى من مكان بعيد، ويسمع من وراء حجاب حديد، فهو أبعد من أن يتناول الغاية من ظواهره، فكيف بباطنه؟ [...] ولعلّ المتجمّد على الظواهر لا يرى من الكتاب إلا ما وصل إليه من جهة بضاعته القليلة وقريحته الكلية، وينكر ما وراء ذلك. ولم يعلم أن ما عرفه من ظاهر الكتاب إلا كمن عرف القشر من اللباب، وما وراء ذلك ما لا عين رأت ولا أُذُنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر"[62].

علماً الآن بأهمية التفسير الإشاري لدى الشيخ بن عليوة، خاصة من خلال وقفتنا مع كتاب منهل العرفان في تفسير البسملة وسور من القرآن، يا ترى في أي نوع من أنواع التفسير يجب تصنيف كتاب البحر المسجور في تفسير القرآن بمحض النور؟

---

[61] مرجع سابق، ص. 18 و26.

[62] العلاوي أحمد، البحر المسجور في تفسير القرآن بمحض النّور، ج1، ص. 19-20

بقدر ما تقدمنا في قراءة وتحليل تفسير الشيخ العلاوي، بقدر ما تأكدت الفكرة عدم إمكانية تصنيفه في إطار التقسيم التقليدي بين تفسير أثري وإشاري؟ ذلك أن الأستاذ المستغانمي يقترح لكل آية أربعة أوجه للتفسير: التفسير؛ الاستنباط؛ الإشارة؛ ولسان الروح. النمط الأول تفسير أثري بمنهجية السلف، سواء تعلق الأمر بالقصص أو بأسباب النزول؛ الاستنباط أقرب ما يكون من التفسير الفقهي حيث يستخرج الشيخ من الآية الأحكام الشرعية أو الحكم الأخلاقية. ينتقل الشيخ بعدها للإشارة حيث يجتهد في إبراز ما تحمله الآي من معاني مكنونة من وراء اللفظ، ليصل في نهاية المطاف لما يسميه بلسان الروح حيث يكشف عما قد يعيشه الصوفي لحظة قراءة الآية.

لمحاولة إبراز منهجية الشيخ العلاوي في شرح كتاب الله، اخترنا ثلاثة مقاطع من تفسيره تبيّن جيدا كيف يتقدم المفسّر المستغانمي "متدرجاً في تفسير الآيات على ما يقتضيه مفهوم اللفظ والمعنى المتداول بين علماء الرسوم، [ليـ]ـتبعه ممّا يستنبط من أحكامها، ثم يرتفع محلقا في أجواء الآيات على ما تعطيه الإشارة بلسان الخصوصية"[63].

الآية الأولى: { وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ} (البقرة: 49)

– التفسيــــر: { وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ}، فرعون هذا لقب لمن ملك العمالقة بمصر، كلقب كسرى لمن ملك الفرس، ولقب قيصر لمن الروم، وخاقان لمن ملك الترك. [...] ولما أراد الله خراب ملكه سلطة على الضعفاء من خلفه، فأراد تعالى أن يذكر بني إسرائيل استنقاذ لهم من عتو ذلك الباغي منزلا الأبناء منزلة الآباء. فكأنه يقول: تذكروا ما وقع لكم مع آل فرعون لما كانوا {يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ}، أي يذيقونكم أشد العذاب على اختلاف أنواعه؛ ومن جملة ذلك

[63] برقة يحي، مقدمة تحقيق البحر المسجور في تفسير القرآن بمحض النّور، ج1، ص. 8.

{يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ} أي الأطفال الصغار، { وَيَسْتَحْيُونَ} أي يتركون { نِسَاءَكُمْ} أي النبات من غير ذبح لأنهم لا يخشون ضررهن فيما يعود على الملك بالدمار[64].

– **الاستنباط:** علمنا بأن فرعون بلغ من تسلطه على الإسرائيليين إلى أن صار يذبح الأبناء الصغار [...]

- علمنا بأنه كان يفعل ذلك لغرض، وإلا لما ترك البنات من قوله: {وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ } [...]

- علمنا بأن الظالم لابد وأن الله ينتقم منه كيفما كان[65].

– **الاشـارة:** لا تعتبر من الفرعونية إلا الوصف القائم بكل نفس أمارة، لأنها مهما تحكمت على مدينة البدن تعبث بالجوارح أكثر من عبث فرعون ببني إسرائيل؛ فتذبحنّ القلوب المعبّر عنها بالأبناء وتستحي النفوس المشار لها بالنساء، وتدّعي بالاستقلال في البدن وأنها الفعالة فيه لا غير، وتقول للجوارح: { مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي} (القصص: 38) فما عليكم إلا السمع والامتثال[66].

– **لسان الـروح:** في قوله: { وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ} يقول : إن الإغراق نتيجة الاستغراق، والبلل أحسن منهم؛ والعجب ممن خاض البحر ولم يبتل[67].

الآية الثانية: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى} (البقرة: 178)

[64] العلاوي أحمد، البحر المسجور في تفسير القرآن بمحض النّور، ج1، ص. 121–122.

[65] مرجع سابق، ج1، ص. 125.

[66] مرجع سابق، ج1، ص. 127.

[67] مرجع سابق، ج1، ص. 128.

– **التفسير:** أخذ الآن تعالى يذكر ما يتعلق بأحكام العبيد فيما بينهم [...] قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} اسمعوا لحكم الله فيما بينكم، فقد { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى} بالمعنى افترضه عليكم على كيفية مخصوصة فلا يجوز لكم التجاوز عنها [...] والمراد بالقصاص المماثل أي اتحاد الصفة في القاتل والمقتول[68].

– **الاستنباط:**

- علمنا بأن إقامة الحدود واجبة على الإمام أو جماعة المسلمين [...]
- علمنا بمشروطية الهيئة في القتل، بالمعنى بما قتل يقتل إلا إذا كان القتل مما يأباه الشرع[69].

– **الإشارة:** ترى الحياة الحقيقية لا تحصل للسائر إلى الله إلا إذا اقتص من نفسه، بمعنى أماتها بالفناء في الله، عملا بحديث: " مُوتُوا قَبْل أَنْ تَمُوتُوا"، فحينئذ يحيا حياة أبدية لقوله تعالى: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ}" [...][70].

– **لسان الروح:** يرى في الآية نفسها استلفاتنا إلى كمون الأشياء في أضدادها، والأصول في فروعها، حسبما اتضح من أن في الموت الحياة، وفي الحياة الموت. وعليه فمن أراد أن يطلب شيئا فليطلبه في ضده لا في نفسه، لأن كنهية الشيء لا تعرف إلا في ضده، ولهذا ما عرف الحق إلا في خلقه[71].

الآية الثالثة: { وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَّ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} (البقرة: 190)

[68] مرجع سابق، ج2، ص. 123.

[69] العلاوي أحمد، البحر المسجور في تفسير القرآن بمحض النّور، ج2، ص. 123.

[70] مرجع سابق، ج2، ص. 127.

[71] مرجع سابق، ج2، ص. 127.

- **التفسير:** فهذا أوان شروع الكتاب العزيز في ذكر شيء من أحكام الجهاد. قال تعالى خطابا لنبيه ومن معه من المؤمنين، ويشمل كل متأهل من أمراء الملة في كل عصر مع الإمكان: {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} أي لإعلاء كلمة الدين ونصرة المسلمين، { الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ} أي يبتدؤونكم بالقتال، فلا تتسبّبوا فيه أنتم، وهذا يفهم من المقام لأنها نزلت في حال القلة [...] { وَلَا تَعْتَدُوا} في حال الجهاد بأن تجاوزوا الحد بقتل من لم يقاتل كالصبيان والنساء"[72].

- **الاستنباط:**

- علمنا بأن القتال المأذون فيه شرعا هو ما كان لإعلاء كلمة الله لا غير من قوله: { فِي سَبِيلِ اللَّهِ} .
- علمنا بأن [...] المسلمين إذا كانوا في حالة الضعف لا يستحسن منهم نشب الحرب مع العدو من قوله: {الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ} لأنها نزلت في أول الأمر.
- علمنا أن من لم يتأت منه القتال كالصبيان والشيوخ والنساء ونحوهم لا يجوز قتلهم [...]
- علمنا بجواز قتال من يحاربنا وإن كان مسلما من قوله: {الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ} حيث لم يقيدهم بالكافرين ولا بغيرهم.
- علمنا بوجوب الوقوف مع القوانين الحربية ومنع التعدي في كل شيء، وإن الأمر في ذلك مؤكد من قوله: {وَلَا تَعْتَدُوا}[73].

- **الإشـــــارة:** لا تحمل القتال إلاّ على قتال النفس وأعوانها من الشيطان والدنيا والهوى وأعوانهم، لأنها ترى جهاد النفس أسبق من جهاد الجنس، لأن تلك العصابة هي التي منعت حظنا

[72] مرجع سابق، ج2، ص. 158.

[73] العلاوي أحمد، البحر المسجور في تفسير القرآن بمحض النّور، ج2، ص. 161.

من الله، ولهذا قال تعالى خطابا للمتوجهين : { وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} أي في طريقه { الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ}[74].

- لســـــان الـــــروح: لا يعتبر من سائر الحروب إلا مجرد تضارب للأسماء والصفات في لج بحر الذات، والكل بالوسيط، { وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ}[75].

خاتمة الدراسة:

يقول الأستاذ أبو القاسم سعد الله في كتاب تاريخ الجزائر الثقافي معلّقاً على اهتمام الشيخ أحمد العلاوي بعلوم القرآن: "وقد نسبت بعضُ الكتب إلى الشيخ أحمد بن عليوة تفسيراً لبعض الآيات والسور، فقد ذكر الباحث الإنكليزي (مارتن لانغز) الذي أصبح من أتباع الشيخ ابن عليوة، أن هذا فسّر آيات من سورة البقرة ووصل إلى الآية الأربعين منها. وقال (لانغز) إنّ هذا التفسير لم يطبع وأن مخطوطته الوحيدة موجودة في زاوية مستغانم العليوية. كما ذكر لانغز أن ابن عليوة قد فسر سورة (والعصر) [...] نسب إليه لانغز أيضا كتابا بعنوان (لباب العلم في سورة النجم) كتبه سنة 1915 . وبقطع النظر عن روح التصوف التي تشيع في مؤلفات وآراء الشيخ أحمد بن عليوة، فإن ما نسبه له مارتن لانغز ليس تفسيراً بالمعنى الدقيق للكلمة، سواء بمنهج القدماء أو بمنهج المحدثين. وإنما هو فهم وتدريس وبيان لمعاني بعض الآيات من هذه السورة أو تلك. ولو اطلعنا على المخطوط الذي أشار إليه لانغز لعرفنا منه طريقة ابن عليوة في تناول بعض آيات سورة البقرة"[76].

---

[74] مرجع سابق، ج2، ص. 161.

[75] مرجع سابق، ج2، ص. 168.

[76] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1418هـ/ 1998م، الجزء 7، ص. 22-23.

كيف يمكننا التعليق على هذه المقولة على ضوء ما ورد ذكره في الصفحات السابقة من عطاء الشيخ العلاوي في مجال تفسير الكتاب العزيز؟

أول ما يُثير دهشتها عند قراءة هذا المقتطف من كتاب تاريخ الجزائر الثقافي المطبوع سنة 1418هـ/ 1998م، عدم انتباه "شيخ المؤرخين" إلى كون كتاب البحر المسجور في تفسير القرآن بمحض النور للشيخ العلاوي قد طبع سنة 1403هـ/ 1983م، أي منذ أكثر من عقد ونصف من الزمن. الأمر الثاني المثير للتساؤل في مقولة الأستاذ سعد الله، المعترف له بالتدقيق والتمحيص في البحث، اكتفائه بوصف ماتن لانغز لتفسير الإمام بن عليوة دون العودة لصيغته المخطوطة أو المطبوعة، للحكم عليه ابتدائيا ونهائياً بأنه "ليس تفسيرا بالمعنى الدقيق للكلمة سواء بمنهج القدماء أو بمنهج المحدثين".

مهما كانت الأسباب التي تفسّر القصور المنهجي الذي تخلّل تعليق الأستاذ سعد الله على تفسير الشيخ العلاوي، يبدو جليا ممّا سبق أننا لا نستطيع نفي صفة المفسّر عن الإمام المستغانمي. فعلاوة عن كون الأستاذ بن عليوة مفسرا بأتم الكلمة، حاول أكثر من ذلك أن يرسم معالم منهج تفسيري جديد جامع بين الأسلوب الأثري والمقاربة الإشارية. وقد أحسن الأستاذ بن عومر رزقي (1439هـ/ 2012م)، الذي خصّص عدة دراسات لفكر وتراث الشيخ العلاوي، التعبير عن هذه الفكرة عندما يصف كتاب البحر المسجور في تفسير القرآن بمحض النور بأنه: "تفسير بمنهجية جديدة جمع فيها الشيخ العلاوي بين منهجية التفسير التقليدية حيث يتتبع المعاني القرآنية معتمدا على اللغة والأثر النبوي في ذلك، ومنهجية الاستنباط العقلي بحيث يخرج من عرض الآيات القرآنية بجمل من الفوائد الفكرية والسلوكية التي على المسلم أن يستفيدها من كل قراءة وتدبر للقرآن. كما أضاف إلى ذلك التفسير الإشاري وما يستفيده الصوفي من القرآن في حقه

كمخاطب من قبل الحضرة الإلهية، وفي طريق الإشارة ذكر الشيخ العلاوي مرتبتين وهما الإشارة ولسان الروح. فكان تفسيره هذا جديدا من حيث المنهج"[77].

قائمة المراجع

1. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1418هـ/ 1998م.
2. أبو لحية نور الدين، جوانب الخلاف بين الجمعية والطرق الصوفية وأسبابها، دار الأنوار للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1437هـ/ 2015م.
3. بعيطيش يحي، "الشيخ أحمد العلاوي شاعرا متصوفا: قراءة أولى في أغراضه الشعرية"، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة قسنطينة، المجلد 14، العدد 1، 1423هـ/ 2003م.
4. بن عومر رزقي، "مقام الحقيقة المحمدية وأدوارها في كتابات الشيخ أحمد العلاوي"، مجلة أبعاد، جامعة وهران، المجلد 4، العدد 6.
5. بن عومر رزقي، العرفان عند الشيخ أحمد بن مصطفى بن عليوة المستغانمي، أطروحة دكتوراه في الفلسفة تحت إشراف عبد اللاوي محمد، جامعة وهران، 1439هـ/ 2012م.
6. بهادي منير، الإنسان والتجربة الصوفية عند الأمير عبد القادر ومصطفى العلاوي، تحت إشراف عبد اللاوي محمد، جامعة وهران 1، 1427هـ/ 2007م.
7. بوغانم غزالة، الطريقة العلاوية في الجزائر ومكانتها الدينية والاجتماعية (1909-1934)، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة منتوري قسنطينة، 1429هـ/ 2008م.
8. التليلي العجيلي، "صدى الطريقة العليوية بالبلاد التونسية بين 1920 و1934"، المجلة التاريخية المغربية، عدد 69-70، مايو 1413هـ/ 1993م.

[77] بن عومر رزقي، العرفان عند الشيخ أحمد بن مصطفى بن عليوة المستغانمي، مرجع سابق، ص 78-79.

9. جاب الخير أحمد، أحمد بن عليوة المستغانمي ومذهبه العقدي والصوفي، تحت إشراف اسعيد عليوان، جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة، 1440هـ/ 2019م.

10. جلطي بشير، حقيقة التصوف بين التأصيل والتأثير: دراسة علمية نقدية للتصوف الإسلامي ما له وما عليه، دار الكتب العلمية، بيروت، 1432هـ/ 2011م.

11. خدوسي رابح (مشرف)، موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، منشورات الحضارة، 1435هـ/ 2014م.

12. خميسي حميدي، "الشيخ أحمد العلاوي عارفا ومتصوفا"، مجلة الصراط، جامعة الجزائر، المجلد 5، العدد 1، 1424هـ/ 2004م.

13. العلاوي أحمد، البحر المسجور في تفسير القرآن بمحض النّور، المطبعة العلاوية، مستغانم، 1415هـ/ 1995م.

14. العلاوي أحمد، منهل العرفان في تفسير البسملة وسور من القرآن، المطبعة العلاوية، مستغانم، 1331هـ/ 1998م.

15. الكيالي عاصم إبراهيم، رسائل الشيخ أحمد بن مصطفى بن عيلوة المستغانمي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1427هـ/ 2007م.

16. المدني محمد، برهان الذاكرين، تحقيق بدري المدني، تونس، الطبعة الثالثة، 1427هـ/ 2007م.

17. معلم سعاد، التصوف عند الشيخ أحمد بن مصطفى العلاوي دراسة تحليلية، إشراف زرمان محمد، جامعة الجزائر 1، كلية العلوم الإسلامية، 1428هـ/ 2008م.

18. Bentounes Khaled, « Nouveau regard sur la vie et l'œuvre du cheikh el-Alawî », A l'épreuve de la diversité : Droit, Société et Education, Issam Toualbi (dir.), Casbah Editions, Alger, 2017.

معالم فقه المقاصد في تفسير أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير للشيخ أبي بكر الجزائري

أ.د. منوبة برهاني ، جامعة الحاج لخضر باتنة1 ،

كلية العلوم الإسلامية الجزائر

مقدمة:

لا خلاف بين أهل العلم أن القرآن اشتمل على مقاصد الشريعة وكلياتها، وشرّع الله فيه ما يحقق مصالح العباد في المعاش والمعاد، وفي العصر الحديث لم تعد المقاصد مرتبطة بالفقه والأصول فقط، بل تعدّت إلى كل علم من عقيدة، وحديث، وتفسير...

وقد اهتم العلماء بهذه المقاصد، ومنهم بعض المفسرين الذين كانت لهم إشارات واجتهادات تدل على عنايتهم بها، إذ لا يمكن فَهْم القرآن بمعزل عن فهم مقاصده وغاياته. ومن هؤلاء المفسرين الفقيه المفسر الداعية أبو بكر الجزائري، وقد جاءت هذه الدراسة لرصد النظرات المقاصدية، والملامح المصلحية التي عنى بها في تفسيره "أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير" وفي بعض مؤلفاته أيضا. وقد جاء هذا الموضوع الموسوم "بمعالم فقه المقاصد في تفسير أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير للشيخ أبي بكر الجزائري" بعد أن تبيّن لي- في حدود علمي- عدم وجود دراسة علمية تناولته بالبحث.

والسؤال الرئيس الذي تحاول هذه الدراسة الإجابة عنه هو: هل كان لأبي بكر الجزائري نظرية متكاملة في المقاصد، أم أن له بعض الأفكار، والنظرات المتفرقة لا ينتظمها إطار شامل؟ وبمعنى آخر: هل ظهرت مقاصد الشريعة في كتابات أبي بكر الجزائري ولاسيما في تفسيره أم لا؟

وتكمن أهمية هذه الدراسة في محاولة ربط التفسير بمقاصد الشريعة الإسلامية، وذلك ببيان الوسائل التي اعتمد عليها المفسر في ذلك. كما أنني أسعى إلى تحديد أثر المقاصد عند المفسرين، في التعامل مع معاني الآيات القرآنية، ولأجل ذلك سلكت المنهج الاستقرائي بتتبع إسهامات الجزائري المقاصدية في الجانبين النظري والتطبيقي، وتحليلها ، وأحيانا مقارنتها بها لدى غيره من المفسرين.

واقتضى البحث في الموضوع، وما فرضته المادة العلمية، تقسيم هذه الدراسة إلى مبحثين على النحو التالي:

المبحث الأول: أبو بكر الجزائري وكتابه أيسر التفاسير.

المطلب الأول: ترجمة أبي بكر الجزائري.

المطلب الثاني: التعريف بكتاب أيسر التفاسير

المبحث الثاني: بين التفسير والمقاصد.

المطلب الأول: تعريف المقاصد وأهميتها في التفسير.

المطلب الثاني: اعتبار المقاصد في تفسير أبي بكر الجزائري.

وخاتمة اشتملت على أهم النتائج المتوصل إليها.

المبحث الأول: أبو بكر الجزائري وكتابه أيسر التفاسير

حياة الجزائري حافلة بالدروس والعبر، وللضرورة التي تقتضيها هذه الدراسة، لابد من الاقتصار على ما يخدم البحث فقط، حيث ركزت على البعد المقاصدي عند الشيخ، بتتبع آثاره التي تترجم عن أفكاره وآرائه العلمية، وخاصة منها تفسيره، وعليه جاء هذا المبحث في مطلبين: الأول خصصته لترجمة الشيخ، والثاني للتعريف بكتابهأيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، على النحو التالي:

المطلب الأول: ترجمة أبي بكر الجزائري

سأعتمد في ترجمة الشيخ على ما جاء في الموقع الرسمي له، فهو المنبع الأصلي للتعرف على حياة الجزائري، وهو أصدق شاهد وأقوى دليل على صدق ما قيل فيه، أو قاله هو عن نفسه، ثم رجعت إلى بعض البحوث والمقالات التي اهتمت بسيرته، ورتبت ترجمته في النقاط التالية:

أولا/ مولده ونشأته

غلبت عليه الكنية، فعرف بأبي بكر الجزائري جابر بن موسى، ولد بقرية ليوة على أربعين كيلومترا من ولاية بسكرة في الجنوب الجزائري عام 1921م، عرفت أسرته بالصلاح والتصوف، وكثر فيها حفظة القرآن، نشأ الشيخ يتيما توفي أبوه، وهو في السنة الأولى، فحضنته أمه، مكفولا من قبل أخواله وأعمامه. حفظ الشيخ القرآن، والأجرومية في النحو، ومنظومة ابن عاشر، ثم رحل إلى العاصمة لينضم إلى جمعية العلماء التي غرست فيه العقيدة السلفية، ومن خلالها عمل على نشر الوعي السلفي فأنشأ مجلة (الداعي واللواء)، وكان يحرر أبوابها كلها بنفسه، وكلماتها كان يوزعها بنفسه، ثم في عام 1372هـ قدم إلى مكة للحج والعمرة والزيارة وكان قصده بعد أداء فريضة الحج الرجوع إلى بلده، إلا أن الإخوة الجزائريين المهاجرين المقيمين بالمدينة حببوا له البقاء للاستفادة منه ولا سيما عمه عيسى -رحمه الله- والذي كان محبًّا للمدينة النبوية، وتمنى الموت بها، وقد استجاب الله دعاءه فتوفي بعد الحج مباشرة، فتأثر الشيخ بذلك في حبه للبقعة المباركة المدينة النبوية الطاهرة فأحب المدينة وأحبته فصار علمها.ثم بعد ذلك عام 1374هـ حصل على إجازة من رئاسة القضاة بمكة المكرمة للتدريس بالمسجد النبوي الشريف، فأصبحت له حلقة يدرس فيها

تفسير القرآن الكريم، والحديث الشريف، وغير ذلك. كمل اشتغل مدرسًا بدار الحديث المدنية. ومدرسًا أيضا بالجامعة الإسلامية، فضلا عن أنه كان من الداعين إلى إنشاء رابطة العالم الإسلامي، وإذاعة القرآن الكريم[1].

ثانيا/ شيوخه وتلاميذه:

شيوخه:

أما شيوخه من الجزائر فأشهرهم: الشيخ نعيم النعيمي وعيسى معتوقي، والطيب العقبي، وقد درس عليهم اللغة والنحو والمنطق ومصطلح الحديث وأصول الفقه، ويعتبر الطيب العقبي الأستاذ الأول للشيخ وكانت علاقته به قوية، و كان لهذه الملازمة أثرها الكبير في شخصية الشيخ، إذ يعتبره من أفاضل مشايخه، والموجه الأكبر لسلوكه في النهج الإسلامي الصحيح[2].

أما شيوخه من الحجاز: فقد واصل بعد ذلك الأخذ على مشايخ المدينة، فلازم حلقة الشيخ عمر بري، والشيخ محمد الحافظ، وكذلك الشيخ محمد الخيال، ورئيس قضاتها وخطيب مسجدها الشيخ عبد العزيز بن صالح، واستفاد منهم في جميع المجالات..

ثم بعد ذلك عام 1374هـ حصل على إجازة من رئاسة القضاة بمكة المكرمة للتدريس بالمسجد النبوي الشريف، فأصبحت له حلقة يدرس فيها تفسير القرآن الكريم، والحديث الشريف، وغير ذلك[3].

---

[1]- ينظر: محمد المجذوب علماء ومفكرون عرفتهم، ط4، 1992م، دار الشواف، الرياض 1/ 27-28، محمد بن ابراهيم السعيدي: علام السلفية (13) ترجمة العالم الواعظ المعمّر أبو بكر الجزائري، مركز سلف للبحوث والدراسات ، https://salafcenter.org

[2]- المرجع نفسه

[3]- محمد بن إبراهيم السعيدي، أعلام السلفية، مرجع سابق

تلاميذه: تخرج على يدي الشيخ الكثير من الطلاب من الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية في مرحلتي الماجستير والدكتوراه في قسم التفسير، أما في كلية الشريعة بالجامعة والمسجد النبوي الشريف فلا يحصي عدد ذلك إلا الله نذكر أشهرهم: العلامة عبد الرحمن بن صالح بن محيي الدين، وعدنان بن عبد العزيز الخطيري، وعبد الرحمن بن صدوق الجزائري، وإدريس بن إبراهيم المغربي، وعمر بن حسن فلاته المدرس بالمسجد النبوي، والشيخ فركوس الجزائري[4]... وغيرهم

أحيل إلى التقاعد عام 1406 هـ ولكن منزله عامر بطلاب العلم وله دروس في منزله قبل الظهر في التفسير: أيسر التفاسير وفي الحديث: صحيح البخاري وموطأ مالك فضلًا عن دروسه في الحرم النبوي الشريف وهي مستمرة في جميع ليالي الأسبوع ما بين المغرب إلى العشاء[5] .

ثالثا/ مؤلفاته: وأحسن تكريم للشيخ إيراد مؤلفاته وآثاره، التي تميزت بسهولة الأسلوب وجزالة التركيب وقوته وقربها من الفهم، فتآليفه إصلاحية ودعوية لتقريب وتفهيم الإسلام الصحيح الخالي من البدع. وقد قام بتأليف عدد كبير من المؤلفات، سنحاول ذكرها بحسب المواضيع، كما يلي:

في التفسير

ـ أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير وبهامشه نهر الخير.

ـ نداءات الرحمن لأهل الإيمان.

في أصول الدين

ـ عقيدة المؤمن.

ـ الإنصاف فيما قيل في المولد من الغلو والإجحاف.

4- الموقع الرسمي لفضيلة الشيخ أبي عبد المعز محمد علي فركوس https://ferkous.com/home/?q=ar-biographie

5- عبد الله بن أحمد آل علاف الغامدي، ترجمة (إمام المسجد النبوي) فضيلة الشيخ أبو بكر جابر الجزائري، صيد الفوائد

_ كمال الأمة في صلاح عقيدتها.

_ إلى التصوف يا عباد الله.

_ هذه نصيحتي إلى كل شيعي.

_ الجنة دار الأبرار والطريق الموصل إليها.

_ هؤلاء هم اليهود فاعتبروا يا أولي الأبصار.

في الفقه

_ رسائل الجزائري: وتبلغ رسائل الشيخ أكثر من مائة رسالة إصلاحية، هادفة جمعت معظمها في مجلدات خمس، باسم رسائل الجزائري.

_ منهاج المسلم ـ كتاب عقائد وآداب وأخلاق وعبادات ومعاملات.

_ النكاح والطلاق أو الزواج والفراق.

_ الضروريات الفقهية ـ رسالة في الفقه المالكي.

_ حقيقة الجهاد في سبيل الله ومحرمة الخروج على حاكم المسلمين.

_ رسالة رمضان.

_ الحج المبرور.

في السيرة

هذا الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم.. يا محب ـ في السيرة.

في الإصلاح ومواضيع متفرقة

_ العلم والعلماء.

_ المرأة المسلمة.

_ الدولة الإسلامية.

_ المسجد وبيت المسلم.

_ كتاب المنبر (خطب الجمعة والعيدين).

_ وجاؤوا يركضون مهلا يا دعاة الضلالة.

_ آداب الزيارة للمدينة المنورة.

_ هكذا الحجالمبرور والزيارة.

_ اتقوا الله في هذه الأمة في جواز أي نوع من أنواع النسك وإتمام المسافر وراء الأئمة.

_ اعلم يا أخي تنجو وتسعد.

_ تنبيه الأحباب إلى خطأ صاحب تحريم النقاب.

_ المدينة المنورة النبوية فضلها، فضل ساكنيها، زيارتها.

_ النجاة النجاة يا عباد الله.

_ اقتربت الساعة فتوبوا أيها المذنبون[6].

رابعا/ وفاة الشيخ وثناء العلماء عليه

توفي أبو بكر الجزائري في فجر يوم الأربعاء4 ذو الحجة1439، الموافق 15 أغسطس 2018 عن عمر ناهز 97 عاماً، بعد صراع مع المرض، وصلى عليه صلاة الجنازة بعد ظهر يوم وفاته في المسجد النبوي الشريف، ووري جثمانه الثرى في مقبرة البقيع.

وقبل عام من وفاته تعرض لالتهاب رئوي حاد، نُقل على إثره إلى مستشفى الأمير محمد بن عبد العزيز للحرس الوطني بالمدينة لتلقي العلاج.[7]

يقول تلميذه الشيخ صالح بن عواد المغامسي إمام وخطيب مسجد قباء والذي نعاه عبر حسابه الرسمي في تويتر "رحم الله شيخنا أبا بكر جابر الجزائري وغفر له وجزاه عنّا وعن العلم وأهله

6- الموقع الرسمي للشيخ أبي بكر الجزائري https://algzaeri.com/algzaeri/catplay.php?catsmktba=9، مكتبة النور لتحميل الكتب الالكترونية https://www.noor-book.com/، موقع طريق الإسلام https://ar.islamway.net/?tab=m

7- وفاة العلامة أبو بكر الجزائري نسخة محفوظة 15 أغسطس 2018 على موقع واي باك مشين

خير الجزاء، شرفت بالجلوس بين يديه في حلقته بالمسجد النبوي قبل ثلاثين عاما ونيف، عالمٌ مبارك، عذب الحديث، عفّ اللسان، قريب من العامّة، ناصح محب لولاة الأمر، فاللهم اجبر كسرنا وارحم شيخنا"[8].

قدّم الأمير فيصل بن سلمان أمير المدينة المنورة العزاء لأسرة الشيخ الجزائري عقب دفنه، وقال الأمير:" إن الأمة الإسلامية فقدت بوفاة الشيخ أبو بكر الجزائري أحد رموز العلم الذين أفنوا حياتهم في نشر تعاليم الدين الإسلامي السمحة"، مشيراً إلى مناقب الفقيد التي عرف بحسن الخلق والتواضع ولين الجانب بين العلماء وطلبة العلم، داعياً المولى بأن يتغمد الفقيد بواسع رحمته ورضوانه[9].

قال عنه الإمام العلامة حماد الأنصاري محدث المدينة:"رأيت في المنام الشيخ أبو بكر الجزائري يمشي وهو لابس لباسًا لم أر أحدًا في الدنيا لابسًا مثله ومعه شخص آخر لابس لبسًا أقل منه فأولته بلباس التقوى".

وقال عنه بدر المدينة الشيخ عبد المحسن العباد:" وبعد انتقال الشيخ عبد العزيز بن باز -رحمه الله تعالى- من رئاسة الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية إلى رئاسة البحوث العلمية والإفتاء بالرياض كان -رحمه الله- كلما لقيته يسألني عن الدروس في المسجد النبوي والمدرسين فيه ويخص بالسؤال عن الشيخ أبو بكر الجزائري"[10].

8- الشيخ أبو بكر الجزائري يوارى الثرى، إسلاميات، 15أغسطس 2018

https://www.elkhabar.com/press/article/142135

9- جريدة الشرق الأوسط وفاة الشيخ أبو بكر الجزائري بعد نصف قرن من التدريس في الحرم النبوي، تميز بأسلوبه الجذاب ومقارباته الفريدة الخميس - 4 ذو الحجة 1439 هـ - 16 أغسطس 2018 مـ رقم العدد 14506

https://aawsat.com/home/article/1364481/

10- صيد الفوائد:https://saaid.net

المطلب الثاني: التعريف بكتاب أيسر التفاسير

أولا/ اسم الكتاب: هو أحد كتب تفسير القرآن الكريم في هذا العصر، سماه صاحبه بأيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، وهو مطبوع في خمسة مجلدات، تقع في 1807 صفحة، طُبع من الكتاب حتى الآن ثلاثة طبعات.وفي الطبعة الثالثة أُضيف هامش على الكتاب سمي بهامش نهر الخير على أيسر التفاسير.

ثانيا/ سبب تأليفه:

يقول أبو بكر في مقدمة الكتاب:" هذا تفسير موجز لكتاب الله تعالى القرآن الكريم وضعته مراعياً فيه حاجة المسلمين اليوم إلى فهم كلام الله تعالى الذي هو مصدر شريعتهم، وسبيل هدايتهم وهو عصمتهم من الأهواء وشفاؤهم من الأدواء، قال تعالى:﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الإسراء/ 82 وقال تعالى:﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا﴾ آل عمران/ 103 . وقال تعالى:﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ المائدة/ 15 . ومراعياً فيه أيضاً رغبة المسلمين اليوم في دراسة كتاب الله وفهمه والعمل به، هي رغبة لم تكن لهم منذ قرون عدة حيث كان القرآن يقرأ على الأموات دون الأحياء ويُعتبر تفسيره خطيئة من الخطايا وذنباً من الذنوب، إذ ساد بين المسلمين القول: بأن تفسير القرآن: صوابه خطأ وخطأه كفر، فلذا القارئ يقرأ: {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ للهِ فَلا تَدْعُو مَعَ اللهِ أَحَداً} . والناس حول ضريح الولي المدفون في ناحية المسجد يدعونه بأعلى أصواتهم: يا سيدي يا سيدي كذا وكذا ولا يجرؤ أحد أن يقول: يا إخواننا لا تدعوا السيد فإن الله تعالى يقول:﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ للهِ فَلا تَدْعُو مَعَ اللهِ أَحَداً﴾ الجن/ 18 ويقرأ القارئ: ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ المائدة/ 44. ويسمعه من يسمعه، ولا يخطر على باله أن الآية تصرح بكفر من لم يحكم بما أنزل الله، وأن أكثر المسلمين مورطون في هذا

الكفر حيث تركوا تحكيم الشريعة الإسلامية إلى تحكيم القوانين الملفقة من قوانين الشرق والغرب وهكذا كان يقرأ القرآن على أموات الأحياء وأحياء الأموات فلا يرى له أثر في الحياة"[11].

ثالثا/ تاريخ الكتاب: بدأ أبو بكر الجزائري في التفكير في تأليف كتابه أيسر التفاسير في عام 1406 هـ، وبالتحديد في أواخر محرم من نفس العام، عندما اجتمع بعبد الله بن صالح العبيد رئيس الجامعة الإسلامية وقال له:(لو أنك وضعت تفسيراً على غرار الجلالين يحل محله في المعاهد ودور الحديث تلتزم فيه العقيدة السلفية التي خلا منها تفسير الجلالين فضّر كثيراً بقدر ما نفع)، وكانت بداية تأليفه لكتابه في أوائل شهر رجب من عام 1406 هـ، وفي يوم 17 من شهر رمضان من العام نفسه حتى طُبع الجزء الأول من كتابه المتضمن تفسير ثلث القران الكريم[12]، وفي ليلة السبت 23 من شهر محرم من عام 1407 هـ في الروضة الشريفة في المسجد النبوي الشريف تم الانتهاء من تأليف كتاب أيسر التفاسير كاملًا[13].

رابعا/ منهج المؤلف في تأليف الكتاب

أما طريقة الجزائري في تفسيره، أنه يورد آية أو آيتين، أو أكثرثم يبدأ بذكر اسم السورة ، والإشارة إلى مكيها ومدنيها، وعدد آياتها، ويشرح الكلمات شرحا لغويا، ثم يذكر المعنى العام، ويشير أحيانا إلى أقوال أهل العلم في مسائل مختلفة، ويختم بهداية الآيات وهي استخلاص الأحكام، والفوائد التي تضمنتها، قال الجزائري:"ونظراً لليقظة الإسلامية اليوم فقد تعين وضع تفسير سهل ميسر يجمع بين المعنى المراد من كلام الله، وبين اللفظ الغريب من فهم المسلم اليوم، نُبَين فيه العقيدة السلفية المنجية. والأحكام الفقهية الضرورية، مع تربية التقوى في النفوس،

11- أيسر التفاسير من كلام العلي الكبير(كتاب إلكتروني)، إعداد موقع روح الإسلام (www.islamspirit.com): 1/ 4-5

12- أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الثالثة (2006)، ص 6

13- أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الثالثة (2006)، ص 1798

بتحبيب الفضائل وتبغيض الرذائل، والحث على أداء الفرائض واتقاء المحارم. مع التجمل بالأخلاق القرآنية والتحلي بالآداب الربانية[14].

أما ذيل الكتاب المسمى نهر الخير، فهو كما عبّر عنه الشيخ:" بمثابة إضافات لغوية بيانية واستشهاد بسند من السنة النبوية وتعليقات جانبية على بعض الآيات، يقول أبو بكر الجزائري: "إنه نظرًا إلى حاجة طلبة العلم إلى المزيد من المعرفة، وضعت هذه الحاشية التي هي أشبه بتعليق على أيسر التفاسير، وأسميتها نهر الخير، أودعت فيها مع مراعاة الاختصار بعض ما يرغب طالب العلم في معرفته والحصول عليه من شاهد لغة، أو بيان، أو أثر جميل، أو مسند حديث جليل، أو كشف عن وجه لآية ذات وجوه، أو الوقوف على سر من أسرار القران أو عجيبة من عجائب القران، التي لا تنقضي بمرور الزمن، ولا تنتهي بتعاقب الملوان، وأهم من ذلك تصويب رأي، أو تصحيح خطأ وقعا في التفسير، مع إزالة إبهام، أو إضافة بعض الأحكام"[15].

خامسا/ مصادر الكتاب:

اعتمد أبو بكر الجزائري في تأليف كتابه أيسر التفاسير على أربع تفاسير هي: جامع البيان في تفسير القرآن لمؤلفه محمد بن جرير الطبري، وتفسير الجلالين لمؤلفيه جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي، وتفسير المراغي لمؤلفه أحمد مصطفى المراغي، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لمؤلفه عبد الرحمن بن ناصر السعدي[16].

المبحث الثاني: بين التفسير والمقاصد

لم تعد المقاصد مرتبطة بالفقه والأصول فقط كما ذكرت سابقا، بل تعدّت إلى كل علم من عقيدة، وأخلاق وتفسير وحديث... ولا شك أن للمقاصد أثرها على تلك العلوم، ونسعى في هذا

[14]- أيسر التفاسير: 1/ 5

[15]- أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الثالثة (2006)، ص 99

[16]- أيسر التفاسير: 1/ 7

المبحث إلى إيضاح أثرها عند المفسرين في التعامل مع معاني الآيات القرآنية، وعليه جاء _المبحث_ في مطلبين:

الأول: تعريف المقاصد وأهميتها في التفسير.

الثاني: اعتبار المقاصد في تفسير أبي بكر الجزائري.

المطلب الأول: تعريف المقاصد وأهميتها في التفسير

أولا/ تعريف المقاصد لغة وشرعا:

في اللغة: القصد جاء في كتب اللغة لمعان متعددة، ومما جاء في كتب اللغة قولهم: القصد: الاعتماد والأم، تقول: قصده، وقصد له، وإليه بمعنى يقصِده – بالكسر"[17]،وقال ابن منظور: "القصد: استقامة الطريق، قصد يقصد قصداً فهو قاصد"[18]. ويقول ابن سيدة:"القَصْدُ :استقامة الطريق، وقوله تعالى :﴿وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ النحل/ 9 ، أي أن على الله تبيين الطريق المستقيم إليه بالحجج والبراهين، والقصد والاعتماد والأمُّ، قصَده يقصده قصداً، وقصد له وأقصدني إليه الأمر وهو قصدُك، وقصدَك أي اتجاهك[19]".

في الاصطلاح: لا نجد تعريفا للمقاصد عند العلماء القدامى، لكن المحدثين اهتموا بتعريفها، وذكروا لها معان تدور جلها على المصالح، الأسرار، الحِكم، العلل، الأهداف والغايات...ولن أورد أقوالهم في ذلك، بل سأقتصر على ما جاء عند المفسرين فقط خدمة للبحث.

لقد وظّف جماعة من المفسرين قديما، وحديثا المقاصد، ذلك أنهم تأملوا في مضامين الآيات، ودلالاتها، وغاياتها، وتدبروا حقائقها، ومفاهيمها؛ مما أدى بهم إلى القول فيها بفكرة الفهم

---

[17] – القاموس المحيط وتاج العروس: 2/ 466.

[18]– لسان العرب: 4/ 353.

[19]– المحكم، والمحيط الأعظم، باب قصد

المقاصدي برهنة منهم على صلاحية القرآن الكريم لكل زمان ومكان، وشعورا بأهمية هذا العلم الذي يتأكد به الناس من كمال الشريعة، وأحكامها، مما ينمي الإيمان، ويرسخه في قلوبهم، وينتج البعد عن الاختلاف المفضي إلى التنازع، والافتراق بين أبناء الأمة[20].

وعليه فالمقاصد حاضرة عند المفسرين، ومقاصد القرآن هي الأكثر حضورا من مقاصد التشريع، ويختلف المراد بالنوعين عند المتقدمين والمتأخرين، وأرى أن المفسرين المتقدمين لهم إشارات إلى مقاصد القرآن، ولا يخرج معناها عن موضوعات القرآن ومعانيه، أما عند المفسرين المتأخرين فإن مقاصد القرآن هي نفسها مقاصد التشريع العامة[21]، ويظهر هذا جليا عند رشيد رضا والطاهر بن عاشور خاصة، ويعرف عبد الكريم حامدي مقاصد القرآن بقوله:" مقاصد القرآن هي الغايات التي أنزل الله القرآن لأجلها تحقيقا لمصالح العباد"[22].

ويظهر مما ذكره العلماء أن مقاصد الشريعة تتعّلق بمقصد التشريع الذي يضبط حركة الفرد المكلف وسلوكه. وهذا واحد من مقاصد القرآن الكريم الذي تضمن أمورا أخرى غير التشريع. وبعبارة أخرى: إن مقاصد الشريعة تعد مفصلة لشيء من مقاصد القرآن الكريم. إن مقاصد القرآن أعم، ومقاصد الشريعة أخص؛ لأن مقاصد الشريعة متعلقة بالفرد الواحد، ودائرة في نطاقه باعتبار

---

[20]- منوبة برهاني، الفكر المقاصدي عند الشيخ رشيد رضا (تقديم مسعود فلوسي، بيروت: دار ابن حزم، ط1، 2010م، ص64-65).

[21]- يطلق هذا المصطلح ليراد به (المقاصد التي تمت مراعاتها، وثبتت إرادة تحقيقها على صعيد الشريعة كلها، أو في الغالب الأعم من أحكامها، وذلك مثل حفظ الضروريات الخمس: الدين، والنفس، والنسل، والعقل، والمال؛ ومثل رفع الضرر، ورفع الحرج..): أحمد الريسوني، مدخل إلى مقاصد الشريعة(مصر، دار الكلمة المنصورة، ط1، 1434هـ، 2013م)، ص13.

[22]- مقاصد القرآن من تشريع الأحكام، (بيروت: دار ابن حزم، ط1، 2008م)، ص29.

فردية التبعة، ومسؤولية التكليف. ولكن الحديث عن مقاصد القرآن باعتبار: الإنسان الخليفة، والإنسان الجماعة، والإنسان الأمة، والإنسان الدولة، لم يتم بيانه في نطاق واسع[23].

فالمتتبع لكتب التفسير يجد إشارات للمقاصد القرآنية العامة وتطبيقاتها في الأحكام التشريعية العملية فعلى سبيل المثال جعل القرطبي القرآن مشتملاً على ثلاثة أمور وهي: التوحيد، والأحكام، والمواعظ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم :(قل هو الله أحد، تعدل ثلث القرآن)[24]، لأنها كلها توحيد[25]، وقد استخدم الطبري لفظ (المعاني) وأراد بها (المقاصد الشرعية) ومن ذلك قوله في تفسيره عن مقاصد الزكاة" والصواب من ذلك عندي: أن الله تعالى جعل الصدقة في معنيين أحدهما: سدّ خُلة المسلمين والآخر معونة الإسلام وتقويته[26]".

قال سيد قطب وهو يتحدث عن مقصد التفكر في النفس في تفسير آية: الحمد لله رب العالمين الفاتحة: تشتمل على مقصد تربوي عظيم، يتمثل في توجيه الإنسان إلى النظر في النفس، وحثه على ذلك؛ ليدرك فضل الله تعالى في تربيتها، والإنعام عليها بالأسرار والحكم، يملأ بها الإنسان حياته متعة ومسرة، ويدعم وجوده برصيد قيم من المعرفة الحقة التي ترفع القلوب، وتسمو بها في علو القدر، ورفعة اليقين"[27].

---

[23]- زياد خليل محمد، مقاصد القرآن في فكر بديع الزمان سعيد النورسي، جامعة أهل البيت عمان الأردن Email: ziyad_dagameen@gmail.com ص:421 – 422

[24]- العسقلاني، ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، الجزء التاسع، كتاب فضائل القرآن، باب فضل (قل هو الله أحد) فيه عمرة عن عائشة عن النبي– صلى الله عليه وسلم – حديث رقم 5013، ص71-72.

[25]- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن(تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، ومحمد رضوان العرقسوسي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط1، 2006م، مقدمة سورة الفاتحة ، المجلد الأول)، ص171.

[26]-الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن(تفسير الطبري) في معرض تفسيره للآية 60 من سورة التوبة في مصارف الزكاة(تحق محسن التركي، دار هجر).

[27]- ينظر: في ظلال القرآن(بيروت، دار الشروق، ط 17 – 1412 ه). 6/ 3378، وأحمد عبد السلام بومزيريق، تفسير إرشاد الحيران إلى توجيهات القرآن(بيروت، دار المدار الإسلامي، ط1، 2011م):1/ 39

أما الشيخ ابن عاشور الذي يعد رائد المقاصد في العصر الحديث فقد عرف المقاصد العامة للشريعة بقوله: "مقاصد التشريع العامة هي المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها، بحيث لا تختص ملاحظاتها بالكون في نوع خاص من أحكام التشريع عن ملاحظاتها، ويدخل في هذا أيضاً معان من الحكم ليست ملحوظة في سائر أنواع الأحكام، ولكنها ملحوظة في أنواع كثيرة منها"[28].

وفي قسم آخر من كتابه، تعرض للمقاصد الخاصة، ويعني بها الكيفيات المقصودة للشارع لتحقيق مقاصد الناس النافعة، أو لحفظ مصالحهم العامة في تصرفاتهم الخاصة.. ويدخل في ذلك كل حكمة روعيت في تشريع أحكام تصرفات الناس، مثل: قصد التوثق في عقد الرهن، وإقامة نظام المنزل والعائلة في عقد النكاح ودفع الضرر المستدام في مشروعية الطلاق[29].

واعتبر ابن عاشور أن أعظم وظيفة للمفسر هي الوصول إلى كليات التشريع وعاب على المفسرين انشغالهم بتقصي معاني القرآن عن انتزاع كليات التشريع[30]، وبهذا جعل ابن عاشور تفسير القرآن الطريق لبيان المقاصد بل اعتبر وظيفة المفسر الأساسية هي تجلية المقاصد القرآنية، وهناك موضع واحد ذكر فيه ابن عاشور أن العلم بمقاصد القرآن الأصلية من شروط المفسر إذ يقول: "وجب على الآخذ في هذا الفن أن يعلم المقاصد الأصلية التي جاء لقرآن لتبيانها"[31]. كما أنه توسع في مقاصد القرآن، وأعتبر محمد رشيد رضا أول مفسر طرق علم المقاصد في تفسيره، وهو أسبق في ذلك من ابن عاشور، وقد تناول كل مباحث المقاصد، كما عدّد أيضا مقاصد القرآن وفصّلها بما لا مزيد عليه[32].

---

[28]- مقاصد الشريعة الإسلامية(تونس، الشركة التونسية للتوزيع، ط1، 1987م)، ص51.

[29]- مقاصد الشريعة الإسلامية، ص154.

[30]- ابن عاشور، التحرير والتنوير(تونس، الدار التونسية للنشر، 1984م)، المقدمة الأولى، ص13.

[31]- ابن عاشور، المصدر السابق، المقدمة الرابعة، ص39.

[32]- ينظر تفصيل كل ذلك: منوبة برهاني(صاحبة البحث)، الفكر المقاصدي عند محمد رشيد رضا.

ثانيا/ أهمية المقاصد في التفسير

لقد أفاض العلماء في أهمية المقاصد بالنسبة للفقه وأصوله، وبالنسبة للعلوم الأخرى، وسواء أكانت هذه الأهمية للمجتهد ومن في معناه، أم للداعي وطالب العلم وللمسلم عموما، ولما كانت أهمية المقاصد بالنسبة للمفسر تتقاطع في ما ذكره علماء الأصول، سأركز فقط على أمرين يظهر من خلالهما دور المقاصد في تفسير القرآن الكريم، وهما:

1/ **الفهم الصحيح للقرآن الكريم**: لاشك أن معرفة قصد الشارع من الخطاب أو النص القرآني، أدعى إلى فهم كلامه –عز وجل- وتطبيقه على نحو سليم، ومنهج قويم، قال الشاطبي في الموافقات:تعليقا على قوله تعالى:﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ محمد/ 24.

فالتدبر إنما يكون لمن التفت إلى المقاصد، وذلك ظاهر في أنهم أعرضوا عن مقاصد القرآن؛ فلم يحصل منهم تدبر"[33] ."فمقاصد القرآن الكريم وأسراره لا تنكشف ولا تتضح إلا بالفهم الصحيح العميق، مع التفكر في معاني النص ومدلولاته ودقة التأمل. وطول النظر فيه، ومن هنا فإن زلة العالم أكثر ما تكون عند الغفلة عن اعتبار مقاصد الشارع في ذلك المعنى الذي اجتهد فيه "[34]. "ومن لم يفهم مقاصد الشريعة سوف يضل في فهم معاني الكتاب والسنة، إذ الشريعة مبناها على الكتاب والسنة، فإذا أُغفلت المقاصد فقد أُغفل جزء من الشريعة، ومن لم يفهم مقاصد الشريعة الإسلامية ربما ضل في حمل الظاهر أو المتشابه المحتملٍ لمعان على المراد منه شر؛ إذ الواجب حمل اللفظ على ما يوافق نصوص الشارع ومقاصده، وإبطال كل تأويل يخالف ذلك ويناقضه"[35].

---

[33]- الموافقات في أصول الشريعة(تحق: عبد الله دراز، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1 2004م): 4/ 209

[34]- ينظر: الشاطبي، الموافقات، 5/ 135، عمر بن صالح، مقاصد الشريعة عند الإمام العز ابن عبد السلام، ط(1 ، (دار النفائس، عمان، الأردن، 1423هـ-2003م)، ص178

[35]- ينظر: حبيب محمد بكر إسماعيل، مقاصد الشريعة تأصيلا وتفعيلا (إدارة الدعوة والتعليم، سلسلة دعوة الحق، رابطة العالم الإسلامي، السنة الثانية والعشرون، العدد 213 ، 1427هـ): 48-49

2/ الترجيح بالمقاصد عند تعدد المعاني في النص القرآني، أو بين نصين متعارضين:

فالترجيح بالمقاصد في التفسير يمكن أن يكون على وجهين:

الأول: إما أن يكون وفق دلالة اللفظ على المعنى، حيث إن اللفظ قد يحتمل أكثر من معنى على وجه الاشتراك، أو بسبب دوران اللفظ بين الحقيقة والمجاز، أو غير ذلك من الأسباب، ولا شكّ أنّ المُفسّر لا يستغني عن معرفة هذه الدلالات وفق فهم علماء الأصول لها؛ لأنهم هم الذين أصّلوا لها، ومن أمثلة ذلك، قوله تعالى:﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ البقرة/ 228 فلفظ "القرء" مشترك بين الحيض والطهر، محتملا في كل منهما بإجماع العلماء[36]، ومراعاة مقصود الشارع من التشريع أحد الطرق التي اعتمدها أهل العلم للترجيح بين أحد المعنيين، حيث إن اعتبار" القرء" هو الطهر يؤدي إلى الإنقاص من مقدار العدة، لعدم احتساب جزء الطهر الذي أُمر الأزواج أن لا يطلّقوا إلا فيه من مدة الحيض، فيؤدي إلى عدم اكتمال مدة الحيض التي أمر الله بإتمامها، وهذا هو الذي يتوافق مع روح التشريع ومقاصده[37].

الثاني: إما أن يكون الترجيح بين نص وآخر عند تعارضهما، بأن يكون أحدهما موافقا للقواعد الكلية مما يتوافق وروح التشريع، ويتم الترجيح إما بتقوية النص وإما بمساندته، وهذا لا يعني البتة إبطال النص المقابل، وإنما المقصود بذلك أن تُراعى مقاصد الشريعة أثناء عملية الترجيح، بحمل النص على ما وافق المبادئ العامة للتشريع، كرفع الحرج والضرر، والتيسير على الخلق، ومراعاة سلّم الأولويات في ترجيح مصالح على أخرى[38]. ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا

36- محمد أديب صالح، تفسير النصوص في الفقه الإسلامي(بيروت، المكتب الإسلامي، ط3، 1404هـ_1984م): 2/ 149

37- أشرف محمود عقلة بني كنانة، أثر المقاصد في تدبر النص القرآني، جامعة أم القرى مكة، ص 14، إيميل: Kinane@yu.edu.jo

38- يمينة ساعد بوسعادي، مقاصد الشريعة وأثرها في الجمع والترجيح بين النصوص(بيروت، دار ابن حزم، ط1 1428- 2007م)، ص: 296

قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ المائدة/ 6. ففي الآية قراءتان:

الأولى: القراءة بنصب اللام في "أرجلكم" تدل على وجوب غسلهما كما يُغسل الوجه، وتغسل الأيدي، وهو قول جمهور العلماء[39].

الثانية: القراءة بخفض اللام في "أرجكم" تدل على مسحهما كما يمسح الرأس، على تفصيل عند أصحاب هذا القول...[40] وقد توسع العلماء في الكلام عن الترجيح بين القراءتين، ولتفصيل ذلك يرجع إلى مظانه من كتب الفقه وأصوله.

ومن الباحثين مَن أعمل الترجيح بالمقاصد بين القراءتين فقال:" القول بمسح القدمين في بعض الأحوال، وهي إذا كان عليهما الخفان، يتوافق مع مقاصد الشريعة من المحافظة على أصل غسل القدمين تحقيقا لمعنى الوضوء، ومن قصدها إلى رفع الحرج عن المكلفين فرخّصت بعدم الغسل لمن لبس عليهما الخفين، وبذلك تظهر أثر النظرة المقاصدية في استنباط أحكام القرآن الكريم عن طريق الترجيح بين المتعارضين.

وللمخالف أن يقول أيضا: إن الشريعة قصدت إلى الاقتصاد في صب الماء وعدم الإسراف، فتظهر أثر النظرة المقاصدية في قولنا: إن المراد اغسلوا أرجلكم غسلا خفيفا لا إسراف فيه، غسلا يقارب المسح"[41]

[39]- ينظر: السرخسي، المبسوط:1/ 5-6، ابن عبد البر، التمهيد: 24/ 254، القرافي، الذخيرة: 1/ 268، الشافعي، الأم: 2/ 59، البهوتي، الروض المربع: 1/ 50....

[40]- ينظر: الطبري، تفسير الطبري: 6/ 128، الجصاص، أحكام القرآن (تحق: محمد صادق القمحاوي، بيروت، دار إحياء التراث العربي 1405 هـ): 3/ 349، ابن العربي، أحكام القرآن (راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلّق عليه: محمد عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط3، 1424 هـ - 2003): 2/ 72...

[41]-- أشرف محمود عقلة بني كنانة، أثر المقاصد في تدبر النص القرآني، ص: 25

المطلب الثاني/ اعتبار المقاصد في تفسير أبي بكر الجزائري.

هناك دلالات كثيرة تظهر التفات الشيخ وعنايته بالمقاصد جملة وتفصيلا، وقد زخر تفسيره بما يتعلق بها، وأن مسلكه الوقوف على روح النص والكشف عن معانيه، حيث قال:" مذهبي: تحري العمل بكتاب الله وسنة رسوله الثابتة الصحيحة، وإن أعوزني الدليل من الكتاب والسنة أقدّم من آراء وفتاوى الصحابة والتابعين والأئمة الفقهاء أجمعين، ما أراه أمس بروح تشريع الله ورسوله وألصق بهدي محمد صلى الله عليه وسلم ملاحظا في ذلك الغرض العام الذي تهدي إليه الشريعة الإسلامية السمحة، وهو تزكية النفس وإصلاحها لتعيدها بذلك إلى كرامة الدنيا والآخرة وسعادتها"[42]. وقد جمعت ما يدل على مراعاة الشيخ للمقاصد في الآتي:

أولا/ مصطلحات أبي بكر الجزائري للتعبير عن المقاصد.

ثانيا/ رأي أبي بكر في تعليل العبادات.

ثالثا/ الضروريات الخمس وتطبيقاتها عند الشيخ.

رابعا/ التنبيه على بعض المقاصد العامة.

أولا/ مصطلحات أبي بكر الجزائري للتعبير عن المقاصد

المتتبع لما جاء في تفسير" أيسر التفاسير من كلام العلي الكبير" يجد أن صاحبه عبّر بألفاظ متنوعة، أراد بها معنى المقاصد، فأحيانا يأتي باللفظ الصريح للمقاصد من قصد ومقصود... وأحيانا أخرى بلفظ الحكمة أو العلة، أو الغاية، أو السر، على النحو التالي:

[42]- رسائل الجزائري - ثلاثون رسالة في مواضيع دينية وإصلاحية مختلفة- (ط3، 1995م): 166

1 / **استعماله لفظ "القصد" و"المقصود":**

تردد لفظ القصد، والمقصود في تفسير الشيخ في مواضع عدة، كقوله تعليقا على قول الله عز وجل:﴿ انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ المرسلات/ 29 أعيد لفظ(انطلقوا) على طريقة التكرير قصد التوبيخ والإهانة"[43].

وقال في موضع آخر، تعليقا على قوله تعالى: "لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ"، الفاكهة ما يؤكل تفكّها بأكله، أي تلذذا بطعمه من غير قصد القوت، وما يؤكل لأجل الطعام يقال له: طعام ولا يقال له فاكهة"[44]. وقال وهو يتحدث عن زيارة القبور:" تتطور أحيانا إلى أن تصبح ذات طابع ديني بحت، فيقصد الغير لا بدافع الحزن والشوق إلى صاحبه والحنين إليه، ولكن بقصد التقرب إليه لما يعتقد من صلاحه..."[45]. وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ المؤمنون/ 52 فيه دليل على أن الاختلاف في الفروع غير مقصود، وإنّما المقصود هو ما كان في أصول الدين وقواعده"[46]. وقال تعليقا على قوله تعالى:﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ البقرة/ 116 أي مطيعون منقادون فالملائكة لا يعصونه ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، والجن والإنس منقادون لما أراده منهم من حياة وموت ونشور وأما عصيانهم في العبادات فهو غير مقصود لأنه التكليف الذي هو علة الحياة كلها ومع هذا فهم منفذون باختيارهم وإرادتهم الحرة ما كتبه عليهم أزلا"[47].

2 / **استعماله ألفاظ أخرى للدلالة على المقاصد**

لقد وظف الشيخ مصطلحات أخرى غير ما ذُكر لتعيين المقاصد، وأكثرها استعمالا مصطلح (الحكمة)، قال أبو بكر:" من هداية الآيات، بيان بعض الحكمة في إنزال الكتاب أي القرآن

[43]- أيسر التفاسير: 5/ 496

[44]- المرجع السابق: 3/ 510

[45]- رسائل الجزائري: 190

[46]- أيسر التفاسير: 3/ 523

[47]- المرجع السابق: 4/ 174

والميزان وهو أن يحكم الناس بالقسط"[48]. وقال أيضا: "بيان الحكمة في الإسراء والمعراج وهي أن يرى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعيني رأسه ما كان آمن به وعلمه"[49]، وقال:" من هداية الآيات بيان الحكمة في نزول القرآن باللغة العربية وهي أن يعقله العرب ليبلغوه إلى غيرهم"[50] وغيرها كثير.

كما استعمل الشيخ الجزائري في تفسيره لفظ (العلة)، وأراد به المقصد، قال: "العلة في إرسال الرسل هي إقامة الحجة على الناس، وعدم إهلاكهم قبل الإرسال إليهم"[51]. وقال في موضع آخر: "العلة في وجود الزينة على هذه الأرض، وهي الابتلاء والاختبار للناس ليظهر الزاهد فيها، العارف بتفاهتها وسرعة زوالها، وليظهر الراغب فيها المتكالب عليها الذي عصى الله من أجلها"[52].

وما جاء على لسان الشيخ في معنى المقاصد لفظ (الغاية) ، فقال:" الغاية من إنزال الشرائع ووضع الحدود وهي تقوى الله عز وجل".1/ ، 168 وأيضا قوله:"إذ البعث والحياة الآخرة هي الغاية من هذه الحياة الدنيا فالناس يعملون ليحاسبوا ويجزوا فلابد من حياة أكمل وأتم من هذه الحياة يتم فيها الجزاء وقد بينها تعالى وفصلها"[53].

ومن المصطلحات التي لها معنى المقاصد عند الشيخ: (الغرض)، و(السر)، فمن الأول قوله:" الغرض من التشريع هو إصلاح الإنسان جسدا وروحا، وإعداده لأن يكون أهلا لكرامة الله تعالى وإنعامه في الدار الآخرة"[54]. ومن الثاني قوله:"السر في تقديم الوصية على الدين في اللفظ كان

---

[48]- المرجع السابق: 4/ 606

[49]- أيسر التفاسير: 3/ 173

[50]- أيسر التفاسير: 2/ 592

[51]- أيسر التفاسير: 2/ 121

[52]- أيسر التفاسير: 3/ 241

[53]- أيسر التفاسير: 5/ 252

[54]- رسائل الجزائري: 79

بسبب أنه لا يوجد من يطالب بها فقد تنسى، وأما الدين فأهله يطالبون به فلا ينسى ولا يترك"[55]، ونماذج كثيرة في تفسيره على هذه الشاكلة.

لو تأملنا ما أورده الشيخ أبي بكر الجزائري من ألفاظ للدلالة على المقاصد، خاصة مصطلح الحكمة، لوجدنا أنه لا فرق بين تلك الألفاظ، ولعل هذا ديدن جل المفسرين، وعبارات الأصوليين أدق في ذلك، فالشيخ رادف بينها في مواضع من تفسيره، كقوله وهو يجمع بين الحكمة والعلة: "بيّن الله جزاء الكافرين بعد أن بين جزاء المؤمنين، ذلك الجزاء الذي هو حكمة وعلة البعث وكتابة الأعمال في اللوح المحفوظ"[56]، وقال وهو يرادف بين الحكمة والسر تعليقا على قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَاب وَالْحِكْمَةَ﴾ البقرة/ 129، أي يعلمهم الكتاب الكريم يعلمهم معانيه... ويعلمهم الحكمة في كل أمورهم والإصابة والسداد في كل شؤونهم، يفقههم في أسرار الشرع وحكمه في أحكامه"[57].

ثانيا/ رأي أبي بكر في تعليل العبادات:

عنى الشيخ بمقاصد الأحكام العملية، من خلال كلامه عن التعليل الذي نال الحيز الأوفر في تفسيره، حيث عدّه مِنّة الله على الناس، فتقبل النفس على العمل باطمئنان وانشراح، قال:" من هداية الآيات منة الله تعالى علينا في تعليله الأحكام لنا لتطمئن نفوسنا ويأتي العمل بانشراح صدر، وطيب خاطر"[58]. وأكثر العلماء قالوا بتعليل الأحكام، وأنه واقع في نصوص الشريعة، وهو أساس علم المقاصد، لأنه الفكرة في ظهوره.

وقد عرّف الشيخ العبادة بقوله:"أصل العبادة: الخضوع والتذلل، مشتق من قولهم: طريق معبد إذا كان موطوءا بالأقدام، وهي في الشرع طاعة الله ورسوله بالإيمان وفعل الأمر واجتناب النهي

[55]- أيسر التفاسير: 1/ 446

[56]- أيسر التفاسير: 4/ 304

[57]- أيسر التفاسير: 5/ 346

[58]- أيسر التفاسير: 1/ 465

مع غاية الحب والتعظيم لهما والتذلل وحده"[59]، وفي موضع آخر قال تعليقا على قوله تعالى:﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الذاريات/ 56 وسائر المخلوقات هي لأجل الناس فعاد الأمر إلى أن المخلوقات كلها مخلوقة لعلة العبادة"[60].

فالشيخ في كل مرة يقرر أن ما من عبادة إلا من ورائها حكمة أو مقصد علمه من علمه، وجهله من جهله، قال:" إن جميع الأعمال التعبدية لا تخلو من حكم مقصودة للشارع فيها، وأن هذه الحكم قد تكون في بعض العبادات ظاهرة، وقد تكون في بعضها خفية غير ظاهرة، ولا يسعنا عندئذ إلا أن نقول: أمرنا الشارع ولم نطّلع على الحكمة فيجب التسليم له في ذلك، بيد أن عدم اطلاعنا على الحكمة لا ينفي وجودها، لأن الشارع منزه عن اللعب والعبث" [61]، وهو بذلك يؤكد قول الشاطبي:" الأحكام المعللة والمعقولة المعنى في مجال العبادات كثيرة جداً، وأن القليل منها هو الذي قد يتعذّر تعليله تعليلا واضحا... وعليه فإن الأصل في الأحكام الشرعية، العادية والعبادية هو التعليل، وأن ما خرج عن هذا فهو استثناء"[62]، وفي السياق نفسه قال رشيد رضا:" إن الأحكام العملية إنما تشرع لتقوية الإيمان وإصلاح النفس، ولذلك كان من سنة القرآن أن يبيّن مع كل حكم حكمة تشريعية... ويا ليت فقهاءنا اقتدوا بهدي القرآن فلم يجعلوا كتب الأحكام جافة مقصورة على ذكر الأعمال البدنية، كأن الدين دين مادي جسمانيا لا غرض للقلوب والأرواح فيه"[63].

---

[59]- المرجع السابق: 1/ 31

[60]- المرجع السابق: 5/ 141

[61]- رسائل الجزائري: 109

[62]- أحمد الريسوني، نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي (الدار العالمية للكتاب الإسلامي ط2 – 1412 هـ – 1992م):216

[63]- تفسير القرآن الحكيم- تفسير المنار-(الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م): 2/ 136

وقد أشار الجزائري للمقصد العام من العبادة، فقال:" الحكمة العامة في سائر التكاليف الشرعية هي اختبار المكلفين بما يظهر مدى طاعتهم له تعالى، ومقدار إذعانهم لأمره عز وجل ونهيه"[64].

ثم جعل الشيخ لكل عمل من أعمال الصلاة، والصيام، والزكاة، والحج – وغيرها حتى في المعاملات–حِكما، فقال في مناسك الحج:" وضعت عقب كل منسك من مناسك الحج ما بدا لي أنه حكمة له...وقد أقول حكمة كذا وكذا... أو الحكمة في كذا... وأنا لا أريد الحصر أو القصر أبدا، فإذا قلت حكمة كذا هي كذا فليس معناه أن هذه العبادة لا حكمة لها إلا ما ذكرت، فقد يكون للعبادة حِكم أخرى لم أُلهم معرفتها، ولم أُوفق للكشف عنها"[65]. والمتصفح لأيسر التفاسير، ورسائل الشيخ يجد أنهما حافلان بتقصيد العبادات، من ذلك قوله: الحكمة من تعجيل الفطر سرعة امتثال المؤمن لأمر ربه، وإظهار نعمة الله عليه، بإباحة ما كان ممنوعا والتفرغ إلى صلاة المغرب، بدفع غائلة الجوع، والعطش، والرفق بضعفاء الأمة..."[66]. وبعد ما ذكر الكثير من الحكم والتعليلات للطلاق قال:" خلاصة القول في حكمة الطلاق، وسر شرعيته أنه رفع الأذى عن المؤمن والمؤمنة، والمحافظة على تقواهما لله عز وجل، التي هي طريق سعادتهما وكمالهما في الحياتين". ومثل هذه الحكم والتعليلات في مؤلفات الشيخ كثيرة لا تعد ولا تحصى.

ثالثا/الضروريات الخمس وتطبيقاتها عند أبي بكر الجزائري

لقد راعى الجزائري الضروريات الخمس، واعتبرها الأصل في طلب المقاصد، قال تعليقا على آية:﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ ...﴾ يوسف/ 47 هذه الآية دليل على مشروعية المصالح الشرعية المرسلة، التي هي حفظ الأديان، والنفوس، والعقول، والأنساب، والأموال، فكل ما تضمّن تحصيل شيء من هذه

[64]– رسائل الجزائري: 109

[65]– المرجع نفسه.

[66]– رسائل الجزائري: 258

الكليات الخمس فهو مصلحة، وكل ما يُفوِّت شيئاً منها فهو مفسدة ودفعه مصلحة، ولا خلاف أن مقصود الشارع إرشاد الناس إلى مصالحهم الدنيوية والأخروية. على هذا أهل السنة والجماعة" [67].

ولأهمية الضروريات عند الشيخ، جعل المساس بها من المحرمات، قال:" للعلم العام عند سائر العارفين أن الله تعالى لا يحل للمؤمنين إلا ما كان نافعا صالحا مفيدا مثمرا، ولا يحرّم عليهم إلا ما كان ضارا فاسدا قبيحا مسيئا إلى أرواحهم، أو أعراضهم، أو أجسامهم، أو أموالهم، أو دينهم" [68]. وهذه بعض التطبيقات التي تدل على فقه أبي بكر الجزائري للضروريات، وهي:

1/ حفظ الدين

يكون حفظ الدين في نظر الشيخ، بالاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم- قال: "مهما تمسكت أمة الإسلام بالكتاب والسنة فإنها لا تضل ولا تسقط ولو كادها أهل الأرض أجمعون، ومهما أعرضت عنهما سقطت وهانت ولو دعمها أهل الأرض أجمعون" [69]، وقال أيضا:" إن صلاح البشر جسمانيا وروحانيا متوقف على العمل بما شرع الله لهم، وأنزل عليهم، فبقدر انقيادهم لذلك التشريع، وعملهم به تعظم سعادتهم أو تقل" [70]، وأسهب الشيخ في هذا المجال.

وللدفاع عن الدين أوجب الله الجهاد:" من هداية الآيات فرضية محبة الله ورسوله والجهاد في سبيله" [71]، وقال تعليقا على آية: ﴿ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ... ﴾ الحج/ 40 وهذا تعليل وبيان لحكمة الأمر

---

[67]- أيسر التفاسير:2/ 618

[68]- رسائل الجزائري: 109

[69]-أيسر التفاسير: 1/ 354

[70]- رسائل الجزائري: 77

[71]- أيسر التفاسير: 2/ 353

بالقتال أي لولا أن الله تعالى يدفع بأهل الإيمان أهل الكفر لتغلب أهل الكفر، وهدموا المعابد، ولم يسمحوا للمؤمنين أن يعبدوا الله"[72].

ولما كانت البدع تناقض مقاصد الشريعة، وتهدّمها وليست بخادمة لها، تناولها أهل المقاصد وفصّلوا القول فيها، والشيخ الجزائري غلبت عليه هذه النظرة، حيث أفرد لها ثمان وعشرين صفحة في الرسالة الثالثة عشر في(حرمة الابتداع في الدين وكل بدعة ضلالة)، وتوسع فيها كما فعل العلماء من قبله ومعاصروه، وبحث فيها البدع من حيث: تعريفها، حكمها، وإنكارها، وأنواعها والتمثيل لكل نوع، ووجوب محاربتها، وأسبابها، والتفريق بينها وبين المصالح المرسلة، وصورها كبيرها وصغيرها، ثم ختم الرسالة ببيان طريق الخلاص من البدع[73].

وعليه يرى الشيخ أن من أعظم مفسدات الدين البدع، وخاصة تلك التي تكون في المواسم والأعياد، لذلك عقد رسالة صغيرة بعنوان:(الإنصاف فيما قيل في المولد من الغلو والإجحاف)، وهدفه منها كما قال: "بيان الواجب من بدعية المولد من جهة، ورغبة في وضع حد للفتنة التي تتجدد كل عام، وتزيد في محنة الإسلام من جهة أخرى"[74]، ومما جاء على لسانه:" البدع تشريع يضاهى به شرع الله مقصود لذاته، لا وسيلة لغيره من جلب نفع أو دفع ضر، والتشريع المقصود بذاته من حق الله تعالى وحده، إذ غير الله عز وجل لا يقدر على وضع عبادة تؤثر في النفس البشرية، بالتطهير والتزكية وما الإنسان بأهل لذلك أبدا..."[75].

---

[72]- المرجع السابق: 3/ 480

[73]- ينظر: رسائل الجزائري: 411 وما بعده

[74]-الإنصاف فيما قيل في المولد من الغلو والإجحاف(الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد الطبعة :الأولى، 1405ه).:3

[75]- المرجع السابق: 21

2/ حفظ النفس

وتُحفظ النفس بالأكل والشرب دون إسراف، قال الشيخ في شرح الآية:﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ الأعراف/ 31 أي كلوا مما أحل الله لكم واشربوا، ولا تسرفوا بتحريم ما أحل الله، وشرع ما لم يشرع لكم فالزموا العدل، فإنه تعالى لا يحب المسرفين فاطلبوا حبه بالعدل، واجتنبوا بغضه بطاعته وطاعة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"[76]. ثم قال: "هذه الآية الكريمة أصل من أصول الدواء، إذ أمرت بالأكل والشرب وهما قوام الحياة وحرمت الإسراف فيهما وهو سبب كافة الأمراض"، ومن أجل حفظ النفس أيضا أوجب الله أكل المحرمات عند الاضطرار أو الضرورة، قال الشيخ:" ومن مظاهر مغفرته ورحمته أنه أذن للمضطر بالأكل مما هو حرام في الضرورة"[77]، وقال:" يغفر للمضطر كما يغفر للتائب، ويرحم المضطر فيأذن له في الأكل دفعاً للضرر، رحمة به كما يرحم من أناب إليه"[78]. ويكون الحفاظ على النفس من جانب العدم، بتشريع القصاص، وتحريم قتل النفس، قال الجزائري:" أخبر تعالى أن في القصاص الذي شرع لنا، وكتبه علينا مع التخفيف حياة عظيمة لما فيه من الكف عن إزهاق الأرواح وسفك الدماء[79]. وقال أيضا في شرح قوله تعالى:﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ النساء/ 29 والنهي شامل لقتل الإنسان نفسه وقتله أخاه المسلم؛ لأن المسلمين كجسم واحد، فالذي يقتل مسلماً منهم كأنما قتل نفسه. وعلل تعالى هذا التحريم لنا فقال: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾ النساء/ 29، فلذا حرم عليكم قتل بعضكم بعضاً"[80].

---

[76]- أيسر التفاسير: 2/ 165

[77]-المرجع السابق: 2/ 134

[78]- المرجع السابق: 3/ 165

[79]-المرجع السابق:1/ 151

[80]- أيسر التفاسير: 1/ 466

3/ حفظ العقل

المتتبع لأقوال الشيخ، يجعل العقل من الضروريات، وهو وسيلة للاهتداء به إلى معرفة الحق وإتباعه، قال:" العقل بمثابة العين المبصرة، إن كان هناك ضوء أو نور، أبصرت الأشياء، بحسب قوتها وضعفها، وإن لم يكن هناك ضوء أو نور، تعذّر عليها أن ترى أو تبصر، كما هم معلوم لكل الناس.. فالعقل البشري كذلك إن كان هناك وحي إلهي من كتاب وسنة، أدرك الأشياء على حقيقتها، وأبصر الأمور كما هي، فعرف مضارها ومنافعها، وصالحها وفاسدها، وحسنها وقبحها، وإذا انضاف إلى ذلك العلم والإيمان كثُر صواب صاحبه، وقلّ خطؤه.."[81]. ولا شك أن العلم ضروري للعقل، قال الشيخ: "إن العلم كان وما زال ضروري من ضروريات الحياة، وشرطا أساسيا من شروط سعادة الأفراد والجماعات"[82].

ولإيجاد العقل دعا الله الناس إلى النظر، قال الشيخ:" التفكر هو منبع الإيمان واليقين والعقل إذا من فكر عقل ومن عقل آمن ومن آمن أيقن ومن أيقن طلب النجاة من النار والفوز بالجنان بالإيمان وصالح الأعمال بعد ترك الشرك والمعاصي"[83]. وقال في موضع آخر: "في آية ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ الذاريات/ 21 توبيخ لأهل الغفلة والإعراض عن التفكر، والنظر إذ لو نظروا بأبصارهم متفكرين ببصائرهم لاهتدوا إلى الإيمان، والتوحيد والبعث والجزاء"[84]. ومن المفسدات التي تتلف العقل، وتُذهب دوره الخمر، قال الشيخ: "إن علة تحريم شرب الخمر، ولعب الميسر هي إثارة العداوة والبغضاء بين الشاربين واللاعبين والصد عن ذكر الله، وعن الصلاة، وهما قوام حياة المسلم الروحية"[85].

---

[81]- رسائل الجزائري: 412

[82]- رسائل الجزائري: 385

[83]-أيسر التفاسير: 5/ 28

[84]-أيسر التفاسير: 5/ 158

[85]- المرجع السابق:2/ 13

4/ حفظ النسل

من المقاصد الأصلية للزواج حفظ النسل، إذ هو الوسيلة لبقائه لذلك حث عليه الإسلام، قال الشيخ: "يعلم تعالى من ضعف الإنسان، وعدم صبره عن النساء بما غرز فيه من غريزة الميل إلى أنثاه، لحفظ النوع ولحكم عالية، وقال تعالى:﴿يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفاً﴾ النساء/ 28"[86]. وللشيخ رسالة في حقوق النساء ضمّنها العديد من مقاصد حفظ الأسرة، حيث اعتنى بالواجبات الزوجية، مركّزا على إعطاء الإسلام حظا وافرا وقسطا كبيرا للعناية بالمرأة، مع التدليل على ذلك بنصوص من الكتاب والسنة، ومقارنة حقوقها بحالها في الجاهلية قديما، وحالها في الحضارة الغربية حاليا[87]. كما أشار الشيخ إلى أن تعدد الزوجات مما يحفظ النسل، واسترسل في ذكر فوائده، قال: "إن الإسلام وأنصاره لا يرون في مسألة تعدد الزوجات سوى الرحمة في التشريع، والإصابة في التقدير، والعدل في التقنين"[88].

ومما يؤكد على حفظ الإسلام للنسل، حرصه على إبقاء العلاقة الزوجية قائمة، وتشريع الطلاق لا يكون إلا للضرورة، قال الشيخ: "إن الله شرّع الطلاق لمصلحة الفرد، وهو دواء فإذا سيء استعماله انقلب داء، وأن الشرع لم يُلزم به أحدا من الناس، إلا في حالات خاصة يتعرض فيها أحد الزوجين لضرر كبير، قد لا يتحمله ولا يقوى على مثله"[89]، وقد عدّد الشيخ في رسائله الكثير من حِكم الطلاق وأسراره. ولحفظ النسل من جانب العدم، حرّم الإسلام الزنى، قال الشيخ: "سمي الزنا فاحشة لأنه تجاوز الحد في الفساد، إذ به يفسد الخلق والعرض والنسب والدين والمجتمع، وكفى بهذا فساداً عظيماً "[90].

---

[86]- أيسر التفاسير:1/ 464

[87]- ينظر: تفصيل ذلك لرسائل الجزائري: 367 وما بعدها.

[88]- رسائل الجزائري: 379

[89]- ينظر: المرجع السابق: 376

[90]- أيسر التفاسير: 1/ 449

وقد تناول الشيخ في صفحات عديدة أسبابا كثيرة لاتقاء الزنى، من بينها فرض الحجاب على المرأة، قال:" من الأسباب الكفيلة لمنع الزنى، والحيلولة دون وقوعه، تشريع الحجاب الذي هو ليس مقصودا لذاته، وإنما هو وسيلة لغيره"[91].

5/ حفظ المال

مما يدل على حفظ الإسلام للمال حثه على العمل والسعي للرزق، قال الجزائري:" شُرّع الأخذ بالأسباب إذ قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:(اعقلها وتوكل) قال بعضهم: الأسباب التي يطلب بها الرزق هي الجهاد وأكل الرجل من عمل يده التجارة، الحرث، والغرس، التعليم للعلوم بالأجرة، الاستدانة بنيّة رد الدين"[92]. وقال في شرح آية:﴿وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ﴾ الروم/ 23: أي طلبكم الرزق بإحضار أسبابه من زراعة وتجارة وصناعة وعمل، وبالمشي في الأرض واستعمال الوسائل المشروعة لذلك"[93]، ثم بيّن العلة في الرزق وأنها الشكر فالله سبحانه وتعالى يرزق لِيُشكر[94].

ومن أدلة اهتمام الشيخ بحفظ المال، رسالته الرابعة بعنوان:(إلى الزكاة/ الزكاة سر الحياة، والعبادة سر الزكاة) التي تناول فيها أنواع الزكاة، ومقاديرها، ومصارفها...ومما قاله في ذلك:" إنها الصدقة التي يُحقن بها الدم، ويُحفظ المال، وإلا بدونها الدم عرضة للسفك، والمال للمصادرة..."[95].

ولإيجاد المال، والمحافظة عليه حض الله على كتابة الدين والإشهاد عليه، وكذا الصدقة، والإنفاق في سبيله، قال الشيخ في الأمر الأول:" لما حث تعالى على الصدقات وحرم الربا، ودعا إلى العفو على المعسر، والتصدق عليه، بإسقاط الدين الأمر الذي قد يتبادر إلى الذهن أن المال لا شأن له، ولا قيمة في الحياة فجاءت هذه الآية، آية الدين الكريمة لتعطي للمال حقه، وترفع من شأنه فإنه

---

[91]- رسائل الجزائري: 372

[92]- أيسر التفاسير:2/ 356

[93]- المرجع السابق: 4/ 170-172

[94]- المرجع السابق :3/ 106

[95]- رسائل الجزائري: 281

قوام الحياة فقررت واجب الحفاظ عليه بكتابة الديون والإشهاد عليها"[96]،وقال الشيخ في الأمر الثاني وهو يشرح آية:﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ سبأ/ 39 في هذا دعوة إلى الإنفاق في سبيل الله، وتشجيع عليه بإعلام الناس أن الإنفاق لا ينقص المال، والبخل به لا يزيده، فإن التوسعة كالتضييق لحكمة فلا البخل يزيد في المال، ولا الإنفاق في سبيل الله ينقص منه. وختم هذا بوعده الصادق وهو أن من أنفق في سبيل الله شيئاً أخلفه الله عليه، وهو تعالى خير من قيل إنه يرزق ووصف به"[97].وحرّم الله كل المعاملات غير المشروعة حفاظا على المال، وقد أشار إلى ذلك الشيخ تعليقا على آيات تحريم الربا، وأكل أموال الناس بالباطل.

رابعا/ التنبيه على بعض المقاصد العامة.

1/ مقصد التيسير ورفع الحرج

يعتبر التيسير ورفع الحرج من القطعيات، وهو من المقاصد العليا للشريعة الإسلامية، قال الشيخ تعليقا على قوله تعالى:﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ الأعلى/ 8 أي للطريقة السهلة الخالية من الحرج وهي الشريعة الإسلامية التي بنيت على أساس أن لا حرج في الدين"[98]. وقال أيضا: "من هداية الآيات تقرير قاعدة رفع الحرج في الدين"[99]. وعرّف الشيخ رفع الحرج، بقوله:" الحرج المشقة، والعسر والضيق"[100]، واستدل له بآيات من القرآن، وأحاديث من السنة، والرخص المشروعة، كقوله:" من هداية الآيات يسر الشريعة الإسلامية وخلوها من العسر، والحرج. لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ الحج/ 78، وقول الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (دين الله يسر)،

[96]- أيسر التفاسير:1/ 275

[97]- أيسر التفاسير: 4/ 326

[98]- أيسر التفاسير:5/ 557

[99]- المرجع السابق: 3/ 526

[100]- المرجع السابق: 1/ 598

وقوله لأصحابه:(يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا)"[101]. وقال: "التيسير من أصول الشريعة الإسلامية ويشهد لهذا وجود الرخص في مسائل الدين"[102].

وقد علّل الشيخ الكثير من أحكام العبادات والمعاملات برفع الحرج، على طريقة العلماء، فقد ورد في كتاب الموافقات "والممنوعات قد أبيحت رفعاً للحرج كدخول الحمام، وقد أبيح الممنوع رفعاً للحرج كالقرض الذي فيه بيع للفضة بالفضة ليس يداً بيد وإباحة العرايا"[103]، وقال الآمدي:"فإذا جاز التقليد في الفروع مع سهولة أدلتها دفعاً للحرج، فلأنه يجوز ذلك في الأصول أولى"[104]، وقال الغزالي وهو يقارن بين المباح ورفع الحرج: " المباح من الشرع، وذهب بعض المعتزلة إلى أنه ليس من الشرع، إذ معنى المباح رفع الحرج عن الفعل والترك"[105]. قال الشيخ الجزائري: "ذكر تعالى رخصة قصر الصلاة في السفر، وذلك بتقصير الرباعية إلى ركعتين فقال تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ﴾ النساء/ 101 أي: سرتم فيها مسافرين ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ النساء/ 101 أي: حرج وإثم في ﴿أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ "النساء/ 101[106]، وقال: "من هداية الآية محاسن الشرع الإسلامي، وما فيه من اليسر والرحمة، حيث أجاز العفو والدية بدل القصاص"[107].

---

[101]- المرجع السابق: 1/ 164

[102]- المرجع نفسه

[103]- الشاطبي: 1/ 182

[104]- الإحكام في أصول الأحكام (بيروت، المكتب الإسلامي): 4/ 231

[105]- المستصفى في علم أصول الفقه (تحق: محمد عبد السلام عبد الشافي ، دار الكتب العلمية ط1، 1413هـ – 1993م).: 1/ 60

[106]- أيسر التفاسير: 1/ 533

[107]- المرجع السابق: 1/ 157

2/ مقصد جلب المصالح ودرء المفاسد

تمثل المصالح والمفاسد لب مقاصد الشريعة الإسلامية وجوهرها، وأن الأحكام الشرعية قائمة عليها. قال الشيخ:" فإن حكم الله قائم على أساس المصلحة للجميع"[108]. والبحث في المصالح والمفاسد يستمد أهمية كبيرة، قال الشيخ الجزائري:" أن الأحكام إذا كانت مطابقة للشريعة الإلهية انتظمت بها مصالح العباد ونفعت العامة والخاصة أما إذا كانت على وفق الهوى وتحصيل مقاصد النفس للحاكم لا غير أفضت إلى تخريب العالم بوقوع الهرج والمرج بين الناس وفي ذلك هلاك الحاكم والمحكومين"[109].

وقد عبّر الشيخ أحيانا عن المصلحة بلفظ المنفعة، وعن المفسدة بلفظ الضر أو الضرر، قال:" لما كان تحريم الخمر تدريجياً كان من الحكمة ذكر ما كانوا يرونه من المنافع في الاتجار بها وشربها، وكذا منافع الميسر إذ كانوا يعطون ما يربحونه للفقراء، وحسبهم وهم المؤمنون صرفاً لهم عن الخمر والميسر قوله: ﴿وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ البقرة/ 219 ، وإذا زادت المضرة على المنفعة بطل العمل عقلاً وشرعاً"[110]. ويستشهد الشيخ أحيانا على مقصد درء المفاسد وجلب المصالح بقوله في شرح آية:"﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللهِ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً} عليماً بما يحقق المصلحة لعباده، حكيماً في تشريعه فلا يشرع إلا ما كان نافعاً ومحققاً غير ضار، ومحققاً للخير في الحال والمآل"[111]. كما أن الشيخ يعلل أيضا بالمصلحة في قوله تعليقا على كلام الله تعالى:"﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ النحل/ 101 فإنه ينزله لمصلحة عباده، فينسخ ويثبت لأجل مصالح المؤمنين"[112]. وقال في مشروعية القرعة: "وشرع الاقتراع فيما إذا تساوت الحقوق والمصالح لأجل دفعال ضغائن"[113].

---

[108]– أيسر التفاسير: 5/ 331

[109]– أيسر التفاسير: 4/ 446

[110]–أيسر التفاسير: 1/ 201

[111]– المرجع السابق:1/ 524

[112]– المرجع السابق: 3/ 156

[113]– المرجع السابق: 4/ 427

وقال في موضع آخر: "جواز عقد المعاهدات بين المسلمين والكافرين إذا كان ذلك لدفع ضرر محقق عن المسلمين، أو جلب نفع للإسلام والمسلمين محققاً كذلك"[114].

وللشيخ إشارات إلى تقسيم المصالح إلى عامة وخاصة، وإلى دينية ودنيوية. قال مشيرا إلى التقسيم الأول: "إن الإمام مخير(في حكم الأسرى) بين القتل والأسر والفداء والمن ولكن لابد من النظر في مصلحة الإسلام والمسلمين فنظر الحاكم يكون محققاً للمصلحة العامة"[115]، وقال أيضا شارحا آية:"﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ ... ﴾ النور/ 62 وجوب الاستئذان من إمام المسلمين إذا كان الأمر جامعاً، وللإمام أن يأذن لمن شاء، ويترك من يشاء حسب المصلحة العامة"[116]. وقال منبّها على مصلحة خاصة: "جواز إرضاع الوالد ولده من مرضع غير والدته، إذا كان في ذلك مصلحة للرضيع أو لعجز الوالدة عنه"[117].

وقال مؤكدا على أن المصلحة دينية ودنيوية:"﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ الحج/ 28 أي يأتوك ليشهدوا منافع لهم، دينيَّة كمغفرة ذنوبهم واستجابة دعائهم والفوز برضا ربهم، وتعلم دينهم من علمائهم، ودنيويّة كربح تجارة ببيع وشراء وعرض سلع وأنواع صناعات"[118].

وللشيخ لفتة لمراتب المفاسد، في قوله وهو يشرح آية:﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا

[114]- أيسر التفاسير: 2/ 338

[115]- أيسر التفاسير: 5/ 74

[116]- أيسر التفاسير: 3/ 595

[117]- أيسر التفاسير: 1/ 222

[118]- أيسر التفاسير: 3/ 469

تَعْلَمُونَ... ﴾ بيان أصول المفاسد وهي الفواحش وما ذكر بعدها إلى(...وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) ذكرت هذه المفاسد بطريق التدلي آخرها أخطرها وهكذا أخفها أولها"[119].

وذكر الشيخ قاعدتين من قواعد تزاحم المفاسد، الأولى: (يتحمل أخف الضررين لدفع أشدهما)، وهذا في قوله تعليقا على قوله تعالى:"﴿أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ يوسف/ 8 أي جماعة فكيف يفضل الاثنين على الجماعة، وهذا ارتكاب أخف الضررين قاعدة شرعية عمل بها الأولون"[120]. والقاعدة الثانية: (الضرر الأشد يزال بالضرر الأخف) قال عنها: "بذل ما يمكن لدفع الشر، فإن فيه معنى دفع الشر بشر أخف"[121].

خاتمة الدراسة:

بعد أن أظهرت الدراسة المقاصد عند الشيخ أبي بكر الجزائري-رحمه الله- من خلال تفسيره، سجلت نتائج أهمها:

_ الاعتراف بجهود الشيخ أبي بكر الجزائري، وفضله الكبير في تفسيره للقرآن، وحاجة طلبة العلم إلى الانتفاع به، والأخذ بآرائه والعمل بأفكاره في شتى ميادين العلم والمعرفة.

_ لا خلاف بين أهل العلم أن القرآن اشتمل على مقاصد وحكم، ولا يمكن فهم القرآن بمعزل عن فهم مقاصده وأهدافه.

_ أوضحت الدراسة أن لأبي بكر الجزائري إشارات وتلميحات واجتهادات، تدل على عنايته بالمقاصد، لكن لا تصل به إلى مكانة إمام في علم المقاصد.

---

[119]- أيسر التفاسير: 2/ 168

[120]- أيسر التفاسير: 2/ 597

[121]- المرجع السابق: 2/ 566

_ بيّن البحث أن الشيخ لم يطرق مقاصد القرآن كغيره من المفسرين، وحتى وإن كانت له تلميحات إلا أنها لا ترقى لما كتبوه من مباحث مفصلة، فتفسيره مختصر يصلح _كما قال بعض أهل العلم_ للمبتدئين.

وأوصي طلبة العلم الشرعي بقراءة تفسير أبي بكر الجزائري، والاطلاع على بقية مؤلفاته، لما فيها من نفع وفائدة، والعناية خاصة بمباحث تفسيره، فهو لا يزال بحاجة إلى بحث ودراسة.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أهم المصادر والمراجع المعتمدة

1. أبو بكر الجزائري، الإنصاف فيما قيل في المولد من الغلو والإجحاف(الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ط3، 1405ه).

2. أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير (مكتبة العلوم والحكم، ط3 2006م).

3. أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير من كلام العلي الكبير(كتاب إلكتروني)، إعداد موقع روح الإسلام

4. أبو بكر الجزائري، رسائل الجزائري_ ثلاثون رسالة في مواضيع دينية وإصلاحية مختلفة(ط3، 1995م)

5. أبو بكر بن العربي المعافري الاشبيلي المالكي، أحكام القرآن (راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلَّق عليه: محمد عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط3، 1424 هـ - 2003).

6. أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، المستصفى في أصول الفقه (تحق: محمد عبد السلام عبد الشافي ، دار الكتب العلمية ط1، 1413هـ - 1993م).

7. أحمد الريسوني، مدخل إلى مقاصد الشريعة (مصر، دار الكلمة المنصورة، ط1، 1434هـ، 2013م).

8. أحمد الريسوني، نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي (الدار العالمية للكتاب الإسلامي ط2 - 1412 هـ - 1992م).

9. أحمد عبد السلام بومزيريق، تفسير إرشاد الحيران إلى توجيهات القرآن (بيروت، دار المدار الإسلامي، ط1، 2011م).

10. أشرف محمود عقلة بني كنانة، أثر المقاصد في تدبر النص القرآني، جامعة أم القرى مكة، إيميل: Kinane@yu.edu.jo

11. الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام (بيروت، المكتب الإسلامي)

12. التحرير والتنوير(تونس، الدار التونسية للنشر، 1984م).

13. الجصاص الحنفي، أحكام القرآن (تحق :محمد صادق القمحاوي، بيروت، دار إحياء التراث العربي 1405 هـ).

14. حبيب محمد بكر إسماعيل، مقاصد الشريعة تأصيلا وتفعيلا(إدارة الدعوة والتعليم، سلسلة دعوة الحق، رابطة العالم الإسلامي، السنة الثانية والعشرون، العدد 213 ، 1427ه)ـ.

15. سيد قطب، في ظلال القرآن (بيروت، دار الشروق، ط 17 – 1412 ه).

16. الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة(تحق: عبد الله دراز، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 2004م).

17. عبد الكريم حامدي، مقاصد القرآن من تشريع الأحكام (بيروت: دار ابن حزم، ط1، 2008م).

18. عمر بن صالح، مقاصد الشريعة عند الإمام العز ابن عبد السلام (عمان، الأردن، دار النفائس ط1، 1423هـ-2003م).

19. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن،(تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، ومحمد رضوان العرقسوسي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط1، 2006م، مقدمة سورة الفاتحة).

20. محمد أديب صالح، تفسير النصوص في الفقه الإسلامي(بيروت، المكتب الإسلامي، ط3، 1404ه_1984م).

21. محمد الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية (تونس، الشركة التونسية للتوزيع، ط1، 1987م).

22. محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم- تفسير المنار-(الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م).

23. منوبة برهاني، الفكر المقاصدي عند الشيخ رشيد رضا (تقديم

24. مسعود فلوسي، بيروت: دار ابن حزم، ط1، 2010م)

25. يمينة ساعد بوسعادي، مقاصد الشريعة وأثرها في الجمع والترجيح بين النصوص(بيروت، دار ابن حزم، ط1 1428- 2007م)، (www.islamspirit.com

علم التفسير عند العلامة الحافظ أبي رأس الناصري المعسكري في أواخر العهد العثماني

ط.د. رحيمة قليل، جامعة زيان عاشور، الجلفة، الجزائر

الملخص:

لقد كان القرآن الكريم على رأس العلوم التي أولاها المسلمون عناية خاصة، فهو يعتبر "ينبوع العلوم ومنشؤها ومعدن المعارف ومبدؤها ومبنى قواعد الشرع وأساسه وأصل كل علم ورأسه"، لأنه يتناول الأبحاث المتعلقة بالقرآن الكريم من ناحية نزوله وترتيبه، وجمعه وكتابته، وقراءته وتفسيره وإعجازه، وناسخه ومنسوخة، ويشتمل فروعاً كثيرة أبرزها: علم القراءات وعلم التفسير.

يعتبر علم التفسير من أشرف العلوم الدينية، إن لم يكن أشرفها جميعا، وذلك لسمو موضوعه وعظم فائدته، لذا يعتبر من أول ما يدون من علوم القرآن لأنه هو الأصل في فهمه وتدبره، وعليه يتوقف استنباط الأحكام ومعرفة الحلال من الحرام.

فهو من العلوم الدينية التي لقيت اهتماما واسعا من قبل العلماء لقيمته الكبيرة وهو علم يشتمل على معرفة وفهم كتاب الله المنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه.

ومن أشهر المؤلفين الذين برزوا في هذا المجال: المحدث أبي رأس الناصري المعسكري، الذي برع في هذا الصنف خصوصا في القرن (12ه/ 18 م)، ومن بين مؤلفاته في علم التفسير نذكر:

- الإبريز والإكسير في علم التفسير، كما وضع تفسيرا للقرآن الكريم في ثلاثة أسفار عنوانه: "التيسير الى علم التفسير" في ثلاثة أسفار في كل سفر عشرون حزباً".

كل هذا دفعنا الى طرح الإشكالية التالية: ما أهمية ومكانة إسهامات المحدث أبو رأس الناصري المعسكري في علوم القرآن أواخر العهد العثماني "علوم التفسير أنموذجا"؟

وقد تطرقت الى المحاور التالية :

- مقدمة.

ـــ نبذة مختصرة في علوم القرآن.

ــــ علم التفسير.

ـــــ مفهوم علم التفسير من منظور أبي رأس الناصري المعسكري.

ـ مكانة العلامة أبي رأس عند علماء عصره القرن(12ه / 18 م) من خلال مؤلفاته في علوم القرآن" علوم التفسير أنموذجا"، ومقارنتها بمؤلفاته في ميادين الأخرى مثل علوم التاريخ.

-خاتمة.

مقدمة:

لقد شهدت علوم القرآن بالجزائر أواخر العهد العثماني انتشارا واسعاً وازدهاراً وبخاصة علوم التفسير وذلك بفعل عدة عوامل :أبرزها الاستقرار السياسي حيث عاشت الجزائر في عهد الدايات الذي يعد أطول فترات الحكم في الجزائر الحديثة (1671-1830 م) استقرارا نسبيا وخاصة منذ استقلالها عن الدولة العثمانية سنة 1711م ،والانتشار الكبير لمؤسسات التعليم عبر مراكز العبادة المختلفة كالمساجد والزوايا والمدارس وكذا الكتاتيب القرآنية، وكذا الصلات الحضارية والثقافية بين الجزائر ومحيطها سواء في المغرب أو المشرق العربي، بالإضافة إلى الرحلة

العلمية التي كان له دور كبير في الاطلاع على مختلف العلوم والاستفادة منها، كما كان تشجيع الحكام للعلم ومحبتهم للعلماء وإكرامهم، حافزاً لرواج التعليم وحركة التأليف. ونخص بالذكر منهم "محمد بكداش" و"الباي محمد الكبير" وغيرهم مما أدى إلى ظهور جماعة من المؤلفين برعوا في شتى صنوف العلوم، وعلى رأسهم العلامة أبو رأس الناصري المعسكري.

فما هي إسهامات المحدث أبو رأس الناصري المعسكري؟ وما صنوف العلوم التي برع فيها خلال الفترة المذكورة؟

نبذة مختصرة عن علوم القرآن:

أ- علوم القرآن:

إن العلوم: جمع علم والعلم في اللغة هو مصدر يرادف الفهم والمعرفة و يرادف الجزم أيضا في الرأي، وفي لسان الشرع العام يقول الإمام الغزالي رحمه الله في كتابه الإحياء:" قد كان العلم يطلق على العلم بالله تعالى، وآياته وبأفعاله في عباده وخلقه[1]. فتصرفوا فيه بالتخصيص حتى اشتهر بالمناظرة مع الخصوم في المسائل الفقهية وغيرها[2].

أما لفظ القرآن فهو في اللغة مصدر مرادف للقراءة[3]، أما من الناحية الاصطلاحية فإن علوم القرآن هي تلك العلوم التي تعنى بالقرآن الذي هو كلام الله المنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم المكتوب في المصاحف والمنقول إلينا نقلاً متواتراً والمتعبد بتلاوته، أنزل على رسول الله منجماً بلفظه

[1]-أبي حامد محمد بن محمد الغزالي ، إحياء علوم الدين ،ط1 ، دار ابن حزم ، لبنان ، 2005 م ، ص 43 .

[2]-محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القران، تح: هاني الحاج، ج1، المكتبة التوفيقية، مصر، (دت) ،ص11.

[3]-نفسه ، ص 13 .

ومعناه: بلسان عربي مبين، وهو أصل الشريعة ودستور المسلمين وعماد الدين العام للإنسانية كلها[4].

ويحتل علم القرآن مكانة كبيرة عند غالبية المسلمين، إذ به يقرب الفهم ويحدد المعنى المراد من منطوق الآيات القرآنية، وكان أول ما أنزل منه قول الله تعالى:﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾[5]، كما حث أيضاً على التفقه في الدين فقال الله تعالى:﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُون﴾[6]، ولما ورد في ذلك من أحاديث نبوية تحث المسلمين لصرف العناية لخدمة العلم الديني والتي تعد من أعظم القربات ، وفي طليعة هذه الأحاديث حديث عثمان بن عفان الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: "خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ" ومن جملة الأحاديث الواردة في الحث على قراءة القرآن، قوله صلى الله عليه وسلم "أَفْضَلُ العِبَادَة قِرَاءَةُ القُرْآن"[7].

لهذا اهتم المسلمون بالقرآن الكريم منذ القرون الأولى باعتباره المصدر الأول لتنظيم شؤون المسلمين الدينية والدنيوية، فكان ـــ القرآن الكريم ـــــ في طليعة العلوم التي أولاها المسلمون عناية خاصة حيث يعتبر "ينبوع العلوم ومنشؤها، ومعدن المعارف ومبدؤها ، ومبنى قواعد الشرع وأساسه واصل كل علم ورأسه" ، إذ أنه يتناول الأبحاث المتعلقة بالقرآن الكريم من ناحية نزوله وترتيبه وجمعه وكتابته وقراءته وتفسيره وإعجازه وناسخه ومنسوخة، ويشتمل فروعاً كثيرة

[4]– علال الفاسي، مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها،ط5،منشورات مؤسسة علال الفاسي، الرباط، 2008م، ص86.

[5]–سورة العلق، الآية 1 .

[6]–سورة التوبة، الآية 22.

[7]– المهدي البوعبدلي، الحياة الثقافية بالجزائر، إع: عبد الرحمان رويب، مج3، عالم المعرفة، الجزائر،2003م، ص62.

أبرزها: علم القراءات وعلم التفسير ، وأسباب النزول والتجويد ،وعلم المكي والمدني، وعلم إعجاز القرآن والرسم القرآني وإعراب القرآن[8].

ولعل أهمها العلمين الأولين "علم القراءات موضوعه القرآن من ناحية لفظه وأدائه وعلم التفسير موضوعه القرآن من ناحية شرحه ومعناه". وبذلك جاءت علوم القرآن الكريم في مقدمة العلوم الشرعية سواء تلك التي تهدف الى المحافظة على النص القرآني وروايته كالقراءات. أو تلك التي تهدف إلى بيان المقصود أو المعنى المحتمل للآيات، كالتفسير وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ[9].

ومما تجدر الإشارة إليه أن التأليف في علوم القرآن يحتاج إلى ثقافة واسعة معاصرة وتراثية وفهم عميق لأسرار اللغة وأسرار الإعجاز القرآني، كما يحتاج أيضاً إلى ثقافة تاريخية كبيرة، وكل ذلك لا تقوم به إلا المؤسسات العريقة ذات التقاليد العلمية الراسخة. وتتجلى أهمية علم القراءات أيضاً في كونه يعتبر من أجل العلوم قدراً وأعلاها منزلة لتعلقه بأشرف الكتب السماوية على العموم، وأفضلها على الإطلاق، وهو القرآن الكريم (كلام الله) لأن مادة هذا العلم هي حروف وكلمات القرآن الكريم وتظهر أهميته في ما يلي :

ـ صيانة كتاب الله تعالى من التحريف والتغيير مصداقا لقوله تعالى:﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[10].

---

[8]– رزيوي زينب، العلوم والمعارف الثقافية بالمغرب الأوسط (7ه و9 ه/ 13و 15م)، أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط الإسلامي، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، 2015–2016م، ص182.

[9]–خالد حسين محمود، معطيات عن العلوم الشرعية بمدينة غزة من بداية العصر الطولوني إلى نهاية العصر الأيوبي، مجلة عصور، ع14–15،الجزائر، 2014م، ص86.

[10]– سورة الحجر، الآية 10.

ــ تيسير قراءة كتاب الله تعالى بلهجات مختلفة ومتنوعة وعصمة القارئ من الخطأ في النطق بالكلمات القرآنية مع ترجيح بعض الأوجه التفسيرية، وبعض الأحكام الفقهية.

ـ اختلاف القراءات دلالة على تجلي وجوه الإعجاز القرآني، ويبرز سمو بلاغته فهذه الميزة لا نظير لها في الكتب السماوية السابقة، لذا يعد تعلمه وتعليمه فرض كفاية إذ قام بها البعض سقط عن الكل وان امتنعوا كلهم أثموا[11].

وعلوم القرآن تشتمل فروع كثيرة أبرزها علم القراءات الذي يعتبر موضوع القرآن من ناحية لفظه وأدائه، وعلم التفسير الذي يعد موضوع القرآن من ناحية شرحه ومعناه.

ومما يلاحظ أن التأليف في العلوم القرآنية أنه كان ضعيفا حتى في العهد العثماني وذلك بسبب غياب جامعة إسلامية ذات تقاليد راسخة في الثقافة العربية كمعهد الأزهر والزيتونة والقرويين، ومنها أيضاً هجرة العلماء الأعلام إلى البلدان الإسلامية بحثاً عن العلم والسمعة والرزق[12].

1ـ علم التفسير:

يأتي علم التفسير في مقدمة العلوم الأساسية للمتعلم فهو من أشرف العلوم الدينية. إن لم يكن أشرفها جميعاً وذلك لسمو موضوعه وعظم فائدته، لذا يعتبر من أول ما يُدون من علوم القرآن لأنه هو الأصل في فهمه وتدبره وعليه يتوقف استنباط الأحكام، ومعرفة الحلال من الحرام وقد حظي باهتمام واسع من قبل العلماء لقيمته الكبيرة، وهو علم يشتمل على معرفة وفهم كتاب الله المنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه[13].

---

[11]– رزيوي زينب، المرجع السابق، ص184.

[12]–أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 7 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1998 م ، ص 7 .

[13] –سعاد حطاب، العلوم العقلية والنقلية في المغرب الأوسط _ العهد الزياني أنموذجا _مجلة الأكاديمية، ع18، الجزائر ،2017م، ص128.

فالتفسير من الناحية اللغوية: مأخوذ من الفسر بمعنى التبيين[14]، كشف المغطى وإظهار المعنى فنقول فسر الشيء يفسره ويفسره فسراً، أي بينه وأوضحه وكشف المراد على اللفظ المشكل. أي إيضاح معناه بإخراجه من مقام الخفاء إلى مقام التجلي[15].

أما من الناحية الاصطلاحية :فهو ذلك العلم الذي يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه[16]، واستمداد ذلك من علم النحو واللغة، والتصريف والبيان، والأصول والقراءات إلى غير ذلك من معرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ[17].

نشأته وتطوره:

يعتبر علم التفسير أول العلوم الإسلامية ظهورا إذ بدا الخوض فيه في عصر النبي صلى الله عليه وسلم الذي يعد أول شارح ومفسر للقرآن الكريم، وفي عهد الخلفاء الراشدين حيث كانوا يدركون معاني القرآن بسهولة ويسر، لذا لم ينقل إلينا عن الصدر الأول تفسير القرآن الكريم وتأويله، وذلك لأنه انزل باللسان العربي في زمن أفصح العرب وعن أساليب بلاغتهم[18] . لذا كانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه ولما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية ودخل في الدين أقوام كثيرة ومنهم عجم كان يصعب عليهم فهم معاني الكثير من الآيات الشريفة، باعتبار أن القرآن الكريم نزل على أعلى درجات البلاغة اللغوية لذا ظهرت الحاجة إلى تفسير الآيات

[14]- عبد العزيز بومدين، الإبريز والإكسير في علم التفسير لأبي رأس الناصري، مذكرة ماجستير في العلوم الإسلامية، الجزائر، 2016-2017م، ص201 .

[15]- رزيوي زينب ، المرجع السابق ، ص 189 .

[16]- محمد حسين الذهبي، علم التفسير، دار المعارف، القاهرة، ص6.

[17]- عبد العزيز بومدين، الإبريز والإكسير في علم التفسير، المرجع السابق، ص202.

[18]- رزيوي زينب، المرجع السابق ، ص 189.

وتبسيط بيان معانيها ودلالتها ، وقد قسم المسلمون التفسير انطلاقا من مبدئه ومصدره إلى نوعين هما:

أـ التفسير النقلي:

يطلق عليه أيضا التفسير بالمأثور وهو مستند إلى الآثار المنقولة عن السلف وهي معرفة الناسخ والمنسوخ وأسباب النزول ومقاصد الآيات، وكل ذلك لا يعرف إلا بالنقل عن الصحابة والتابعين. وقد جمع المتقدمون في ذلك ونوعوا، إلا أن كتبهم ومنقولاتهم تشتمل على الغث والسمين والمقبول والمردود، والسبب في ذلك أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم ،وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية، ويعد هذا النوع من التفسير ، من أشرف أنواع التفسير وأتقنها وأفضلها، لان طريق معرفته صحيحة لاعتماده على الصحيح المنقول[19].

بـ التفسير بالرأي:

يسمى أيضا التفسير بالدراية أو التفسير بالمعقول وهو ما يرجع إلى اللسان من معرفة اللغة والإعراب، والبلاغة في تأدية المعنى بحسب المقاصد والأساليب[20]. وهذا الصنف من التفسير قَلَ أن ينفرد عن الأول إذ الأول هو المقصود بالذات وإنما جاء هذا بعد إن صار اللسان وعلومه صناعة، ويعتمد على الاجتهاد المبني على أصول صحيحة وقواعد سليمة متينة ولتحقيق ذلك لابد من الاستعانة بعلوم كثيرة، حتى يتسنى له تأدية المعنى بحسب المقاصد.

ويمكن إجمالاً أن نتناول التفسير من ناحيتين: ناحية التدريس و ناحية التأليف.

فأما تدريس التفسير فقد كان شائعاً بين العلماء البارزين ومن الذين اشتهروا بذلك "الشيخ محمد بن علي أبهلول"، و"الشيخ ابن للو التلمساني" وكذا "الشيخ عبد القادر الراشدي

[19]-عبد الرحمان بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تح: عبد الله محمد الدرويش، ج 2، ط1 ،دار البلخي، دمشق، 2004م، ص175.

[20]- نفسه، ص 176 .

القسنطيني" و:العلامة أبو رأس الناصري ". ومن الطبيعي أن نقول انه ليس كل من تناول التفسير أجاد أو جدد فيه، ذلك أن ظاهرة التقليد والحفظ كانت مسيطرة على العلوم في جميع الميادين. ومن بينها ميدان التفسير[21]، فنحن نتصور أن معظم المفسرين للقرآن الكريم في مجالس الدروس كانوا يكررون في الغالب أقوال المتقدمين ويحفظونها حفظاً سطحياً لا عقل فيه ولا تفكير، ويسردون المسائل كما هي في الكتب لا كما تقبلها أو ترفضها عقولهم ،وقلما يخرجون عليها برأي جديد يتلاءم مع العصر[22].

أما التفسير تأليفاً فالخوض فيه قليل، ورغم شهرة مدرسة تلمسان العلمية فإنها لم تنتج مفسرين للقرآن الكريم جديرين بالإشارة، حتى العالم المعروف "الشيخ أحمد الونشريسي" و"ابنه "عبد الواحد" لم يعرف عنهما التأليف في التفسير، ونفس الشيء يقال عن مدرسة بجاية وقسنطينة فرغم شهرة "عمر الوزان" والشيخ "عبد الكريم الفكون الجد" خلال القرن (10ه / 16م) فإننا لم نعثر لهما على تأليف في التدريس[23].

ومما تجدر الإشارة إليه أن التفسير قبيل الدخول العثماني للجزائر كانت العناية به ضعيفة، فقلما كان العلماء يتناولونه في مجالسهم ودروسهم وقلما ألفوا فيه ولولا تفسير العلامة "عبد الرحمان الثعالبي"[24] المعروف "بالجواهر الحسان" لما وصل إلينا تفسير مكتوب من القرن(9 ه/ 15م). وينسب إلى الشيخ "محمد بن عبد الكريم المغيلي "(ت909ه) تفسير بعنوان :"البدر

[21]–أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998م ، ص12.

[22]–عبو إبراهيم، العلوم النقلية في الجزائر خلال العهد العثماني، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، 2015 –2016 م ، ص171.

[23]–أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2 ، المرجع السابق ، ص 16.

[24]–هو عبد الرحمان بن محمد بن مخلوف الثعالبي، أبو زيد وهو صوفي من كبار المفسرين واعيان الجزائر وعلمائها ولد سنة (786ه/ 1384م)في واد يسر بالجنوب الشرقي من مدينة الجزائر، يبعد عنها 86 كلم، وهذا الوادي هو موطن أبائه وأجداده، توفى (875ه/ 1470م)للمزيد ينظر: عبد الرحمان الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، معهد الثقافة والدراسات الشرقية، اليابان،(دت)، ص341.

المنير في علم التفسير[25]. كذلك" الشيخ أحمد بن محمد بن زكري"(ت899ه/ 1442م) الذي يعتبر من أهم العلماء خلال القرن (9 ه/ 15م) أعظم علماء تلمسان لتبحره في العلوم واتساعه في الرواية وعلو مكانته في المنقول والمعقول. لذا انتهت إليه رئاسة العلم في زمانه، فكان شيخ الفتوى وإمام التدريس خاصة في علم التفسير فكان المفسر الأبرع. ومن إسهاماته في هذا الفن "حاشيته على تفسير الإمام البيضاوي المسمى: " أنوار التنزيل وأسرار التأويل"[26].

أما خلال الفترة العثمانية فقد كان تدريس علم التفسير شائعاً في كل المراكز الدينية والتعليمية، حيث ازدهرت حلقات العلم في المساجد والزوايا بحلقات تفسير آيات الكتاب الكريم، وقد اجتهد المدرسون في شروحهم اعتمادا على تفاسير "تفسير الثعالبي" و"تفسير السيوطي"[27]. وجرت العادة أن دروس تفسير القرآن الكريم والأحاديث النبوية تعقد مجالسها في حضرة الحكام، وفي مواسم معينة كشهر رمضان، حيث يحضر هذه المجالس العلماء والأعيان وغيرهم يتبعها عادة مناقشة ومناظرة بين العلماء والعامة يكرر فيها هؤلاء أقوال المفسرين المتقدمين بطريقة جافة نادراً ما يخرجون عليها برأي جديد يتلاءم مع العصر[28].

وقد اشتهر في هذا الفن " الشيخ عيسى الثعالبي" والشيخ "عمر الوزان" وقد تركا تفسيرا كاملا للقرآن الكريم، أما الشيخ " أحمد البوني " والذي عاش في الفترة الممتدة بين (1653_ 1726م) فقد شرح بعض آيات القرآن الكريم في كتاب سماه " الدر النظيم في فضل آيات القرآن العظيم"[29]إضافة إلى:

---

[25]–أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت ،1998م ،ص121.

[26]–رزيوي زينب، المرجع السابق، ص 198 .

[27]–رموم محفوظ، حركة التعليم في الجزائر المحروسة بين 1500–1830م، مجلة الحقيقة، ع27،جامعة أدرار، الجزائر،(دت) ، ص225.

[28]– عبو إبراهيم، المرجع السابق، ص 171

[29]– رموم محفوظ، المرجع السابق،ص 226.

ـ الشيخ علي بن محمد الميلي الجمالي (ت1833م) بكتابه : تفسير كتاب كبير وصغير، "تحفة الأحباب".

ـــ الشيخ عيسى بن سلامة البسكري بكتابه "اللوامع والأسرار في مناقب القران والأخبار".[30]

أما خلال القرن (12ه / 18م) وبداية القرن (13ه / 19 م)، فقد برع العلامة الحافظ أبو رأس الناصري (1150ه -1737م / ت 1238ه -1823 م)الذي هو محور دراستنا:

نسبه ومولده :

هو العالم والفقيه المحدِث والإمام الحافظ الهمام وشيخ الإسلام ومفتي الأنام والمؤرخ الجزائري، محمد أبو رأس بن أحمد بن عبد القادر بن الناصر الراشدي المعسكري ،صاحب المصنفات الشهيرة والتحقيقات الغزيرة ترجم لنفسه في كتابه "فتح الإله .

إذ يتصل نسبه بالحسن المثنى بن الحسن بن سبط بن علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء رضي الله عنهم أجمعين[31].

ولد عام (1150ه الموافق ل 1737م) بقلعة بني راشد قرب مدينة معسكر بالغرب الجزائري بين جبل كرسوط وهونت[32].

ويقول الناصري عن مولده "ولما ولدت بالموضع المار حملتني أمي ووالدي إلى الشيخ الصالح الولي الذي كاد أن يكون كالجيل شيخ بعض الشيوخ ، الشيخ علي بن موسى اللبوخي فبارك علي وأخبر بغيب خوارق وعادات، تكون لي مودات من علم وعمل وصلاح وغنى وحفظ وإصلاح ،

[30]- بشير ضيف بن أبي بكر بن البشير بن عمر الجزائري، فهرست معلمة التراث الجزائري بين القديم والحديث-نماذج متنوعة للمعلوم والمجهول - ، مراجعة عثمان بدري، ط2، منشورات ثالة، الجزائر،2007م، ص42.

[31]- محمد أبو رأس، الإصابة فيمن غز المغرب من الصحابة، تق: أحمد الطويلي، المطبعة العصرية، تونس، 2010م، ص11.

[32]-أبو رأس الناصر المعسكري، زهر الشماريخ في علم التاريخ، تح: بن عمر حمدادو، مركز البحث، الجزائر، (دت)،ص9 .

وشيخ طلبة ولفيف ودرس وخطابة وقضاء وتصنيف، كما أخبرتني الحرة التقية الصالحة الولية"[33]. ولأبي رأس أخوين هما " عبد القادر بن عمر" والأخت "حليمة "

وقد لقب بالحافظ وذلك لذاكرته القوية وعلمه الغزير وحافظته العجيبة ويعتبر من المؤرخين المعتمد عليهم الذين سموه بهذا اللقب الشيخ "عبد الحي الكتاني" المؤرخ الكبير حيث سماه "حافظ المغرب الأوسط ورحالته"[34].

وقال عنه أيضا "محمد الحفناوي :"ودرس وأفاد ورفع منار العلم وأشاد، وكان يدعى في زمانه بالحافظ لقوة حفظه، وتمكنه متى شاء من استحضار مسائله حتى كان العلوم بين يديه"[35]واكتسب أبو رأس الناصري ثقافة واسعة بانكبابه على المطالعة واتصاله بالعلماء ومواظبته على العلوم ،ساعدته على ذلك حافظته القوية، حتى عرف بحافظ المغرب الأوسط[36]، وقيل أنه أشتهر بأبي رأس للضخامة رأسه أو لكثرة وسعة معلوماته وسرعته حفظه[37].

النشأة والتكوين :

نشأ أبو رأس في بيئة قاسية حيث ذاق خلالها مرارة الجوع والفقر، وألم اليتم ومارس الشحاذة ومشى بين الناس أكثر من عشر سنوات حافي القدمين، عاري البدن وغسل ثياب غيره، حيث كتب

---

[33]- محمد أبو رأس الجزائري، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته – حياة أبي رأس الذاتية والعلمية-، تح محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،(دت)، ص9 .

[34]-عبد الحي بن عبد الكريم الكتاني ، فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات ، إعتناء إحسان عباس ، ج 1 ، ط 1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1982 م ، ص 150 .

[35]-أبو القاسم الحفناوي ، تعريف الخلف برجال السلف ، ج 2 ، مطبعة بيير فونتانة ، الجزائر ، (دت)،ص 167 .

[36]- ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1999 م، ص 461 .

[37]-عبد القادر بكاري،منهج الكتابة التاريخية عند المؤرخين الجزائريين في العهد العثماني ، (1519_1830)،أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة وهران ، الجزائر ، 2015_2016 م ، ص252.

يقول: "قد استمررت عشر سنين عريانا لا لباس لي إلا خرق كالعدم، وما لبست نعلا إلى أن اقرب صومي، ولما قدرت على السعي صرت اطلب من البيوت ثم أبيع واكسي[38].

فقد ماتت والدته بسهل متيجة ودفنت هناك وهي" الصالحة الكاملة التقية العاملة، كانت يضرب بها المثل في السخاء والصلاح كرابعة العدوية". وبعد موتها رحل والده الشيخ أحمد إلى منطقة مجاجة بالشلف، واعتكف عن القرآن وتعليمه للرجال والصبيان[39]. تزوج بعدها نساء أخريات وتوفى ودفن بأم دروع[40].

وعلى إثر وفاة والده تكفل به أخوه الأكبر ابن عمر، ومعه أخيه عبد القادر وارتحل بهما إلى المغرب الأقصى، وكان لا يقدر أبو رأس على المشي فيحمله أخوه على عاتقه لصغر سنه .

وهناك حفظ القرآن الكريم وأتقن أحكامه على يد الشيخ " ابن أزقاق" والشيخ " الطاهر ابن عمرون المغراوي " وغيرهما. ورغم ظروفه القاسية إلا أنه لم ينقطع عن العلم ورحل إلى المشايخ طلبا في علو الإسناد حتى ذاع صيته ، وشدت إليه الرحال وصار مرجع زمانه[41].

بعد عودته من المغرب الأقصى اتجه أبو رأس إلى منطقة القيطنة لقراءة الفقه على فقهاء معسكر، ثم انتقل إلى مازونة حيث كانت مركز ثقافي وعلمي وديني تلقى فيها العلوم الدينية واللغوية .

حيث قرأ للطلبة الفرائض ثم انصرف من مازونة، وقدم إلى معسكر، حيث تلقى مختلف العلوم الشرعية واللغوية والأدبية[42] على يد عالمها مثل" الشيخ عبد القادر المشرفي المعسكري"،

---

[38]–محمد أبو رأس، الإصابة فيمن غز المغرب من الصحابة ،المصدر السابق ، ص 13 .

[39]– محمد أبو رأس الجزائري ، فتح الإله ، المصدر السابق، ص 19 .

[40]– محمد أبو رأس ، الإصابة فيمن غز المغرب من الصحابة ، المصدر السابق، ص 13 .

[41]– بوكعبر تقي الدين ، دراسة وتحقيق مخطوط للعربي المشرفي في الرد على أبي رأس الناصر في قضية نسب أسرة المشارفة ،مذكرة ماجستر دولة ومجتمع في الجزائر خلال العهد العثماني ، جامعة وهران ، الجزائر، 2013–2014 م ،ص 89 .

[42]محمد أبو رأس ، فتح الإله ، المصدر السابق ، ص 20 .

الذي كان يدرس بعواجة، وأعجب هذا الأخير بتفوق أبي رأس كما أن حجه إلى البقاع المقدسة مرتين في(1204 ه و1226ه) مكنه من معرفة البلدان العربية الإسلامية بعلمائها وإنتاجها الفكري[43].

شيوخه:

يعتبر أبو رأس الناصري شخصية علمية كبيرة تتلمذ مثل غيره من علماء عصره على يد عدة شيوخ، كان لهم الفضل الكبير في التأثير في ملكته الفكرية والمعرفية، حيث أجيز وأجاز كما كان لهم دور بارز في بروز هذه الشخصية التي استطاعت بذكائها وكتاباتها التاريخية أن تحضي باهتمام الخلفاء في عصره والمؤرخين والباحثين من بعده ، وجعلته علامة ومحقق في العلوم الإسلامية وحافظ للحديث النبوي من الجزائر[44].

ومن أبرز شيوخ وعلماء أبو رأس الناصري الذي بلغ عددهم حوالي واحد وأربعين عالما نذكر على سبيل المثال[45]:

-والده الشيخ أحمد بن أحمد بن الناصر شريف النسب الذي حفظ عنه، معظم المصحف الشريف وأول بدئه من سورة "إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ" إلى غاية مطلع الآية "تِلْكَ الرُّسُلُ" من سورة البقرة[46].

[43]-محمد أبو رأس، الدرة الأنيقة، في شرح العقيقة، تح احمد أمين دلاي، مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، (دم)، 2007م،ص9 .

[44]- أبي رأس محمد بن احمد الناصري، نبا الإيوان بجمع الديوان في ذكر صلحاء مدينة القيروان، تق محمد الحبيب العلاني وسهيل الحبيب، منشورات مركز الدراسات الإسلامية، القيروان،2012م،ص 15.

[45]-أبو رأس الناصري، زهر الشماريخ ، المصدر السابق ، ص 10 .

[46] -محمد أبو رأس ، فتح الإله ، المصدر السابق ، ص 42.

- الشيخ عبد القادر المشرفي كان يدعى بشيخ الجماعة وإمام الراشدية ولد ونشا بقرية الكرط قرب ولاية معسكر كان له دورا في تمكين أبو رأس الناصر من معرفة البلدان العربية الإسلامية، بعلمائها وإنتاجها الفكري[47].

-الشيخ العربي بن نافلة الذي أفنى عمره بين تلاوة القرآن، ودراسة العلم ،كما درس على يد ابنه أحمد بن نافلة، فكان يفهمه كل ما أشكل عليه فهمه في مجلس أبيه[48].

- الشيخ محمد الصادق بن افغول كان من أجلاء شيوخ أبي رأس خبيرا بعلم الشريعة جامعا بين العلم والدين صاحب مدرسة مازونة الشهيرة، والذي يقول عنه أبو رأس "كان جامعا للفنون وعلومها بارعا في معرفة الحديث على أهله ومنفردا بهذا الفن النفيس في زمانه".

-الشيخ القاضي عبد الرحمان التلمساني من نسل عالم المذاهب الأربعة الشيخ أحمد بن الحاج المناوي رحل إلى مصر أخذ عن الشمان ومحمد الكردي.

-الشيخ المفتي أحمد ابن عمار حيث اشتغل بالحديث والتاريخ، ولد ونشا بمدينة الجزائر وولى الإفتاء بها له الرحلة الحجازية، وغيرها من المؤلفات[49].أما شيوخه خارج الوطن نذكر:

-محمد بيرم مفتي الحنفية في تونس ومحمد مرتضى الزبيدي وهو عالم مصري وأطلق على أبو رأس اسم الحافظ.

وقد جمع أبو رأس ما تلقاه على يد الزبيدي في كتاب "السيف المنتضى فيما رويته بأسانيد الشيخ المرتضى"[50].

---

[47]-محمد أبو رأس ، الدرة الأنيقة ، المصدر السابق ، ص 9 .

[48]- أبو رأس الناصري ، زهر الشماريخ ، المصدر السابق ، ص 11 .

[49]-أبو رأس الناصري ، زهر الشماريخ ، المصدر السابق ، ص 11 .

[50]-أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 2 ، المرجع السابق ،ص 377 .

ومن الذين أجازوه: عبد الله الشرقاوي، وشيخ المالكية الشيخ محمد الأمير، الذي برع في الحديث، وجمع فنون العلم والشيخ عبد الغني مفتي الشافعية بمكة[51].

تلامذته:

ترك أبو رأس الناصر تراثا غنيا وساهم في تكوين تلاميذ تحولوا إلى علماء عظماء نذكر منهم:

-الشيخ أبو حامد العربي المشرفي وهو حفيد عبد القادر المشرفي شيخ أبي رأس الناصر المعسكري.

-الشيخ العربي بن السنوسي كان مدرسا للقران الكريم ومدرسا لبعض الفنون أخذ عنه العلم محمد بن علي السنوسي.

-الشيخ محمد بن علي السنوسي مؤسس الطريقة السنوسية بليبيا.

-الشيخ عثمان الموسوي الهزاري: عرف بالتازي أجازه أبو راس بثبته " السيف المنتضى فيما رويته بأسانيد الشيخ المرتضى"[52].

رحلاته العلمية:

عاش أبو رأس حياة متقلبة ولكنها حياة غنية بالتجارب فقد تنقل في أنحاء القطر الجزائري من غربه إلى شرقه وكانت رحلاته إلى المشرق العربي ثرية بالأحداث والمشاهدات، ومثلت مرجعا مهما يطلعنا على أوضاع البلاد العربية في تلك المرحلة التاريخية. ويقول أبو رأس أن رحلاته "إنما كانت اقتداء بعلماء كرحلة الإمام ابن رشيد السبتي والخطيب ابن مرزوق ورحلة العياشي وكذا رحلة الشيخ أحمد بن الناصر وغيرهم[53]

[51]-أبو رأس الناصري، فتح الإله، المصدر السابق ،ص 64.

[52]- أبو رأس الناصري، زهر الشماريخ، المصدر السابق ، ص ص12-13-

[53]_ محمد أبو رأس ، فتح الإله ، المصدر السابق ، ص 91

وقد عرف أبو رأس في رحلاته التي كانت غاياتها علمية بالدرجة الأولى بغزارة معارفه وسعة اطلاعه وقد نقل إلينا العديد من المناظرات التي دارت بينه وبين علماء عصره .وكان حريصا على الاستزادة من طلب العلوم ونقل الأسانيد وتلقي مختلف الإجازات العلمية[54] .

وقد تنوعت رحلاته إلى صنفين : رحلات علمية داخل الجزائر وأخرى خارجها.

ففي داخل الجزائر كانت البداية من مدينة أم عسكر البيئة التي نشا بها وتلقى فيها مختلف العلوم على يد شيخها عبد القادر المشرفي ثم مدينة مازونة حيث مكث بها ثلاث سنوات بعدها عاد إلى أم عسكر للتدريس، ثم توجه إلى مدينة الجزائر حيث التقى بالفقيه "محمد بن جعدون " وقاضيها "محمد بن مالك" والعلامة مفتي الجزائر وخطيبها "السيد الحاج علي ابن الأمير" وكذلك فقيهها وعالمها ومفتيها" الشيخ محمد ابن الحفاف "، ولما دخل بقسمطينة التقى بعالمها" الشيخ عبد الكريم محمد الفكون:[55]

بينما خارج الجزائر فكانت بداية رحلات أبي رأس الناصري العلمية بمدينة فاس وكان ذلك عام 1801م ، التي يصفها :" بمحل العلم والإيناس والتقريب والتبعيد لأناس وهي قبة الإسلام والسلم ..."[56]

ثم انتقل إلى تونس وهي المحطة الأولى في طريقه إلى المشرق العربي بعدها إلى مصر وحاضرتها الأزهر.حيث التقى بشيخها "مرتضى الزبيدي" ثم رحل إلى المدينة المنورة (طيبة) وزار قبر النبي محمد صلى الله عليه وسلم ثم انتقل إلى الشام، ليدخل بعدها إلى فلسطين حيث التقى بمفتيها وعلمائها في غزة، وأخيرا رحل إلى العريش فلم يجد بها عالما يؤنس إليه[57].

---

[54]- أبو رأس ، نبأ الإيوان، المصدر السابق، ص 15 .

[55]- محمد أبو رأس ، فتح الإله ، المصدر السابق ، ص ص 91-92 -93 .

[56]- نفسه ، ص 101 .

[57]-نفسه ، ص 20.

وظائفه:

يعتبر أبو رأس الناصري شيخ مؤرخي الجزائر العثمانية فقد اشتهر باطلاعه الواسع ومعرفته العميقة لهذا صنف احد أعلام القرن الثامن عشر الميلاد .

كانت بداية وظائفه في مجال التدريس بأم عسكر وكان يدرس ليلا ونهارا بدفع من شيخه عبد القادر المشرفي، ومكث بها 36سنة قضاها في التأليف والتدريس، وقد كان يزدحم على حلقته الدراسية عدد كبير من الطلبة بلغ في بعض الاحيان780 طالبا[58] ،وهو ما دفع بالباي " محمد بن عثمان الكبير " أن يخصص له كرسي يستعين به على إلقاء دروسه ومحاضراته نظرا لنحافة جسمه التي لم تكن تسمح له بالظهور وسط الطلبة بسبب كثرتهم و ازدحامهم عليه حيث استعان به على الدرس غاية الاستعانة[59].

يقول عن درسه: "إنني لا اصحب معي كتابا وأورد درسي على التحقيق والتدقيق وأوشيه بتتمات ولطائف مهمات وتنبيه وجيه وتكميل وتذييل وترتيب عجيب حتى صارت حضرتي في العلم تذكر في الأفاق وتنسيك دروس مصر والشام وتونس والعراق في أثنائه حكايات ونوادر لتنشيط القلوب الفواتر[60]كما أسندت له مهمة القضاء والإفتاء [61] ،أيضا عن يد احد شيوخه وهو السيد محمد بن مولاي على قاضي معسكر[62].

[58]- ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1958، ص252 .

[59]-محمد أبو رأس ، فتح الإله ، المصدر السابق ، ص22.

[60]- نفسه، ص 11.

[61]- بن عتو بلبروات، التراث المخطوط لأبي رأس الناصري، مجلة الحوار المتوسطي، ع5، الجزائر،(دت) ص80.

[62]- محمد المهدي بن علي شغيب، أم الحواضر في الماضي والحاضر –تاريخ مدينة قسنطينة، مطبعة البعث، الجزائر، 1985م، ص201،

علم التفسير من منظور أبي رأس الناصري:

لقد حرص المصنفون على التطرق الى معنى التفسير وما بينه وبين التأويل من علاقة ،والذي دعاهم إلى ذلك هو ورود كلمة التأويل في القرآن قريبة من المعاني السابقة للتفسير في نحو قوله تعالى ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾[63]وقوله على لسان صاحب موسى عليه السلام ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾[64]هذا من جهة.

وأستعمل بعض المفسرين له في تفسيرهم من جهة أخرى مثل أقول "ابن جرير الطبري" شيخ المفسرين "القول في تأويل قوله تعالى (....) يريد تفسير ما يذكر بعدها[65]أما تعريف التفسير فالتفسير من الناحية اللغوية مأخوذ من الفسر بمعنى التبيين[66]كشف المغطى وإظهار المعنى فنقول فسر الشيء يفسره ويفسره فسرا، أي بينه وأوضحه وكشف المراد على اللفظ المشكل أي إيضاح معناه بإخراجه من مقام الخفاء إلى مقام التجلي[67]. أما من الناحية الاصطلاحية فهو ذلك العلم الذي يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه[68].

ولم يختلف أحد أن للتأويل معنى لغويا مستقلا فهو من الأول والرجوع ويقول أهل اللغة: أل الشيء يؤول أولا ومآلا أي رجع وأول عليه الشيء رجعه وألت عن الشيء ارتددت وعليه فالكلام في نوع العلاقة هو من الناحية الاصطلاحية فقط ويحمل ما ذهب إليه العلامة أبو رأس الناصري في مقدمته إلى اختلاف العلماء في ذلك إلى رأيين.وذلك من خلال قوله: وأختلف هل هو بمعنى

[63]- سورة يوسف،الآية101.

[64]-سورة الكهف، الآية178.

[65]-عبد العزيز بومدين، المرجع السابق، ص 135.

[66]- نفسه، ص 201 .

[67]- رزيوي زينب، المرجع السابق، ص189 .

[68]- محمد حسين ذهبي، المصدر السابق ، ص 6 .

التأويل ؟ وقيل بالفرق ؟ بأن التأويل هو بيانه بما تقتضيه القواعد العامة ومن خلال ما قاله العلامة "أبو رأس الناصر" يمكن تقسيم الخلاف بين التفسير والتأويل إلى مذهبين:

المذهب الأول : أنهما مختلفان ومتمايزان حيث قال "السيوطي": وقد أنكر ذلك القوم حتى بالغ ابن حبيب النيسابوري فقال: قد نبغ في زماننا مفسرون لو سئلوا عن الفرق بين التفسير والتأويل ما اهتدوا إليه"[69].

وهذا الذي قاله *ابن حبيب النيسابوري* وحكاه عنه *السيوطي* بين الاختلاف بين التفسير والتأويل أما أوجه الاختلاف فقد تعددت فيه الأقوال.

المذهب الثاني: أن التفسير والتأويل بمعنى واحد قال أبو عبيد وطائفة، فمن قائل : إن التفسير هو بيان وضع اللفظ إما حقيقة وإما مجازا كتفسير الصراط بالطريق والصيب بالمطر.

والتأويل: هو تفسير باطن اللفظ مأخوذ من الأول وهو الرجوع لعاقبة الأمر وهو الذي يعينه * أبو رأس الناصر * بقوله في مقدمة تفسيره هو بيانه بما تقتضيه القواعد العربية.

فالتأويل هو إخبار عن حقيقة المراد والتفسير إخبار عن دليل المراد لأن اللفظ يكشف عن المراد والكاشف دليل مثل قوله تعالى:﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[70].

تفسيره أنه من الرصد وتأويله التحذير من التهاون بأمر الله والغفلة عن الاهبة والاستعداد للعرض عليه ، وقال "الألوسي": التأويل إشارة قدسية ومعارف سبحانية تنكشف من سحب العبارات للسالكين وتنهمل من سحب الغيب على قلوب العارفين والتفسير غير ذلك، فهو يرى

[69]–عبد العزيز بومدين، المرجع السابق، ص135.

[70]– سورة الفجر، الآية 14 .

أن التأويل خاص بما كان من قبيل الإشارة فيما صنفه المفسرون منهم والتفسير ما كان مفهوما من العبارة[71].

مكانة العلامة أبي رأس عند علماء عصره (12ه/ 18 م)من خلال مؤلفاته في علوم القران "علوم التفسير" أنموذجا" ومقارنتها بمؤلفاته في ميادين الأخرى مثل علوم التاريخ.

يعتبر العلامة أبو رأس الناصري من أشهر مؤلفي القرن (12ه/ 18م)وذلك من خلال المؤلفات التي تركها لنا، فقد ترك لنا أبو رأس مصنفات كثيرة في مختلف العلوم والفنون، ترجم بعضها الى اللغات الأجنبية على أيد العديد من الأجانب مثل المستشرق 'ارنو' الذي ترجم كتاب "عجائب الأسفار" الى الفرنسية، ونشره فصولا في المجلة الإفريقية، ثم نشره على حدة سنة1885 بالجزائر وترجم له الجنرال 'فوربيقي' كتاب "الحلل السندسية" ونشره بالجزائر سنة 1903م.

كما قام بالتعريف كتاب "فتح الإله ومنته في التحدث بفل ربي ونعمته " للشيخ أبو رأس، وعرضه في المجلة الآسيوية سنة 1899م .على أن جل مؤلفات هذا الشيخ لا يزال، مخطوطا وقد عددها في كتاب "فتح الإله"[72].

وقد ذكر أن مجموع تأليفه بلغت نحو50كتاب في التفسير والتاريخ والأدب والتراجم والرحلات، وهناك من قال أن ما ألفه بلغ نحو63 كتاب ونسب اليه137 مصنفا في مختلف الأغراض بين كبير وصغير، وبين تأليف وشرح وتعليق وتلخيص ومن بين مؤلفاته في علوم القرآن نذكر[73]:

---

[71]– عبد العزيز بومدين، المرجع السابق، ص 136 .

[72]–أبو رأس، نبأ الإيوان ،المصدر السابق ، ص 16 .

[73]– أبو رأس الناصري، زهر الشماريخ، المصدر السابق ، ص14.

1 - "مجمع البحرين ومطلع البدرين بفتح الجليل للعبد الذليل في التيسير إلى علم التفسير"[74] في ثلاثة أسفار في كل سفر عشرون حزباً[75].

2 - "تقييد على الخراز[76] والدرر اللوامع والطراز[77].

3 -الإبريز والإكسير في علوم التفسير : حيث قال عنه : "أنه في ثلاثة أسفار ما أبركها من قربي، في كل سفر عشرون حزبا، طالما تكلمت فيه نقلا من كتاب شيخ أو فيه مع الزمخشري والبيضاوي وابن عطية وغيرهم[78].

4 - الجمع بين الإطناب والإيجاز في شرح الخراز[79].

5 - إغاثة اللهفان في شرح مورد الضمان، والتكلم مع صاحب عمدة البيان.

6 - السيوف القوامع في شرح الدور اللوامع.

7 - إزالة الألغاز على كلام الطراز والخراز.

8 - توضيح المعاني في شرح حرز الأماني في ثلاثة أسفار.

9 - إعانة القدير في شرح النشر والتسيير في ثلاثة أسفار.

---

[74]- محمد أبو راس بن احمد بن ناصر المعسكري، الإصابة فيمن غزا المغرب من الصحابة، المصدر السابق، ص 18.

[75]- أبي راس الناصر، لقطة العجلان في شرف الشيخ عبد القادر بن زيان وانه من بني زيان ملوك تلمسان، تح حمدادو بن عمر، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر،(دت) ، ص121 .

[76]-أبو رأس، نبأ الإيوان، المصدر المصدر السابق ، ص27.

[77]- نفسه، ص 180 .

[78]- أبو رأس ، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، ج 1 ، تق محمد غانم، المركز الوطني في الانثربولوجيا الاجتماعية والثقافية، الجزائر، 2005، الجزائر ، 2010 م ، ص 30 .

[79]- يحي بوعزيز، موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب ،ج1، دار الهدى ، الجزائر ، 2013 م ،ص 178 .

10- تذييل الإتقان في أحكام القرآن.

11- فتح المنان في ترتيب نزول القرآن.

12- سر الرحمان في جمع القرآن وسبب جمعه على هذا المنوال[80].

كما برع أيضا في "علم التفسير" حيث وضع تفسيرا للقرآن الكريم في ثلاثة أسفار عنوانه "التسيير إلى علم التفسير" في ثلاثة أسفار في كل سفر عشرون حزبا[81]،حيث نظم فيه *محمد بلوهراني* قالب شعري شعبي، يخاطب فيها شيخه أبو رأس في هذا الصدد:" أن العلامة أبو رأس كان من أبرز شيوخ التفسير في تلك الفترة"[82].

من خلال ما سبق يتضح لنا أن العلامة الحافظ "أبو رأس الناصري" برع في علوم القرآن "علم التفسير" أنموذجا هذا ما جعله من أشهر مؤلفي القرن (12ه/ 18 م)، خاصة إذا قرناه بعلماء عصره مثل العلامة" الحسين الورتيلاني " (1125_1713 م / ت 1193 ه -1779 م) هذا الأخير الذي برع في ميدان التصوف فقط وغيرهم.

ومما يؤكد لنا هذه المكانة التي نالها العلامة "أبو رأس الناصر "مؤلفاته في علم التاريخ أيضا":

-" زهر الشماريخ في علم التاريخ "لمؤلفة أبو رأس الناصري، حيث يصنف ضمن التاريخ العام ، ويضم طائفة هامة من الأخبار، منذ بدا الخليقة الى البعثة النبوية كما يتضمن من بين موضوعاته الأخرى عروضا مهمة عن شمال إفريقية ، وسكانها الأمازيغيين ومآثرهم خصوصا

---

[80] -نفسه ، ص 177.

[81] - أبو رأس، فتح الإله، المصدر السابق ، ص 180 .

[82] - أبو رأس، الدرة الأنيقة، المصدر السابق ، ص 8 .

قبائل البربر، وعن الترك وملوك فرنسا وملوك الأندلس، كما يتناول الحديث عن اليونان وبعض قبائل العرب[83].

-" المنى والمنى والسول من أول الخليفة الى بعثة الرسول".

-"در السحابة فيمن دخل المغرب من الصحابة".

-"ذر الشقاوة في حروب درقاوة".

-"الوسائل في معرفة القبائل".

-"عجائب الأسفار في لطائف الأخبار عما كان بوهران مع الأندلس والكفار" [84]

أشهرها على الإطلاق الذي خصص قسما منها لتاريخ وهران، وقسما أخر لفتحها على يد محمد الكبير : فهو في الأصل عبارة عن قصيدة تاريخية ، تتكون من 118 بيتا، وتسمى *نفيسة الجمان في فتح ثغر وهران* نظمها بمناسبة فتح وهران الثاني على يد "المنصور بالله سيدي محمد بن عثمان".

ومضمون الكتاب يتلخص في جزأين، الأول في 92 ورقة ويتضمن 63 بيتا تكلم فيه عن إنشاء وهران وما تداولها من الدول وما دهاها من الأمور، والثاني يتضمن 55 بيتا فهو المشتمل على الفتح العظيم ، ومدح من فتحها " الباي سيدي محمد بن عثمان[85].

-" الحلل السندسية فيما جرى بوهران والعدوة الأندلسية".

---

[83]-أبو رأس الناصري ، زهر الشماريخ ، المصدر السابق ،ص 19.

[84]-أبو رأس الناصري ، نبأ الإيوان ، المصدر السابق ، ص 19 .

[85]- محمد بن أبي رأس الناصري ، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار ، المصدر السابق ، ص ص 33-34 .

وفاته :

كانت وفاة العلامة أبي رأس الناصر، يوم الخامس عشر من شعبان، سنة 1238هـ – 1823م عن عمر ناهز التسعين سنة، وقد صلى عليه خلق كثير، من الناس، يؤمهم تلميذه أحمد الدايح، الملقب بالخرشي الكبير عند الراشدية، وقد قدر عددهم نحو1500 فردا، ودفن قرب داره بعقبه بابا علي بمعسكر، أين يوجد ضريحه الذي أقيمت عليه بناية أصبحت مزارا للناس إلى يومنا[86]، وضريحه معروف في حي باب علي باسم سيدي أبو رأس.

وقد ترك أبو رأس وراءه كما هائلا المخطوطات النفيسة والذخائر النادرة، التي لم تعرف النور إلى اليوم، والتي بلغ عددها حوالي 137 مخطوطا، في مختلف العلوم والفنون حيث لم يركز جهده الفكري على تخصص معين، بل تناولت كل التخصصات تقريبا[87].

خاتمة الدراسة:

وختاما لما سبق أن التأليف في علوم القرآن "علوم التفسير" أنموذجا أواخر العهد العثماني كان متطوراً ونشطاً، وذلك بسبب ما كانت تزخر به الجزائر من مؤسسات دينية كالكتاتيب والزوايا والمساجد ،بالإضافة إلى طبيعة تكوين الديني للعلماء، وكذا للصلات الحضارية والثقافية بين الجزائر وجوارها مثل المملكة المغربية وتونس أو المشرق العربي بفضل معاهده المتطورة، التي كانت لها الفضل في إثراء الحياة الفكرية والعلمية في تنشيط علوم القرآن "علم التفسير" تعليماً وتحصيلاً، كما كان للرحلة العلمية دور كبير، في زيادة الاطلاع والاستفادة من العلوم كما أن نزوح مسلمي الأندلس صوب البلاد المغاربية، حملين معهم من صنوفاً من العلوم والمهارات المختلفة، أسهم بشكل كبير في ازدهار الحياة العلمية، ونشاط حركة التعليم ونسخ المؤلفات الدينية، خصوصا ما تعلق بعلوم القرآن، وظهور جماعة من المؤلفين خلال هذه الفترة وعلى رأسهم * العلامة الحافظ

[86]– أبو رأس الناصري ،عجائب الأسفار، المصدر السابق ، ص 14 .

[87]– أبو رأس، لقطة العجلان، المصدر السابق ، ص 126 .

أبو رأس الناصر" الذي برع في علوم القرآن "علوم التفسير" أنموذجا وعلم التاريخ وبقية العلوم الأخرى .

قائمة المصادر والمراجع:

1- القرآن الكريم.

2- ابن خلدون عبد الرحمان، مقدمة ابن خلدون، تح عبد الله محمد الدرويش، ج 2، ط1 ،دار البلخي، دمشق، (د ت)، 2004م.

3- إبراهيم عبو، العلوم النقلية في الجزائر خلال العهد العثماني، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، 2015 -2016 م.

4- بكاري عبد القادر، منهج الكتابة التاريخية عند المؤرخين الجزائريين في العهد العثماني (1519_1830)،أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة وهران، الجزائر، 2015_2016م .

5- بن عتو بلبروات، التراث المخطوط لأبي رأس الناصري، مجلة الحوار المتوسطي، ع 5، الجزائر، (د ت).

6- البوعبدلي المهدي، الحياة الثقافية بالجزائر، إع عبد الرحمان رويب، مج3 ،عالم المعرفة، الجزائر، 2003م.

7- بومدين عبد العزيز، الإبريز والإكسير في علم التفسير لأبي راس الناصري الجزائري _ دراسة وتحقيق _ج1، مذكرة ماجستير في العلوم الإسلامية، الجزائر، 2016-2017م.

8- بوكعبر تقي الدين، دراسة وتحقيق مخطوط للعربي المشرفي في الرد على أبي رأس الناصر في قضية نسب أسرة المشارفة، مذكرة ماجستر دولة ومجتمع في الجزائر خلال العهد العثماني ، جامعة وهران ، الجزائر ، 2013-2014.

9- الثعالبي عبد الرحمان، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، معهد الثقافة والدراسات الشرقية، اليابان ، (د ت)

10- الجزائري أبو رأس محمد ، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته – حياة أبي رأس الذاتية والعلمية -، تح محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر(د ت).

11- الجزائري ضيف بشير بن أبي بكر بن البشير بن عمر ، فهرست معلمة التراث الجزائري بين القديم والحديث–نماذج متنوعة للمعلوم والمجهول - ، مراجعة عثمان بدري، ط2،منشورات ثالة، الجزائر،2007م.

12- حطاب سعاد، العلوم العقلية والنقلية في المغرب الأوسط _العهد الزياني أنموذجا _مجلة الأكاديمية، ع18،الجزائر ، 2017م.

13- حسين خالد محمود، معطيات عن العلوم الشرعية بمدينة غزة من بداية العصر الطولوني إلى نهاية العصر الأيوبي، مجلة عصور، ع14-15 ،الجزائر، 2014م.

14- الحفناوي أبو القاسم ، تعرف الخلف برجال السلف ، ج 2 ، مطبعة بيير فونتانة ، الجزائر، (د ت)

15- الذهبي محمد حسين، علم التفسير، دار المعارف، القاهرة ، (د ت) .

16- رزيوي زينب، العلوم والمعارف الثقافية بالمغرب الأوسط (7ه و9 ه/ 13و 15م)، أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط الإسلامي، جامعة سيدي بلعباس الجزائر، 2015-2016م.

17- الكتاني عبد الحي ، فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات ، إعتناء إحسان عباس ، ج 1 ، ط 2 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1982 م .

18- المعسكري أبو رأس الناصر ، زهر الشماريخ في علم التاريخ، تح عمر حمدادو، مركز البحث، الجزائر ، (د ت).

19- المعسكري أبو رأس بن احمد بن ناصري ، الإصابة فيمن غزا المغرب من الصحابة ، تق أحمد الطويلي، المطبعة العصرية، تونس، 2010 م.

20- محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القران ، تحقيق هاني الحاج ، ج 1 ، الكتبة التوفيقية ، مصر ، (د ت) .

21- محفوظ رموم ، حركة التعليم في الجزائر المحروسة بين1500-1830 م، مجلة الحقيقة، ع27، جامعة أدرار ، الجزائر ، (د ت) .

22- الناصري أبي رأس ، نبا الإيوان بجمع الديوان في ذكر صلحاء مدينة القيروان تقديم محمد الحبيب العلاني وسهيل الحبيب، منشورات مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان، تونس، 2012م.

23- الناصر أبي رأس ، لقطة العجلان في شرف الشيخ عبد القادر بن زيان وانه من بني زيان ملوك تلمسان ، تح: حمدادو بن عمر، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف الجزائر، 2010م.

24- الناصر أحمد أبي رأس ،عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، ج 1، تق محمد غانم ، المركز الوطني في الانثربولوجيا الاجتماعية والثقافية، الجزائر، 2005م.

25- الناصر أبو رأس ، الدرة الأنيقة في شرح العقيقة، تح أحمد أمين دلائي، مركز البحث، الجزائر، 2007م.

26- ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائرـالعهد العثماني_، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ، 1958 .

27- -ناصر الدين سعيدوني ، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي،دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1999م .

28-سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي (1500-1830م) ، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998م.

29-سعد الله أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 2 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1998 م .

30-سعد الله أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 7 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1998 م .

31-علال الفاسي، مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، ط5، منشورات مؤسسة علال الفاسي، الرباط، 2008م.

32-الغزالي أبي حامد بن محمد ، إحياء علوم الدين ، دار ابن حزم ، ط1 ، لبنان ، 2005 م .

33_شعيب محمد المهدي بن علي ، أم الحواضر في الماضي والحاضر -تاريخ مدينة قسنطينة_، مطبعة البعث، الجزائر، 1985.

34- يحي بوعزيز، موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، دار الهدى ، الجزائر، 2013م.

تفسير الشّيخ الشّهيد بلحاج بن عدّون قشّار (1924-1996)

قضايا ونماذج

د. عبد الوهاب بافلح، جامعة غرداية، الجزائر

مقدمة:

داوَمَ الشّيخُ بلحاج بن عدّون قشار في رسالته التّعليميّة ردحا من الزّمَن حتّى غدا منارةً يستنيرُ بها أهل مدينتهِ، وقدْ جعل من مسؤولِيّاتِهِ ربط صلاتٍ وثيقةٍ بين المسلِمين وكتابِ ربّهم مِن خلالِ الدّروسِ المسجدِيّة التي كان يلقيها في فتراتٍ متواصِلةٍ بين (1956– 1996)، ومِن خلالِ مؤلّفاته التّعليمِيّة التي خلّفها. إنّ الشَّيْخَ في نشاطِهِ لـم يكنْ مبتدِعًا، بل إنّ الجذوَة التي أوقدَها اللهُ في قلوبِ مَن آمنوا بكتابِهِ جعلتْهُم يحرِصونَ على تبليغِ تعالِيمِ هذا الكتابِ، فكانت روح الـمسؤولِيّة هي الدّافِع الرّئيسُ الذي جعلَ مثل هذا النّشاط يستمِرُّ مدّة ليست باليسيرةِ. وفي الحينِ قد غادرَ الشّيخُ الدّنيا لكنّه ترَكَ للمسلمين جهد مُقَلِهِ في البحثِ والتّحقيقِ والجمعِ، فما حجمُ هذا التّفسيرِ الذي خلّفهُ الشّيخُ؟ وما أهمّ القضايا الـمنهجِيّة والعلمِيّة التي تضمّنها؟

تبتغي الورقة الإجابة عن هذه الإشْكالِيّات مِن خلالِ النِّقاط الآتِية:

- ترجمة الشّيخ بلحاج بن عدّون قشّار.
- آثار الشّيخ بلحاج قشّار.

- نماذِج وقضايا من تفسير الشّيخ بلحاج قشّار.

ترجمة الشّيخ بلحاج قشّار:

وُلِد الشّيخ بلحاج بن عدّون قشّار في قرية آت بنور بمدينةِ غرداية سنة 1344هـ- 1924م، في حِضن عائلَةٍ بسيطةٍ تعتمِد في قوتِها على الفلاحةِ، معروفةٍ بِالمحافظةِ على الدِّينِ والتّمسُّك بالأخلاقِ الفاضِلة. واجتاز تعلميه الأوَّلِيّ على يَدِ مشايِخَ مِن بلدتهِ منهم الحاج إبراهيم بن عيسى هيبة، والحاج يوسف بن بعمّور بافولولو والحاج أحمد بن حمّو كروم.

قضى الشّيخُ بلحاج مُدّةً مِن شبابِه عامِلا في دكّانِ جدِّهِ بالجزائر العاصِمة (ناحية شارِع راندون) لكنّه لم يتخلَّ عن تكوينِهِ وتثقيفِهِ، فالتحقَ بمدرسةِ الشّيخ إبراهيم بن بنوح متياز لِيواصِلَ حفظه لكتاب الله وتلقِّي مبادِئ العلوم الشّرعِيّة واللّغوِيّة لـمدّةٍ قصيرةٍ، ثمّ عادَ إليها للتَّفرّغِ مدّةَ سنتينِ، فكانت له حظوة خاصّة عند الشّيخِ إبراهيم، فنالَ مِنهُ ما لم يكُن لغيرِهِ من أقرانِهِ بالخصوصِ مفتاح الـمَكتبَةِ التي كانت ملجأَهُ للمطالعة وزيادة منسوبه المعرفي بالخصوصِ القصص والتّاريخ. وبعد رِدحٍ مِن الزّمَنِ عاد إلى مسقَط رأسِهِ لِيواصِل تعلميه وتحصيلَه على يد عِدّة مشايخ في المعهد الجابري ببني يزجن، وعلى رأسهم الشّيخ إبراهيم حفّار.

خِلالَ هذا التّكوينِ وبعدَهُ تقلّدَ الشّيخُ عدّة وظائف في حقلي التّربية والتّعليمِ (معلّم ثمّ مدير ثمّ مشرِف على المناهِج الدِّراسِيّة) والنّشاط المسجدي (الإمامة والوعظ والإرشاد) في المسجد العتيق لآت بنور، فشارَكَ إخوانهُ في تنشئةِ الأجيالِ بـمختَلفِ أعمارِها، ثمّ توَسّعَ نشاطُ الشَّيْخِ ليشملَ مدينة تغردايتْ كلِّها مِن خِلالِ مشاركتِهِ في جلسات مجلِس عمِّي سعيد الذي يترأسُّ المجالِس العرفِيّة لكلّ قصور الوادِي، وقد اسْتلمَ مهمّةَ الإشراف على الكتابةِ، وشارَكَ سنة 1973 في تأسيس معهد عمِّي سعيد الـمخصّصِ للـمرحلتَيْنِ التعليمِيّتين الأساسِيّة والثّانوِيّة، ثمّ إنشاءِ قسم الدّراسات الـمتخصّصة في الشّريعة الإسلامِيّة بعدَ الـمرحلة الثّانوِيّة التّابع لنفسِ الهيئةِ.

وممّا يذكَر مِن مهام الشّيخِ مشاركته في تأطير بعثة الحجّ الميزابيّة كلّ سنةٍ منذ 1381ه-1961 فكان يرعى مقرّ الإقامةِ في مكّة والـمدينة وجدّة ومنى وعرفة، ويثقِّفُ الحجّاج في أداءِ المناسِكِ بشكلٍ صحيحٍ في دروسٍ متواصِلة، ويجيبُ عن أسئلتِهم وإشكالاتهم الشّرعِيّة.

وفي مقابِلِ هذه الأعمال فإنّ الشّيخ خلالَ هذه المسيرةِ عانى استنزافا لطاقتهِ في المجال الاجتماعي على حساب النّشاطِ العلمِيّ فشارَك في تصفية التّركات، وتحقيق الأنصِبة لـمستحقِّيها، كما أشرفَ على حفلات الأعراسِ، ولقاءات الـمآتم والأفراحِ، وأوكلت إليه رئاسة عشيرتهِ "آت بادّي" بما فيها مِن مسؤولِيّات، كما ترأّسَ جمعيّة الشّبان للأعمال التّطوّعِيّة، وغيرِها من الأنشطة الاجتماعِيّة والجمعوِيّة.

وفاتُهُ: تعقّبت الـمنِيّة الشّيخ حتّى لاقته يوم 07 أكتوبر 1996 بما يعرف بحادِثة بوتركفين (ولاية الأغواط)، حيثُ لقِي حتفه هو ومجموعةٌ مِن الـمواطنين في كمينٍ إرهابِيّ، ليلقى ربّه تعالى بعد أكثر مِن خمسين سنة من الجهادِ والتّربية والتّثقِيفِ. حمِل جثمان الشّهيدِ إلى مسقط رأسهِ ليوارى التّرابَ في جنازة مهيبةٍ يوم 10 أكتوبر 1996م، ليرقُد في قبرِهِ إلى يوم البعث والنّشورِ. وممّا قيل من الشّعرِ في تأبينِهِ[1]:

إذا وقعَتْ هَكذا الواقعهْ ... ودَبَّتْ بأوصالِنا الفاجِعَهْ
إذا وقعت هاهنا الواقعهْ ... وزُلزِلت النّفسُ بالهالِعهْ
إذا سِيقَ للذّبحِ شيْخٌ جليلْ ... تسامى بأعماله الرّائعهْ
فقدْ جُنَّ هذا الزّمانُ يقينا ... وحقّا لقدْ حلّت القارِعهْ[1]

لقد ماتَ الشّيخ لكنّهُ تركَ خلفهُ أجيالا مِن التّلاميذ الذين تخرّجوا على يديهِ، كما يشهدُ على نشاطه مجموعة مِن المؤلَّفاتِ التي تصدّرَ بها ليكفي مؤونةَ البحثِ عن الـمقرّرات الـمدرسِيّة التي تواكِبُ العصرَ وتقدّم للطّلبةِ مادّةً علمِيّة مناسبةً لأعمارهِم.

---

[1] الشعر لعمر هيبة، من رفقاء الشّيخ في التّعليمِ. مجلة حفل التّأبين، ص72.

الآثار العلميّة للشّيخ بلحاج قشّار:

إنّ هذه الورقة لم تجِد خلالَ جمعِ مادّتها كثيرا مِـمَّن اعتنى بتراثِ الشّيخِ جمعا وتصنيفا وترتيبا، بل إنّ تفسيره وهو الـمقصودُ بالدّراسة لا يزالُ حبيس الأشرِطة السّمعِيّة، ولا تزال أيضا مفرّقةً بين مالكين متعدّدينَ على هيئتها الأولى التي أنتِجتْ فيها. وما أسعفَ مِن إنتاج الشّيخ الذِي رأى النّور وأصبحَ متداولا بين النّاسِ يُـمكِن أن نرَتّبهُ كَالآتِي[2]:

- سلسلة الفقه والدّليل في سبعِ حلقاتٍ لأقسام المرحلتين المتوسّطة والثّانويّة.
- كتاب أصول الفقهِ للمرحلة الثّانويّة.
- كتاب اللّمعة المضيئة في تاريخ الإباضِيّة.
- كتاب صفوة الاختيار في سيرة الـمختارِ.
- كتاب العقيدة الصّحيحة للمسلم.
- كتاب النّور والظّلام مِن وسائل الإعلامِ.
- كتاب عوائد ميزاب سنن لا تقاليد.
- رسالة أحكام صلاة الجمعة.
- رسالة توضيح الاستفسارِ عن صلاة الأسفارِ.
- تحقيق كتاب الدّعائم في الشّريعة والمعاملات للشّيخ ابن النّظر العمانِي.
- تفسير سورة "يس" من إخراج طلبة قسم الشّريعة بمعهد عمِّي سعيد.

[2] نقلت اللاّئحة من مقدّمة كتاب: بحوث ومحاضرات في الدّين والحياةِ، بلحاج بن عدون قشّار، جمع وإخراج: أحمد بن حمّو كرّوم، وحمّو بن عمر بوكرموش، ص ز، د س ط.

- كتب مخطوطة وفتاوى مبثوثة في دفاتِر وكراريسَ ومحاضرات وبحوث في التّوعِيَة الرّوحِيّة والمدنِيّة للمجتمع الـمسلِمِ.

تفسير الشّيخ بلحاج قشّار:

يعرّف التّفسيرُ بأنّه: "بيانُ كلامِ اللهِ، أو الـمبيّن لألفاظِ القرآن ومفهوماتِها"[3]. وهذا التّعريف بِعمومِهِ يدخِلُ كلّ تعاملٍ مفهومِيّ ودلالِيّ مع كلامِ الله الـمُسمّى بالقرآنِ، سواءٌ مِن حيثُ مفرداته، وهو الـمذكور في التّعريفِ لِخصوصِيّته وأهمّيّتِهِ في إدراكِ مستوياته الأخرى مِن الـمعانِي، أو مِن حيثُ معناه الـمقصود؛ التّفصيلي أو الجزئي وهو الثّمرة الـمرادةُ مِن هذا النّشاط العلمِيّ.

ونجِدُ فيما خلّف الشّيخُ بلحاج أوجُهًا متعدّدةً مِن التّعامل مع كلامِ اللهِ تعالى تدخلُ ضِمنَ الإطار العلمِيّ للتّفسيرِ، أظهرُها الدّروس الـمسجدِيّة التي كان يلقيها على عامّة النّاس باختلافِ طبقاتِهِم ومستواهم الثّقافي، الـمرتادين للمسجدِ الرّاغبينَ في تحصيل ما يبصِّرُهم في أمور دينهِم، يقول الشَّيخُ: "وقد بدأت في تفسيرِ كتاب الله حوالي سنة (1367ه- 1956م) وختمته باعتبارِ أنّني كنت قد فسّرتُ السُّورَ القِصارَ مع البدايةِ من سورة البقرةِ، مرّتينِ في الأسبوعِ"[4] إلى غايةِ سنةِ (1417ه-1996م) وقَد اتّخذَهَا وسيلَةً إصلاحِيّة ينفذُ بها إلى نفوسِ الـمستمعينَ فيربِّيها ويزكِّيها تأسِّيا بعملِ الرّسول ﷺ والصّحابةِ مِن بعدِهِ، فالقرآن بالنّسبة إليهِ هو: "كتابُ هدايَة وقانونٌ عامّ لكافّة البشَرِ، وقد تناولَ جميع جوانِبِ حياتهم الدّينِيّة والدّنيوِيّة"[5]، ويؤكِّدُ على هذا الجانِبِ التّربوِيّ في قولِهِ: "القرآن ليسَ إلّا مواعظ وذكرى لِـمَن آمَن بِهِ فحَيِيَ قلبه واستنارَتْ بصيرتُهُ وقوِيَ حسُّهُ، فهو حيٌّ بأتمِّ معنى الكلِمة"[6]. وهذا الوجهُ من التّعامل مع القرآنِ هو الـمقصودُ رأسًا بالدّراسةِ في هذه الورقة؛ لأنّه يتتبّع الآياتِ موضِعيّا ابتداءً بفاتحة الكتابِ وانتهاءً بِسورة النّاسِ، كما أنّهُ يبتغي

---

[3] التفسير والمفسرون، الذّهبي، 1/ 12.

[4] صفحات من دروب الكِفاحِ، ص09.

[5] علم أصول الفِقه، بلحاج قشّار، ص17.

[6] بيّنات من الهدى والفرقان سورة "يس "، بلحاج بن عدّون قشّار، ص23.

أساسًا إيضاحَ معنى الآيَةِ وتقريبَه إلى الأذهانِ، وتوظيف ذلِكَ في إصلاحِ قلوب النّاس وتبيين الطّريقِ الـمستقيم الذي سطره الله للبشَرِ.

إنّ هذا النّشاط الـمتواصِل لقرابة نصف قرنٍ من الزّمَن لم يعرف التّدوين، إلّا باستعمالِ التّسجيل الصّوتِي، فالذي يعتمده الشّيخ غالِبا في إلقاءِ درْسِهِ اللّغةَ المحليّة التي توافِق مدركات الـمستمعين، وتقرِّبُ إليهم الـمراد وتزيدُ نسبةَ وصولِ الـمعلومةِ مفهومةً بِشَكْلٍ كبيرٍ. لكنّه وعلى هذه الحالِ لم يبقَ من الـمادّة المسجّلة إلّا القليل القليل[7] على حوامِل مختلفة[8]، إذ كان ينتدِبُ لهذهِ الـمهمّة أناس مِن معارِف الشّيخ بشكلٍ غيرِ متنظَم، ولم يكنْ لهم مِن الوسائلِ ما يضمَنُ تسجيلا كاملا ومتواصِلا لهذه الدّروس. ثمّ يبقى جمعُ هذه الـمادّة وترتيبها وتفريغها مشروعا قد يطول الزّمانُ لقطفِ ثـمارِهِ[9].

ومِن حُسن تصريفِ القدَرِ أنّ الشّيخ قد فرّغَ مدّة مِن عمرِه لتقديمِ نموذج تفسيرِيّ مدَوّنٍ خصّصه لسورةِ "يس"، نزولا عند رغبةِ مجموعةٍ مِن طلبته في قِسم الشّريعة بمعهد عمّي سعيد، وقد أتمّ ذلكَ في البقاعِ الـمقدّسَة خلالَ مهمّته السّنوِيّة في إرشادِ الحجيجِ سنة 1416ه، حيثُ تَقِلُّ عنهُ الأعباءُ الاجتماعِيّة والـمهنِيّة التي تشغرُ كامِلَ برنامجِهِ اليومِيّ في بلدِه مزاب.

وفي مقابِلِ هذا النّشاط اهتمّ الشّيخُ بالتّأليفِ في مواضيعَ شرعِيّة مختلِفة، غلب عليه التّأليف الـمدرسِيّ، كما وقفنا عليهِ في سردِ لائحةِ مؤلّفاته المطبوعة، واستوقفنا في تآليفِهِ استظهارُ الآياتِ لأغراضِ الاستِشهادِ أو التّوضيح أو الاستنادِ إليها لإفهامِ فكرةٍ معيّنةٍ وتقوِيَةِ رأيٍ يسوقهُ؛ إذْ يقدّمُ بذلِكَ نظرة جزْئيّةً للآيةِ بِاستعمالِها لِغرَضٍ مقصودٍ لا تتناولُ ما تفيدهُ بالتّفصيلِ، وهذا يلامِسُ مباشرةً الـمفهوم العلمِيّ للتّفسيرِ، وسنظهِرُ أوجها منه في العناوينِ الـمقبلَةِ.

[7] بيّنات من الهدى والفرقان سورة "يس"، ص01.

[8] من تلك الحوامِل ما يصِل طاقة استيعابه حوالي ستّ ساعات صوتيّة.

[9] أشار د. محمد باباعمي في جنازةِ الشّيخِ إلى أهمّيّة استخراج هذا التّفسير ونشره ليكون متاحا بين النّاسِ في أبهى حلّة وأحسَن خدمة، وقد مضى على ذلك أكثر من عقدين من الزّمنِ ولم يجد المشروع من يقومُ بِهِ. صفحات من دروب الكفاح، ص49.

ومِن طريفِ ما وقفنا عليهِ في هذا البابِ حديث الشّيخ عن الإعلامِ ووسائله مالها وما عليها كالكتابِ والصّحافة والإذاعةِ والتلفزيون والمسرَح والسّينما وغيرها، وفي توجيه معنى الإعلامِ فإنّهُ يدخِلُ فِيه كلّ نشاطٍ يتّصِلُ بالدّعوة كما كانَ نوح عليه السلام يقول:"يا قومِ إني لكم نذير مبين أن اعبدوا الله واتّقوهُ وأطيعونِ" [سورة نوح: 2-3] وقول فرعون كذلِكَ: "ونادى فرعونُ في قومِهِ قال يا قومِ أليسَ لي ملكُ مِصرَ وهذه الأنهارُ تجري مِن تحتِي أفلا تُبصِرون" [سورة الزّخرف: 52][10]. ويشيد بكفاءة النّبِيّ ﷺ في أداء هذه الوظيفة، ويدعو إلى الاقتِداءِ به، فإنّه أقوى نموذج ومثالٍ للإعلام النّافع الفعّال، مطبّقا لقوله تعالى: "ادعُ إلى سبيلِ ربِّكَ بالحِكمةِ والموعِظة الحسَنة وجادِلهم بالتي هيَ أحسَن" [سورة النحل: 125] وقوله تعالى: "ولَو كنتَ فظّا غليظَ القلبِ لانفَضّوا مِن حولِكَ" [سورة آل عمران: 159] فهو يطبِّقُ أسُسَ الاتّصال بالجماهِيرِ ويدعو إليها ليحصُل على النّتيجة المرجوّةِ[11].

نـماذِج مِن التفسير:

وقفت الورقة على مادّة تفسيريّة قليلة جدّا مقارنة بحجمها الفعلِيّ الذي أنجزَهُ الشّيخُ، وكان نشرُها بحَدِّ ذاتِهِ اكتِشافا غيرَ مسبوقٍ لذلِك سنعرِض ما تمّ تهذيبهُ مِن الأشرِطة السّمعِيّة بالتّركيزِ على الـمنهج والأدوات التي يوظّفها في التّفسيرِ، وأيضا إظهار الـمعاني وهي التّفسير بحدّ ذاتِهِ.

-أكل أموال النّاسِ بالباطِلِ: تفسير قول الله تعالى: "يا أيّها الذين آمنوا لا تاكلوا أموالكم بينكم بالباطِلِ إلّا أن تكونَ تجارةٌ عن تراضٍ منكم ولا تقتلوا أنفسَكُم إنّ الله كانَ بِكُم رحيما" [سورة النساء: 29].

افتتح الشّيخ مجلِسَ التّفسيرِ بتلاوة الآية، ثمّ ربط الدّرس بما سبقه من الدّروسِ، ويتعلّق هنا بما يكون وسيلةً للكسبِ الحلالِ والتّحذيرِ مِن طرق الكسبِ الحرامِ كالسّرِقة والغَصبِ والخيانة. وذكرَ

[10] النور والظلام من وسائل الإعلام، قشار بلحاج، ص25.

[11] النور والظلام من وسائل الإعلام، ص65.

مجموعة مِن التّوجيهات النّبوِيّة بهذا الخصوصِ، منها الحديث: ((خير الكسب كسب التّجرِ، الذين إذا حدّثوا لم يكذبوا، وإذا وعدوا لم يخلفوا وإذا اؤتمنوا لم يخونوا))[12]، وأكّد على أهمّية نشاطِ التّجارَةِ في حياة النّاس لتحقيقِهِ تبادُلَ المنافِعِ بينهم وتسخيرِ بعضهم لبعضٍ، فالإنسان لا يقدّم خِدمة مجّانِيّةً، ولا يترُكُ عرَقَ جبينِهِ يسقُطُ أرْضا، ولا يسلّم ما عندهُ ولا ما أنتجَهُ دونَ مُقابِلٍ، وهذا كلّه داخِلٌ في إطار المشروعات وما أحلّهُ الله، ولا يدخلُ في إطار الحرامِ إلّا ما لا يقبلُ الإنسانُ أن يعامَلَ بهِ، فلا يجوزُ أن يعامِلَ به غيرَهُ، وهذه قاعِدةٌ عامّةٌ في كلّ المعاملاتِ.

وفي نفس الإطار يضرِبُ الشّيخ مثالا بالصّحابة ﷺ الذين تمثّلوا توصِيات النّبِيّ ﷺ وعملوا بها، وعلى رأسهم عبد الله بن عوف، حيث قدَّمَ نَـمَطًا مِن التّجارَةِ، بِهِ استطاعَ أن يجمع أملاكا كثيرةً، وهدمَ بِهِ تصوّراتِ مَن يَرَى أنّ كسبَ المالِ يكون بالقوّةِ والحيلةِ والغِشّ في السّلَع المباعة، والتّطفيف في الكيلِ والحسابِ، فكأنّه كلّ ما أخذهُ مِن غيرِهِ بأيِّ وسيلةٍ فقد حازَهُ لِنَفْسِهِ وسينالُ به السّعادةَ، ولكنّه ينسى أنّ الأمرَ بِيد الله، فإن كان في ذلك الكسبِ بركةٌ نالها، وإلّا فإنّه سيشقى ولا يلقى[13]، وسيجعل اللهُ الفقرَ بين عينيهِ رغم كلّ ما كسَبَ فلا يسعدُ ولا يستمتِعُ بهِ.

ويسترسِل الشّيخ في بسطِ الوسائلِ غير الشّرعِيّةِ للكسبِ مسْتَقِيًا ذلِك مِن الواقعِ المعيش؛ كالذي يشتغل في البنوك الرّبوِيّة، أو في معاصِرِ الخمورِ ومحلّاتِ بيعها، أو من يشتغل ويعين كلّ مَن يحكمُ بغيرِ شرعِ الله، فيبرِّئ المتّهمَ بتلوِيكِ القوانينِ أو بتلقّي الرّشواتِ، ويجمعُ هذهِ الأوجُه في كلّ مَن لا يقيمُ اعتبارا للقوانين الأخروِيّة، ويُبقِي عينهُ فقط على ألاعيبَ لا يطولُ الزّمانُ فَتعودُ وبالا عليهِ.

[12] ورد الحديث بلفظ: ((إِنَّ أَطْيَبَ الْكَسْبِ كَسْبُ التُّجَّارِ الَّذِينَ إِذَا حَدَّثُوا لَمْ يَكْذِبُوا، وَإِذَا ائْتُمِنُوا لَمْ يَخُونُوا، وَإِذَا وَعَدُوا لَمْ يُخْلِفُوا،...)) ينظر: جامع الأحاديث، السيوطي، حديث (3645).

[13] تعريبٌ للمثل الدّارِج: الشّقا أو قَلَّةْ اللّقا.

وبهذا الـمِنوالِ يؤكِّدُ على الأبعادِ الرّوحِيّة التي تجعلُ في كسبِ الإنسانِ الخيرَ والبركةَ، كالنّيّة الصّادِقة والصّفاءِ، والشّرِكة التي تجمَعُ الشّركاءَ على التّناصُح والتّعاوُن على الكسبِ الحلالِ، بعيدا عن الكذِبِ والخداعِ والاحتيالِ والاحتِكارِ، فيجدون في نِهايةِ العامِ خيرا وبركة فيما كسبوا فيسعدونَ ويستمتِعونَ بهِ.

–الإيمان بالقرآن: تفسير قولِ الله تعالى: "أفَمَن يعلمُ أنّما أنزِلَ إليكَ مِن ربّك هو الحقُّ كمَن هو أعمى إنّما يتذكّرُ أولوا الألبابِ" [سورة الرّعد: 19].

يصنّف الشّيخ الآيَةَ في بابِ الإيـمانيّات فيقول: الإيمان بدين الإسلامِ هو اليقينُ بأنّ هذا الدّين منْزَلٌ مِن عند الله تعالى، وعلى هذا فالـمؤمنون على قسمين: مؤمنون باليقين العلمي؛ لأنهم يجدون تطابقا بين القرآنِ وما يكتشفونه مِن حقائقَ في الواقعِ، ويتمثّل في قولِه تعالى: "إِنَّمَا يَخْشَى اللهَّ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ" [سورة فاطِر: 28]. ومؤمنون أدركوا حقيقةَ القرآنِ وآمنوا بها تقليدا؛ بوثوقِهِم بـمَن ينقل إليهِم الحقائق، ويبيّنُ ويفصِّلُ لَهم الأحكام. وتشملُ الآية أعلاهُ الصّنفين، فلم يقل الله تعالى " كمن لا يعلم"، بل قال: "كمن هوَ أعمى" فالـمقارنة بينَ "لا يعلم" و"أعمى" تنبِئُ أنّ هناكَ فرقًا؛ لأنّ وسائل العلم والإدراكِ حاضرةٌ متيسّرة كالشّمسِ في وسطِ النّهارِ حتّى أعمى البصَرِ سيدرِكُ ذلِكَ، لكنّ أعمى البصيرة، الذي لم ينوّر الله تعالى قلبهُ، ولم يوفِّقْهُ لإدراكِ الحقِّ، وعكسهُ الذي يتأثّرُ بالذّكرِ والتّفكيرِ والـموازنةِ هو صاحِبُ العقلِ الكامل، يستطيعُ التّفريقَ بينَ الحقّ والباطِلِ، وبينَ النّافِعِ والضّارّ، وصِفاتُ هؤلاءِ مفصّلةٌ بعدُ في الآياتِ اللّاحقاتِ.

–الوفاء بعهدِ الله: تفسيرُ قولِ الله تعالى: "الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهَّ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيْثَاقَ " [سورة الرّعد: 20].

أولى صفات هؤلاء هم الذين يوفون بعهد الله، فما هو هذا العهد؟ ومتى تمّ إعطاءُهُ؟ يخبرُنا الله تعالى بذلِكَ في قَوْلِهِ: "وإذ أخذ ربُّك مِن بني آدمَ مِن ظهورهم ذرّيّاتهم وأشهدهُم على أنفسِهِم ألستُ بربِّكُم قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ" [سورة الأعراف:

172] فهذا العهدُ وإن أخِذ على بني آدمَ إلّا أنّهم لم يشعروا بهِ فكيف تمّ أخذهُ؟ نجد في الـمسألةِ قولين:

الأوّل: حينما خلق الله آدمَ ﷺ استخرج ذرّيته كلَّها مِنْ ظهرهِ، فخرجَ الـمؤمنون على شكل ذرّ أبيض والكفّار على شكل ذرّ أسوَد. فقال لهم: ألست بربّكم؟ قالوا: بلى، تطاع ولا تُعصى، تذكر ولا تنسى، تشكر ولا تكفر، وهذا عهد بني آدم لربّهم، وقد يقول بعضهم: من أخبرنا فلم نشعرْ بذلِكَ؟ فكيفَ نؤدِّي هذا العهد؟ الله تعالى قدْ نقلَ إلينا أخذ هذا العهدِ، فلا مِراءَ، ولا بدَّ مِن الأداءِ.

الثّانِي: نجده في قولِه تعالى: "وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ"" [سورة النحل: 78] فهذا الاستعداد الذي ركّبه الله تعالى في بني آدم هو نوع من العهدِ، وتلك هي القوّة التي بها يستطاع تحمّل أمانة دين الله، قال الله تعالى: "إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا" [سورة الأحزاب: 72]، والأمانة هي تطبيق تعاليم الدّينِ باجتنابِ النَّواهي وإتْيانِ الأوامِر لـما مكّن فيه مِن استعدادٍ لِذلِكَ، قال الله تعالى: "واللهُ أخرجكُم مِن بطونِ أمهاتكم لا تعلمونَ شيئا وجعلَ لكم السّمعَ والابصارَ والافئدة لعلّكم تشكرونَ" [سورة النحل: 78] وما قدّم له من الوسائل العلميّة التي بها يَصِل إلى المعرفة والإدراك والتّطبيقِ، وهي القوّة التي يستطاع بها امتثال أمر الله.

فهؤلاء الذين يوفونَ بعهْدِ الله تعالى سواء بِالقول الأوّل أو الثّاني ليس فيه للإنسان إلّا أداء حقّ وواجِبٍ عليهِ، ولا يظنّنّ الإنسانُ أنّ هذا عمل بلا مقابِلٍ، فالله تعالى سيجازِي العامِلين الجزاء الكامِلَ، والله تعالى بدايةً قدْ أنْعَمَ علينا، فنحن نرُدّ شيئا قليلا مِن هذا الفَضلِ الذي هو دَينٌ عيلنا، فلا بدّ لنا أن نُؤدِّيه، فقد أنعم علينا دون أن نطلُبَ منهُ شيئا، قال الله تعالى: " وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ" [سورة النحل: 18] ولا بدّ أن نضع هذه النِّعم موضِعَها ونشكر الـمانحَ لِـما أعطى بتوظيفِها في مكانِها، فلم تعطَ لنا الأعيُن ولا الآذان ولا الأرجُلُ لنعصِي بها، بل

نستثمِرَ قوّتَنا العقليّة والبدنِيّة في طاعَة الله، ولا نتركها مهمَلَةً جامدةً دون استثمارٍ وإنّما نستغلّها فيما يعود ليس علينا فقط بالمنفعة بل وعلى غيرِنا أيْضا فلا نكون أنانِيّين، فالإنسان ما خلق لنفسه بل لمنفعةِ غيرِه، قال الشّاعِرُ: [البسيط]

النّاس للنّاس مِنْ بَدوٍ ... بعضٌ لبعضٍ وإن لـم يشْعُروا

النّاس كلّهم بعضهم لبعضٍ، سواء سكّان البادِية أو سكّان الحضرِ يخدمون بعضهم دون أن يشعروا، فرغيف الخبزِ الذي نتناوله قد مرّ على أيادٍ عِدّة من القمحِ الذي يبذره الفلّاح إلى الخبّاز الذي يعجنهُ ويهيِّئه للاستِهلاكِ، وكذلك الملاءة التي يلبسها الإنسان وشربة الماء التي يلعقها. لا يمكِن لإنسانٍ أن يعيشَ لنفسِهِ، بل الجميع يخدم الجميعَ.

إنّ الجزاءَ الذي يُعطى للموفّين بالعهودِ هو نتيجة شكرِهم لنعمةِ الله عليهم، وقد وردَ أنّ عبدا يأتي يوم القيامة فيقول الله تعالى للملائكة: ((أدخلوا فلانا الجنّةَ برحمتي، فيقول: يا رَبِّ بلْ بعملي (عبَدَ الله تعالى خمسمئة سنة) فيقول الله تعالى للملائكة: حاسبوه على ما قدّمت له مِن نعم، فوجدوا عبادتهُ تقتصِرُ على نعمةٍ واحِدة هي نعمة البَصَرِ، فيقول الله تعالى: إنّه مدينٌ لنا بالنّعمِ الأخرى، أدخلوه جهنّمَ فيعترِف فيقول: يا رَبِّ بل بفضلِكَ))[15].

فإذا كان الإنسان يطيعُ ربَّهُ بإتيان الأوامِرِ واجتنابِ المنهِيّات فإنّه ينتظِرُ جزاءً يومَ القيامةِ مقابِلَ ما منع عن نفسه، وما حملها عليها مِنَ المَكارِهِ، فالتّعَبُ الذي ناله في الدّنيا يقابله راحة في الجنّةِ، قال الله تعالى: " لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ" [سورة فاطِر: 35] فليسَ فيها تَعَبٌ بدنِيّ ولا قلقٌ نفسانِيّ، فقد يكون الإنسان في الدّنيا مرتاحَ البدَنِ لا يشكو عِلّة ولا جوعا، لكنّ

[14] البيت للمعرِّي في اللزوميات، 2/ 283، بلفظِ:

النّاس بِالناس من حضْرٍ وبادِيَةٍ ... بعضٌ لبعضٍ وإن لم يشعروا خدَمُ

[15] ينظر: المستدرك على الصحيحين، الحاكم، حديث (7637).

الـمشاكِلَ لا تنقصه تتعبُ عقلَه ونفسهُ، أمّا في الجنة فالرّاحة كاملة راحة بدنِيّة وراحة نفسِيّة، وفوق ذلِكَ شعور الإنسانِ بِرضوان الله تعالى، وهذا جزاء التّعب في الدّنيا فالإنسان لا يعملُ دونَ مقابِلٍ.

فالذين يوفون بعهودهم وتكون كلمتهم التي يقفون عليها، فلا يجاوِزونَ حدودَ ما أبرموا عليهِ في أيِّ عملٍ " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ" [سورة الـمائدة: 01] فهذا النّداء مِن ربِّ العالـمين يدخلُ ضمنه جميع الـمعاملاتِ بين بني آدَم، سواء معاملة ماليّة أو اتّفاقاتٌ أخرى، وعلى رأسِها عقد الزّواج الذي سمّاهُ الله ميثاقا، قال الله تعالى: " وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا" [سورة النساء: 21] يقتضي استحلالَ فرجِ الـمرأةِ وانتِقال نفقتها مِنْ عاتِقِ الأبِ إلى عاتِقِ الزّوجِ. ومنها أيضا عقد الشّركة التي تقتضي أن يكونَ هناك نظام لكلّ الـمعاملاتِ التي تسري بين الشّركاء أصحاب الـمالِ في قِسمةِ الرِّبحِ، وفي محاسبةِ أصْحابِ الكدِّ والعملِ واستلامهم لأجورِهِم، فالذي يوفِّي يوفِّي الله تعالى له، ومَن يخُنْ يلقَ جزاءَ خيانتِهِ، فالوَيلُ لـمَنْ يجِدُ لنفسهِ نوع قوّةٍ وسيطرةٍ على مَن هُم معهُ شركاء كانوا أو عمّالا، فإنّهُ لن ينجو في حسابِهِ بينَهُ وبينَ الله تعالى، فليعلَم كلُّ صاحِب قوّةٍ أن قوّة الله تعالى تعلو عليهِ، فمَن لا يقيمُ لِلعهدِ قيمتَهُ الحقيقِيّة فليس بناجٍ بينه وبين الله تعالى، فلا يتساهَلُ في الحِساب، ولا يختلِق الأعذارَ لنفسِهِ، ولا يفتحُ الأبوابَ التي لم يتّفَقْ فيها في أوّلِ الأمْرِ، بل يكون كما قيلَ: على ما "تَتْربط السّروج وعلى ما تَتْحلّ"، فكلّ ذلك يفتح عليهِ أبوابَ الحرامِ التي تعود عليهِ وعلى أهلهِ وَبَالا قال ﷺ: ((فأيّـما لحمٍ نبت مِن سحتٍ فالنّار أوْلى بِهِ))[16].

فأيّما عقْدٍ عُقِد بين الـمسلمِينَ يجبُ أن يسير على نمطِهِ، وفي عهدنا نرى أنّ الحفاظَ على العهدِ نوعٌ مِن الإسْلامِ بِلا مسلمين، فتجِدُ شِركة عقدت بينَ عدد كبيرٍ بين النّاسِ، قد لا يعرِفُ بعضهم بعضا، فتحدّد الأنظِمة ويعرِفُ كلّ طرَفٍ واجبَه، وتكون الشّراكة عن طريق الـمراسلة، وتبعثُ الفوائد عن طريق المراسلةِ (شيكات بنكيَّة) بغضِّ النّظر عن جوازِ ذلك أو حرِمَتِهِ، لكن نجِدُ أنّ

[16] ينظر: سنن الترمذي، حديث (614).

الوفاءَ بالتّعهّد وسيرَ النِّظامِ بكلِّ أريحيّةٍ فينالُ الأطرافُ ربحهم دون زيادة أو نُقصان. الـمسلمون الذين يقولون لا إله إلّا الله أحقّ بهذا من الكفّارِ، فكم مِن مشاكِلٍ وكم من خصوماتٍ، وكم مِن أحقادٍ تتربّى في القلوبِ، خافيةٍ وظاهِرةٍ، بسببِ الظّلمِ في الـمعاملاتِ بين النّاسِ.

-الـمولِد النّبوِيّ الشّرِيف: تفسيرُ قولِ اللهِ تعالى: "لقد مَنّ الله على المومنينَ إذْ بعثَ فيهم رسولا مِن أنفسِهِم يتلوا عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتابَ والحِكمةَ وإن كانوا مِن قبلُ لفي ضلالٍ مبينٍ" [سورة آل عمران: 164].

نحمد الله تعالى حمدا كثيرا على نعمه الكثيرة، والنعمة العظمى هي نعمة التّوفيقِ، فمَن أقبلَ على الـمسجِد وقعَدَ لعلّهُ يتذكّرُ ويستفِيد فقد وفّقه الله تعالى، قال سبحانهُ: "فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّمَآءِ" [سورة الأنعام: 125] فمَن تكونُ الهداية بينَ يدَيْهِ ثمّ تراهُ ضيِّقَ الصّدرِ، فهذا قدْ منَعَ الله عنهُ الهِداية، ومَن نالَ الهِداية فليشكر الله تعالى على نعمِه الكثيرةِ.

في هذا اليوم قد انتظرنا سنة كاملة من أجلِ هذه الـمناسبَة، فمَن تركَ تجارتَهُ وعملهُ ثمّ أقبلَ إلى الـمسجِدِ فهذا توفيق منه تعالى، وسيرجِع بأجرٍ وافِرٍ عندهُ تعالى، ويبارِكُ له في رزقِهِ وأهلِهِ[17]، وكلّ ما يقومُ به الإنسان في حقّ النّبِيّ ﷺ قليلٌ، فهو نعمة مِن الله وفضلٌ، قال الله تعالى: "لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ " أرسله الله تعالى لهدايتنا وإرشادنا وليرينا طريق الجنّة، قال تعالى: "وَاللهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ" [سورة يونس: 25] ولا سعادةَ في الدّنيا أو في الآخِرة إلّا باتِّباعِ سبيلِ الله وتنظيم الله، قال تعالى: "مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ"[سورة النحل: 97].

[17] يقصِد الشّيخُ بالخصوصِ الوفود التي تقبِلُ على مدينة غرداية في مثل هذه المناسبات السّنوِيّة مِن أجل التزاوُرِ وأداء حقوق الأهلِ، وتفقّد الأحوالِ، واغتنام الـمناسبة بِعمارة الـمسجِدِ ومشاركةِ فرحة الـمولِدِ مع الـمسلمين عامّةً.

وهذا الطّريق قد أدركهُ غيرُ الـمسلمين؛ ففي أمريكا يطالِبُ مجموعة مِن الأمريكِيّين بتحريم العلاقات الزّوجِيّة قبل الزّواجِ، كما يدعونَ إلى تحريم التّدخين لتكون أمريكا دونَ تدخين. ولأنّ المؤمنِينَ كانوا كذلِك في ضلالٍ مبين فقد وصف الله إرسالَ نبيِّهِ بالـمِنّة والنّعمة الكبيرةِ، قال تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ [سورة الأنبياء: 107] والعالَمون هم ما سوى الله، فهو نعمة للنّباتات والطّيور وللإنسانِ خاصّة. ولتحقيقِ هذه الرّحمةِ فقدْ بدأ النّبِيّ ﷺ بتقوِية الإيمان في قلوبِ الـمؤمنينَ فيشهدوا الشّهادتَيْن وسائرَ مسائل التّوحيد (الإيمان بالأنبياء، والملائكة، والكتب، والموت، والبعث، والجنّة والنّار) وقد بيَّن طريقَ الجنّةِ بإتيانِ الفرائِض وأداء الحقوق، وحذّرنا مِن طريق النّارِ بانتهاكِ الحقوقِ وظلمِ النّاسِ، واتّباع سبيل الشّيطانِ.

فالرّسول ﷺ رحمةٌ للعالَمين، ونحن نحتفِلُ بذكرى مولِدِه كلَّ سنةٍ؛ لأنّ الله تعالى أرسلهُ إلينا لنكونَ سعداءَ في الدّنيا وفي الآخِرة، في الآخِرة: بأداء الفرائضِ وتركِ المعاصي وأداء الحقوق، في الدّنيا: بحسن الأخلاقِ (الحكمة، العدل، العفّة، الشّجاعة)، وهذهِ هي التي عاشَ بها النّبِيّ ﷺ والله تعالى يقول: لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِّ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ" [سورة الأحزاب:21] فتتّبعه في جميعِ جوانِبِ حياتِهِ؛ لأنّه يفعلُ ما يقولُ، ولا يخالِفُ فعلُهُ قولَهُ. وسعادة الدّنيا أيضا في الجانِبِ العائِلِيّ، فقد بيّن لنا ربّنا ﷻ كيف نعيشُ مع أزواجنا في كلّ جوانِبِ الـمعيشة، في الحالة السّرِيّة قال تعالى: "هُنَّ لباسٌ لكم وانتُم لباسٌ لهُنَّ" [سورة البقرة: 187]. وفي جانب الجوارِ والحقوقِ والـمعاملات بين بعضنا البعضِ، يقول تعالى: " وَاعْبُدُوا اللهَّ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا.." [سورة النساء: 36] لنعيش مع بعضٍ سعداءَ في تعايُشٍ سلمِيّ، لا يضرُّ بعضنا بعضا.

تفسير سورة "يس":

سبقت الإشارةُ إلى أنّ تفسير هذهِ السّورةِ هو الأثَرُ الوحيد الـمدوّن للشّيخِ في التّفسيرِ[18]، وقد تتبّع فيه آيات السّورة بالإيضاح والتّبيين، بعد أن ساق مجموعةً مِن الرّوايات في فضلِها والـمواضع الـمسنونِ تلاوتها فيها كَلَيلةِ دفن الـميّتِ، وانتهجَ في التّفسيرِ تقسيمَ السَّورةِ إلى مقاطِع ولم يجعل للمقاطِع عنوانا جامِعا، وابتدأ بشرحِ الـمفرداتِ ثم بيان المعنى الجملي للمقطَع بذكرِ الـمواضيع الرّئيسِيّة ثمَّ تفصيل كلِّ آيَةٍ مفردةٍ باختِصارٍ وقصدٍ للهدَفِ دونَ إطالةٍ. ولتقديم صورةٍ أوضَح عن هذا التّفسير نقدّم نماذِجَ منهُ:

- تفسيرِ قولهِ تعالى: " وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ... وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ" [سورة يس: 41-50].

معاني الألفاظ (ألفاظ مختارة): **لا صريخَ**: فعيل بمعنى مفعول أي مصروخ به، أي لا مغيثَ لهم. **لا يستطيعون توصِيةً**: أي تأتيهم فجأة فلا فرصَة لهم للتّدارُكِ بالوصِيّة. **ضلال مبين**: انحراف عن طريق الصّواب واضِحٌ. **ما ينظرون**: ما يتوقعون وينتظرون حصوله[19].

إنَّ بيانَ معاني ألفاظ الـمقطعِ مِن أهمّ مراحلِ التّفسيرِ، فما يأتي بعدها يقومُ عليها، ولا يختلِفُ الـمفسّرون في حضور هذه الـمرحلة إلّا شكلا؛ مِن حيثُ موضع الورودِ وحجم الاشتغالِ بها. وما نلاحظهُ عند الشّيخِ عدمَ التّقيّد بـالـمفردة معزولة، بل لا بدّ مِن ذكرِها مع سياقِها حتّى

[18] وقفت في مكتبة الشّيخ على مطبوعٍ مرقونٍ فيه 14 صفحة قيد على ظهره: من تفسير الشّيخ بلحاج. فيه مقدمة حول معنى التفسير وبعض المصطلحات، ثمّ بداية تفسير للربع الأوّل من الحزب 51. لم يكن من نفس طبيعة دروسه الـمسجدِيّة، ويبدو أنه محاولة تأليف مختصر في التفسير موجّه لطلبة الـمدارِس الحرّة، كتب فيه: "وبعد فهذا تفسير لبعض أحزاب من القرآن من مختلف مقاصده لتكون كنموذج للطلبة في كيفية تفسير القرآن وإدراك معانيهِ". ص1. ومن حيث منهجه فهو يتضمّن شرحا مقتضبا للمفردات ثمّ بيانا مختصرا جدّا لمعاني المقطع المقصودِ، فهو يشبه ما يتعلَّقُ بتفسير سورة "يس" لكِن بأقلّ تفصيلٍ، فقد قسّم المقاطع على أرباع الأحزابِ ولا يتجاوز في تفسيرها الصّفحتين على أقصى تقديرٍ.

[19] بيّنات من الهدى والفرقان سورة "يس "، بلحاج بن عدّون قشّار، ص14.

يستطيعَ ضبطَ معناها مِن خلالِهِ، فقد يكونُ معنى الـمفردة جليّا لكِن يضيع في السِّياقِ فيشرحُ في هذه الـمرحلَةِ، ثمّ لا يستعمل فقط الـمعنى الـمعجمِي بل يستعين أيْضا بِالـمحدّدات الدّلاليّة الأخرى كوزْنِ الكلمةِ وموضعها الإعرابِي.

- تفسير قوله تعالى: " وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ" [سورة يس: 51]

يقول الشّيخُ: "ينفخ في الصّور فيرجع كلّ روحٍ في جسده، وتنشقُّ القبورُ عنهم فيخرجون، ذلك حسب قوله تعالى: "يوم تشقّقُ الارضُ عنهم سِراعا ذلِكَ حشرٌ علينا يسير" [سورة ق: 44]...وغيرها من الآياتِ التي تفيدُ أنّ النّاسَ بعد خروجهم من قبورهم ينطلقون وهم مسرعونَ، إلّا أنّ هناكَ آياتٍ أخرى تفيد اختلاف النّاسِ في ذلكَ، فحشْرُ الـمسلمينَ يخالِف في صورتِهِ حشرَ الكفّارِ حسَبَ قولِهِ تعالَى: "يومَ نحشُرُ المتّقينَ إلى الرّحمن وَفدا ونسوقُ المجرمينَ إلى جهنّمَ وِردا" [سورة مريم: 85-86]... فقوله: "إلى ربِّهم ينسِلونَ" أي يسرعون يدلّ على حشرِ الكفّارِ بدليلِ ما ذكر عنهم مِن قولِهِم: "قالوا يا ويلنا مَن بعثنا مِن مرقدِنا هذا ما وَعَد الرّحمنُ وصدَقَ المرسلونَ" [سورة يس: 52] أي: يا هلاكنا، أحَضَر؟ ذلِكَ ما ينطِقُ بهِ كلّ مَن انطلَقَ في الدّنيا منصرِفا إلى شهواتِهِ مكذّبا بكلّ ما يدلّ على البعث والحِسابِ"[20].

يظهَرُ مِن النّصّ أنّ الشَّيخ قدْ وَقَفَ على معنى "ينسلون" ليجده في آيَةٍ أخرى معبّرا عنهُ بـ"سِراعا"، فاستعمل الـمصدَرَ الأوّل للتّفسير وهو القرآن نفسُهُ، فالقرآن يفسِّرُ بعضه بعضا، فما أجمِل في موضِعٍ فُصّل في غيرِهِ، وما أبهِم منهُ أيضا حدِّد في موضعٍ آخَر، لكنّ الشّيخَ يَقِفُ على آياتٍ أخرى تظهِرُ وصفا آخرَ لإخراجِ الأمواتِ يوم البعثِ (سورة مريم: 85) فاحتاجَ إلى تحديدِ صنفٍ معيَّنٍ مقصودٍ في آية سورة "يس" كي لا يكون بين الآيات تضادّ، فالذين يبعثون "مسرعين" هم الكفّار لـما يشيرُ إليهِ السِّياق السّابِق واللّاحِق للآيَة، فضمير جمع الغائب "هم، ربّهم" يعود إلى

[20] نفسه، ص19.

أصحاب القرية الذين كذّبوا الـمرسلين، ذكرهم في بداية السّورة وواصَل الحديث عن أعمالهم وما أغدق الله عليهم مِن النِّعَمِ، وكفرِهم بالآيات الدّالة على وجود اللهِ تعالى وإصرارهم على ذلكَ، فصوّرَ حالتهم يومَ الحِسابِ ليقارِنها بما كانوا عليهِ في الدّنيا.

وما نضيفهُ هنا أيضا استغلالُ الشَّيخ الـمقطع لبعثِ الومضات الإصلاحِيّة وتوجيه قلوبِ النّاس وأذهانهم دون تعقيدٍ في التّعريفاتِ والحدودِ، فمردّ هذه الآيات أنّها نِداءٌ للقلوبِ التي تعقِلُ المعاني وتتحسّسُ الـمشاعِرَ، لتبتعِدَ عن طريقِ الغِوايَة والضّلالِ وتقرَبَ مِن طريقِ الهدايَةِ والرّشادِ، فالكافِر في سلوكِه وتفكيرِه على النّقيضِ تماما للمؤمِن بالله الـممتلِئِ بحبّه وخشيتِهِ، وكذلِكَ سيكونُ جزاؤهما على طرفَيْ نقيضٍ لا يلتقِيانِ، فمن هو الكافِر الذي يستحِقُّ عقاب الله تعالى؟ يجيب الشّيخ: "مَن انطلَقَ في الدّنيا منصرِفا إلى شهواتِهِ مكذّبا بكلّ ما يدلّ على البعث والحِسابِ".

-تفسير قوله تعالى: "والشّمسُ تجري لمستقرٍّ لها ذلِكَ تقديرُ العزيزِ العليمِ" [سورة يس: 38]

قال الشَّيخ: "فيه بيانٌ لنظام الله في الكونِ الذي عليه الاعتمادُ[21] في جميع حركاتِهِ من ريح وسحاب وماءٍ ونـموّ ونباتٍ وحيوان وإضاءةٍ، فهي سائرةٌ ومؤثِّرةٌ في كلِّ حركات الكونِ إلى أن تنتهي وظيفتها عند انتهاءِ الحياة في الكونِ عند قيام السّاعةِ، أو كما وردَ في الحدِيثِ أنّها تسجُدُ تحت عرش الرّحمن وتستأذن الله في الطّلوعِ، فإذا أراد الله تعالى نهاية الدّنيا طلعت مِن مغربِها، لكن هذا لا يتطابَقُ مع الواقع؛ فالشّمسُ تغيبُ عن جزءٍ مِن الأرضِ لتطلع في جزءٍ آخَرَ في دورانٍ مستمِرٍّ للأرضِ حول الشّمسِ فلا وقتَ لها، وربّما أنّ ذلِكَ كناية عن خضوعِها في سيرِها لعنايةِ الله وحكمتِهِ"[22].

نقفُ في هذا النّصّ على الـمصدرِ الثّاني الذي يعتمدهُ المفسّرون لبيان معاني القرآنِ وهو حديث النّبيّ ﷺ، والحديث المقصودُ ذكره البخارِي بقولِهِ: ((قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَبِي ذَرٍّ حِينَ غَرَبَت الشَّمْسُ:

[21] في العبارة خلَلٌ والمقصودُ هو الشّمسُ.

[22] بيّنات من الهدى والفرقان سورة "يس "، بلحاج بن عدّون قشّار، ص13 .

أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَب؟ قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ الْعَرْشِ فَتَسْتَأْذِنَ فَيُؤْذَنُ لَهَا، وَيُوشِكُ أَنْ تَسْجُدَ فَلَا يُقْبَلَ مِنْهَا، وَتَسْتَأْذِنَ فَلَا يُؤْذَنَ لَهَا، يُقَالُ لَهَا: ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ فَتَطْلُعُ مِنْ مَغْرِبِهَا فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: "والشّمسُ تجري لمستقرٍّ لها ذلِكَ تقديرُ العزيزِ العليمِ"))[23]. وقد أوردَ هذا الحديثَ غيرهُ من الـمفسّرين حين وقوفهم على الآيَة[24]، وما أراده الشّيْخُ من الحديثِ إظهارَ معنى "لـمستقرٍّ لها" فالآيَةُ لـم تفصِّلْ فيهِ بل أجملته، في أنّ الله هو الـمتحكِّمُ في مسارِها والضّابِطُ لنِظامِها، والحدِيثُ يقول إنّها تكون تحت عرشِ الرّحمنِ ليصرِفها وقت ما شاء، وقولُ الشّيخِ "لا يتطابق مع الواقِعِ" و"فلا وَقت لها" حجّةٌ عقلِيّةٌ وظّفها في نصٍّ يتجاوزُ العقلَ[25]؛ لأنّ موضوعَهُ ليسَ مِـمّا تصلُهُ أعيننا وتدركُهُ عقولنا، بل هو ممّا أخفاهُ الله، فحدّنا أن نرى الشّمسَ تغرُبُ عندنا ولكنّها لا تزالُ طالِعةً في بلدانٍ أخرى في دورانٍ لمْ يتوقّفْ، ولكِن كيفَ نتصوّرُ أن يأتِي يومٌ تتوقّفُ فيه عن الدّورانِ؟ ذلِكَ حينَ يأتيها الأمرُ مِن مالِكها فتتوقّفُ في مستقرِّها بتقديرِهِ تعالى. وفي قولِ الشَّيخِ: "كناية عن خضوعها وسيرِها" توجيهٌ لِلحدِيثِ ليقومَ مقام التّفسيرِ فيعود بهِ إلى المعنى المجمَل في الآيةَ.

-تفسير قوله تعالى: " أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ " [سورة يس: 77].

قال الشّيخ: "ورَد في سبب نزول الآيَةِ: ((أنّ أُبَيّ بنَ خلف أو العاص بن وائل أَخَذَ عظما مِن بطحاء مكّةَ، فصار يفتّتهُ بيدِهِ ويقول لرسول الله ﷺ: أتزعم أنّ الله يحيِي هذا العظمَ؟ فقالَ: نعم يحيِيكَ الله ويدخِلكَ جهنّم))[26]، فنزلَت ردّا على كلِّ مَن أنكرَ البعثَ"[27] يستعمِلُ الشَّيخُ في هذا النَّصّ

---

[23] صحيح البخاري، حديث (3199).

[24] ينظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، 6/ 576.

[25] يقِف الإباضِيّة وغيرهم مِن الفِرق الإسلامِيّة في تقرير المسائل العقدية على النصوص القطعية الثّبوت، ولا يبنونها على الظّنّيّة الثّبوت، كهذا الحديث فهو من الآحاد الذي لا يثبتُ بهِ اليقينُ.

[26] ينظر: جامع البيان، الطبري، 11/ 87.

أصلا مِن أصولِ التّفسير وهو أسبابُ النّزولِ، ولا يختلِفُ الـمفسّرون في توظِيفِ هذا الأصلِ للوقوفِ على معاني الآياتِ؛ فهم يرونَ له الأحقِّيَّة في التّقديمِ لأنّ القرآن قد نزلَ نجومًا، جزءٌ مِنهُ نزَلَ ابتداءً دون سببٍ مباشِرٍ، وجزءٌ منه نزلَ حسبَ الحوادِثِ والوقائعِ أو مجيبا على تساؤلٍ أو شبهةٍ قدِّمت للنّبيّ ﷺ. وللنّصّ القرآنِيّ قدرةٌ هائلةٌ في تجاوُزِ تحديداتِ الزّمانِ والـمكانِ، فهو لا يرى حوادِثِ بني آدمَ إلّا بمِنظارٍ واحدٍ يجعلها تمرُّ عليهِ ثمّ يستخرِجُ القيمةَ الـمطلَقَة التي لا تتأثّرُ باختلافِ الزّمان ولا الـمكان ولا الفاعلين، وهي الـمطلوبةُ مِن سَوقِ أيِّ حادِثةٍ وقعَتْ في زمَنِ النّزولِ، فقصصُ السّابِقين لا تُعتبَرُ مِن أسبابِ النّزولِ لأنّها ليستْ مباشِرةً في ذلِكَ. وفي النّصّ نرى الشّيخَ يفعّل قاعدَةَ "العبرَةُ بعمومِ اللّفظِ لا بخصوصِ السّببِ"[28]، بقوله: "فنزلت ردّا على كلِّ مَن أنكرَ البعثَ".

- تفسير قوله تعالى: " يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ" [سورة يس: 1-2]

قال الشّيخُ: "حروف تقرأ مقطّعةً يا سين، بالـمدِّ في كليهما وإدغام النّونِ في الواوِ بعدها، وفي معناها خلافٌ، فقيلَ: هي حروف تنبيهٍ حتّى لا يفوتَ السّامعَ شيْءٌ مِن أوّل الكلامِ ولا آخِرِهِ، وقيل هِي إشارةٌ إلى ما أَلِّف به القرآنُ مِن مادّة يمكِنُ استعمالها لكلِّ كاتِبٍ أو متكلِّمٍ، ومع ذلِكَ لم يستطيعوا الإتيانَ بمثلِهِ وقد تحدّاهم، فذلِكَ إشارَةٌ إلى إعجازِ القرآنِ. وقيل: هو اسم رسولِ الله ﷺ، فهو منادى بحذفِ حرفِ النِّداءِ. بعد هذه الحروف أو النِّداء قالَ تعالى: ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ حلف لتأكيدِ الكلامِ بالقرآنِ وهو كلام الله تعالى الـمنزّلُ على رسولِ الله ﷺ الـمنقولُ عنهُ تواترا، وفي حلفِهِ به إشارَةٌ إلى أنّه هو الذي به ثبتَتْ رسالة سيّدنا محمّد ﷺ وهو الـمعجِزة الكبرى، حيثُ جاء بِهِ وهو أمّيّ فلا يتِمُّ بنقلٍ مِن غيرِهِ، ثمّ أعجزهم عن الإتيانِ بـمثلِهِ"[29].

---

[27] بيّنات من الهدى والفرقان سورة "يس "، بلحاج بن عدّون قشّار، ص25.

[28] مختصر في قواعِد التّفسير، ص13.

[29] بيّنات من الهدى والفرقان سورة "يس "، بلحاج بن عدّون قشّار، ص04.

يصنِّف معظم الـمفسِّرينَ الحروف الـمقطّعة في أوائلِ بعض السّوَرِ ضمن مبهمات القرآن التي استأثر الله بمعناها، لكن لم يمنَع ذلِكَ مِن اجتهادِ البعضِ منهم في تحديد ذلِكَ الـمعنى فاختلفوا في ذلِكَ، وربطَ بعضُهم ذلِكَ بإعجازِ القرآنِ كما نجِدُ ذلِكَ عند الشّيخ قشّار، فهوَ يؤكِّد اتّصالَ هذه الحروفِ بما بعدها لنفسِ الـمعنى وهو عجزُ العربِ عن الإتيانِ بمثل القرآنِ رغمَ أنّه منظوم بنفسِ الحروف التي يعرفونها وبِها ينظمونَ كلامهم، والقرآنُ قد تحدّاهم أن يأتوا بمثلِه ولو بجزءٍ منهُ. وسمّى الشّيخُ القرآنَ بـ "الـمعجِزة الكبرى" ليجعلَ ما يـمكِن أن يدخل ضِمنَ معجزاتهِ مِن الخروقات الـمادِيّة الـمروِيّة في سيرتِهِ تحتَ ظلِّه، فالقرآنُ يفوقُ غيرَهُ في إظهارِ صحّة نبوّته وتلقِّيه عن ربِّه تعالى، فإنّما "يؤيِّدُ اللهُ رسلَهُ بِـمعجزاتٍ تثبتها"[30]، والقرآنُ لا يحتاجُ إلى إثباتٍ فدليلهُ بداخلِهِ وهو يدافع عن نفسِهِ ويقدّم الحججَ والبراهينَ على مخالفتِهِ لأيِّ كلامٍ لأنّهُ مِن عند ربِّ العالَمِين، وما يدرَجُ تحتَ مسمّى الـمعجزاتِ تحتاجُ إلى إثباتٍ بالسّندِ كنبع الماءِ وسقوطِ شرفاتِ إيوانِ كسرى، سواءٌ ما حدَث قبل البعثةِ وما كانَ بعدها، فلا يمكِنُ أن تقع في نفسِ الـمرتبةِ مع القرآنِ الذي يتجاوزُ حدودَ الزّمان والـمكانِ، وهو الوحِيدُ الذي يمكِنُ أنْ يقومَ مقامَ الرّسولِ في عهدٍ انقطعَ فيه خبرُ السّماءِ وأغلِقت قائمةُ الرّسل والأنبِياءِ.

التفسير في الكتب التعليمية للشيخ بلحاج:

أوْمأنا إلى أنّ التّفسير كانت له غايةٌ تعليمِيّة وإصلاحِيّة، ومختلف الـمؤلّفات التي خلّفها الشَّيخ لها علاقةٌ وطيدةٌ ببيانِ معاني القرآنِ، فكلّها كانت تمتح من هذا الـمعينِ وتجعلهُ أصلا مِن الأصولِ الـمعتمدةِ، وسنظهِرُ أوجُها مِن الـمعاني التي وضّحها الشّيخ في هذه الـمؤلّفات كلٌّ حسب اختِصاصِهِ.

[30] نفس المرجع، ص08.

أـ التفسير والحديث (السُنن):

السّنّة لغة هي الطّريقة الـمتّبعة ومنه قول الله تعالى: "سُنّة مَن قدر أرسلنا قبلكَ مِن رسلِنا ولا تجِدُ لسنّتِنا تحويلا" [سورة الإسراء: 77] واصطلاحا يتغيّرُ مفهومها بين المحدّثين والأصوليِّين والفقهاء، وإذا أطلقت في مجال الدّراسات الشّرعِيّة عموما أريد بها "الطّريقة الـمشروعة الـمتّبعة في الدّين، والمنهج النّبويّ الـحَنيف"[31]. وبالتّفصيل فإنّ منها القول والفعل والتّقرير وأحوال النّبِيّ مـمّا يرويه الرّواة (الصّفات...)، ومن حيثُ الأحكامُ الشّرعِيّة فمنها الـمؤكّد الواجِب، ومنها الـمندوب المدعوُّ إليهِ، ومنها الـمباحُ، ومصدَرُ السّنة هِي أقوال النّبيّ ﷺ الـمرفوعة وأقوال الصّحابة والتّابعين وأفعالهم الـموقوفة عليهم[32].

واتّصال السّنة بالقرآن وثيقٌ جدّا، وقد عدّت مِن أهمّ الـمصادر في التّفسير والإبانة عن مراد الله تعالى، وذلكَ مصداقُ تحديدِ الله مهمّة الرّسولِ بـ "البلاغ المبين" في أكثرَ مِن مَوْضِعٍ مِن القرآنِ الكريمِ[33]. ويؤكّدُ الشّيخُ قشّار هذا المفهوم في قولِهِ: "لم يترك النّبيّ ﷺ حاجةً مِن حاجاتِ النّاسِ في الدنيا أو الآخرة إلّا وأرسى قاعدتها، أو بيّنها تفصيلا ممّا أوحِيَ إليهِ في الكتابِ الكريمِ، وممّا وضّحهُ في السّنّة الـمطهّرة قولا أو فعلا أو تقريرا والتي هي أيْضا مِن وَحْيِ السّماءِ قال الله تعالى: "وما ينطِقُ عن الهوى إن هُو إلّا وحْيٌ يُوحى" [سورة النجم: 3-4]"[34].

ونجِدُ في كتاب الشّيخ الذي عنونهُ بِـ"عوائد ميزاب سنن لا تقاليد" توجيها لمجموعةٍ مِن الشّعائر الدّينِيّة الـمتّبعة في مساجِدِ وادي مزاب وغيرِها، فربّما قد ألّف كتابَه ردّا على مَن ينفِي مِثل

[31] سنن العمران البشري في السّيرة النّبوِيّة، ص92، د. عزيز البطيوي. وعن السنة النبوية وبيان مدلولها الشّرعِيّ والتعريف بحال سنن الدّارقطني، ص9، 10.

[32] ينظر لأكثر تفصيل: تعريف السنة بين المحدثين والأصوليين والفقهاء، د. أيمن محمود مهدي، https://www.alukah.net/sharia/0/113657/#_ftnref4

[33] سورة النحل: 82، وسورة النور: 54، وغير ذلكَ.

[34] النور والظلام من وسائل الإعلام، ص57.

هذه الشّعائرِ ويرى أنّها مخالِفةٌ لأصلِ الدِّينِ وهي من البِدَع التي ينبغي محارَبتُها، فقدْ جمعَ الشَّيخُ في تأليفِهِ بينَ السّنّة والآية القرآنِيّة؛ ليظهِرَ شِدّةَ التّماسُكِ بينهما بما يدلّ على مصدرِهما الـمُشتَرَكِ. ونمثِّلُ لذلِكَ بشعيرتين تجمعان في إطار الذّكرِ الذي أمر الله به عبادَهُ:

التلاوة الجماعية للقرآن:

يعدّ الشّيخُ هذه الشّعيرةَ سنّةً دعا إليها النّبيّ ﷺ يتأوّلُ بذلِكَ قولهُ تعالى: "إنّ الذين يتلونَ كتاب الله وأقاموا الصّلاةَ وأنفقوا مِمّا رزقناهم سِرّا وعلانِيّة يرجون تجارةً لن تبورَ" [سورة فاطِر: 29] ويعضُدُ هذا بالحديث: ((مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ الله، يَتْلُونَ كِتَابَ الله، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمِ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ))[35]. ويقولُ الشَّيخُ: "فقراءة القرآن جماعة ممّا يشيرُ إليها الحديث، وإن كان غير صريحٍ، واعتبرهُ كثيرٌ مِن العلماءِ من البِدعِ الحسنةِ"[36]، ولكن لا يبدو ذلِك كذلِك، فإنّ الآية صريحةٌ في بيانِ فضلِ التّلاوةِ الجماعِيّة؛ لأنّ الآيةَ استعملتْ ضميرَ الجَمعِ، كما عطفتْها على إقامَةِ الصّلاةِ التي تكونُ جماعةً، وعلى إيتاء الزّكاة التي تكون بعد حولِ الحوْلِ، ويشترِكُ فيها الـمسلمون جميعهم، فلِمَ لا تكونُ التّلاوَةُ جماعةً كغيرِها مِن العباداتِ؟ كما أنّ السّنة تؤكّد ذلكَ، ولفظ الحديث صريحٌ بقوله: "ما اجتمع" فلا يعقلُ أن يجتمعوا ويتفرّقوا في أداءِ العبادةِ نفسِها.

مجالِس الذكر (الوعظ والإرشاد):

وعلى نفسِ نسَقِ شدّ حبل الاتّصالِ بين العبدِ وربِّه يربِطُ الشّيخُ بينَ قول الله تعالى: "إنّ الذين يكتمونَ ما أنْزلْنا من البيِّنات والهدى مِن بعدِ ما بيّنّاهُ للنّاسِ في الكتابِ أولئكَ يلعنهم اللهُ ويلعنهم اللّاعنونَ إلّا الذين تابوا وأصلَحوا وبيّنوا فأولئكَ أتوبُ عليهم وأنا التّوّابُ الرّحيمُ" [البقرة: 159-160] ورواية جابر بن زيدٍ عن النّبيّ ﷺ: ((إِذَا ظَهَرَتِ الْبِدَعُ في أُمَّتِي فَعَلَى الْعَالِـمِ أَنْ يُظْهِرَ

[35] صحيح مسلم حديث (2699).

[36] عوائد ميزاب سنن لا تقاليد، ص33.

عِلْمَهُ، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ لاَ يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلاَ عَدْلٌ))[37]. والـمطابقة بين الوعيد الوارد في النّصّين تؤكّد الرّبطَ بينهما، وبالعودةِ إلى الرّواياتِ نرى أنّ الآيةَ تخصُّ بني إسرائيل وأهل الكتابِ الذي جحدوا معرفتهم بنبوّةِ محمّد ﷺ رغم أنّها مؤكّدةٌ في كتبِهِم، فأصرّوا على ركوبِ رأسِهم على أن يعترفوا به ﷺ نبيّا، فهم لا يتصوّرونَ أن تخرُجَ النّبوّةُ مِن بني إسرائيلَ إلى قومٍ يرونهم أقلّ منهم درجة، بل هم خدمٌ وعبيدٌ لهمْ، فهم أبناءُ الله وأحبّاؤه، كما يروْنَ في النّبوّةِ حظّا وليسَ تكليفا وإقامةً لحجّة الله على العبادِ، وإشْهادا لهم حتّى لا يقولوا بأنّ الله لم يبيّن لهم وأنّ الله لم يرسِل الرُّسُل الذي يقومون بهذه المهمَّة، فهذا الـمفهوم الخاطِئ للنّبوّة قادهم إلى هذا الـموقِفِ الخطيرِ الذي انتَقَلَ إلى الـمسلمينَ ليقعوا في أخطاءِ مَن سبقوهم ويحذو حذوهم.

فالتّشديدُ بذلِكَ الوعيدِ في الآيةِ لإنكار ما هو واقعٌ وحقيقةٌ، وينسحِبُ على كلّ مَن ينكِرُ الحقائقَ ويزوِّرها، ولا يؤكِّدُ هذا الحديثُ الوارِدُ فقط بل إنَّ هناك أحاديثَ أخْرَى تشدّد النّكيرَ على مَن لا يرفعُ صوتهُ بالعلمِ ويرشِدُ النّاسَ إلى الصّوابِ[38]، كما أنّ السّنة الفعلِيّة وما عاناه المصطفى ﷺ وغيره من الأنبِياءِ في سبيل نشر الدّعوةِ تزيدنا يقينا في أحقّيّة مَن لا يقومُ بهذه الـمهمّة بهذا الوعِيدِ.

وعلى هذا التّوضيح تتأكّدُ ضرورةُ المحافظة على السّنّتينِ وأنّهما ليستا مـمّا يتساهلُ فيهما؛ فإنّ في ذلِكَ ثباتا على طريقة النّبيّ ﷺ في تبليغِ دينهِ، وتفعيلاً لآيات الكتاب الكريمِ فلا تبقى مجرّد نصوصٍ لا تلامِسُ الواقِع، ولا تتحوّلُ إلى فعلٍ وحركةٍ. وبهذا الـمَنْهَجِ أيْضا نقفُ على بيّنة تطابق محتوى الوحيَينِ، وضرورة عرضِ النّصوصِ على بعضِها ليظهرَ التّوافقُ ونتيقّنَ مِن مصدرِها.

التفسير والسّيرة النبويّة:

ركِب الشّيخُ مركبَ السِّيرة النّبوِيّة فكانت مِن الـمواد الأساسِيّة التي درّسها للتّلاميذ في مسيرته التّعليمِيّة؛ نظرا إلى صلتها الوثيقةِ بِالقرآن الكريمِ وفعاليتها في تهذيب النّفوسِ وتقويم

---

[37] مسند الربيع، حديث (943).

[38] ينظر: جامع البيان، الطّبري، 2/ 729 وما بعدها.

السّلوكِ وإنتاج الفردِ الصّالِحِ المتشبّع بالقِيم الإسلامِيّة والإنسانِيّة. وقد أثمرَ ذلك الجهد مؤلّفا بسيطا جمع فيه سلسلة دروس تعنى ببيان مراحل الدّعوة المحمّدِيّة وما لاقاه النّبِيّ ﷺ من أحداثٍ وآلامٍ وآمالٍ بينَ مكّة والـمدينةِ الـمنوّرة، عنونَ الـمؤلّفَ بـ: صفوة الاختيار في سيرة المختار ﷺ، ومن عنوانهِ ندرك أنه مختصر الـمختصر، أو ما لا يجوزُ جهلهُ مِن أحداثِ سيرة محمّدﷺ.

وممّا نلاحِظُه في تأليف الكتابِ التّسلسل الـمنهجي والتّاريخي، واستعمال اللّغة السّهلة غير الـمغرِقةِ في تفصيل الأحداث التّاريخِيّة ولا سرد العبر الـمستوحاة مِنها، ولكن مجموعة من الحقائق والـمعلومات التي يشترِكُ في معرفتها والإيمان بها كلّ المسلمين في أصقاع الـمعمورةِ باختلافٍ في تفاصيلها وهذا ما لم يحفَلْ بهِ الكتابُ، أمّا الاتّصال بالقرآن الكريم، وهذا ما نعتبره لونا من التّفسير؛ إذْ يوضّح معنى الآية بالحدثِ التّاريخِيّ الـمرتبِطِ بها، نقدّم عليهِ أمثلةً فيما يأتِي:

-افتتَح الشَّيخُ السّلسِلَةَ بقولِ الحقّ سبحانه: "لقد جاءَكم رسولٌ مِن أنفسِكم عزيزٌ عليهِ ما عنتّم حريصٌ عليكم بالمؤمنين رؤوفٌ رحيم"[سورة التوبة: 128]. فهذه الدّروس شارِحة ومفصّلة لـمجمَل الأوصاف المتعلّقة بالرّسول الـمبعوثِ (فهو من قريشٍ، عارف بما يعيشه قومه من ظلامٍ، ومشفِقٌ على كثير منهم من الوقوع في عذاب الله، وله من صفات الله الرحمة والرّأفة، فهو يأخذُ بأيدي قومه لِـمدّة طويلةٍ، ولـم يحمِل عليهم غيظا ولا حِقدا).

-ذكرَ الشَّيخُ الحدثَ التّاريخِيَّ مقترِنا بالآية التي سجّلته في الذّكر الحكيم، وأمثِلة هذا كثيرة جدّا، منها حادِثَةُ الإسراء والـمعراج، إسلام الجنّ بعد العودة مِن الطّائفِ، موقِف عتبة بن الولِيدِ مِن القرآنِ، حادثة هجرة النّبي ﷺ، وائتمار المشركين على قتلهِ في دار النّدوة... ونأخذ على هذا مثالين:

إجارة المطعم بن عديّ:

ذكر الشَّيخُ[39] أنّ النّبيّ ﷺ بعد عوده من الطّائفِ دخل جوار الـمطعم بن عدِيّ، وهو من أشرافِ مكّة لكنّه بقِي على كفرِهِ، فضايقتْهُ قريشٌ على قبولِهِ إجارة محمّد بن عبد الله، وهو الذي سبّ الآلِهةَ وسفّهَ الأحلامَ، فأخبرَ الـمطعِمُ النّبِيّ ﷺ بذلِكَ، فقال له: سأردّ لك جوارك، وأعلَنَ ذلِكَ في النّاسِ، وقد نزل عليهِ قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ" [سورة الـمائدة: 67]. وبالعودةِ إلى روايات أسباب النّزول لا نجِدُ أنّ الآيةَ نزلت عقِبَ عوده ﷺ مِن الطّائفِ، بلْ إنّ الآيةَ من سورةٍ مدنِيّة، ويمكِن أن نقف على روايتينِ تقوّيان نزول هذه الآية وبالخصوصِ مقطع العصمة في مكّة.

الأولى ذكرها الطّبري وهي: عن ابن جريج، قال: ((كان النبي ﷺ يهاب قريشا، فلما نزلت: "واللهُ يعصِمك مِن النّاسِ" استلقى ثم قال: مَنْ شاءَ فلْيَخْذُلْنِي، مرّتين أو ثلاثا))[40].

والثّانِية: عَنْ جَابِرِ بْنَ عَبْدِ اللهَّ قَالَ: ((كَانَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ إِذَا خَرَجَ بَعَثَ مَعَهُ أَبُو طَالِبٍ مَنْ يَكْلَؤُهُ، حَتَّى نَزَلَتْ: "والله يعصِمُكَ مِن النّاسِ" فَذَهَبَ لِيَبْعَثَ مَعَهُ، فَقَالَ: يَا عَمُّ، إِنَّ اللهَّ قَدْ عَصَمَنِي، لَا حَاجَةَ لِي إِلَى مَنْ تَبْعَثُ))[41]. وكلا الرّوايتين لا تذكرانِ شيئا عن الـمطعم ولا عن العودة من الطّائفِ بعد الذي أصابهُ مِن سفهائها وعبيدها يسبّونه ويصيحون بِهِ، ويبدو هذا مِن اجتهاد المؤلِّف وربطِهِ بين معنى الآيَة والحادثة التّارِيخِيّة، فإن كانت قد نزلت قبل الحادِثة فلمَ يطلبُ النّبِيّ ﷺ الجِوارَ؟، وإن نزلت بعدها فتذكرُ الرّوايةُ سياقا لذكرِ حفظ الله تعالى لنبيّه ﷺ حتّى يبلِّغ دعوتَه ويؤدِّي مهمّته، فقد تألبت العربُ جميعها عليهِ، وقد قادَ في حياته كثيرا من الغزواتِ، كما تألب عليهِ اليهود في الـمدينة، لكنّه مات في فراشهِ مصابا بالحمّى.

[39] صفوة الاختيار، ص25.

[40] جامع البيان، الطبري، 8/ 570.

[41] تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، 3/ 153. وقد علّق ابن كثير على الرّوايةِ بقولِهِ: وَهَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ وَفِيهِ نَكَارَةٌ.

غزوة بدر الصغرى:

ذكر الشّيخُ[42] أنّهُ بعد النّهاية الأليمةِ لِغزوة أحدٍ نادى أبو سفيان زعيم قريشٍ على نشوةِ الانتِصارِ: موعدنا بدرا العام الـمقبِل. وتجهّز النّبيّ ﷺ وأصحابُه لهذا الـمَوْعِدِ، ولـمّا علِمَ أبو سفيان بخروجِ المسلمينَ أرسلَ إليهِم مَنْ يخوّفُهم ويردّهم عن عزمِهِم، وانتظر المسلمونَ ثمانية أيّامٍ في الـموقِفِ لكنّ القومَ لم يقدموا خوفا ورعبا مِن النّبيّ ﷺ وأصحابِهِ، ولاقى الـمسلمون هناك سوقا رائجةً فاستفادوا أرباحا طائلةً فيها، وفي ذلِكَ نزل قوله تعالى: "الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ" [آل عمران: 173]. وإذا رجعنا إلى الـمصادِرِ نجِدُ أنّ الرّوايات تختلف في نزول الآية بين واقعة حمراء الأسَد وواقعة بدر الصّغرى[43]، وكلا الحادِثتينِ وقَعَتا بعد غزوة أحدٍ، حيثُ منِي الـمسلمون بالهزيمةِ، وفي كلا الحادِثتينِ برز المسلمون بقوّة أمامَ الكفّارِ رغم ما منوا بِهِ مِن هزيمةٍ يومَ أحُدٍ، فَلَـم يتوانوا في نصرةِ نبيّهم ﷺ ومجابهة الـمشركين رغم الجراحاتِ التي أصابتهم، حتّى وإن كلّفهم ذلِكَ حياتَهُم وأموالَهُمْ، وهذا ما تبرِزُهُ الآيَة برفعِ معنوِيّات الـمسلمينَ والتّنويه بقوّة قلوبِهِم لتعلّقها باللهِ الذي ينصُرُ مَن ينصُرُهُ.

خاتِمة الدراسة:

في آخِرِ هذه الورقة يمكِن أن نقدِّم مجموعة مِن النّتائجِ التي استخلصناها مِن الاطّلاعِ على تفسير الشّيخ بلحاج:

- قضى الشَّيخ بلحاج حياتَه في تعليم النّاسِ وإصلاحِ أمورِ حياتِهِمْ، يشهدُ على ذلِكَ أفواج التّلاميذ الذين تخرّجوا على يديْهِ، كما كانت لهُ إسهامات في حقلِ التّأليف لنفس الأغراضِ والأهدافِ.

---

[42] صفوة الاختيار، ص41-42.

[43] ينظر: جامع البيان، 6/ 252.

- مثّلَ تفسير الشّيخ بلحاج لونا من ألوان التّعامل مع كتاب الله استجابة للأوضاع الرّاهِنةِ في الجزائرِ في القرنِ العشرينَ بعد محِنةِ الاحتلالِ التي اجتاحت الجزائِر ونخَرت مجتمعه مِن الدّاخِلِ.

- وَجّهَ الشّيخ بلحاج تفسيرهُ إلى عامّة النّاس منهم الـمثقّف ومنهم الإنسان البسيطُ المحدود الثّقافَة فراعى هذه الفوارِق فلمْ يتوسّع في مواضيعهِ، ولم يغرِق في تناول الـمسائلِ، وإنّما اكتفى بما يعالِجُ أحوال النّاسِ في تعاملاتهم اليومِيّة وما يمكِنُ أن يقعوا فيهِ مِن مسائلَ مختلِفة.

- خصّص الشّيخ بلحاج للتّفسير حصّة أسبوعِيّة في برنامج الدّروس الـمسجدِيّة، فاستطاعَ ختمَهُ في أواخِرِ عمرهِ، لكنّ هذا التّفسيرَ لم يعرِف جمعا، وبما أنّه كان يلقيه مشافهة فبقيت مجموعة مِن التّسجيلات التي تقدّمُ نماذِج مِن منهجه في التّفسير والمواضِيع التي كان يتناولها، ولا تزال هذه التّسجيلات مفرّقةً بين مالكين متعدِّدينَ وقد تؤول إلى الزّوالِ إذا لمْ تحدّث حوامِلُها.

- لم يختلف تفسير الشَّيخ بلحاج عن غيره من التّفاسير في طريقة تناول الآياتِ ابتداءً بشرح المفردات ثمّ تقديم المعاني العامّة وتفصيل ما ينبغِي تفصيلُهُ، مراعاةً لِمقاصِده الاجتماعِيّة والإصلاحِيّة.

- تفسير سورة "يس" هو الأثر الوحيد المدوّن للشَّيخ في التّفسيرِ، وقد عرضنا نماذِج منه تظهِرُ منهج الشَّيخ ومشاركتهُ في إثراء قضايا التّفسيرِ التي ناقشها الـمفسّرونَ مِن قبلُ.

- احتوت الكتب التّعليمِيّة الـمختلِفة للشّيخِ على مادّة تفسيرِيّة مهمّة شارَكَ بها في إثراء الـمكتبة ومِن القضايا التي كشفت عنها المصادِر المعتمدة في التّفسير، واتّصال القرآن بالسّنة النّبوِيّة، وإعجاز القرآن ومبهماتُهُ.

لا يزالُ تفسيرُ الشَّيخِ يتطلّبُ جهودا معتبرة للوقوفِ عليهِ على صورتِهِ الأصلِيّةِ، وهذا يدعو إلى تدارُكِ الأخطاء التي تجعلُ تراثا مثل هذا لا يحتفظُ بهِ ويضيعُ بسببِ عدَمِ التّدوينِ، فلا بدّ مِن الاهتِمامِ بهذه القضِيّة وإلّا نالت عوائد الزّمَنِ مِن مِثْلِ هذهِ الجهودِ.

المصادر والمراجع:

1. التفسير والمفسرون، د. محمد السيد حسين، مكتبة وهبة، القاهرة، د س ن.

2. الجَامِعُ الصَّحِيحُ مسند الإمام الربيع بن حبيب، الربيع بن حبيب، تص: نور الدين السالمي، دار الفتح للطباعة والنشر، بيروت، ومكتبة الاستقامة، روي، مسقط- سلطنة عمان، د س ن.

3. اللزوميات، أبو العلاء المعرِّي، دار الكتب العلمِيّة، بيروت لبنان، د س ن.

4. المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله، تح: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 1411 – 1990.

5. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، مسلم بن الحجاج، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت. د س ن.

6. بحوث ومحاضرات في الدّين والحياةِ، بلحاج بن عدون قشّار، جمع وإخراج: أحمد بن حمّو كرّوم، وحمّو بن عمر بوكرموش، د س ن، د م ن.

7. بينات من الهدى والفرقان، سورة "يس" بلحاج بن عدون قشار، إخراج: طلبة معهد عمِّي سعيد للشّريعة، 1416-1417ه/ 1996م.

8. تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تح: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، 1420هـ - 1999م.

9. جامع الأحاديث، جلال الدين السيوطي، ضبط نصوصه وخرج أحاديثه: فريق من الباحثين بإشراف د. علي جمعة، د س ن.

10. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، تح: د.عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط1، 1422 هـ - 2001 م.

11. سنن العمران البشري في السيرة النبوية، د. عزيز العطيوي، المعهد العالمي للفكر الإسلامِي، 1401ه-1981م.

12. علم أصول الفقه، بلحاج قشار، ط1، 1407-1987م، المطبعة العربية، غرداية.

13. مختصر في قواعد التفسير، خالد بن عثمان السبت، دار ابن القيم- دار ابن عفان، ط1، 1426هـ/ 2005.

14. تسجيلات صوتيّة لدروس الشّيخ بلحاج قشّار.

قابلية النص القرآني في استنطاق الحقائق الإيمانية وأثره في المنهج المعرفي للمفكر مالك بن نبي في ضوء القطيعة المعرفية مع الفلاسفة الملحدين

حسين جويد الكندي ـ باحث ـ الاتحاد الدولي للمؤرخين ـ العراق

مقدمة:

يبدو من قراءة المشروع المعرفي للمفكر الجزائري مالك بن نبي أنه يقف في قبال الطروحات الإلحادية للمستشرقين الغربيين والتي يسعوّن من خلالها لإخراج النخبة المسلمة من دينها أو التشكيك في اعتقاداتها، وقد كَتَبَ قائلاً: ''إنَّ النهضة الإسلامية تتلقَّى كلَّ أفكارها التقنية من الثقافة الغربية... فكثيرون هم الشبان المسلمون المتعلّمون الذين يَسْتَقُون نظرتهم إلى الدين، بل وحتى ما يتعلق بالوجدان الروحي أحيانا، مِنْ كتابات المختصين الأوروبيين''، وهو يقترح في سياق مشروعه إلى العودة للأسس المعرفية في التراث الإسلامي من خلال إعادة قراءة الإسلام والقرآن والسنة النبوية بذهنية العصر وبجميع اسقاطاته على تلك الذهنية، وتكفل مشروعه عند ذاك إثبات صحّة تلك الأسس التي سيواجه بها شكوك الإلحاد وعنف الفلاسفة الإلحاديين الذين ذاع صيتهم آنذاك.

موضوع البحث:

يلقي الضوء على منهج بن نبي في دراسة الظاهرة الدينية في معرض نقاشاته مع الأفكار الإلحادية، الذي يتميز بعدم انشغاله في مواجهته لتلك الأفكار بإثبات فلسفة العلوم أو حتى

الحقائق، وإنّما أنطلق من زاوية نظر نفسية اجتماعية، لإثبات أحقية الحضارة الإسلامية وفضلها على التطور العلمي الحديث، معللا بذلك ضرورة وجود الفكر الإسلامي في مصاف الفكر الإنساني.

أهمية البحث: تأتي من خلال تبنيه الكشف عن منهج الرد على تمظهرات الإلحاد بأسلوب يعتمد على التراث ذاته الذي يدحض الإلحاديون إمكانيته في مراجعة الأسس النظرية التي إنطلق منها فليس المهم عند بن نبي أن يتضمَّن التراث اكتشافات العلوم الحديثة وإنما في إمكانيته على ايجاد الأجواء المناسبة للخلق والإبداع العلمي .

إشكالية البحث: الكشف عن طبيعة المنهج الذي إستخدمه مالك بن نبي وهل استطاع من خلال الآليات المنهجية تلك إيجاد مساحة مناسبة يتحرك خلالها لبيان أصالة البحث القرآني أو التفسيري في مواجهة الفلاسفة الملحدين وفي اطار الحوار بين الفكر الاسلامي بشقيه الأصيل والإستشراقي ، وهل انتج هذا المنهج مايمكن أن نعتبره تغييرًا في طبيعة الدراسات الإستشراقية ونظرتها للإسلام كدين أو منهج حياة.

فرضية البحث: تجيب عن مجموعة التساؤلات التي اقترحها البحث حول منهج بن نبي التفسيري بل مطلق ما وضحه في كتبه التي تناول فيها الدراسات القرآنية بالدرجة الأساس خاصة في كتابه(الظاهرة القرآنية) وإنّه استطاع أن يسبر أغوار الآيات القرآنية ويأخذ منها عيِّنات ويُخْضِعُها للفحص، ولم يخرج من كل ذلك مكتفياً إكتفاءً ساذجاً، بل خرج بنتيجة عامة تشمل كل مظاهر الحياة التاريخية.

منهج البحث والاطر المنهجية التي يستعملها : استخدم الباحث المنهج التحليلي في بيان مدعى حقانية طرح الفكري الإسلامي في قبال الأفكار الإلحادية أو اللادينية بصورة عامة، معتمدًا على التحليل الفكري والمعرفي القائم على معرفة أنماط الدراسات المختلفة التي خصصها مالك بن نبي في هذا المجال، حيث ساعد هذا المنهج ، الباحث على فهم الأفكار في النصوص الأخرى ذات العلاقة، وذلك من خلال المقارنات التي أجراها، اذ يعتبر هذا المنهج ركن أساسي من أركان هذه

الدراسة، وقد عمد الباحث إلى تحديد موضوع البحث ثم أنشأ علاقات افتراضية تحتوي على نقاط التشابه والإختلاف بين المتغيرات التي رصدها وقام بتفسير بياناتها ومعلوماتها.

هيكلة البحث: تألف البحث من مقدمة ومتن البحث والخاتمة والإستنتاجات ، تناول الباحث في المقدمة الأطر العامة للبحث والمنهج المتبع وطريقته في مناقشة الإشكاليات البحثية التي أثارتها اسئلة البحث والتي تكفلت المطالب البحثية في الإجابة عليها أما متن البحث فقد كانت مطالبه تتناول الأسس النظرية لدراسة الدين عند مالك بن نبي، وطبيعة فهمه للقرآن ككتاب سماوي، ومدى فاعلية التفاسير في بيان مرادات القرآن الكريم، ورأيه في المناهج التفسيرية، وفي الخاتمة اجمل البحث بصيغة مختصرة لأبرز مظانه، وبعد ذلك تم طرح الإستنتاجات التي توصل اليها البحث، مردفا قائمة بأهم المصادر والمراجع التي استعان بها الباحث.

المبحث الأول:

المعروف عن مالك بن نبي أنه يتبع الطريقة المنطقية في ترتيب أفكاره ، وأنه حريص على صياغة تلك الأفكار في شكل مقدمات ونتائج، وكأنها خلاصات رياضية صاغها بطريقة تشبه القوانين الثابتة، أو الصيغ الجاهزة التي يغلب عليها طابع التداول والنسبية فهو يحرص على صياغة الفكرة في شكل منتوج مركب من أجزاء ، والسر في ذلك فيما يبدو طبيعة تكوينه العلمي الذي غلبت عليه النزعة الرياضية الأرسطية، وهي صيغة تتوائم نوعا ما مع ما يستحسنه مسلم القرن العشرين الذي تتقاذفه النزعات العلمانية الإلحادية الداعية إلى استبعاد الدين والتخلي عن القيم الثقافية والأخلاقية، والإتجاه نحو المادية المفرطة[1]، وتسهيلًا على الناس ليفهموا الأفكار العميقة والمعقدة بسبب العمق حينا وبسبب الترجمة آخر، بأساليب سلسة في جمل بسيطة ممزوجة بروح رياضية يقينية أو تكاد ، وفكرة الصياغة الرياضية هذه لم تقف عند الإستعانة بالرياضيات وحسب وإنما كانت

[1] . محمد سعيد رمضان البوطي ، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ، (بيروت : دار الفكر المعاصر، 2011 ، ط11)، ص 41 .

أفكارًا بصيغ رياضية، في شكل ثلاثيات، متكونة من ثلاثة عناصر وهي ثلاثيات تكاد تحيط بكل ما أنتج مالك بن نبي من أفكار، وهي خلاصات مهمة تمثل جملة أفكار بن نبي ومكوناتها[2].

تتجه أفكار بن نبي في مجمل نتاجه الفكري إلى انجاز خطاب حضاري، يتوفر على إستنهاض مايكتنفه الوعي الإسلامي من إمكانية في تثوير الجماهير نحو ايجاد الحركة المطلوبة بعيدا عن الأيدلوجية التي تؤمن بها الحضارة الغربية، وعدم الإغترار بما إنتهى إليه الغرب من خلاصات وما تفوق فيه اليوم، داعيًا الأمة إلى نهضة وعي لأنها بالإضافة إلى توفرها على أسبابها فإنها محكومة بذات الأبعاد التي إستطاعت الحضارات الأخرى أن تنطلق من خلالها لأنّ الحضارة عنده تنطلق من ثلاثية هي: الإنسان والتراب والوقت، وكل منتوج حضاري لا بد له من هذه الثلاثية، ويبقى دور الإنسان إذا أراد النهوض والتطور فإنه يتجه نحو العلم والحركة والفاعلية ، وبخلافه فمصيره الإنزواء عن ركب الحضارة[3]، وأشار إلى إطار الحركة أو مرجعيتها و إشترط ان تكون حركة الأمة في إطار العقيدة ، التي لاتكون إلا غذا وجد المبدأ الصالح وعرفته الأمة وآمنت به ، عند ذاك تتوفر عوامل التغيير والسير نحو تحقيق هدف الحركة ، وهو بذلك يوجه الخطاب للمؤمنين ، والخطاب الآخر تم توجيهه لمن تخلى عن الإيمان بمبادئ الدين وحسب رأي بن نبي كان ذلك سببًا في تخلفه[4]، فنحن هنا أمام خطابين ينبغي أن يصدرا من الحضارة أحدهما داخلي والآخر خارجي يستوعب المقارنات التي تجريها الأمة مع الأفكار المعارضة أو الناقدة، هذا الجانب من عملية التغيير، فالخطاب الداخلي يتضمن جانب المحتوى والمضمون الفكري ، جانب التشريعات والأحكام والمناهج التي تدعو إليها الثقافة الداخلية السائدة، هذا الجانب قد يكون جانب رباني إلهي في شكله ومضمونه وقد لا يكون، لكن هناك جانب آخر تلحظ بوصفها عملية متجسدة في جماعة من

---

[2] . مالك بن نبي ، مشكلة الافكار في العالم الاسلامي ، ترجمة بسام بركة ، احمد شعبو ، (بيروت ، دمشق : دار الفكر المعاصر ، دار الفكر ، ط1 : 1988 ـ ط2: 2002)، ص 39 .

[3] . مالك بن نبي ، شروط النهضة ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، (بيروت : دار الفكر ، 1986) ، ص49 .

[4] . بن نبي ، مشكلة الافكار ، ص 40 .

الناس، بوصفها عملية اجتماعية متجسدة في مجتمع معين، وبوصفها عملية قد واجهت تيارات اجتماعية مختلفة من حولها وأشتبكت معها في ألوان من الصراع والنزاع العقائدي والإجتماعي والسياسي والعسكري ، حينما تؤخذ هذه العملية التغييرية بوصفها تجسيدا بشريا على الساحة التاريخية مترابطا مع الجماعات والتيارات الاخرى التي تكتنف هذا التجسيد والتي تؤيد أو تقاوم هذا التجسيد، حينما تؤخذ العملية من هذه الزاوية تكون عملية بشرية، تحتاج إلى خطاب خارجي لبيان مبادئها واهدافها.

وهكذا تكون عملية أي تغيير لها جانبان من حيث صلتها بالإنسان والمكان والزمان، هي ربانية و فوق التاريخ ، لأنها ترتكز على فهم معنوي للحياة واحساس خلقي بها[٤]، ولكن من حيث كونها هي عملا قائما على الساحة التاريخية، من حيث كونها جهدا بشريا يقاوم جهودا بشرية اخرى ، من هذه الناحية يعتبر بن نبي هذا عملا تاريخيا تحكمه سنن التاريخ وتتحكم فيه الضوابط التي وضعها الله سبحانه وتعالى لتنظيم ظواهر الكون في هذه الساحة المسماة بالساحة التاريخية ولهذا نرى أن القرآن الكريم حينما يتحدث عن الزاوية الثانية، عن الجانب الثاني من عملية التغيير يتحدث عن أناس، يتحدث عن بشر.

ينطلق مالك بن نبي من العلاقات الإنسانية إلى الفعل الحضاري بكل زخم التاثير المتبادل بين الحركة والفاعلية التاريخية، وبذلك استطاع رصد مستوى الفاعلية الذي تكون عليه المجتمعات في دوراتها الحضارية ، ووضع مائز تراتبي يعتمد على تحقق الأول كشرط لوجود الآخر، فهو يرى مثلًا إن الحالة الإسلامية ببعدها الحضاري، تتماثل مع باقي التجارب الإنسانية الأخرى في البعد الخاص بالنشوء والتطور، بحصول ذلك الترتيب والتسلسل في مدى الفاعلية التاريخية، حيث أن المجتمع المنشئ للحضارة يمر بمراحل يمثل كل منها حياة خاصة تتدرج من النمو إلى الغلبة إلى الانهيار فالموت الحضاري، وهذه الدورة الحضارية في تفاعلها مع الواقع مثل مرحلة الطفولة والشباب

[٤] . محمد باقر الصدر ، فلسفتنا ، (بيروت : دار التعارف ، 1998 ، ط2)، ص 43 .

والشيخوخة فالموت في الطبيعة البشرية وفي خلال هذه الفترات يخضع نشاطه دائما في ضمان بقائه لتطورات نفسية بدنية[6] .

المثلث الحضاري عند مالك بن نبي

المجتمع المنشئ للحضارة مجتمع خلاق، مبدع، مفكر، غير إنّه تراتبي، جعلي، شعوري، في طريقة ايجاد الحضارة وصياغة مفاهيمها، يتدرج من القوة إلى الضعف ويتردد بين السكون والحركة فالسكون، وهي على ثلاثة مراحل عند مالك بن نبي:

1ـ المرحلة الأولى : يكون فيها المجتمع في طور النمو تلك المرحلة التي تتمايز بتفعل عناصر(الروح والقيم) في تفاصيلها ، و فيها يجتهد باحثا عن ساحات في الواقع للقيام بها يراه نمذجة لما يؤمن به ويتبناه وهو طور الإيمان والعقيدة والمُثل العليا، وهي مرحلة بناء علاقات المجتمع بالوجود وبعالم الأشياء، وهي أشبه ما تكون بمرحلة القصور في معرفة الذات الفاعلة ، وهي حاضر المجتمع ودور الإنسان في تنشأة الأفكار الاساسية للبناء والإرتقاء ، ولأن التجربة الحضارية في هذا الطور غضة ولينة وتفتقد للتجربة فقد تستورد افكارًا أو ثقافات من بيئات أخرى لا تنتمي للبيئة الحضارية الحاضنة ، ولأنها بقيم أخرى ستكون يتيمة وربما تسبب في قتل النهضة في أي مستوى كان[7]، ويدعو مالك بن نبي مثل هذه الافكار بالفكرة القاتلة فهي الفكرة المستوردة من ثقافة أخرى، غير ثقافة المجتمع ومرجعياته الفكرية والعقدية، مقتلعة من أرضها ومحيطها، فهي فكرة قاتلة وكل خطوة خاطئة تؤدي إلى الموت احيانا[8]، وإذا أردنا أن نمثل لهذه النماذج للأفكار

---

[6] . إبن نبي ، مشكلة الافكار ، ص 27 .

[7] . محمد خاتمي، عالم الغد وحوار الحضارات، ترجمة أمير علي نجفي ، (طهران : دار باز للنشر، 2001) ، ص 71 – 72.

[8] . ابن نبي ، شروط النهضة ، ص 29 .

السائدة في العالم الإسلامي، لا نجد للتعبير عن الفكرة الميتة أفضل من بعض أجنحة التيار السلفي المتطرف من التيار الإسلامي التقليدي[9].

2ـ المرحلة الثانية : ينتقل فيها المجتمع الخالق للحضارة إلى فترة العطاء واستثمار الجهد البشري وهذه المرحلة تتمايز عن سابقتها بتنمر دور(العقل) والموازنة بين الايدلوجية والبراغماتية، بين العطاء والاخذ وبين الكم والنوع وبين الحركة والسكون[10]، والمقياس في ذلك هو القيد العقلي الذي يمثل الرقابة على الفعل وتقييمه سلبا وإيجابا، فلا عطاء مستمر ومتنام ولا توقف مفضي إلى الركود، وهي مرحلة التعرف والتفريق بين الاشياء فيلتقي بعالم الأفكار، والإمتصاص المعرفي، والعدو في هذه المرحلة هو الفقر والكفر وكل منغصات التكامل على المستوى المادي والمعنوي[11]، وهي مرحلة صناعة التاريخ ليعالج واقعًا ويستشرف مستقبل.

إنّ دور العقل في هذه المرحلة ونضج التفكير فيها يستوجب ان تكون الأفكار المتبناة فيه افكار موائمة وطبيعة حركة الأمة، والفكرة الصحيحة هي الفكرة المطابقة للعلم، والمقصود وحسب رأي بن نبي، هي الصحة النظرية، ويبقى إسقاطها على الواقع، هل هو مناسب أم لا؟ فذلك يحتاج إلى تقدير آخر في تقدير بن نبي، وقدر من توفير الشروط اللازمة وانتفاء الموانع، وإلا أصبحت غير فعالة مع بقائها صحيحة نظريا، كمثل أعلى ينتظر الوقت المناسب الذي عبر عنه بن نبي بالصحوة الخافتة التي تبدأ بالنسبة للعالم الاسلامي بحقبة تاريخية جديدة يطلق عليها النهضة[12].

---

[9] . أكرم حجازي ،رحلة في صميم عقل السلفية الجهادية تنظيم القاعدة نموذجا ، (تونس : المعهد التونسيـ للدراسات الاستراتيجيّة ، 2006) ، ص 27 .

[10] . عبد القادر عرابي، المناهج الكيفية في العلوم الإجتماعية، (بيروت : دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشرـ ،2014) ، ص 93 .

[11] . المنجي الزيدي ، ثقافة الشارع : دراسة سوسيوـثقافية في مضامين ثقافية الشباب ، (تونس : مركز الناشر الجامعي، 2007) ، ص 12 .

[12] . ابن نبي ، شروط النهضة ، ص 40 .

3 ـ المرحلة الثالثة: وفي هذه المرحلة يتلاشى ذلك الوهج الذي كانت الروح والقيم تلقى بإشعاعه على فعل العقل ورقابته وعطاءه وتناميه، حيث لا يصبح للعقل سلطانا كاملًا على الحركة والفعل، فتفقد الحضارة والمجتمع والفرد مستوى الفاعلية الذي يطمح إلى الارتقاء؛ بل يتحول إلى انفعالات وردود أفعال إذ لا هدف له ولا غاية.

ويرى بن نبي أن من أسباب سرعة سقوط المجتمعات هو الشيطان أو الاستعمار الذي يعمل جاهدا في هذه المرحلة على ترصين دفاعاته لئلا تعود الامة إلى سابق عهدها وقوتها[13]، وهذه المرحلة تاريخيا هي موت سريري للأفكار والوعي بالأشياء ومن ثم موت الفعل التاريخي اذ لا مستقبل، وفي هذه المرحلة يلجأ المجتمع وكنوع من ردات الفعل لحالة الإنحدار نحو الأسفل أن يتشبث بالحلول الآنية والسريعة والغير محسوبة بدقة فيلجأ في الغالب إلى استنساخ التجارب الاخرى التي اثبتت نجاحها أي مجموعة ظروف موضوعية تلائم الزمان والمكان في حينها، ليستبدلها بمشروعه الحضاري ، وهذه مايسميها بن نبي بالفكرة الميتة، هي الفكرة المستنسخة من التاريخ، ولا تستجيب لمتطلبات الواقع؛ لأن متغيرات الواقع لا تسمح دائما باستنساخ التجارب كما كانت في الماضي[14].

هذه الثلاثية كانت حاكمة في منهج بن نبي في جميع مستويات بحثه الحضاري، سواء في الفاعلية الموجبة للنهضة أو حتى في دور القرآن في إيجاد حالة الوعي، والعودة لاستفهام آياته وفق الرؤية التي توفر أكبر قدر ممكن من عوامل النمو والإرتقاء الحضاري، ثلاثية سنجدها حاضرة في البحث الفكري أو القرآني عند مالك بن نبي، حتى عند تفريقه بين الحضارة والإنتاج الحضاري، فهو يرى أن الحضارة هي الوضع الذي يحقق الضمانات المذكورة، والمتحضر هو الذي يتعامل مع الواقع وفق تلك الضمانات، وليس المتحضر من يحمل من المواصفات والمظاهر، ولو كانت تلك المواصفات من القيم الحضارية، ولذلك لا يعتبر بن بني مجرد التدين تحضرا، لأن المتحضر في رأيه هو كل من يحقق

---

13 . المرجع نفسه ، ص 46 .

14 . ابن نبي ، مشكلة الافكار في العالم الاسلامي ، ص 147 .

معاني الحضارة المذكورة ومنها الظروف الموضوعية لنجاح المشروع الحضاري، والتي تقف حائلًا أمام انفصام في الدافع الذاتي وقد ضرب لذلك مثلا في موقف ابن عباس من مسير الإمام الحسين بن علي عليه السلام إلى الكوفة[15]، تلك الشروط التي بفقدها تتخلف الحركة عن الفعل التاريخي وعندما يفقد تلك الشروط الضرورية لإنجاز المشروع الحضاري.

نظرية المعرفة عند مالك بن نبي

سعى مالك بن نبي إلى أن يبدأ عمله الحضاري بالعودة إلى علة الخلق الحضاري القرآنية ، وإكتشاف مقوماتها في القرآن الكريم، ﴿... إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً.....قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ البقرة / 32، وتجارب الأمم الأخرى ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ الحج/ 46، فعَمِلَ على اكتشاف المعرفة باعتباره أكثر ضرورة في المشروع الحضاري من تنمية المعرفة[16]، لأن المعرفة الإنسانية تدور حولها مناقشات فلسفية حادَّة، تحتلُّ مركزًا رئيسًا في الفلسفة، وخاصَّة الفلسفة الحديثة، فهي نقطة الإنطلاق الفلسفيِّ لإقامة فلسفة متماسكة عن الكون والعالم، فما لم تحدَّد مصادر الفكر البشري ومقاييسه وقيمه لا يمكن القيام بأية دراسة مهما كان لونها. وإحدى تلك المناقشات الضخمة هي المناقشة التي تتناول مصادر المعرفة ومنابعها الأساسية بالبحث والدرس، وتحاول أن تستكشف الركائز الأولية للكيان الفكري الجبار الذي تملكه البشرية فتجيب بذلك على هذا السؤال: كيف نشأت المعرفة عند الإنسان؟ وكيف تكوَّنت حياته العقلية بكل ما تزخر به من أفكار ومفاهيم؟ وما هو المصدر الذي يمد الإنسان بذلك السيل من الفكر والإدراك؟ .

---

[15] . ابن نبي ، مشكلة الافكار في العالم الاسلامي ، ص 157 .

[16] . ابن نبي ، شروط النهضة ، ص 38 .

فلا يمكن إذن أن تقيم حضارة ما صرحا أو نظرية فلسفية دون ضبط مشكلة المعرفة، و لأنَّ بن نبي، صاحب مشروع حضاري يتوفر على بعد فلسفي، فحضور هذا البُعد يبدو واضحًا في قضايا "مشكلة المعرفة"، وإذا ما أردنا الوقوف على نظريته المعرفية، لابد أن نعرف رؤيته للمشكلات التي تثيرها نظرية المعرفة وهي:(طبيعة المعرفة الإنسانية ، ومصادر المعرفة ، وحدود المعرفة وإمكاناتها)[17].

1 ـ **طبيعة المعرفة الإنسانية ومصادرها** : هناك تردد في بيان معيار المعرفة أو الحقيقة: "هل هي المعلومات القبلية في العقل(الفطرة أو البداهة)، أم الجدلية ، أم المصلحية والمنفعة البراجماتية، أم الوجودية"... يرى أصحاب الاتجاه الأول: أنَّ مصدر المعرفة ذو طبيعة عقلية؛ فالمعارف هي نتاجٌ عقليٌّ وليست مجرَّد نسخٍ مطابقة للواقع، ومن هذا المنطلق فإنَّ معيار الحقيقة هو العقل الذي أنتج المعرفة، وعلامة ذلك الوضوحُ والبداهة... وتعود هذه الأطروحة إلى فلسفة "أفلاطون" الذي قال في كتابه "الجمهورية": "من الواجب على النفس الباحثة عن الحقيقة أن تمزِّق حجاب البدن، وأن تنجو من عبوديته، وأن تظهر ذاتها بالتأمُّل"، وفي الفلسفة الحديثة إعتمد "ديكارت" في بناء الحقيقة على العقل، قال في كتابه "حديث الطريقة": "لا أتلقى على الإطلاق شيئا على أنّه حق ما لم أتبين بالبداهة أنه كذلك".. ويقول في موضع آخر: "كنت دوما شديد الرغبة في تعلم التمييز بين الحق والباطل، حتى أنظر بتبصر في أفعالي، وأسير بأمان في هذه الحياة"[18]، وهذا المذهب لا ينكر الحواسَّ؛ ولكنه لا يجعلها مصدرا صادقا للمعرفة إذ "لا بدَّ من مصدر آخر للمعرفة غير الحواس. وليس ثمة مصدر آخر للمعرفة يمكن الركون إليه إلاَّ العقل، فما يصدر عن

[17] . أحمد عبد المهيمن ، نظرية المعرفة، (بيروت : دار الوفاء لدينا ، 2001 ، ط1) ، ص 32 (بتصرف).

[18] . رينيه ديكارت ، حديث الطريقة، ترجمة وشرح وتعليق عمر الشاربي ، (بيروت : المنظمة العربية للترجمة ، منتدى مكتبة الاسكندرية ، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية ، 2008 ، ط1) ، ص:66.

العقل صادق بالضرورة"[19]، ويقوم المذهب على فكرتين أساسيتين، هما: الشك في قدرة الحواس كوسيلة لنقل المعارف الضرورية عن العالم، والإيمان بالعقل كمصدر وحيد للمعرفة"[20].

يقول العلامة الطباطبائي في معرض توضيحه لهذا الاتجاه: أن العلم يتحد مع معلومه الخارجي من حيث الماهيه ويفترق عنه من حيث الوجود ... ليس للعلم واقعية سوى كونه كاشفا عن واقع سواه"[21]، وهذا الواقع هو الحقيقة الواحدة بالنسبة إلى جميع العقول ولا تتوقف على مزاج أحد ... وهي كلية أي ممتدة في الزمان والمكان فمن خصائصها العميقة، إنها لا تحمل تاريخا ولا تتخلف بمكان عن مكان، فهي صادقة في كل زمكان[22].

أمَّا الإتجاه الثاني: فتتمثل في "المذهب الجدلي"، وهي ترى أنَّ الحقيقة في صيرورة وتغير وليس ثم حقيقة مطلقة وصادقة كليا في الزمان والمكان إلا إذا وصلت الصيرورة إلى خاتمة مطافها[23]، وقد أصرت الماركسية على وضع التجربة مقياسا أعلى ووضعت قانون الحركة والتطور في العلوم والأفكار نظرًا إلى أن الفكر جزء من الطبيعة وهو بهذا الإعتبار يحقق قوانين الطبيعة كاملة فيتطور وينمو كما تتطور الطبيعة.

أما الأطروحة الثالثة (البراجماتية): فتقاس بمعيار المنفعة، أي بمطابقة الأشياء لمنفعتنا لا مطابقة الفكر لذاته أو للأشياء الخارجية... ترتبط هذه الأطروحة بالفيلسوف الأمريكي "شارلز سوندرز بيرس" الذي قال: "المعرفة كائن ما كانت لا تستحق هذا الأسم إلاَّ إذا كانت لها نتائج عملية يمكن لكلِّ إنسان أن يشاهدها إذا أراد".. وتعمَّقت هذه الأطروحة على يد "وليم جيمس"

---

[19] . عبد المهيمن ، ص 42 .

[20] . إنصاف أحمد ، المعرفة والتجربة، (الجزائر : دار مارينا ، 2004 ، ط1) ، ص 28.

[21] . محمد حسين الطباطبائي ، أصول الفلسفة ، نقله إلى العربية جعفر السبحاني (قم : مؤسسة الامام الصادق ، 1426 ، ط) ، ص 181 ـ 182 .

[22] . عبد الرحمن بدوي، مدخل جديد إلى الفلسفة ،(طهران : دار مدين مطبعة رسول ، 1428 هـ ، ط1) ، ص 139 .

[23] . المرجع نفسه ، ص 142 .

الذي قال في كتابه "محاضرات في البراغماتية": "الحقُّ ليس إلاَّ التفكير الملائم لغايته، والصواب ليس إلاَّ الفعل الملائم في مجال السلوك". وبالرغم من أن الوجودية مفصل وملتقى بين عدة منازع أوربية استغرقت ولاتزال تستغرق مأساة الوعي الحضاري والاخلاقي في أوروبا خلال القرنين التاسع عشر[24]، إلا أن القرن العشرين كان فارقا في مسالة الوعي الأخلاقي للمعرفة ، إذ إتجهت غلى تحقيق الأنا بصورة اعظم على يد البراغماتية، ويُعتبر "جون ديوي" حلقة إضافية في سلسلة المذهب البراغماتي، حيث ربط بين التفكير والمنفعة قال في كتابه "كيف نفكِّر"، مؤكِّدا أنه "يبدأ التفكير إذا اعترضت الإنسان مشكلة تتطلَّب الحل".

والاتجاه الرابع : يتمثل في الوجودية التي ترى أن الحقيقة ذاتية [25]، ذلك أن تكرار الحقيقة له وجود في الذات ، والحقيقة هي فعل الحرية ، أي الحقيقة لا توجد للذات إلا باختياره لها وليس بالتأمل العقلي وهو مذهب سقراط[26]، وتتفرع منها التجريبية التي ترى أنَّ مصادر معارفنا كلَّها هي "الخبرة الحسية، ووسيلة اكتساب المعرفة هي الحواس وحدها" وينسب هذا المذهب إلى جملة من الفلاسفة على رأسهم "ديفيد هيوم"، و"جون لوك"[27]، وجون بول سارتر[28].

والاتجاه الخامس: يرى أن الحقيقة نظرة تكاملية تجمع العقل والواقع والمنفعة في معيار واحد؛ فالإنسان عند "ابن خلدون" ولد خالٍ من المعرفة وباتصاله بالواقع شرع في بنائها؛ فالحواس – إذن– تقدِّم مادة المعرفة، والعقل ينظِّمها ويفسِّرها من خلال فكرة الزمان والمكان والسببية والغائية (مقولات العقل)، وكما قال "كانط": "الأفكار من دون مضمون حسيّ جوفاء، والإحساس من دون تصورات عقلية أعمى"، ومتى اتّحد العقل بالواقع تحققت المنفعة وانكشفت الحقيقة.

---

[24] . خليل احمد خليل ، السارترية ، (بيروت : المؤسسة الجامعية للدراسات ، 1982 ، ط2) ، ص 6 .

[25] . كير كيغارد ، ما بعد النص ، ترجمة اياد خليفة ، (باريس : غليمارد ، 1941) ص 134 .

[26] . بدوي ، ص 149 .

[27] . عبد المهيمن ، ص 39 ـ 40 .

[28] . خليل ، ص 4 .

2 ـ حدود المعرفة وإمكاناتها : يمكن تمييز مذهبان رئيسيان في هذا المبحث هما:

المذهب الأول : مذهب الشك وهو مذهب ينكر إمكان المعرفة، وينكر كلَّ صورة من صورها، وهو مذهب "ينفي قدرة الإنسان على الحصول على معارف يقينية"[29]، ويرى بعض الفلاسفة أن هذا الشك ناتج من خطأ فلسفي أو أزمة نفسية[30] ، ومن الواضح أن أي محاولة لوضع نظرية للمعرفة يؤدي حتما إلى موقف سلبي تجاه قيمة المعرفة ... لأنها تعبر عن حالات خاصة تحدث في أصحاب الفكرة انفسهم ، ولعل ذلك كان عاملًا مساعدًا في إنتشار مذاهب العبث التي تنخر أسس الإنسانية وتحطمها[31]، وهكذا طرح بن نبي المشكلة من وجهة النظر العلمية فخصائص العمل على الصعيد الفردي أو الجماعي تستند على العلاقات الداخلية في مقايسه الثابتة في العالم الثقافي: الأشياءـ الاشخاص– الافكار[32]، وهي ثلاثية تركيب المعرفة عنده.

المذهب الثاني : مذهب اليقين والإعتقاد وهو يقرر أنَّ ادعاء الشك باستحالة المعرفة ادعاء باطلٌ، ولقد قضى الفلاسفة على الشك باعتباره نظرية في المعرفة، وإن أبقوه منهجا في البحث لا مذهبا. فالشك الديكارتي مثلا هو "خطوة ضرورية... وهو منهج إلى حقيقة أولى، ووسيلة هادفة إلى يقين عقلي"[33]، وهو مذهب ذو خصوصية إسلامية نظير نظرية الإنتزاع، وهي نظرية الفلاسفة الإسلاميين بصورة عامة[34]، ومن هنا يشير بعض الفلاسفة إلى مبدأ العلية[35] في انحياز واضح للدليل الاستقرائي في محاولة لإعادة بناء نظرية المعرفة على أساس معين.

---

[29] . بدوي ، ص 114 .

[30] . الصدر ، فلسفتنا ، ص 135 .

[31] . محمد تقي مصباح اليزدي ، المنهج الجديد في تعليم الفلسفة ، ترجمة محمد عبد المنعم الخاقاني ، ج 1 ، (قم : مؤسسة النشرـ الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين ، 2005) ، ص 131 .

[32] . أبن نبي ، مشكلة الافكار في العالم الاسلامي ، ص 76 .

[33] . انصاف ، ص 36 .

[34] . الصدر ، فلسفتنا ، ص 61 .

إن العوامل الاجتماعية والتاريخية لظهور النبوة هي شروط ضرورية، ولكنها ليست كافية، فالبعد الإجتماعي والتاريخي عنصر ضروري في نظرية المعرفة لتفسير النبوة، ولكن الدراسة الإجتماعية والتاريخية غير النزعة الإجتماعية والتاريخية ، ولأن الإطار الذي تحرك فيه بن نبي في مشروعه النهضوي والفكري، هو إطار فلسفي ومعرفي فقد اسس لنظرية معرفية جديدة هدفها إيجاد اليقين الموضوعي[36] في مختلف القضايا ومنها التاريخية بطبيعة الحال ، استنادًا إلى مبدا العلية واعتبارها كحقيقية موضوعية ويرى في هذا السياق أنّ العوامل الاجتماعية والتاريخية في العالم كانت تتطلب ظهور النبوة مثلًا ، لا يعني أن النبوة قد فسّرت بصورة كلية وشاملة بحيث يمكن نفي المصدر الغيبي للرسالة على غرار ما تفعله نظرية المعرفة المتضمنة في النزعة الإجتماعية والتاريخية، فالعوامل الاجتماعية والتاريخية تفسر النبوة ولا تفسر مصدرها .

هذه هي المذاهب الرئيسية في تحديد طبيعة المعرفة ومصادرها وحدودها، والسؤال هو: ما هو مذهب بن نبي؟ وهل يمكن أن نعثر على موقف كامل، ورؤية واضحة، عنده، في هذا الجدل الفلسفي التاريخي العميق؟ وإلى أي اتجاه يميل؟ وأين عبَّر عن موقفه ؟ .

إنَّ أبرز خاصية من خصائص مشكلة المعرفة عند بن نبي أنها ارتقت إلى مستوى "البناء الشمولي"، وأنها إضافة نوعية للتصنيفات المعرفية المألوفة، مستفيدًا من مصادر المعرفة في إيجاد رؤيته الخاصة والصفة الوحيدة التي تستوعبه هي أن لديه "رؤية كونية" أو "رؤية العالم" وأنها تقع في قلب مشكلة المعرفة، ذلك أنها الطريقة التي يحدد بها العقل فهمه "للخواء" ولـ"اللامعنى" ولـ"الاغتراب في الحياة"؛ وهو المنهج الذي يرسم به الإنسان علاقته بالمعرفة وبالوجود ، والمجتمع الإسلامي يعاني في الوقت الحاضر بصورة خاصة من هذه الإتجاهات لأن نهضته لم يخطط لها ولم يفكر بها بطريقة تاخذ باعتبارها عوامل التبديد والتعويق[37]، يقول إنصاف حمد: "وبسبب من

[35]. مبدأ العلية : المبدأ الذي يقول بان لكل شيء سبب اعم من كونه مادي أو غير مادي .

[36]. اليقين الموضوعي : هو اليقين الذي يتأتئ من معطيات موضوعية تُبرر منطقيا الاطمئنان بالمطابقة .

[37] . أبن نبي ، مشكلة الافكار في العالم الاسلامي ، ص 78 .

الإختلاف الواضح في المنهج لدى كل من المذهبين [العقلي والتجريبي]، فإنه من الطبيعي أن يكون لكل منهما نظرة مختلفة حول ماهية الإنسان، وإجابات مختلفة حول الأسئلة المطروحة على صعيد نظرية المعرفة"[38]، وقد عالج مالك بن نبي هذه القضية بإسهاب، وإن لم يوظِّف المصطلحات المعروفة ، وذلك في كتاب "مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي"، تحت عنوان "الإجابتان عن الفراغ الكوني"[39]، ويوظف ابن نبي قصتين هما: قصَّة "روبنسون كروزو"، و"حي بن يقظان" ليظهر طبيعة الجواب عن سؤال الكون المختلفة بين المذاهب المعروفة.

إنَّ نظرية المعرفة تبحث في المصادر التي يستقي منها الإنسان معارفه، وأنَّ الفلاسفة انقسموا إلى "مذاهب تحاول أن يجمع بين الحس والعقل؛ ولقد استطاع مالك بن نبي أن يتجاوز هذا التقسيم العقيم، معتمدا على "الأبستمولوجية"، حسب مباحث علم النفس والتربية، ثم تعميم ذلك على مراحل نمو البشرية، وكأنها في ذلك كائن بشري أو طبيعي يمر بنفس المراحل التي يمر بها الإنسان الثلاثية المعهودة (الإنسان الوقت التراب)[40]، من هنا نسب ابن نبي إلى الطفل في مرحلته الأولى "عالم الحس"، وعبر عن ذلك بـ"عالم الأشياء"؛ ثم نسب إليه في مرحلة ثانية نوعا من التجرد عن الحس وبداية الإرتباط بالعقل، وهو ما عبر عنه "بعالم الأشخاص"، وأخيرا تأتي المرحلة الثالثة، مرحلة النضج، وفيها يرتبط الطفل بعالم الأفكار، إذ يبدأ من هذه "اللحظة في "تكوين راوبط شخصية مع مفاهيم تجريدية"، وبهذا تتعدَّد مصادر المعرفة لدى البشرية، وتنمو من مرحلة "الأشياء" إلى "الأشخاص"، وأخيرا "الأفكار"؛ ولكنها قد تتقهقر وتنزل من عالم إلى ما دونه، تماما مثلما الحال للشيخ الذي يهرم، وفكرة "العوالم الثلاثة" كما قدمنا هي بؤرة نظرية مالك بن نبي في "المعرفة" بل، هي محور نظريته في "الوجود" وهي التي ميزته عن غيره من الفلاسفة التقليديين.

---

[38] . انصاف ، ص 27 .

[39] . ابن نبي ، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ، ص 71 .

[40] . ابن نبي ، شروط النهضة ، ص 131 .

المبحث الثاني

الرؤية التفسيرية للنص القرآني عند مالك بن نبي

يعدَ كتاب (الظاهرة القرآنية) الإنجاز الإصلاحي المقترح للمنهج القديم في تفسير القرآن لمالك بن نبي[41]، إذ أوجد الأُسس الثابتة والعقلية فيه للإيمان بالمصدر الإلهي للكتاب الكريم متبعا في ذلك مبادئ عامة لأي واحد من هذه العلوم التي يقوم الفهم البشري بمهمة التوغل في اكتشاف نواميسها وقوانينها وضوابطها وفي ذلك يقول بن نبي: "إن القرآن يرسم لوحة مُدْهِشة للمأساة الأبدية التي تعيشها الحضارات ، ويدعونا إلى النظر فيها بإمعان"[42]، وقد تَطَلَّبَ هذا العملُ روحاً علميَّةً مسلحة بأحدث الإكتشافات العلمية في مجالات العلوم المختلفة، وبمعرفة شمولية بالديانات، هذا رغم أنّ الكتاب تمَّ تأليفه في ظروف صعبة للغاية كان يمر بها مالك بن نبي، لكن التفاته لم يكن لليقين من سلامته بل كان يفكر في اليقين العقليِّ الذي سيتكفل هذا الكتاب إيجاده في صفوف الأمة وخاصة طائفة الشباب[43]، ويعتبر كتاب الظاهرة القرآنية من الكتب المثيرة في دراسة الظاهرة الدينية[44].

عُرِضَ كتاب "الظاهرة القرآنية" على شيخ الأزهر (عبد الله دراز)، قبل نشره ليقدم له ، وذلك يشير إلى أهمية هذا الكتاب ، وقد اجتهد شيخ الأزهر في المقدمة أن يلَفْتِ عناية القارئ إلى بعض النقاط التي يعارض فيها بن نبي ، وبالرغم من فرادة المنهج في هذا الكتاب إلا أنه لم يكن معنيا بالضرورة ببيان الاستشرافات العلمية للقرآن في حقول العلوم المختلفة والتي وقف عليها العلم الحديث في الاعصار المتاخرة ، فليس مهما عنده أن يُشْفَّعَ الطابع الإلهي للقرآن باكتشافات علميّة ولعله كان حريصا على عدم الوقوع في مغبَّةِ (الشَّغف بالأعاجيب) والتي تؤدي بالعامة إلى عدم

---

[41] . مالك بن نبي ، الظاهرة القرآنية ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، تقديم محمد عبد الله دراز و محمود محمد شاكر ، (دمشق : دار الفكر ، 1987 ، ط4 ، اعادة 2000م)، ص53 .

[42] . ابن نبي ، الظاهرة القرآنية، ص 12 .

[43] . المرجع نفسه ، ص 53 .

[44] . المرجع نفسه ، ص 69 .

الاهتمام والتوجه لسبر غور روح الآيات ومقاصدها، يقول: "ليس المهم أن نتساءل عمّا إذا كان القرآن يتضمَّن إشارةً إلى اكتشافٍ عِلميٍّ ما، لكن المهم أن نتساءل عمّا إذا كان بإمكانه أنْ يوجِدَ الجوَّ المناسب للتطوُّرِ العلميِّ، وعمّا إذا كانت مبادئه النفسية قادرة على تفجير الآليات الضرورية لإكتساب المعرفة ونقلها"[45]، إذن فهو كتاب هداية وتغيير وليس كتاب اكتشاف، ومن هنا لا نترقب من القرآن الكريم أن يكشف لنا الحقائق والمبادئ العامة للعلوم الاخرى ولا نترقب من القرآن الكريم أن يتحدث لنا عن مبادئ الفيزياء أو الكيمياء أو النبات أو الحيوان ، صحيح أن في القرآن الكريم اشارات إلى كل ذلك ، ولكنها اشارت بالحدود التي تؤكد على البعد الإلهي للقرآن، وبقدر ما يمكن أن يثبت العمق الرباني لهذا الكتاب الذي أحاط بالماضي والحاضر والمستقبل، والذي استطاع أن يسبق التجربة البشرية مئات السنين في مقام الكشف عن حقائق متفرقة في الميادين العلمية المتفرقة.

منهج التفسير الموضوعي (الحضاري) عند مالك بن نبي

لم يختر مالك بن نبي التفسير التقليدي للآي القرآني في طريق إثبات الحقائق القرآنية بل آثر في مشروعه الحضاري التفسير الموضوعي التوحيدي على التفسير التجزيئي التقليدي باعتبار أن التفسير الموضوعي أغنى عطاءا وأكثر قدرة على التحرك والأبداع وعلى تحديد المواقف النظرية الشاملة للقرآن الكريم[46]، ومن خلال إتباع هذا الأسلوب استطاع مالك بن نبي تحديد موقف نظري للقرآن وبالتالي للرسالة الإسلامية من موضوعات نمو أو إندثار الحضارة متبعا في ذلك ثلاثيته الرياضية المتعلقة ببيان البعد القرآني في فهم طبيعة صيرورة ودور الكتاب الإلهي في إيجاد الحضارة من خلال تسليطه الضوء على (المرسل والرسول والرسالة) في القرآن .

[45] . ابن نبي، انتاج المستشرقين وأثرها في الفكر الإسلاميِّ الحديث ، ترجمة عبد الصبور شاهين ،(دمشق : دار الفكر ، 1987) ، ص 12 .

[46] . المرجع نفسه، ص32 .

1 ـ إثبات صدور القرآن من عالم المثل وإن الكتاب ليس نتاجا حضاريا أرضيا، وقد درس مؤلفه الظاهرة القرآنية وفق منهج تحليلي، يبين من خلاله مباينة الظاهرة النبوية للظاهرة القرآنية، ليصل في النهاية إلى أن القرآن من عند الله، وليس من عند محمد ﷺ ، وهذا المنهج الذي يسلكه مالك بن نبي لدراسة الظاهرة القرآنية، يحقق من الناحية العملية هدفاً مزدوجاً: الأول: أنه يتيح للشباب المسلم فرصة التأمل الناضج للدين. الثاني: أنه يقترح إصلاحاً مناسباً للمنهج القديم في تفسير القرآن[47]، وقد استهل مالك دراسته للظاهرة القرآنية بمدخل فصل فيه محنة العقل الحديث في العالم الإسلامي، بين من خلاله افتتان العقل المسلم بالتقدم العلمي الذي أحرزه الغرب، ودور المستشرقين في التمهيد لهذا الانبهار، ومما قاله بهذا الصدد: إن الأعمال الأدبية لهؤلاء المستشرقين، قد بلغت درجة خطيرة من الإشعاع، لا نكاد نتصورها"[48]، لذلك كان شديد الانتقاد لمنهج المستشرقين.

2 ـ إثبات أنّ حامل الرسالةـ أي النبيّـ لم يتدخّل في النصّ القرآنيّ، واستهل بن نبي بحثه في (الظاهرة الدينية) للحديث عن طبيعتها وكان الهدف من ذلك المقارنة بين الإتجاه الماورائي ، الذي يعتبر الدين أصيلا في الطبيعة البشرية والإتجاه المادي الذي يعتبر الدين مجرد مكون تاريخي للثقافة الإنسانية[49]، وفقا لتكوين الرؤية الكونية في المسائل الأساسية المطروحة أمام الإنسان[50]، وفي ضوء نتيجة الصراع بين الإلهي والمادي درس بن نبي (الحركة النبوية)[51] وخصائصها وبيَّن الطبيعة البشرية

[47] . ابن نبي ، الظاهرة القرآنية، ص 53 .

[48] . المرجع نفسه ، ص 54 .

[49] . المرجع نفسه ، ص 73 .

[50] . كمال الحيدري ، مناهج المعرفة، (قم : دار فراقد ، 1424 هـ ، ط1)، ص 30 .

[51] . ابن نبي ، الظاهرة القرآنية ، ص 83 .

والنفسية لظاهرة النبوة عموماً، ولأن البحث في ظاهرتين رئيسيتين كانت منشأ ظهور (أصول الإسلام)[52].

الأولى تحدث مالك بن نبي عن مصادر دين الإسلام، وقرر أن الإسلام هو الدين الوحيد بين جميع الأديان الذي ثبتت مصادره منذ البداية، على الأقل فيما يختص في القرآن، وأن هذا القرآن خلال تاريخه لم يتعرض لأدنى تحريف أو تبديل، وليست هذه حال العهدين القديم والجديد ، ثم عكف على دراسة شخصية (الرسول)[53]، واستنتج أن الذات المحمدية، لها علاقة وطيدة جدا بظاهرتي الكتاب السماوي والنبوة ومن هنا عكف على دراسة سيرة الرسول ﷺ بدءاً بطفولته، ومروراً بزواجه بخديجة رضي الله عنها، وصولاً إلى بعثته والوحي إليه ، ثم شرع بدراسة الوحي من حيث الكيفية وسعى إلى تميز السمات الخاصة بالنبي ﷺ لكي يتوصل إلى أن ظاهرة الوحي خارجة عن شخصه، وأنها ليست ظاهرة ذاتية، كما ذهب لذلك كثير من المستشرقين. ثم يحدد معنى الوحي بأنه: "المعرفة التلقائية والمطلقة لموضوع لا يشغل التفكير، وغير قابل للتفكير"[54].

3 ـ إثبات أن الرسالة أتت في سياقها الطبيعي باعتبارها حلقة مكملة لم سبقها، عندما عمد إلى ربط الإسلام بالظاهرة الدينية في مجملها، وذلك بإحلال النبي محمدﷺ مكانَه ضمن سلسلة الأنبياء، واعتبار نزول القرآن الكريم كخاتمة لعقيدة التوحيد، وهنا قام بدور اجتهادي مبدع في التوصل إلى ما وراء المدلول اللغوي واللفظي في التوصل إلى الأفكار الأساسية التي حاول القرآن الكريم ان يعطيها من خلال المتناثر من آياته الشريفة .

4 ـ إعمال العقل في النص الديني من خلال إنضواء القناعات الدينية تحت راية جديدة هي راية العقل ، وهذا المنهج والأسلوب العقلي حتى فيما يرتبط بالأخلاق والسياسة استخرج مسائله من

---

[52] . المرجع نفسه ، ص 101 .

[53] . المرجع نفسه ، ص 108 .

[54] . المرجع نفسه ، ص 143 .

المبادئ العقلية عبر الطرق المنطقية[55]، قال بن نبي: ""إن استطعنا إعداد الأسس العقلية الضرورية لهذه القناعة، فذلك ما نرجوه، وإلاّ فَحسْبُنا إثارة نقاش دينيّ موَسَّع وممنهج بغاية استدراج المثقف الجزائري بلُطْف ليضع بنفسه تلك الأسس لعقيدته""[56].

5 ـ استخدام المنهج التحليلي المقارن في مناقشة النص إذ إعتمد على معلومات لغوية وأركيولوجية بكثرة في سبيل "تتبع آثار مسألة الكتب المقدسة منذ النُّسخ الإغريقية ثُمّ اللاتينية للتوراة، والكتابات الآشورية والآرامية"[57]، وبالرغم من أن الروح العامة التي تحكم هذه الطريقة هي الأهتمام بالإلهيات خصوصا وبحوث الميتافيزيقيا التجريدية عموما[58] إلا أن بن نبي يقول: "ونحن نعتقد بأننا أنقذنا أهمّ ما فيه، أي الحرص على المنهج التحليلي في دراسة الظاهرة القرآنية"، ويحدد الهدف المزدوج المقصود بقوله: "إتاحة فرصة للشبّان المسلمين للتأمل في الدين، هذا من جهة، ومن جهة أخرى إقتراح إصلاح مناسب للروح السائدة في التفسير التقليدي"[59]، وقد استخدم هذا المنهج في بيانات متعددة منها:

أ ـ الحقائق القرآنية: إذ أثبت الصدور القطعي للآي القرآني من خلال إسلوب النقد المقارن عندما أختار نصوص مقتبسة من القرآن تتضمن حقائق حول مراحل التكوين وقارنها بنص التوراة الوارد في ذات الموضوع ، فكلا الكتابين يثبت الصانع لكن الإختلاف في تفاصيل وصف الخلق في نص التوراة، المباينة بالكلية لما ورد في القرآن، وهي غير مقبولة من وجهة نظر علمية، ومما يعضد دعوى كون ما ذكره القرآن صادقا من جهة الصدور لأنه يتوافق مع اكتشافات العقل البشري بعد أربعة عشر قرناً، ففي حدود العلوم الإنسانية، لا يمكن التصديق بتفسير قصة الخلق بتلك

[55] . الحيدري ، مناهج المعرفة ، ص 37 .

[56] . إبن نبي ، الظاهرة القرآنية ، ص142 .

[57] . المرجع نفسه ، ص 184 .

[58] . الحيدري ، مناهج المعرفة ، ص 37 .

[59] . ابن نبي ، الظاهرة القرآنية ، ص 57 .

التفاصيل زمنَ نزول القرآن ، وقف موريس بوكاي على هذه النتيجة الدّامغة: بالقول ''لو كان محمد هو مؤلّف القرآن، فإننا لا نجد تفسيرا لتمكّنه من اكتشاف الأخطاء العلمية الموجودة في التوراة، ثُمّ حذفها جميعاً ''[60]، ويعد بن نبي من مؤيدي المنهج العلمي الذي وضعته الفلسفة الحديثة في النقد التاريخي للكتب المقدسة وهو منهج يعتبر من مكاسب الحضارة الأوربية بالنسبة لدراسة التوراة والانجيل [61] .

ب ـ الانتساب للخط السماوي : أكد الإسلام انتماءه للديانات السماوية الأخرى التي جاء تأكيداً لها ولدعوتها ، وذكر هذا المعنى في قوله تعالي : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ الشورى/ 13، وقد تعرّض بن نبي لهذا المورد في'' العلاقة بين القرآن والتوراة''، قال: ''إنَّ القرآن يصرِّح بقوّة بأنه ينتسب إلى الخط التوراتي. وهو يُطالب دوماً بمكانته في السياق التوحيديِّ، وتبعاً لذلك فهو يؤكد بصراحة إمكان وجود مطابقة بينه وبين أجزاء التوراة الخمسة الأولى، وبينه وبين الإنجيل. وهو يصرِّح ، وبصفة قاطعة، بأنه ينتسب إلى تلك السلالة من الكتب السماوية، وهي الحقيقة التي يُذكِّرُ بها الرسولﷺ عند الحاجة[62]. ومن بين الآيات التي تنطوي على تلك القرابة بين القرآن من جهة والتوراة والإنجيل من جهة أخرى قوله تعالى: '' وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ'' يونس/ 37. وممَّا سبق، يَستنتِج بن نبي ما يأتي:

---

[60] . سذرن (أ . و)، نظرة الغرب إلى الاسلام ، تعريب علي فهمي خشيم وصلاح الدين محسن، (طرابلس ، ليبيا : دار ومكتبة الفكر ، 1975 ، ط1) ، ص 50 .

[61] . إسبينوز ، رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة وتقديم حسن حنفي، مراجعة فؤاد زكريا، (بيروت: دار التنوير، 2005، ط1)، ص 18.

[62] . ابن نبي ، الظاهرة القرآنية ، ص 33 .

1 ـ تمامية واستمرارية الرسالة الإسلامية : أن رسالة الإسلام متممة لما قبلها واستمرار لما سبقها ومصححة لما لحق بالأديان التوحيدية من تشويهات متعمدة ، ويظهر القرآن وكأنه يُتمِّمُ، بل ويُصحِّحُ ما جاء في التوراة في أكثر مِنْ شأْنٍ ، لكنَّ بن نبي لحظ أنَّ الكتاب الكريم لم يكتفي بتأكيد الفكر التوحيدي بل أضاف بُعداً ومدى تجاوز فيه الظاهرة الدينية إلى روح الدين، عندما أشار في أكثر من آية إلى أن الدين عند الله الإسلام، وأنه دين ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد ـ صلوات الله عليهم.

فاليهودية مثلا تستند إلى مبدأ اختيار إسرائيل لتؤسس ''نظاما كاملا، طابعُه ديني ونزعته قومية''[63]، أمّا في المسيحية فإنَّ فكرة التوحيد لحقَها ما لحقها من تشويه، فَلَمْ يَعُدِ اللهُ إلهاً واحداً، بل صار متعدِّداً.

2 ـ تصحيحية وتطويرية الرسالة الاسلامية : فإنَّ الإسلامَ لم يأتِ تكراراً للعقائد التي تقوم عليها الديانات السابقة له، بل ألغاها بإعلانه أنَّ الله واحد عند جميع البشر. يقول بن نبيّ: ''إنّ تعدد الآلهة وتشبيه الله بالبشر فكرة منبوذة بصفة نهائية''، وهو بذلك ساهم في تطوير رؤية باقي الأديان لمعتقداتها بل ومراجعتها لأغلب تلك المعتقدات ويضيف: ''وهكذا تغلغلت الفلسفة الدينية المستوحاة من القرآن في ثقافة التوحيد. ومن يدري؟ فقد يكون الحِراك الذي ظهر في الفكر المسيحي بعد نزول القرآن، من الحركة الألبيجية إلى حركة الإصلاح، أو إلى كل ما يشير إلى الدين[64]، من وحي التصور الميتافيزيقي الذي جاء به القرآن''.هذا هو معنى انتساب الإسلام إلى الحنيفية[65].

3ـ تكاملية الرسالة الإسلامية مع ما ورد في الكتب السماوية خاصة الأخلاق الخاصة بكل ديانة من ديانات التوحيد الثلاثة، والتي ستكون الأسس المنطقية لأنواع الرؤية الكونية أو النظام

---

[63] . سلامة كيله ، مقدمة في ملكية الارض في الاسلام ، (سوريا : دار المدى ، 2001 ، ط1) ، ص120.

[64] . إسبينوزا ، ص 329 .

[65] . ابن نبي ، الظاهرة القرآنية ، ص 84 .

الفكري والعقائدي الذي يحدد سلوك الإنسان في الحياة[66]، وأستنتج مالك بن نبي أنه إذا كانت الوصايا العشر الواردة في أجزاء التوراة الخمسة تدعو إلى " ترك فعل الشّر"، وأن الأناجيل تدعو إلى "عدم محاربة الشر بالشر" وإن القرآن الذي جاء تلخيصا وتحسينا للأخلاق السابقة له "يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر" ، فعمل مالك بن نبي بموازنة بين الرواية القرآنية والرواية التوراتية موضوعيا في قصة سيدنا يوسف عليه السلام، وإبراز أوجه المطابقة والاختلاف، ثُمَّ استنتج من ذلك أنَّ النبي محمداً ﷺ لم يكن على علم بالكتب اليهودية والمسيحية، وأنَّ وسطه الاجتماعي كان بعيدا كل البُعد عن أيَّة تأثيرات أو امتدادات للمسيحية واليهودية، وأنَّه، في زمن الرسول ﷺ لم تكن هناك ترجمة عربية للتوراة، ولكنه أخبر بما أخبرت به الكتب السماوية التي قبله فالرسالة والرسول مكملان لما سبقهما من رسل وكتب ومبعوث لذات الأهداف والغايات وهو التسليم لله بالوحدانية[67].

والحق أن ليس كل عملية تجميع أو عزل دراسة موضوعية ، وإنما الدراسة الموضوعية هي التي تطرح موضوعا من موضوعات الحياة العقائدية أو الإجتماعية أو الكونية وتتجه إلى درسه وتقييمه من زاوية قرآنية للخروج بنظرية قرآنية بصدده، وهو ما عمل عليه بن نبي عندما انطلق من واقع الحياة فيركز نظره على موضوع من موضوعات الحياة العقائدية أو الإجتماعية أو الكونية ويستوعب ما إثارته تجارب الفكر الإنساني حول ذلك الموضوع من مشاكل وما قدمه الفكر الإنساني من حلول وما طرحه التطبيق التاريخي من أسئلة ومن نقاط فراغ ثم يأخذ النص القرآني[68]، لا ليتخذ من نفسه بالنسبة إلى النص دور المستمع والمسجل فحسب، بل ليطرح بين يدي النص موضوعا جاهزا مشرقا بعدد كبير من الأفكار والمواقف البشرية ويبدأ مع النص القرآني حوارًا، المفسر يسأل والقرآن يجيب المفسر على ضوء الحصيلة التي استطاع أن يجمعها من خلال التجارب البشرية

[66] . كمال الحيدري، المدارس الفلسفية في العصر الاسلامي، (بيروت : مؤسسة الهدى ، 2013)، ص19 .

[67] . ابن نبي ، الظاهرة القرآنية ، ص 88 .

[68] . ابن نبي ، الظاهرة القرآنية ، ص 33 .

النافعة وهو يستهدف من ذلك أن يكتشف موقف القرآن الكريم من الموضوع المطروح والنظرية التي بإمكانه أن يستلهمها من النص من خلال مقارنة هذا النص بما استوعبه الباحث عن الموضوع من أفكار واتجاهات.

ومن هنا كانت نتائج التفسير الموضوعي نتائج مرتبطة دائما بتيار التجربة البشرية لأنها تمثل المعالم والإتجاهات القرآنية لتحديد النظرية الاسلامية بشأن موضع من مواضيع الحياة فترى كل ذي فن منه يستمد وعليه يعتمد[69]، ومن هنا ايضا كانت عملية التفسير الموضوعي عملية حوار مع القرآن الكريم واستنطاق له، وليست عملية استجابة سلبية بل استجابة فعالة وتوظيفا هادفا للنص القرآني في سبيل الكشف عن حقيقة من حقائق الحياة الكبرى.

مثلث المرسل والرسول والرسالة عند مالك بن نبي

من اللافت للنظر ذلك الإنسجام في الطروحات التي تتعلق بدور الكتاب الكريم في حياة الأُمة عند بن نبي، فقد درس المسالة من جهة الحركة الموجبة للتغيير في إطار الشريعة في أبعاد ثلاثة، هي المرسل والرسول والرسالة وهو بذلك حقق الحركة الموجبة للتغيير كونها جهد إنساني يربط الفكر بالوجود، ومنها أيضاً أن تكون بحثا عن الحقيقة التي تنتشل الإنسان من حالة الشك والاضطراب إلى حالة التوازن ، في الوقت الذي حاول بن نبي أن يجد طريقه الخاص في فهم القناعات الشخصية للنبيﷺ[70] في ظاهرتي القرآن والنبوة، فاستخدم لذلك مقياسين أحدهما ظاهري استخدمه للتحقق من وقوع الظاهرة (الوحي)، وهذا مقياس ذاتي محض، يقتصر على ملاحظته وجود الوحي خارج الإطار الشخصي، والآخر عقلي، وهذا مقياس موضوعي، يقوم على المقارنة الواقعية بين الوحي المنزل، وما ورد من تفاصيل محددة في كتب اليهود والنصارى، وأستوجب منه ذلك دراسة مقام

[69] . جلال الدين السيوطي ، الاتقان في علوم القرآن ، ضبط وتصحيح ، محمد سالم هاشم ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، ج1 ، (قم : مكتبة فخر الدين ، 1380 هـ ش ، ط1) ، ص13 .

[70] . ابن نبي ، الظاهرة القرآنية ، ص 147 .

الذات المحمدية في ظاهرة الوحي[71]، وهنا استعان بالمنهج التحليلي، ليقوم بتحليل خطاب جبريل للرسولﷺ، في سورة العلق وقول الأمين جبرائيل للنبي ﷺ (أقرأ) ورده بالقول (ما أنا بقارئ) ليخلص إلى أن الظاهرة القرآنية منفصلة عن الظاهرة النبوية؛ وبالتالي فثمة فصل قاطع بين الذات المحمدية، والوحي القرآني، وفي هذا الإطار إذا تكون الحاجة إلى دراسة نظريات القرآن الكريم حاجة حقيقية ملحة خصوصا مع بروز نظريات عديدة من خلال التفاعل بين إنسان العالم الإسلامي وانسان العالم الغربي بكل ما يملك من رصيد عظيم ومن ثقافة متنوعة في مختلف مجالات المعرفة البشرية حينما وقع هذا التفاعل بين إنسان العالم الإسلامي وإنسان العالم الغربي، ولكي يحدد موقف الإسلام من هذه النظريات، كان لا بد وأن يستنطق نصوص الإسلام، ويتوغل في أعماق هذه النصوص ليصل إلى مواقف الإسلام سلبا وايجاباً لكي يكتشف نظريات الإسلام التي تعالج نفس هذه المواضيع التي عاش بحثها التجارب البشرية الذكية في مختلف مجالات الحياة.

ثم درس بن نبي (الرسالة)[72] والقرآن الكريم، وهو بذلك يسلط الضوء على الجانب الثاني من عملية التغيير، لأن القرآن يتحدث مع البشر في ضعفه وقوته، في استقامته وانحرافه، في توفر الشروط الموضوعية له وعدم توفرها، وأعتبار القرآن فيض على الوجود رادًا على الذين يريدون أن يفسروا الظاهرة القرآنية وفق نظرية (اللاشعور) الفرويدية ذات القصور الواضح لأنه يؤول المعطيات بحسب ما يعتقده، مما يجعل هذا التأويل ذاتيا وبه تنعدم الموضوعية التي تعتبر شرطا من الشروط العلمية. مما يجعله أقرب إلى الافتراض الفلسفي منه إلى النظرية العلمية، لينفتح الباب واسعا أمام بن نبي ليؤكد أن الوحي من حيث كونه ظاهرة تمتد في حدود الزمن، يتميز بخاصتين ظاهرتين هامتين: أن نزوله على دفعات وفترات وهو ما عبر عنه بالتنجيم[73].

---

[71]. المرجع نفسه ، ص 161 .

[72]. ابن نبي ، الظاهرة القرآنية، ص 173 .

[73]. ابن نبي ، االظاهرة القرآنية ، ص 188 .

وهو يقرر بهذا الصدد أن القرآن لو نزل جملة واحدة، لتحول سريعاً إلى كلمة مقدسة خامدة، وإلى فكرة ميتة، وإلى مجرد وثيقة دينية، لا مصدراً يبعث الحياة في حضارة وليدة. وفوق ذلك فهو يرى أن الحركة التاريخية والإجتماعية والروحية التي نهض بأعبائها الإسلام، لا سر لها إلا في هذا التنزل الدفعي، والخاصية الأخرى إنّ نزوله يأتي لمعالجة موضوع معين ومحدد. يقول في بيان هذا المعنى: "فكل وحي مستقل يضم وحدة جديدة إلى المجموعة القرآنية".

وحول العلاقة بين القرآن والكتاب المقدس، يذكر مالك بن نبي أن القرآن على الرغم من أنه يعلن بكل وضوح انتمائه لطائفة الكتب السماوية، فإنه يحتفظ بصورته الخاصة في كل فصل من فصول الفكرة التوحيدية ، وعند الحديث عن ما وراء الطبيعة، يؤكد بن نبي: أن الإسلام يعرض عقيدته الغيبية الخاصة بطريقة أكثر مطابقة للعقل، وأكثر تدقيقاً، وفي اتجاه أكثر روحية ، وهو ما يميز القرآن عن عبقرية الإنسان فالدين في ضوء القرآن يبدو ظاهرة كونية، تحكم فكر الإنسان وحضارته، كما تحكم الجاذبية المادة، وتتحكم في تطورها.

الخاتمة

الجهود الفكرية لمالك بن نبي في مجال علوم القرآن لا تقتصر على كتاب (الظاهرة القرآنية) وإنما تناثرت آراءه في كتبه كلها تقريبا، لأنه يعتقد أن من شروط النهضة في العالم الاسلامي أن يعاد فهم آيات القرآن الكريم وفق منهج يتوائم والتطور الحاصل في العلوم و الظواهر الخارجية المؤثرة على تشكل حالة الوعي ، والتي ساهمت النهضة المادية في أوروبا على ترسيخ الفجوة بين أبناء الأمة من الشباب الذين يتلقون أفكارهم وأتجاهاتهم عن الثقافة الغربية، وبين الإيمان بالكتاب الكريم فهو يرى مناهج التفسير القديمة لم تعد تفي بالغرض الذي وجد لأجله علم التفسير، بل ويعتبر مشكلة التفسير في صورة خطيرة بالنسبة لعقيدة المسلم.

ويرى بن نبي أن مشكلة تفسير القرآن هي مشكلة العقيدة الدينية للمتعلم والأفكار الدارجة للعامة ، ويقترح بن نبي تعديل منهج التفسير محتوى وصورة في ضوء التجربة التاريخية لعلم

التفسير ، ثلاثية للنهضة كمعالجة لمشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، فهو يرى أن الحضارة التي يريد القرآن الكريم أن يؤسس لها لابد لتحقيقها من أن تركز على الإنسان باعتباره قيمة مركزية في الثقافة الإسلامية ولحل مشاكله طرح ثلاثية توجيه الثقافة وتوجيه العمل وتوجيه رأس المال، فتكون عندئذ القيمة الإجتماعية للأمة مرتفعة وحضارتها متقدمة فيكون التراب غالي القيمة، ويكون العمل مقدسا لعلاقته بالتراب رمز البقاء ، ونحن في العالم الإسلامي نعرف البقاء ببعده التاريخي اقصد المجد، إلا أن للبقاء بعد مضارع يخص المستقبل، مستقبل الإنسان الذي لا يدرك معنى الوقت ولسنا نعرف إلى الآن فكرة الزمن الذي يتصل اتصالا وثيقا بالتاريخ.

يقول بن نبي : إن وقتنا الزاحف صوب التاريخ لا يجب أن يضيع هباء كما يهرب الماء من ساقية خربة ولاشك أن التربية هي الوسيلة الضرورية التي تعلم الشعب العربي والاسلامي تماما قيمة هذا الأمر، ومن هنا حاول بن نبي تربية المفهوم الحضاري في المخيال الإسلامي في سبيل إيجاد حالة الوعي الهادفة ، مقترحا ثلاثية التربية : الأشياء ـ الأشخاص ـ الأفكار، وهو بذلك يضع خطوات المعرفة بالفارق الحضاري بتحصيل المعرفة بالأشياء ومن ثم ايجاد العلاقة بينها على مستوى البساطة والتعقيد، ومن ثم اتخاذ الأفكار المناسبة إزاء كل منها، كل ذلك في محاولة لتكوين يقين جديد بمعرفة تتوائم مع التطور الحاصل في الغرب عند الشباب المسلم، وتلك هي مناهج مالك بن نبي، لاستثارة هذا الوعي، وقد أيقن أن إعادة اصلاح المنهج التفسيري القديم هو الطريق الأفضل لردم الفجوة التي أحدثها إعجاب الشباب المسلم بالحضارة الغربية .

المصادر

1. ابن نبي ، مالك ، انتاج المستشرقين وأثرها في الفكر الإسلاميِّ الحديث ، ترجمة عبد الصبور شاهين ،(دمشق : دار الفكر ، 1987).

2. ابن نبي مالك، الظاهرة القرآنية ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، تقديم محمد عبد الله دراز و محمود محمد شاكر ، (دمشق : دار الفكر ، 1987 ، ط4 ، اعادة 2000م).

3. ابن نبي مالك، شروط النهضة ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، (بيروت : دار الفكر ، 1986).

4. ابن نبي مالك، مشكلة الافكار في العالم الاسلامي ، ترجمة بسام بركة ، أحمد شعبو ، (بيروت ، دمشق : دار الفكر المعاصر ، دار الفكر ، ط1 : 1988 ـ ط2 : 2002).

5. إسبينوزا ، رسالة في اللاهوت والسياسة ، ترجمة وتقديم حسن حنفي ، مراجعة فؤاد زكريا، (بيروت : دار التنوير ، 2005 ، ط1).

6. إنصاف أحمد ، المعرفة والتجربة، (الجزائر : دار مارينا ، 2004 ، ط1).

7. بدوي ،عبد الرحمن، مدخل جديد إلى الفلسفة ،(طهران : دار مدين مطبعة رسول ، 1428 هـ ، ط1).

8. البوطي ، محمد سعيد رمضان، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ، (بيروت: دار الفكر المعاصر ، 2011 ، ط11).

9. حجازي ، أكرم ،رحلة في صميم عقل السلفية الجهادية تنظيم القاعدة نموذجا ، (تونس : المعهد التونسي للدراسات الاستراتيجيّة ، 2006).

10. الحيدري ، كمال، المدارس الفلسفية في العصر الاسلامي ، (بيروت : مؤسسة الهدى ، 2013).

11. الحيدري ، كمال، مناهج المعرفة ، (قم : دار فراقد ، 1424 هـ ، ط1).

12. خاتمي ، محمد ، عالم الغد وحوار الحضارات، ترجمة أمير علي نجفي ، (طهران : دار باز للنشر ، 2001).

13. خليل ، احمد خليل ، السارترية ، (بيروت : المؤسسة الجامعية للدراسات ، 1982 ، ط2).

14. ديكارت ، رينيه، حديث الطريقة، ترجمة وشرح وتعليق عمر الشارني ، (بيروت : المنظمة العربية للترجمة ، منتدى مكتبة الاسكندرية ، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية ، 2008 ، ط1).

15. سذرن (أ . و) ، نظرة الغرب إلى الاسلام ، تعريب علي فهمي خشيم وصلاح الدين محسن ، (طرابلس ، ليبيا : دار ومكتبة الفكر ، 1975 ، ط1).

16. الصدر ، محمد باقر، فلسفتنا ، (بيروت : دار التعارف ، 1998 ، ط2).

17. الطباطبائي ، محمد حسين، أصول الفلسفة ، نقله إلى العربية جعفر السبحاني (قم : مؤسسة الامام الصادق ، 1426 ، ط) .

18. عبد المهيمين أحمد، نظرية المعرفة، (بيروت : دار الوفاء لدينا ، 2001 ، ط1).

19. عرابي عبد القادر ، المناهج الكيفية في العلوم الإجتماعية،(بيروت : دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر،2014) .

20. كير كيغارد، ما بعد النص، ترجمة اياد خليفة، (باريس : غليمارد ، 1941).

21. كيله، سلامة، مقدمة في ملكية الارض في الاسلام ، (سوريا : دار المدى، 2001 ، ط1).

22. اليزدي محمد تقي مصباح، المنهج الجديد في تعليم الفلسفة ، ترجمة محمد عبد المنعم الخاقاني، (قم : مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين ، 2005).

23. السيوطي ، جلال الدين، الاتقان في علوم القرآن ، ضبط وتصحيح ، محمد سالم هاشم ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، ج1 ، (قم : مكبة فخر الدين ، 1380 هـ ش ، ط1).

مساهمة علماء المغرب الأوسط (الجزائر) في التفسير وعلومه تدريسا وتأليفا خلال القرون الأربعة الأخيرة من العصر الوسيط (القرن السابع إلى القرن العاشر هجري/ ق13 إلى ق16م).

أ. عبيد بوداود، جامعة معسكر، الجزائر

مقدمة:

منذ أن أصبح المغرب الأوسط (الجزائر) جزءا من العالم الإسلامي بعد استكمال عملية الفتح، انخرط سكانه في نشر الإسلام شمالا وجنوبا، وساهموا في نهضته الفكرية والحضارية، وكان لهم شأن كبير في بث العلوم والمعارف. ومن بين هذه العلوم، التفسير أي تفسير القرآن الكريم وعلومه. وحتى يقربوا معانيه من أفهام الناس، عقدوا حلقات التدريس في المساجد، والتي كان بعضها يحوز على كراسي علمية خاصة بالتفسير، يقصدها طلاب العلم من كل حدب وصوب، كما اهتموا بالتأليف في هذا الباب، فخلفوا تراثا مهما، بعضه مع الأسف لم يصلنا-وهو الجزء المهم- إلا في شكل عناوين، بينما وصلنا جزء يسير منه، بعضه لا يزال مخطوطا، والبعض الآخر تم تحقيقه، وأصبح متوافرا بين أيدي الناس.

كانت لدينا في البداية رغبة في التعريف بكل إسهامات علماء المغرب الأوسط في التفسير وعلومه خلال العصر الوسيط، لكن مع بداية جمع المادة تبين أن الأمر ليس ممكنا، لأنّ هذا يتطلب العودة إلى عدد هائل من المصادر بمختلف أنواعها، لاسيما كتب التراجم والطبقات وكتب الرحلات وكتب التاريخ العام، وهو ما لا يسمح به الوقت الممنوح من أجل تقديم هذه المساهمة،

فآثرنا التركيز على القرون الأربعة الأخيرة من العصر الوسيط أي القرن السابع والثامن والتاسع والعاشر هجري، وهو ما يتزامن تقريبا مع العهد الزياني في جزائر العصر الوسيط.

وحتى لا نخرج عن سياق الموضوع، لا نريد من خلال هذه المساهمة تقديم ترجمات مستفيضة لأولئك الفقهاء الذين ساهموا في التفسير وعلومه، وإنما سوف نقتصر على ذكر أسمائهم، ومناطق انتمائهم، وشكل مساهمتهم، لأن المصادر المعتمد عليها تحمل معلومات واسعة حول تكوينهم وشيوخهم وتلامذتهم ومؤلفاتهم ورحلاتهم، يمكن العودة إليها لمن أراد أن يجمع عنهم معلومات أوفر.

إن الفقهاء المعنيين بهذا المقال، هم الذين ينتمون بالأصل لبلاد المغرب الأوسط (الجزائر)، أو ممن استوطن إحدى مدنه، وصار من أهلها.

قسمنا الموضوع إلى مجموعة من العناصر، استهللناه بعنصر عبارة عن مدخل تعرضنا فيه إلى عينات من مساهمات فقهاء القرون الإسلامية الأولى في علم التفسير، ثم بعد ذلك أفردنا عناصر مستقلة لكل قرن من القرون الأربعة الأخيرة من العصر الوسيط، أي القرن السابع هجري، والقرن الثامن هجري، والقرن التاسع هجري، والقرن العاشر هجري، كما خصصنا عناصر أخرى أدمجنا فيها بعض القرون، وهي التي تخص علماء عاشوا في قرنين متتاليين، وهو ما يخص القرن السابع والثامن هجريين، والقرن الثامن والتاسع هجريين، محترمين التسلسل الزمني قدر الإمكان لتاريخ وفاة أولئك العلماء.

أ- عينات من مساهمات فقهاء وعلماء القرون الإسلامية الأولى في علم التفسير:

ساهم علماء وفقهاء المغرب الأوسط خلال القرون الإسلامية الأولى بعدد من التفاسير لكتاب الله العزيز، بالإضافة إلى تدريس علم التفسير في حلقات العلم بالمساجد والجوامع، وهناك عدد لا

يستهان به من العلماء والفقهاء الذين كانت لهم تلك المساهمات النوعية، وسوف نقتصر في هذا العنصر على ذكر بعض النماذج:

1ـ **عبد الرحمن بن رستم بن بهرام (ت171هـ/788م)**: هو مؤسس الإمارة الرستمية في المغرب الأوسط، وعاصمتها تاهرت سنة 160 ه، وهي أول إمارة مستقلة عن المشرق الإسلامي، وكانت على المذهب الإباضي. وبالإضافة إلى اعتباره أول إمام للرستميين[1]، كان من كبار علماء الإباضية وفقهائها، ألف كتابا في تفسير القرآن الكريم، لكنه من الكتب المفقودة التي لم تصلنا[2].

2ـ **هود بن محكم الهواري (ت بعد 250هـ/864م)**: يعتبر من كبار فقهاء الإباضية، نشأ بعاصمة الإمارة الرستمية تاهرت، وتعلم فيها[3]، وهو من علماء القرن الثالث هجري، له تفسير كتاب الله العزيز، الذي اشتهر به، ويعتبر من التفاسير الجليلة، تمكن الأستاذ بلحاج بن سعيد شريفي من تحقيقه، وصدر في أربعة مجلدات[4]. الكتاب طبع لدى دار الغرب الإسلامي ببيروت طبعة أولى سنة 1990.

3ـ **أو عبد الملك البوني، مروان بن علي الأسدي القطان (ت493هـ/1047م)**: أصله من الأندلس، ونشأ بمدينة بونة التي ينسب إليها، وكانت له رحلة إلى المشرق. استقر بمدينة بونة،

---

[1] عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1980، ص147–148.

[2] محمد بن موسى بابا عمي، وآخرون، معجم أعلام الإباضية من القرن الأول الهجري إلى العصر الحاضر، قسم المغرب الإسلامي، الاستشارة والمراجعة محمد صالح ناصر، الجزء الثاني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، 1421ه/ 2000م، ص 248.

[3] عادل نويهض، المرجع السابق، ص 338.

[4] محمد بن موسى بابا عمي، وآخرون، المرجع السابق، 443.

حيث زاول بها مهنة التدريس بالإضافة إلى التأليف، ويعتبر من الفقهاء المفسرين[4]، لكننا لم نعثر له على أثر لأعماله في التفسير.

4- **أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم بن مناد السدراتي الورجلاني** (500-570هـ/1105-1175**م**): من كبار فقهاء الإباضية. أصله من مدينة ورجلان، ولد بمدينة سدراتة. كانت له رحلة إلى الأندلس، التي استقر بها بعض الوقت طلبا للعلم، ثم انتقل إلى المشرق، حيث تتلمذ على كبار علمائه، قبل أن يستقر به المقام بورجلان[5]. من آثاره المشهورة تفسير القرآن الكريم، وهو في سبعين جزءا. قال البرادي:"رأيت منه في بلاد ريغ سفرا كبيرا لم أر، ولا رأيت قط، سفرا أضخم منه، حررت أنه يجاوز سبعمائة ورقة أو أقل أو أكثر، فيه تفسير فاتحة الكتاب والبقرة وآل عمران...فلم أر ولا رأيت أبلغ منه ولا أشفى للصدر في لغة أو إعراب أو حكم مبين أو قراءة ظاهرة أو شاذة أو ناسخ أو منسوخ أو جميع العلوم منه..."[6].

اكتفيت بذكر هذه النماذج الأربعة كعينات لمساهمة فقهاء وعلماء القرون الإسلامية الأولى في علم التفسير تدريسا وتأليفا ببلاد المغرب الأوسط، وذلك كتوطئة للدخول في العناصر الرئيسة للموضوع، وللتدليل على أن القرون الأولى شهدت هي الأخرى نشاطا متواصلا لعلم التفسير.

ب- مساهمات فقهاء القرن السابع هجري (**ق**13**م**):

برز خلال القرن السابع هجري عدد من فقهاء وعلماء المغرب الأوسط، ممن كانت لهم إسهامات في علم التفسير، وتزامن هذا مع نهضة علمية وفكرية عرفها المغرب الإسلامي برمته، حيث شهدت المنطقة تنافسا بين ملوكها وأمرائها على الاهتمام بالعلم والعلماء، والاعتناء بطلبة العلم.

---

[4] عادل نويهض، المرجع السابق، ص 52.

[5] نفسه، ص 341.

[6] نقلا عن عادل نويهض، نفسه، ص 342. راجع محمد بن موسى بابا عمي، المرجع السابق، 482.

ومن العلماء الذين ينتمون إلى المغرب الأوسط، وكانت لهم مساهمات في علم التفسير، نذكر ما يلي:

1ـ **أبو زكرياء يحيى بن أبي علي الزواوي** (**ت**611**هـ/**1214**م**): أصله من قبيلة زواوة، وينسب إلى بني حسن من بلاد بجاية. بدأ تحصيله العلمي في قلعة بني حماد، ثم رحل إلى المشرق حيث لقي عددا من الفقهاء والعلماء. وبعد رحلته المشرقية استقر ببجاية، وانقطع بها للتدريس وبث العلم[8]. ومن العلوم التي كان يدرسها، لاسيما في شهر رمضان الكريم تفسير القرآن العظيم في حلقات، وسماع الحديث النبوي الشريف.[9] والظاهر أن هذه الدروس كان يلقيها طول السنة، حتى قبض فجأة وهو على هذه السيرة.

2ـ **أبو بكر علي بن عبد الله بن ناشر بن المبارك الوهراني، ويقال أبو الحسن** (**ت**615**هـ/**1219**م**): أصله من مدينة وهران، كانت له رحلة إلى المشرق على عادة المتقدمين، استوطن مدينة دمشق، وعمل خطيبا في جامع داريا بغوطة دمشق. جمع بين الشعر والنحو واللغة والتفسير، ومن المؤلفات التي خلفها "تفسير القرآن الكريم".[10]

3ـ **أبو الحسن علي بن أحمد بن الحسن بن إبراهيم الحرالي التجيبي** (**ت**638**هـ/**1241**م**): أصله من الأندلس، وولد بمراكش، وارتحل إلى المشرق للاستزادة من العلم، ثم استوطن بجاية.[11] من آثاره: "مفتاح الباب المقفل على فهم القرآن المنزل"[12]، وغيره من التآليف.

---

[8] الغبريني أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق وتعليق عادل نويهض، منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 1969، ص 127.

[9] نفسه، ص 128.

[10] عادل نويهض، المرجع السابق، ص 349.

[11] الغبريني أبو الحسن أحمد، المصدر السابق، ص 143.

[12] نفسه، ص 144.

برع في علم التفسير، الذي تميز فيه بمنهج خاص به، "وله تفسير على كتاب الله تعالى" لم تذكر المصادر عنوانه.[13]

4ـ **أبو زكريا يحيى بن محمد بن موسى التجيبي التلمساني (ت 652هـ/1254م)**: ينتسب إلى علماء وفقهاء مدينة تلمسان، عرف بنشاطه الوعظي في المشرق، استوطن مدينة الإسكندرية، وعد من المفسرين، له "تفسير القرآن الكريم".[14]

5ـ **أبو عثمان سعيد بن علي بن محمد بن عبد الرحمن بن زاهر الأنصاري البلنسي** (577ـ654هـ/ 1181ـ1256م): أندلسي الأصل من ساكنة بلنسية، انتقل إلى العدوة المغربية، واستقر بمدينة بجاية، وانقطع بها للتدريس،[15] "ولم يكن له عمل ولا حرفة ولا خلطة للناس سوى الاشتغال بإقراء القرآن رواية وتفهيما وبسطا وتعليما".[16]

6ـ **أبو الحسن علي بن مؤمن بن محمد بن علي الحضرمي عرف بابن عصفور** (597ـ669هـ/1200ـ1271م): أصله من إشبيلية، وسكن بجاية[17]، وتوفي بتونس. "وأخبرني بعض أصحابنا، أنه شرح جزءا من كتاب الله العزيز، وسلك فيه مسلكا لم يسبق إليه من الإيراد والإصدار والاعذار، بما يتعلق بالألفاظ ثم بالمعاني ثم بإيراد الأسئلة الأدبية على أنحاء مستحسنة، وقال: لو أعانني الوقت وأمدني الله بالمعونة منه وأكمل هذا الشرح على هذا المنزع، لكان ذخيرة العالم...".[18]

[13] نفسه، ص 145.

[14] عادل نويهض، المرجع السابق، ص 83.

[15] الغبريني أبو الحسن أحمد، المصدر السابق، ص 289.

[16] نفسه، ص 290.

[17] نفسه، ص 317.

[18] نفسه، ص 318– 319.

هذا ما وقفنا عليه من تراجم فقهاء وعلماء القرن السابع هجري، ممن كانت لهم مساهمات في تفسير القرآن الكريم، وذلك سواء عن طريق التدريس أو التأليف، وهم في غالبيتهم ممن استقر به المقام في مدينة بجاية أو تلمسان، وهما الحاضرتان الأكبر ببلاد المغرب الأوسط في ذلك القرن، وما من شك أننا أغفلنا الإتيان على ذكر العديد من الفقهاء والعلماء الذين عرفهم هذا القرن ممن كان لهم اهتمام بتفسير القرآن الكريم، سواء ممن سكتت عنهم المصادر، أو لم نستطع الوصول إليهم.

جـ مساهمات فقهاء القرنين السابع والثامن هجريين (ق13ـ 14م):

أفردنا هذا العنصر للفقهاء المهتمين بعلم التفسير ممن عاصروا القرنين السابع والثامن هجريين، ولم يتعد عددهم الثلاثة فقهاء، وهم على النحو الآتي:

1ـ **أبو العباس الغبريني أحمد بن أحمد (وقيل: محمد) بن عبد الله بن محمد بن علي (644ـ704هـ/1246ـ1304م)**: صاحب كتاب عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية. أصله من بني غبرين، وهم بطن من البربر المستوطنين لأعالي وادي سباو. نشأ بمدينة بجابة، وبها وبمدينة تونس تلقى تكوينه في علوم عديدة. وبلغ عدد شيوخه السبعين شيخا. جمع بين التاريخ والحديث والتفسير وغيرها من علوم عصره، واعتبر من أبرز فقهاء المذهب المالكي، لكننا لم نقف عند طبيعة مشاركته في التفسير، والتي في الغالب لا تخلو من التدريس أو التأليف.[19]

2ـ **أبو علي منصور بن أحمد بن عبد الحق المشدالي (631ـ731هـ/1234ـ1331م)**: قال عنه الغبريني من أصحابنا ومعاصرينا، ووصفه بـ:" الشيخ الفقيه، المحصل المتقن، المجيد المتفنن"[20]. كانت له رحلة إلى المشرق لقي فيها كبار علماء عصره، فعاد بعلم وفير، وبرز في الفقه

[19] عادل نويهض، المرجع السابق، ص 248.

[20] الغبريني أبو الحسن أحمد، المصدر السابق، ص 229.

وأصول الدين،كما له إلمام بعلوم أخرى كعلم المنطق والعربية. وهو يقرئ أكثر العلوم التي يحيط بها، ومن بينها تفسير القرآن العظيم.[21]

3ـ **محمد بن إبراهيم بن أحمد العبدري التلمساني عرف بالآبلي**(681ـ757هـ/1282ـ1356م) تلمساني الأصل، وبها ولد ونشأ، وتلقى تكوينه الأولي. وصفه ابن خلدون بشيخ العلوم العقلية، وهو أحد شيوخه الذين أخذ عنهم العلوم العقلية والحكمية. كان لهم تأثير كبير على تدريس ونشر العلوم العقلية بكل بلاد المغرب.[22]

وصفه صاحب نيل الابتهاج بـ:" الإمام العلامة المجتمع على إمامته، أعلم خلق الله بفنون المعقول"،[23] وكانت له مشاركة في علم التفسير، وأفاده تضلعه في علم المنطق على رفع الكثير مما أشكل في فهم معاني بعض سور القرآن الكريم.[24]

دـ مساهمات فقهاء القرن الثامن هجري (ق 14م):

أحصينا ترجمات لثمانية علماء من القرن الثامن هجري، ممن كانت لهم مساهمات في تفسير القرآن الكريم أو علومه سواء عن طريق التدريس أو التأليف، وهم على النحو الآتي:

[21] نفسه، ص 229– 230. راجع كذلك: التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، عناية وتقديم الدكتور عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات دار الكاتب، طرابلس الغرب، الجماهيرية، الطبعة الثانية، 2000، ص609–610. التنبكتي أحمد بابا، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، دراسة وتحقيق الأستاذ محمد مطيع، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، 2000، الجزء الثاني، ص 247–249.

[22] ابن خلدون عبد الرحمن، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1413ه/ 1992م، المجلد السابع، ص 459.

[23] التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج...، المصدر السابق، ص 411.

[24] نفسه، ص 413– 416. راجع ترجمة الآبلي عند التنبكتي أحمد بابا، كفاية المحتاج...، المصدر السابق، ج2، ص ص 54–58.

1ـ **أبو عبد الله محمد بن محمد بن مسعود الباهلي الجياني ثم البجائي المعروف بابن المفسر(ت743هـ/1342م)**: أصله من مدينة جيان بالأندلس، ثم استوطن بجاية. وصف بنادر العصر، وبالعالم المصنف المفسر.[25] لم نقف على مؤلفاته في التفسير.

2ـ **أبو عبد الله محمد بن أحمد بن بكر بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن علي القرشي المقري (ت758هـ/1356م)**: عالم جليل طبقت شهرته الآفاق، وعد من كبار علماء العدوة المغربية. تلمساني المولد والمنشأ، جمع عدة علوم من آداب وتاريخ وعربية وفقه وأصول وجدل ومنطق وتصوف وغيرها، وكان يقوم على "التفسير أتم القيام".[26]

وورد عند صاحب نيل الابتهاج نقلا عن الخطيب ابن مرزوق الجد في حق المقري:" كان صاحبنا المقري معلوم القدر مشهور الذكر ممن وصل إلى الاجتهاد المذهبي ودرجة التخيير والتزييف بين الأقوال... ".[27]

3ـ **أبو العباس أحمد بن العباس النقاوسي (ت بعد 765هـ/ 1364م)**: من أهل تلمسان. غادرها قبل الحصار المريني الذي ضربه السلطان أبو الحسن على المدينة أواسط سنة 735هـ[28]

---

[25] ابن فرحون المالكي إبراهيم بن نور الدين، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، دراسة وتحقيق مأمون بن محيي الدين الجنان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1996، ص 416. ورد عند ابن قنفد بخصوص وفاته ما يلي: " وتوفي الشيخ الفقيه المحدث أبو عبد الله محمد بن يحيى الباهلي المفسر البجائي ببجاية سنة أربع وأربعين وسبعمائة". ابن قنفد أحمد، شرف الطالب في أسنى المطالب، تحقيق محمد حجي، ضمن كتاب ألف سنة من الوفيات في ثلاثة كتب، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1976، ص 79.

[26] ابن فرحون المالكي إبراهيم بن نور الدين، المصدر السابق، 382-383. راجع ترجمته عند: التنبكتي أحمد بابا، كفاية المحتاج، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ص 62-67.

[27] التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص 420.

[28] انتهى هذا الحصار الذي دام قرابة السنتين، باقتحام مدينة تلمسان يوم 27 رمضان 737هـ من قبل المرينيين، وقتل السلطان الزياني أبي تاشفين عبد الرحمن الأول. وكان المرينيون أثناء هذا الحصار قد استولوا على معظم أراضي الدولة الزيانية، وأدى هذا الاقتحام إلى انقطاع الدولة الزيانية إلى أن تم بعثها من جديد سنة 749هـ من قبل الأخوين أبي سعيد

واستقر بمدينة تونس، حيث اشتغل فيها بالتدريس[29]، وأجاد العديد من العلوم. التقى به الرحالة خالد البلوي في تونس سنة 737 هـ أثناء رحلته إلى المشرق، وأخذ عنه العديد من العلوم، وقرأ عليه جميع تآليفه، ووصفه بقوله:" هو الشيخ الفقيه العالم...حافظ مجيد، وحامل مجيد، وناقل سديد وناقد شديد، وعالم فريد، ومدرس مقيد، له طبع حل فيه الذكاء والنبل..."[30]

أتقن العديد من العلوم، وبرز في علم البيان والعروض والأدب والنحو، وعلم الأصول والجدل والحديث، بالإضافة إلى إحاطته بعلم التفسير.[31]

4ـ **أبو علي منصور بن علي بن عبد الله الزواوي** (710**هـ/**1310**م كان حيا بعد السبعين وسبعمائة**): سكن مدينة تلمسان، ولا نعرف على وجه الدقة تاريخ قدومه عليها. وفي سنة 753هـ انتقل إلى الأندلس، فانتظم في سلك التدريس بإحدى مدارسها مع جراية مهمة، وكان يدرس الفقه والتفسير، كما تصدر للفتوى. وفي سنة 765 هـ صرف عن الأندلس[32]، وعاد إلى تلمسان ليمارس بها التدريس[33].

5ـ **أبو عبد الله محمد بن أحمد بن علي بن يحيى بن علي الشريف التلمساني** (710ـ 771**ه/**1310ـ1369**م**): من أهل تلمسان، ومن كبار علماء المغرب الأوسط، بل المغرب الإسلامي برمته، ومن كبار المفسرين "فسر القرآن خمسا وعشرين سنة بحضرة أكابر العلماء

عثمان الثاني وأبي ثابت. أنظر: عبيد بوداود، ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط ما بين القرنين السابع والتاسع الهجريين (ق13–15م) دراسة في التاريخ السوسيو– ثقافي، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2003، ص 161.

[29] عادل نويهض، المرجع السابق، ص 331–332.

[30] البلوي خالد بن عيسى، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، مقدمة وتحقيق الحسن السائح، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، دون تاريخ، الجزء الأول، ص 187.

[31] نفسه، ص 188. يمكن العودة إلى: التنبكتي أحمد بابا، كفاية المحتاج، المصدر السابق، الجزء الأول، ص ص 91–92. وكذلك: التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص 95–96.

[32] التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج، المصدر نفسه، ص611 .

[33] التنبكتي أحمد بابا، كفاية المحتاج، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص 250.

والصلحاء والملوك، عالما بقراءاته وفنونه من بيان وأحكام وناسخ ومنسوخ وغيرها، مع إمامته في الحديث وفقهه وعربيته ورجاله وفنونه، وفي أصول الدين والذب عن السنة ودفع الإشكال، قائما بالحق، صحيح النظر، متدربا في تعليم الغوامض، حسن التأليف...يقرئ المدونة بعد التفسير حتى مات. لم ينتفع الطلبة في وقته بأحد في مصر من الأمصار ما انتفعوا به".[34]

ومن السلاطين الذين فسر القرآن العظيم بحضرتهم السلطان المريني أبي عنان، حيث كان يحضر مجالس تفسيره في مدينة فاس، ولم يكن يجرؤ أي عالم على التقدم للتفسير بحضوره، حيث اعترفوا جميعهم بتقدمه عليهم في هذا الباب، ودانوا له بالتفوق.[35]

وعينه السلطان الزياني أبو حمو موسى الثاني للتدريس بالمدرسة التي بناها على والده أبي يعقوب، دون سواه من علماء عصره، واستهل بها التدريس يوم 5 صفر 765هـ، وأقيم حفل كبير بهذه المناسبة، وحضر السلطان دروس أبي عبد الله الشريف.[36] "وحضر مجلس إقرائه فيها جالسا على الحصير، تواضعا للعلم، وإكراما له...وطول الله مدته حتى ختم السيد أبو عبد الله المذكور تفسير القرآن العزيز فيها، فاحتفل أيضا لحضور ذلك الختم، وأطعم فيه الناس، وكان موسما عظيما."[37]

---

[34] نفسه، الجزء الثاني، ص 76.

[35] نفسه، ص 75.

[36] ابن خلدون أبو زكرياء يحيى، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، المجلد الثاني، تحقيق ألفرد بل، مطبعة فونطانة، الجزائر، 1910، 136.

[37] تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان لمحمد بن عبد الله التنسي، حققه وعلق عليه محمود بوعياد، إصدارات المكتبة الوطنية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص 180.

ورغم أن أبا عبد الله الشريف كان قليل التأليف، لكنه قضى حياته كلها في التدريس، وتخرج على يديه كبار العلماء، وكان أكثر اعتنائه بالتفسير، والذي كان منكبا على إقرائه يوميا.[38]

6ـ **محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن محمد بن مرزوق الخطيب** (710ـ 781هـ/1310ـ1379م): من كبار علماء تلمسان وفقهائها، يلقب بالجد والخطيب، ويكنى بشمس الدين. له مشاركة في عدة علوم، لاسيما أصول الدين، وعلم التفسير، بالإضافة إلى قرضه للشعر، له عدة مؤلفات.[39]

7ـ **أحمد بن محمد بن أحمد المسيلي (ت بعد 785هـ/1383م)**: فقيه من مدينة المسيلة، ورد ذكره عند صاحب كفاية المحتاج بالبسيلي بدل المسيلي، وأظنه تصحيف. انتقل إلى تونس، ودرس على يد أبي الحسن البطرني، وابن عرفة، الذي بدأ يحضر دروسه سنة 785هـ.[40] "له تقييدان في التفسير عن ابن عرفة، فيهما فوائد ونكت. ويذكر أنه لما ألف الكبير منهما سمع به الفقيه الأمير الحسين بن السلطان أبي العباس فطلبه منه فامتنع وماطله أياما، ثم أرسل إليه وأمر رسله ألا يفارقوه حتى يسلمه لهم. فلما رأى البسيلي ذلك أخذ منه سورة الرعد إلى الكهف وسلم لهم الباقي فذهبوا به. ثم مات الأمير وبيع الكتاب في تركته فسافر به مشتريه للسودان فبقي أهل تونس لا شعور لهم به. فلذلك كان أصل نسخه الموجودة الآن من نسخة السودان. وهناك انتشر. وأما التقييد الصغير فموجود بين الناس."[41]

[38] التنبكتي أحمد بابا، كفاية المحتاج، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص 77. راجع ترجمة مستفيضة عنه عند: التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص ص 430-445.

[39] ابن مريم الشريف المليتي المديوني التلمساني أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص 186. راجع ترجمته عند كل من: التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص 450-455، والتنبكتي أحمد بابا، كفاية المحتاج، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص 89-92.

[40] عادل نويهض، المرجع السابق، ص 299.

[41] التنبكتي أحمد بابا، كفاية المحتاج، المصدر السابق، الجزء الأول، ص 108-109.

8ـ أبو محمد عبد اللّه بن محمد بن أحمد بن علي الإدريسي الحسني التلمساني (748ـ792هـ/1347ـ1390م): هو ابن الشريف التلمساني المتقدم الذكر، واحد من كبار علماء تلمسان في عصره، جمع في صدره عدة علوم من لغة وتاريخ وشعر ومذاهب، كما كان مفتيا، له عدة فتاوى منقولة في المعيار، له مشاركة في جميع العلوم. ارتحل إليه الطلبة للإقراء عليه من عدة مدن مثل بجاية، ومن مناطق عديدة من المغربين الأوسط والأقصى[42]. قرأ على أبيه التفسير، وحضر عليه عددا من دروس التفسير التي كان يلقيها "وحضر عليه في التفسير من سورة النحل إلى الختم، ومن أوله إلى قوله تعالى:(يستبشرون بنعمة من الله وفضل)، وقرأ عليه التفسير أيضا."[43] صار هو الآخر من كبار المفسرين، وله مجلس تفسير مشهور.[44]

هـ فقهاء وعلماء القرنين الثامن والتاسع هجريين (ق14ـ15م):

أحصينا في هذه المرحلة ستة علماء، جلهم من مدينة تلمسان، وهم:

1ـ سعيد بن محمد بن محمد العقباني التلمساني(720ـ811هـ/1360ـ1408م): من أهل تلمسان، ومن كبار فقهاء المذهب المالكي، إمام مجمع على فضله[45]، أصله من عقبان، وهي قرية من قرى الأندلس. ولي القضاء في عدد من المدن مدة تزيد عن الأربعين سنة، منها قضاء بجاية على عهد السلطان المريني أبي عنان، بالإضافة إلى قضاء تلمسان وسلا ومراكش ووهران[46]. و"...كان يقال له رئيس العقلاء. قال الحفيد ابن مرزوق: كان علامة، خاتمة قضاة العدل

---

[42] عادل نويهض، المرجع السابق، ص 71.

[43] التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص 225-226.

[44] ابن مريم التلمساني، المصدر السابق، ص 120. راجع كذلك: التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص 228.

[45] ابن فرحون المالكي، المصدر السابق، ص 204.

[46] الونشريسي أحمد، وفيات الونشريسي، ضمن كتاب ألف سنة من الوفيات في ثلاثة كتب، تحقيق محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1976، ص137.

بتلمسان"[47]. فسر عددا من سور القرآن الكريم، أتى فيها بفوائد جليلة، مثل سورة الفاتحة[48] والأنعام والفتح[49]. وله مؤلفات أخرى في فنون مختلفة.

2ـ **أبو يحيى عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن علي بن يحيى الحسني التلمساني** (757ـ 826هـ/1356ـ1423م)[50]: هو ابن الشريف التلمساني وأخو عبد الله بن محمد الحسني المذكورين سابقا. تلمساني الأصل والمولد ووفاة، عد من كبار علماء المالكية، جمع بين علمي الظاهر والباطن، لاسيما الحديث وأصول الدين والتفسير، حيث وصف بالعالم بالتفسير.[51] "هو الإمام العلامة الأوحد شريف العلماء، وعالم الشرفاء، آخر المفسرين من علماء الظاهر والباطن ابن العلماء الأئمة الكرام"[52]

ومن السور التي أبدع في تفسيرها سورة الفتح، ولما اطلع عليها أخوه الأكبر عبد الله كتب الشهادة التالية: "وقفت وفقكم الله على ما أولتموه وفهمت ما أوردتموه فألفيته مبنيا على قواعد التحقيق والإيقان مؤديا صحيح المعنى بوجه الإبداع والإتقان بعد مطالعة كلام المفسرين ومراجعة الأفاضل المتأخرين...".[53]

---

[47] التنبكتي أحمد بابا، كفاية المحتاج، المصدر السابق، الجزء الأول، ص 216.

[48] ابن فرحون المالكي، المصدر السابق، ص 205. ابن مريم التلمساني، المصدر السابق، ص 106.

[49] ابن مريم التلمساني، المصدر السابق، ص 107. التنبكتي أحمد بابا، كفاية المحتاج، المصدر السابق، الجزء الأول، ص 217. التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص 190. راجع ترجمته عند عادل نويهض، المرجع السابق، ص 236-237.

[50] ورد عند أحمد الونشريسي أن وفاته كانت بتلمسان سنة 825 هـ، بينما أجمعت بقية المصادر على سنة 826 ه. المصدر السابق، ص 139.

[51] عادل نويهض، المرجع السابق، ص 70.

[52] ابن مريم التلمساني، المصدر السابق، ص 127.

[53] المصدر نفسه، ص 128.

ولما مرض أخوه عبد الله طلب منه أن يخلفه في مكانه للتدريس، لكنه رفض ذلك تقديرا واحتراما لأخيه، حتى انتقل إليه أخوه وأقنعه بالأمر، فقبل ذلك سنة 784ه.[54]

3ـ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي التلمساني المعروف بالحفيد (766ـ842ه/1364ـ1438**م**): إمام طبقت شهرته الآفاق، تلمساني المولد والنشأة، جمع عدة علوم من أصول وحديث وتفسير ونحو وبلاغة وعروض[55]. يكنى أبا عبد الله، ويلقب بشمس الدين[56].

والظاهر أنه كان على درجة عالية من إتقان التفسير وعلومه، ومما جاء في وصفه في هذا الباب:"...إلى ما انضم إلى ذلك من معرفة التفسير ودرره، والاضطلاع بحقائق التأويل وغرره، فلو رآه مجاهد، لعلم أنه في علوم القرآن العزيز مجاهد، أو لقيه مقاتل، لقال له تقدم أيها المقاتل، أو الزمخشري لعلم أنه كشاف الخفيات على الحقيقة، وقال لكتابه تنح لهذا الحبر عن سلوك الطريقة..."[57]

ذكر تلميذه أبو الفرج بن أبي يحيى الشريف التلمساني أنه قرأ عليه جملة من التفسير[58]. كما قرأ عليه الرحالة الأندلسي أبي الحسن علي القلصادي عدة علوم لما زار تلمسان سنة 840ه في إطار

[54] التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص 253. راجع ترجمته كذلك عند التنبكتي: كفاية المحتاج، المصدر السابق، الجزء الأول، ص 272-273.

[55] ابن مريم التلمساني، المصدر السابق، ص 201. راجع ترجمته عند التنبكتي: كفاية المحتاج، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص 136-144،

وعادل نويهض، المرجع السابق، ص 290.

[56] ابن فرحون المالكي، المصدر السابق، 396.

[57] ابن مريم التلمساني، المصدر السابق، ص 203.

[58] نفسه، 205.

رحلته المشرقية[59]، وتلامذته كثر. خلف عدة مؤلفات في فنون عدة، ومن بينها في التفسير "تفسير سورة الإخلاص على طريقة الحكماء"[60]، وكتاب "اغتنام الفرصة في محادثة عالم قفصة وهو أجوبة على مسائل في الفقه والتفسير وغيرهما وردت عليه من عالم قفصة أبي يحيى بن عقيبة ... فأجابه عنها"[61].

4ـ **أحمد بن محمد بن عبد الرحمن، الشهير بابن زاغو، المغراوي التلمساني** (782ـ845**هـ**/1380ـ1441**م**): إمام، فقيه، مدرس. أحاط بعدة علوم من حديث ومنطق وأصول وتفسير، وهو من أهل تلمسان.[62]

قال عنه تلميذه القلصادي الذي قرأ عليه بتلمسان بأنه: "أعلم الناس في وقته في التفسير، وأفصحهم في التعبير، أخذ بمذهب الإمام مالك، وفاق على نظرائه وأقرانه في دلائل السبل والمسالك، إلى سبق في الحديث والأصول وقدم راسخة في التصوف، مع الذوق السليم والفهم المستقيم، وبه يضرب المثل في الزهد والعبادة. وعند كلامه تقف الفتيا في الأذكار والإرادة، مقبل على الآخرة معرض عن الدنيا، عار عن زخرفها، إلا ما يتخذه من ثوب حسن أو هيئة فيها جمال.

[59] "كان رضي الله عنه من رجال الدنيا والآخرة، وكانت أوقاته كلها معمورة بالطاعات ليلا ونهارا: من صلاة وقراءة قرآن وتدريس علم وفتيا وتصنيف، وكانت له أوراد معلومة، وأوقات مشهودة، وكان له بالعلم عناية تكشف بها العماية، ودراية تعضدها الرواية، ونباهة تكسب النزاهة، فقرأت عليه رضي الله عنه بعض كتابه في الفرائض، وأواخر الإيضاح للفارسي، وشيئا من شرح التسهيل لابن مالك، وحضرت عليه نحو الربع من إعراب القرآن وصحيح البخاري والشاطبيين، والأكثر من ابن الحاجب الفرعي، والتلقين وبعض الرسالة وأكثر التسهيل لابن مالك...". القلصادي أبو الحسن علي، تمهيد الطالب ومنتهى الراغب إلى أعلى المنازل والمناقب (رحلة القلصادي)، دراسة وتحقيق محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ص97.

[60] ابن مريم التلمساني، المصدر السابق، 210-211.

[61] التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص 507.

[62] عادل نويهض، المرجع السابق، ص 156.

أكرمه المولى بتلاوة القرآن، وشرفه بملازمة قراءة العلم والتصنيف والتدريس والتأليف..."[63]. قرأ عليه مجموعة من الكتب، وحضر عليه مجموعة من الدروس في علوم شتى بالمدرسة اليعقوبية، ومن بينها دروس في تفسير القرآن الكريم[64]، كما عدد له مجموعة من التآليف، منها في التفسير: "مقدمته على التفسير وتفسير سورة الفاتحة، والتذييل في ختم التفسير."[65] مات موبوءا عن 63 سنة[66].

5ـ أبو إسحاق الزواوي القسنطيني إبراهيم بن فائد بن موسى بن عمر بن سعيد

(**796ـ857هـ/1394ـ1452م**): يرد ذكره كذلك بـ: إبراهيم بن فائد بن موسى بن هلال الزواوي القسنطيني. ولد في جبال جرجرة، انتقل إلى بجاية، حيث أخذ الفقه عن أبي الحسن علي بن عثمان المانجلاتي، ثم ارتحل إلى تونس فتزود بالفقه عن الأبي، والتفسير عن أبي عبد الله القلشاني، حج عدة مرات، وجاور بالحرمين[67]. جد في طلب العلم والتحصيل، حتى برع في عدة علوم، ومنها التفسير، له عدة مؤلفات، من بينها تأليف في التفسير لم يصلنا عنوانه.[68]

ثم سكن مدينة قسنطينة، ويذكر أنه أقام بها ثمانية أشهر[69]. ولا نعلم هل هذه الإقامة مؤقتة، أم أنه أمضى بقية حياته بها، والمؤكد أن انتقاله إلى مدينة قسنطينة كان في آخر حياته بعد مسيرة حافلة في طلب العلم.

[63] القلصادي أبو الحسن علي، المصدر السابق، ص 103.

[64] نفسه، ص 103-104. ابن مريم التلمساني، المصدر السابق، ص 43. التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص 119.

[65] القلصادي أبو الحسن علي، المصدر السابق، ص 103. ابن مريم التلمساني، المصدر السابق، ص 42.

[66] ذكره محقق كتاب كفاية المحتاج الأستاذ محمد مطيع، راجع: التنبكتي، كفاية المحتاج، المصدر السابق، الجزء الأول، ص 112.

[67] التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص 56.

[68] نفسه، ص 57. عادل نويهض، المرجع السابق، ص 160.

[69] التنبكتي أحمد، كفاية المحتاج، المصدر السابق، الجزء الأول، ص 164.

6ـ **أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي** (786ـ875هـ/1384ـ1470**م**): من كبار علماء الجزائر وفقهائها، ينتمي إلى قبيلة الثعالبة العربية، التي كانت تستوطن نواحي المتيجة، ويعتبر من أعيان مدينة الجزائر. ولد بمنطقة وادي يسر شرق مدينة الجزائر وبها نشأ.[70] كانت له رحلة لطلب العلم قادته إلى مدينة بجاية، ثم تونس ومصر وبلاد الحجاز، وتتلمذ بهذه الأقطار على كبار العلماء، وبدأ هذه الرحلة مع مطلع سنة 802هـ.[71]

أجاد عبد الرحمن الثعالبي عدة علوم، وبرز في علم الحديث والتفسير خاصة، فعد من كبار المفسرين، ويعتبر من أكثر علماء الجزائر تأليفا، حيث خلف ما يزيد عن تسعين كتابا في علوم شتى، بعضها طبع، والبعض الآخر لا يزال مخطوطا. وما يهمنا من هذه المؤلفات كتبه في التفسير، والتي يأتي على رأسها كتابه الشهير الجواهر الحسان في تفسير القرآن[72]، وهو كتاب مطبوع متداول بين الناس.[73]

أورد التنبكتي معظم مؤلفاته، ومنها تحفة الإخوان في إعراب بعض آي القرآن، والذهب الإبريز في غرائب القرآن العزيز،[74] فبالنسبة للكتاب الأول حقق جزء منه الطالب جمال بوججو في إطار رسالة لنيل شهادة الماجستير، ناقشها خلال السنة الجامعية 2016–2017، في جامعة الجزائر 1، كلية العلوم الإسلامية، قسم اللغة والحضارة العربية الإسلامية، عنوان الرسالة هو:" الذهب الإبريز في تفسير الغريب وإعراب بعض آي الكتاب العزيز للإمام أبي زيد عبد الرحمان الثعالبي

[70] عبيد بوداود، المرجع السابق، ص 296. راجع كذلك: عادل نويهض، المرجع السابق، ص 90.

[71] يمكن الاطلاع على مسار الرحلة، وأسماء العلماء الذين تتلمذ عليهم بالعودة إلى: عبيد بوداود، المرجع السابق، ص ص 297 – 299.

[72] التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص 259. التنبكتي أحمد، كفاية المحتاج، المصدر السابق، الجزء الأول، ص 279.

[73] من بين طبعات هذه الكتاب، طبعة 1997، من تحقيق علي معوض وعادل عبد الموجود، وهو في خمسة مجلدات، دار إحياء التراث العربي.

[74] التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص 259– 260.

ت875ه – دراسة وتحقيق– من سورة يونس إلى سورة القصص"، الرسالة تقع في 267 صفحة. أما الكتاب الثاني فطبع سنة 2014، وحققه الدكتور عبد الحميد حاجيات، وطبع لدى دار بن مرابط، وهو يقع في 198 صفحة، لكن لم نحصل على نسخة من الكتاب.

توفي العالم الصوفي عبد الرحمن الثعالبي يوم 23 رمضان 875هـ، عن عمر ناهز التسعين سنة، و"ودفن بجبانة الطلبة في مدينة الجزائر".[75]

و- فقهاء القرن التاسع هجري (ق15م): كان هذا القرن أكثر تمثيلا، حيث وقفنا على ترجمات لاثني عشرة عالما وفقيها، وهم:

1- **أبو الفضل التلمساني محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله، ابن الإمام (ت845ه/1441م)**: عرف بابن الإمام، تلمساني المنبت والتكوين،[76] وصف بـ: " الإمام العالم العلامة الحجة النظار المحقق العارف ...الرحلة، أحد أقران الإمام ابن مرزوق الحفيد"[77]، له رحلة إلى المشرق، وزار القاهرة بيت المقدس[78]، جمع عدة علوم تنوعت بين الفقه والتفسير، بالإضافة إلى علوم البيان والأدب والتصوف والطب، وله مجموعة من الأبحاث في علم التفسير، تناقش فيها مع الإمام المقري[79]، لكننا لم نقف عند هذه الأبحاث، ولا نعرف طبيعتها.

2- **أبو عبد الله محمد بن أحمد بن النجار التلمساني (ت 846 ه/1442م)**: تلمساني، وصف بالعلامة الفقيه الأصولي[80]، ووصف تلميذه القلصادي "بالفقيه الإمام المتفنن"، الذي جمع

[75] عادل نويهض، المرجع السابق، ص 91.

[76] نفسه، ص 74.

[77] التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص 521.

[78] عادل نويهض، المرجع السابق، ص 74–75.

[79] ابن مريم التلمساني، المصدر السابق، ص 221. التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص 522.

[80] ابن مريم التلمساني، المصدر السابق، ص 221.

بين العلوم النقلية والعقلية، له مشاركة في عدد من العلوم، حضر عليه جزء من تفسير كتاب الله العزيز، كما قرأ عليه عدة كتب أخرى يورد عناوينها في رحلته.[81]

3- **قاسم بن سعيد بن محمد العقباني(ت854هـ/1450م)**: يكنى بأبي الفضل وأبي القاسم. لم يرد صراحة أنه من العلماء المفسرين، لكن يظهر من نصوص الترجمة التي بحوزتنا أنه كان عالما موسوعيا، ولا نستغرب مشاركته في تفسير القرآن على عادة علماء عصره، ومما ورد في التعريف به: "... شيخ الإسلام ومفتي الأنام الفرد العلامة الحافظ القدوة العارف المجتهد المعمر، ملحق الأحفاد بالأجداد، القدوة الرحلة الحاج...وحصل العلوم حتى وصل درجة الاجتهاد، وله اختيارات خارجة عن المذهب...ولي القضاء بتلمسان في صغره، ورأى أمله في ذريته في كبره، وأحرز في العلوم قصب السبق وحازه، وقطع فيه صدر العمر واستقبل أعجازه، عكف على تعليم العلوم وعلى تدريس المعدوم منها والمعلوم، فأفاد الأفراد، وأمتع جهابذة النقاد، وأسمع كل الأسماع ما اشتهى وأراد"[82].

4- **أبو الفضل محمد بن محمد بن أبي القاسم المشدالي** (822- 865هـ/1417-1461م): ولد ببجاية، وانتقل إلى تلمسان، حيث تعلم بها، وأصبح من كبار علماء المالكية في عصره، جمع بين الحديث والأصول والفقه والفرائض والتفسير، وتصدر بها للتدريس وإقراء العلم.[83]

---

[81] القلصادي أبو الحسن علي، المصدر السابق، ص 102. راجع كذلك: ابن مريم التلمساني، المصدر السابق، ص 221-222. التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص 525. التنبكتي أحمد بابا: كفاية المحتاج، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص 159.

[82] التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص 365. راجع ترجمته عند: التنبكتي أحمد بابا: كفاية المحتاج، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص 10-11. وصفه المحقق بمفتي الفرق.

[83] عادل نويهض، المرجع السابق، ص 301-302.

5ـ أبو عبد الله محمد بن العباس بن محمد بن عيسى العبادي (ت 871 ه/1466م): من كبار علماء تلمسان في وقته، اشتهر باسم ابن العباس التلمساني، ووصف "بالعلامة المحقق المتفنن المحصل القدوة الحجة الصالح الحافظ المتقن البركة"[84]. له عدة تآليف، وفتاوى بعضها مثبت في الدرر المكنونة في نوازل مازونة، والمعيار المعرب للونشريسي[85]. وصفه الونشريسي بشيخ المفسرين والنحاة، وذكر أنه توفي يوم 18 ذي الحجة سنة 871 ه[86]، وقيل أنه توفي بالطاعون.

6ـ إبراهيم بن محمد بن عبد الرحمن بن يحيى بن أحمد بن سليمان الصدقاوي، الزواوي الأصل، ثم البجائي، ويعرف بالمصعصع (816ـ 882 ه/1413ـ1478م): نشأ وتعلم ببجاية، وكانت له رحلة إلى المشرق، سكن مدة بالمدينة المنورة، واستقر به المقام أخيرا بمكة المكرمة إلى أن توفي بها. يعد من فقهاء المذهب المالكي، و"له إلمام بالتفسير".[87]

7ـ أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن (أبي يحيى) بن محمد بن أحمد، ويقال أبو جعفر، الحسني التلمساني (ت895 ه/1490م): "حفيد الشريف التلمساني" السابق الذكر، "نشأ وتعلم بتلمسان"، وكانت له رحلة إلى الأندلس، تولى أثناءها بغرناطة قضاء الجماعة. جمع بين القضاء والحديث والأصول والتفسير.[88]

8ـ أحمد بن أبي يحيى بن محمد الشريف (ت895ه/1490م): "العالم العلامة المحقق المفسر ابن أبي يحيى بن الإمام الأوحد العلامة التلمساني"[89]. هذا ما وقفنا عليه من ترجمته. وأثبت الونشريسي تاريخ وفاته بقوله:" وفي سنة خمس وتسعين وثمانمائة توفي بتلمسان الفقيه الإمام أبو

[84] التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص 547.

[85] نفسه، ص 547.

[86] الونشريسي أحمد، وفيات الونشريسي، المصدر السابق، ص 148.

[87] عادل نويهض، المرجع السابق، ص 32.

[88] نفسه، ص 66.

[89] ابن مريم التلمساني، المصدر السابق، ص 44.

العباس أحمد بن السيد أبي يحيى ابن الشريف بن السيد أبي عبد الله الشريف التلمساني"[90] وهو حفيد أبي عبد الله الشريف التلمساني المذكور سلفا.

9ـ أبو عبد الله السنوسي الحسني من جهة الأم محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب (832ـ895 **هـ/** 1428ـ1490**م**): "من كبار علماء تلمسان وصلحائها، نشأ خيرا فاضلا ورعا. ألف تلميذه الملالي (ت897ه) كتابا في سيرته ومناقبه يحمل عنوان المواهب القدوسية في المناقب السنوسية".[91] تتلمذ على جماعة من كبار العلماء والفقهاء.[92]

برز السنوسي في مجموعة من العلوم، لاسيما علم الحديث والعقائد (علم التوحيد) والتفسير[93]، ومن مؤلفاته في التفسير:" تفسير القرآن كتب منه ثلاثة كراريس في القالب الكبير إلى قوله تعالى أولئك هم المفلحون وأراد التفرغ له فما تمكن، وتفسير سورة ص وما بعدها من السور".[94]

توفي الإمام السنوسي يوم الأحد 18 جمادى الثانية سنة 895هـ عن عمر ناهز الثلاث وستين سنة، ودفن بالعباد السفلي[95] بعد مسيرة حافلة بطلب العلم والتدريس والتأليف، مع حياة غلب عليها الورع والزهد.

10ـ **أبو الطيب النقاوسي محمد بن محمد بن محمد بن يحيى بن أبي علي** (848ـ **بعد** 897**هـ/** 1444ـ **بعد** 1491**م**): ولد بمنطقة نقاوس، ثم انتقل إلى قسنطينة وبعد ذلك إلى

[90] الونشريسي أحمد، وفيات الونشريسي، المصدر السابق 152.

[91] عبيد بوداود، المرجع السابق، ص 304.

[92] يمكن الاطلاع على قائمة شيوخه، والعلوم التي تلقاها منهم عند: عبيد بوداود، المرجع نفسه، ص 304– 305.

[93] ابن مريم التلمساني، المصدر السابق، ص 239. يمكن الاطلاع على قائمة مؤلفاته المطبوعة والمخطوطة والمفقودة عند: عبيد بوداود، المرجع السابق، ص ص 307– 310.

[94] ابن مريم التلمساني، المصدر السابق، 247.

[95] عبيد بوداود، المرجع السابق، ص 311.

تونس للتعلم، وكانت له رحلة إلى مصر تتلمذ فيها على كبار العلماء هناك. جمع بين القضاء واللغة والمنطق والأصول والتفسير، واعتبر من كبار فقهاء المذهب المالكي.[96]

11ـ **محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي التلمساني (ت 899 هـ/1494م)**: صاحب كتاب نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، الذي حققه محمود بوعياد، وطبع من قبل المكتبة الوطنية الجزائرية سنة 1985م. أصله من مدينة تنس، استوطن مدينة تلمسان، وتلقى العلم على عدد من شيوخها.[97] " الفقيه الجليل العلامة الحافظ الأديب...وصفه أبو عبد الله بن العباس بالفقيه العالم الشهير. قال حضرت إقراءه تفسيرا وحديثا وفقها وعربية وغيرها".[98]

12ـ **أحمد بن محمد بن زكري المانوي التلمساني (ت 899 هـ/1494م)**: وصف بـ: "الفقيه الأصولي البياني المنطقي"[99]. اشتغل بالتدريس، وانتفع به خلق كثير، له مجموعة من المؤلفات.[100] يعتبر من علماء تلمسان ومفتيها، وممن اشتغل بالتفسير.[101]

زـ فقهاء القرن العاشر هجري (ق16م):

قمنا بجرد عشرة علماء، وهم يشكلون خاتمة العصر الوسيط، جلهم عاش زمن الدولة الزيانية، وبعضهم عاصر بداية العهد العثماني بالجزائر، وهم:

1ـ **أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي التلمساني (ت909هـ/1503م)**: ينسب إلى قبيلة مغيلة البربرية، ونشأ بتلمسان، وتوفي بتوات[102]. وصفه

[96] عادل نويهض، المرجع السابق، ص 332– 333.

[97] يمكن الاطلاع على حياة التنسي، وشيوخه من خلال مقدمة المحقق لكتاب تاريخ بني زيان...المصدر السابق، ص ص 9– 21.

[98] التنبكتي أحمد بابا: كفاية المحتاج، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص 209.

[99] ابن مريم التلمساني، المصدر السابق، ص 38.

[100] نفسه، 41.

[101] التنبكتي أحمد بابا: كفاية المحتاج، المصدر السابق، الجزء الأول، ص 125.

صاحب البستان بـ: "خاتمة المحققين، الإمام العالم العلامة المحقق الفهامة القدوة الصالح السني الحبر، أحد أذكياء العالم، وأفراد العلماء الذين أوتوا بسطة في العلم والتقدم والنسبة في الدين..."[103]. جمع بين الفقه وعلم الكلام والتفسير، ومن تآليفه في التفسير: "البدر المنير في علوم التفسير، وتفسير سورة الفاتحة[104]."[105]

2ـ أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن أبي العيش الخزرجي التلمساني (ت911هـ/1505م): أصل أسلافه من الأندلس، وبالضبط من مدينة إشبيلية، بينما ولد هو بتلمسان ونشأ بها. شارك في عدة علوم، وفسر كتاب الله العزيز، كما له مؤلفات أخرى في أصول الفقه وأصول الدين، وشعر حسن في الزهد والتصوف.[106]

3ـ محمد بن أحمد بن محمد بن أبي يحيى بن أحمد بن الخطيب الشهير ابن مرزوق (كان حيا سنة 919هـ/1513م[107]**)**: عالم تلمساني شهير من بيت علم ونباهة، وهو ابن الخطيب شمس الدين بن مرزوق.[108] "قال أبو عبد الله ابن الإمام ابن عباس في صاحب

[102] عادل نويهض، المرجع السابق، ص 308.

[103] ابن مريم التلمساني، المصدر السابق، ص 253. راجع كذلك: التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص 576. التنبكتي أحمد بابا: كفاية المحتاج، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص 213.

[104] قدم لهذا الكتاب الدكتور عبد الكريم حمو من خلال مخطوطة موجودة بخزانة تمنطيط. يمكن مراجعة المقال كاملا: د. عبد الكريم حمو:" منهجية التفسير القرآني في سورة الفاتحة لمحمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني"، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، المجلد 8، العدد 3، السنة 2019، ص ص 42– 62. المجلة صادرة عن المركز الجامعي لتامنغست، الجزائر.

[105] ابن مريم التلمساني، المصدر السابق ، ص 255. راجع كذلك: التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص 577. التنبكتي أحمد بابا: كفاية المحتاج، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص 214.

[106] ابن خلدون أبو زكرياء يحيى، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، الجزء الأول، تقديم وتحقيق وتعليق عبد الحميد حاجيات، إصدارات المكتبة الوطنية، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980، ص 103. راجع كذلك: عادل نويهض، المرجع السابق، ص 246.

[107] ذكر التنبكتي أحمد بابا أنه كان حيا سنة 920ه، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص 584.

[108] نفسه، نفس الصفحة.

الترجمة هو آخر علماء قطرنا الآخذ من كل فن بأوفر نصيب الحائز قصب السبق في ذلك وخصوصا علم الحديث...وحضرت عليه تفسير القرآن وقراءته صحيح البخاري...".[109]

4ـ **أبو الحسن علي بن موسى بن علي بن هارون المطغري (نحو 871ـ951هـ/1466ـ1545م)**: أصله من مطغرة نواحي تلمسان. انتقل جده إلى فاس سنة 818هـ، وبها ولد صاحب الترجمة. عد من كبار الفقهاء، له مشاركة في عدة علوم، ومن بينها علوم التفسير.[110]

5ـ **أبو عبد الله محمد بن علي الخروبي الطرابلسي أو السفاقسي الجزائري (ت963 هـ/ 1556م)**: أصله من طرابلس الغرب، ونشأ في مدينة الجزائر، اعتبر من كبار فقهاء عصره، عاصر بداية الوجود العثماني في الجزائر، وكان مقربا من السلطة العثمانية، واشتغل لديهم في بعض السفارات إلى بعض الدول، ومن بينها المغرب الأقصى. جمع بين الفقه والحديث والخطابة والتفسير. له مجموعة من المؤلفات، من بينها تفسير القرآن.[111]

6ـ **قاسم بن يحيى بن محمد الفكون (ت965هـ/1558م)**: من أهل قسنطينة، وبها ولد وتعلم، انتقل إلى تونس، حيث أتم دراسته بها، ثم عاد إلى قسنطينة ليتولى بها القضاء. عالم مشارك في عدة علوم مثل الفقه والتفسير[112].

7ـ **أبو الحسن علي بن يحيى السلكسيني الجاديري التلمساني (ت972هـ/1565م)**: تلمساني الأصل، حيث نشأ بها، وحصل علوما عديدة من نحو وفرائض

---

[109] ابن مريم التلمساني، المصدر السابق ، ص 258.

[110] عادل نويهض، المرجع السابق، ص 305– 306.

[111] نفسه، ص 132.

[112] نفسه، ص 255.

وحساب، اشتغل إماما بجامع أجادير، وتفرغ للتدريس وبث العلم طوال حياته، لا يفتر عن ذلك.[113] كما كان ملما بالتفسير، "وأحكام القرآن في الحذف والثبت والإعراب".[114]

8ـ **محمد بن شقرون بن هبة الله الوجديجي التجيني التلمساني** (**ت**983**هـ/**1575**م**): تلمساني الأصل، كان بها إماما ومفتيا، ترده الفتوى من كل مكان. استوطن مدينة فاس سنة 967هـ، وتوفي بها. له مشاركة في عدة علوم من منطق وفرائض وحساب وبيان وتفسير.[115]

9ـ **محمد بن أحمد بن محمد**، **المعروف بابن الوقاد** (**ت**1001**هـ/**1593**م**): من أهل تلمسان، هاجر إلى المغرب الأقصى، واستوطن مدينة تارودانت. اشتغل بجامعها الكبير مدرسا وخطيبا ومفتيا. له إحاطة بمجموعة من العلوم مثل الحديث والفقه والأدب والتفسير.[116]

10ـ **محمد بن يحيى بن موسى المغراوي التلمساني**: أصله من قلعة بني راشد، انتقل إلى تلمسان، وأخذ التوحيد عن السنوسي. شارك في عدة علوم، وبرز في علم التوحيد والحديث والتفسير، ثم عاد إلى بني راشد، ونشر بها علم التوحيد، ولا نعرف تاريخ وفاته.[117]

خاتمة الدراسة:

لم يكن هدفنا من هذا المقال تقديم ترجمات مستفيضة للعلماء والفقهاء الذين أوردناهم، إلا بالقدر الذي يبين مدى مساهمتهم في تفسير القرآن الكريم أو علم التفسير تدريسا وتأليفا. ولقد أحصينا على مدى القرون الهجرية الأربعة الأخيرة من العصر الوسيط الإسلامي أي من القرن

[113] نفسه، ص 73.

[114] ابن مريم التلمساني، المصدر السابق ، ص 145.

[115] ابن مريم، المصدر نفسه، ص 261.

[116] عادل نويهض، المرجع السابق، ص 343.

[117] ابن مريم التلمساني، المصدر السابق ، ص 276-277.

السابع إلى القرن العاشر هجري عددا معتبرا منهم، ولربما قد أغفلنا ذكر العديد من أولئك العلماء ممن لم تتحدث المصادر عنهم، أو لم نستطع نحن الوصول إليهم. كان حضور علماء المغرب الأوسط – سواء ممن ينتمون بالأصل لهذه البلاد، أو ممن استوطنها واتخذها دارا وقرارا – في تفسير القرآن الكريم وعلومه قويا، بدليل الأعداد الكبيرة التي أوردناه، والتي ظلت تتزايد مع توالي القرون. ولقد توزع هؤلاء العلماء على حواضره المشهورة مثل تلمسان وبجاية والمسيلة وقسنطينة والجزائر ووهران وغيرها من المدن. واستوطن بعضهم مدنا خارج المغرب الأوسط، لاسيما في المغرب الأقصى وتونس، وكان لهم دور مهم في علم التفسير.

جاءت ترجمات بعض العلماء مستفيضة نوعا ما، بينما جاءت ترجمات أخرى مقتضبة، وذلك حسبما توفر لدينا من معلومات. ولقد حرصنا على تجنب إيراد بعض المعلومات الواردة في كتب التراجم مثل الشيوخ والتلاميذ، وذكر مراحل التكوين ومنازل الرحلات العلمية، وعناوين المؤلفات، حتى لا نخرج عن سياق الموضوع وأهدافه، وركزنا فقط بما له علاقة بالتفسير.

إن غرضنا من هذه المساهمة المتواضعة هو جرد أسماء كل علماء المغرب الأوسط الذين ساهموا في تفسير القرآن الكريم، أو تدريس علوم التفسير والتأليف فيها، مما يمكننا من الإحاطة بهم جميعا، وقد تتوفر فرصة أخرى للتركيز على أحدهم أو بعضهم في دراسات مستقلة وأكثر عمقا ودقة.

قائمة المصادر والمراجع:

1. ابن مريم الشريف المليتي المديوني التلمساني أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986.

2. ابن فرحون المالكي إبراهيم بن نور الدين (ت799ه)، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، دراسة وتحقيق مأمون بن محيي الدين الجنان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1996.

3. ابن قنفد أحمد، شرف الطالب في أسنى المطالب، ضمن كتاب: ألف سنة من الوفيات في ثلاثة كتب، تحقيق محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1976.

4. ابن خلدون أبو زكرياء يحيى (734- ق780ه)، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، المجلد الثاني، تحقيق ألفرد بل، مطبعة فونطانة، الجزائر، 1910.

5. ابن خلدون أبو زكرياء يحيى (734- ق780ه)، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، الجزء الأول، تقديم وتحقيق وتعليق عبد الحميد حاجيات، إصدارات المكتبة الوطنية، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980.

6. ابن خلدون عبد الرحمن(732-808ه/ 1332-1406م)، تاريخ ابن خلدون المسمى: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1413ه/ 1992م.

7. بابا عمي محمد بن موسى، وآخرون، معجم أعلام الإباضية من القرن الأول الهجري إلى العصر الحاضر، قسم المغرب الإسلامي، الاستشارة والمراجعة محمد صالح ناصر، الجزء الثاني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، 1421ه/ 2000م.

8. بوداود عبيد، ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط ما بين القرنين السابع والتاسع الهجريين (ق13-15م) دراسة في التاريخ السوسيو- ثقافي، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2003.

9. البلوي خالد بن عيسى، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، مقدمة وتحقيق الحسن السائح، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، دون تاريخ.

10. الونشريسي أحمد، وفيات الونشريسي، ضمن كتاب: ألف سنة من الوفيات في ثلاثة كتب، تحقيق محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1976.

11. حمو عبد الكريم: "منهجية التفسير القرآني في سورة الفاتحة لمحمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني"، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، المركز الجامعي لتامنغست، الجزائر، المجلد 8، العدد 3، السنة 2019، ص ص 42-62.

12. نويهض عادل، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1980.

13. القلصادي الأندلسي أبو الحسن علي (ت891هـ)، تمهيد الطالب ومنتهى الراغب إلى أعلى المنازل والمناقب (رحلة القلصادي)، دراسة وتحقيق محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1978.

14. تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان لمحمد بن عبد الله التنسي (ت899ه)، حققه وعلق عليه محمود بوعياد، إصدارات المكتبة الوطنية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.

15. التنبكتي أحمد بابا (963-1036ه)، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، عناية وتقديم الدكتور عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات دار الكاتب، طرابلس الغرب، الجماهيرية، الطبعة الثانية، 2000.

16. التنبكتي أحمد بابا (963-1036ه)، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، دراسة وتحقيق الأستاذ محمد مطيع، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، 2000.

17. الغبريني أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله (644-714ه)، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق وتعليق عادل نويهض، منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 1969.

المحور الثاني:

أعلام التفسير وأشهر المفسرين بالجزائر من خلال المصادر التاريخية والببليوغرافية (المطبوعة والمخطوطة)

أعلام التفسير خلال العهد الزياني دراسة إحصائية من خلال المصادر التاريخية

كتب السير والتراجم أنموذجا

د. نعيمة بوكرديمي، كلية العلوم الإنسانية ، جامعة الشلف ، الجزائر

الملخص:

قد لا يختلف اثنان في أنّ الحاضرة العلمية لتلمسان قد عرفت كوكبة كبيرة من الأعلام والعلماء الأفذاذ الذين ذاع صيتهم داخل تلمسان وخارجها في باقي بلدان العالم الإسلامي مشرقا ومغربا وأندلسيا وحتى بالسودان الغربي، وفي مختلف التخصصات بما فيها علم التفسير، وكانوا بذلك قد ساهموا في إثراء الحركة العلمية والمعرفية خلال العهد الزياني. فمن هم أبرز أعلام وعلماء التفسير الذين شهدتهم حضارة تلمسان في العهد الزياني؟ وماهي أهم مؤلفاتهم التي اشتهروا بها في علم التفسير ؟ ثم إلى أي مدى امتد إسهامهم وتأثيرهم في هذا المجال؟

مقدمة:

شكلت مدينة تلمسان كحاضرة علمية خلال الفترة الزيانية محور للعلم والتلاقح الثقافي، وخاصة في أيام السلاطين الزيانيين خلال القرن الثامن الهجري/ 14م، حيث زخرت بمجالس العلم وتكريم العلماء الأفذاذ ومن ثم استطاعت أن تضاهي في شهرتها مراكز العلم بالمشرق الإسلامي كبغداد والبصرة ومصر، ومراكز العلم ببلاد المغرب الإسلامي كمركز تونس وفاس وسبتة وباقي مراكز العلم ببلاد الأندلس.

وفي هذا السياق، فقد أشارت المصادر التاريخية، وفي مقدمتها كتب السير والتراجم إلى ما وصلت إليه أحوال العلم بهذه الحاضرة سواء تعلق الأمر بتنشيطها لحلقات العلم التي كانت تعقد بها أو اقتناءها لمختلف الكتب لإثراء مكتباتها العامة والخاصة، وتشجيعها للرحلات العلمية سواء نحوها أو منها، وعناية سلاطينها وعلماءها بمختلف العلوم وبروزهم وتفوقهم فيها، وعلى رأسها علم التفسير.

فما هو علم التفسير؟ وإلى أي عصر تعود نشأته، وماهي أهم مدارسه؟ ثم من هم أبرز أعلامه خلال العهد الزياني؟ وماهي أهم مؤلفاتهم في هذا العلم؟ و إلى أي مدى امتدى إسهامهم و تأثيرهم؟.

أولا: التعريف بعلم التفسير:

عرف علماء اللغة التفسير كمصطلح بأنه الكشف والإظهار والبيان بحيث يصح الكلام لا يعتبر به الغموض والضبابية[1]، أما مبحث هذا العلم فهو تفهم معاني القرآن الكريم وتفسير آياته تفسيرا صحيحا لاستنباط أحكام شرعية صحيحة[2]، وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون :" أما التفسير فاعلم أن القرآن نزل بلغة العرب، وعلى أساليب بلاغهم، فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه، وكان ينزل جملا جملا وآيات آيات لبيان التوحيد والفروض الدينية بحسب الوقائع، ومنها ماهو في العقائد الإيمانية، ومنها ماهو في أحكام الجوارح، ومنها ما يتقدم، ومنها ما يتأخر ويكون ناسخا له... ثم صارت علوم اللسان صناعية من الكلام في موضوعات اللغة وأحكام الإعراب والبلاغة في التراكيب، فوضعت الدواوين في ذلك، بعد أن كانت ملكا

[1]- بن الذيب عيسى وآخرون، الحواضر والمراكز الثقافية في الجزائر خلال العصر الوسيط، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، ص 129.

[2]- نفسه، ص 129.

للعرب لا يرجع فيها الى نقل ولا كتاب، وصارت تتلقى من كتب أهل اللسان، فاحتيج إلى ذلك في تفسير القرآن، لأنه بلسان العرب وعلى منهاج بلاغتهم"[3] ومن ثم صار التفسير صنفين:

الصنف الأول: هو التفسير المأثور أو المنقول يستند إلى الآثار المنقولة عن النبي صلى الله عليه وسلم، وهي معرفة الناسخ والمنسوخ[4]، وأسباب النزول ومقاصد الآيات وكل ذلك لا يعرف إلا بالنقل عن الصحابة والتابعين من السلف الصالح[5]، **أما الصنف الثاني،** فيقوم على الرأي والاجتهاد، ولا يحقق ذلك إلا بمعرفة اللغة العربية وإتقانها والدراية بالبلاغة والإعراب والبيان حتى يتمكن المفسرون من تأدية المعنى بحسب المقاصد والأساليب لأن القرآن نزل بها[6].

وعليه يمكن القول بأن لما كان القرآن الكريم مصدرا للتشريع واستخلاص الأحكام ومرجعا رئيسيا في تنظيم حياة البشرية، فقد اجتهد العرب في توضيح وشرح ألفاظه ومعانيه، ولذلك فقد عكف علماء تلمسان كغيرهم على شرح الألفاظ القرآنية وتفسير معانيها بهدف ادراكها وفهمها فهما سليما وصحيحا بعيدا عن كل غموض أو تحريف أو انحراف قد يؤدي الى هلاك الإنسان وإلى مصير قد لا يحمد عقباه.

---

[3]- ينظر: عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، الدار التونسية للنشر والتوزيع، تونس، 1984، ص 469.

[4]- عاشور بوشامة، علاقات الدولة الحفصية مع دول المغرب والأندلس، 627- 981ه/ 1228-1573م رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، كلية الأدب، جامعة القاهرة سنة 1991، ص13 ، بلحسن إبراهيم ، العلاقات الثقافية بين المغربين الأوسط والأدنى من القرن 7 الى القرن 9ه/ 13 الى 15م. رسالة ماجستير جامعة تلمسان 2004-2005، ص 42.

[5]- ابن خلدون، المصدر السابق، ص 530.

[6]- المصدر نفسه ،ج2 ، ص 531 ، عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، دار موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002 ، ج2، ص 483.

ثانيا: نشأة علم التفسير:

لقد نشأ علم التفسير منذ عصر النبي صلى الله عليه وسلم الذي يُعدُّ أول مفسر للقرآن الكريم الذي نزل بلسان عربي مبين[7].

وتجدر الإشارة إلى أنه لما كان القرآن يعلو على سائر الكلام بألفاظه وأساليبه اللغوية والبلاغية، فضلا عن معانيه، ولما كان القوم الذي نزل عليهم يتفاوتون في فهمه، وكان منهم من يلقى إشكالا في إدراك معانيه، فقد كان هؤلاء يسألون رسول الله صلى الله عليه سلم فيبينه لهم[8]، ثم تولى من بعده هذه المهمة بعض الصحابة الأجلاء ثم التابعون، حيث أقبل صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم على تلواته حق تلاوة ودراسته حق الدراسة ثم العمل به حتى صاروا خير أمة أخرجت للناس بعد أن كانوا قبل نزوله في أدنى درجات الجاهلية فأعزهم الله بالقرآن. وهكذا صار لهذا العلم مفسرين مختصين أبدوا قدرة فائقة على الاستنباط والتحليل وعلى إبداء الرأي أيضا، واتجهوا في ذلك اتجاهات شتى نذكر منهم على سبيل المثال الطبري (ت 310ه/ 923م) صاحب كتاب جامع البيان في تفسير القرآن، وابن كثير (ت 774ه/ 1373م) صاحب كتاب التفسير المعروف باسمه وهو تفسير ابن كثير، وتفسير الزمخشري (ت 538ه/ 1143م) وتفسير الرازي (ت 606ه/ 1209م) وتفسير البيضاوي (ت685ه/ 1268م) [9].

وللإشارة، فقد اهتم علماء تلمسان في العهد الزياني بهذا العلم (علم التفسير) لقيمته الكبيرة في فهم القرآن الكريم، وبكتب التفسير المتداولة في ذلك العصر مند القرن السابع الهجري (13م)، وكان في طليعة هذه الكتب التفسير الذي قام به المفسر عماد الدين أبو الفدا إسماعيل (ت 774ه/ 1372م) والذي يتكون من خمسة أجزاء وكتاب الكشاف عن حقائق التنـزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري (467ه-538ه/ 1074-1143م) الذي يقع في أربعة

[7]- بشار قويدر، دراسات وأبحاث في تاريخ المغرب والمشرق (التاريخ الإسلامي)، دار الهدى، الجزائر، ج4 ، ص 221.

[8]- فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، التفسير الفقهي في القيروان حتى القرن الخامس الهجري ، مكتبة التوبة، الرياض، ص 7.

[9]- بشار قويدر، دراسات وأبحاث، المرجع السابق، ص 221.

مجلدات، وكتاب الوجيز في شرح كتاب الله العزيز لابن عطية (481هـ-542ه/ 1088م-1147م)[10] .

وفي هذا المضمار، فقد نوه ابن خلدون بكتاب الزمخشري قائلا: " ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفسير كتاب الكشاف للزمخشري من أهل خوارزم العراق، إلا أن مؤلفه من أهل الاعتزال، فيأتي بالحجاج على مذاهبهم الفاسدة حيث نعرض له في آي القرآن من طرف البلاغة، فصار بذلك للمحققين من أهل السنة انحراف عنه وتحذير للجمهور من مكامنه، مع إقرارهم برسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان والبلاغة[11].

ويتضح من خلال كلام ابن خلدون أن تفسير ابن عطية كان أكثر التفاسير شيوعا وذيوعا بين الناس حيث يقول :"وجاء أبو محمد بن عطية من المتأخرين بالمغرب فلخص تلك التفاسير كلها وتحرى فيما هو أقرب إلى الصحة منها، ووضع ذلك في كتاب متداول بين أهل المغرب والأندلس حسن المنحنى "[12].

2/ أهم مدارس علم التفسير:

لما أدرك صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم حقيقة أن نور القرآن لا تحده حدود، وأن عليهم بنشره والدعوة إليه عملوا على نشر الجيوش الإسلامية في الآفاق، حيث كان ما إن يفتح بلد من البلدان حتى يعلموا أهله القرآن تلاوة وحفظا وبيانا وتفسيرا[13] ، وبهذه الطريقة نشأت في البلدان المفتوحة مدارس عديدة للتفسير منها:

[10]- بن الذيب عيسى و آخرون، المرجع السابق ص 130.

[11]- عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتب العلمية، ط1 ، بيروت 1992 ، ج1، ص 470-471 ، بن الذيب عيسى وآخرون، المرجع السابق، ص 130.

[12]- عبد الرحمن بن خلدون، العبر، المصدر السابق ، ص 471، بن الذيب عيسى وآخرون، المرجع السابق ص 130.

[13]- فهد بن عبد الرحمن بن سلمان الرومي، المرجع السابق، ص 7.

- مدرسة مكة وإمامها عبد الله بن عباس رضي الله عنه.

- مدرسة المدينة من أئمتها أبي بن كعب رضي الله عنه.

- مدرسة العراق وإمامها عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

- مدرسة الشام وإمامها أبو الدرداء رضي الله عنه[14] .

وقد تناول المفسرون آيات الأحكام سواء كان ذلك في التفاسير العامة أو كان بأفرادها بتفاسير خاصة، ومن بين المفسرين الذين اهتموا واعتنوا بتفسير آيات الأحكام نذكر العالم المفسر يحيى بن سلام الذي ذكرت الدكتورة وسيلة بلعيد بخصوص توضح منهجه قائلة:" إن ابن السلام لا يتعرض الى اختلاف المذاهب في تفسير آيات الأحكام وإنما كان اعتماده على آراء السلف وبعض آراء مالك..."[15].

وللعلم فقد ذكر الكثير من المهتمين بالموضوع[16] على أن مالكا رضي الله عنه كان من أوائل من عنوا بالقرآن الكريم تفسيرا واستنباطا للأحكام والأصول التي يقوم عليها مذهبه، ولعل هذا ما جعل تلميذه محمد بن الحسن الشيباني يروي عنه مجموعة من التفسيرات في موطئه في آخر الكتاب، كما اعترف الإمام الشافعي في ذات الشأن بأن الإمام مالك كان أعلم بكتاب الله وسنة رسوله من أبي حنيفة[17]، وهو واضح التفسير بمعنى جامعه[18]، وكذلك ذكر شيخ الإسلام الإمام تقي الدين بن

[14]- المرجع نفسه، ص 7.

[15]- وسيلة بلعيد بن حمدة، نشأة التفسير بتونس مقال ضمن مجلة جامعة الزيتونة، العدد1 ، تونس، ص 97.

[16]- هو الإمام مالك بن أنس بن أبي عامر، فقيه الحجاز: إمام دار الهجرة، صاحب كتاب الموطأ، توفي سنة 179ه/ 795م ، ينظر ترجمته عند ابن النديم الفهرست، تحقيق يوسف علي الطويل، دار الكتب العلمية بيروت، ط1 – 1416ه/ 1996م، ص 388 ، الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكاب العربي، بيروت، ط3، 1400ه/ 1980م ، ج6، ص 316.

[17]- ينظر: فتاوي ابن تيمية، ج 20 ، ص 328 نقلا من حميد لحمر، مدرسة التفسير الأندلسية وجهودها في جمع تفسير عالم المدينة، الإمام مالك رضي الله عنه ، كلية الآداب، جامعة محمد بن عبد الله فاس، ص 279 ، مقال ضمن مجلة الحضارة الإسلامية، العدد 1 ، وهران 1993.

تيمية بخصوص ذلك قائلا:" وأما التفسير فإن أعلم الناس به أهل مكة لأنهم أصحاب ابن عباس (إلى أن يقول) وعلماء المدينة في التفسير مثل زيد بن أسلم الذي أخذ عنه مالك التفسير[19].

وعليه يتضح لنا جليا على أن اهتمام علماء الدين في هذا العصر كان مقتصرا على تفسير القرآن والحديث، ولعلّ السبب في ذلك راجع إلى نشأة دولتهم التي قامت على مبدأ السنة واهتمامها الكبير بعلم الفروع وفروع مذهب مالك.

ثالثا : التعريف بأبرز أعلام وعلماء التفسير خلال العهد الزياني من خلال المصادر التاريخية وكتب السير والتراجم التي ترجمت لهم :

من أجل الوقوف على تلك الكوكبة من العلماء التي لمعت أسمائها في سماء الحاضرة العلمية تلمسان في العهد الزياني قمنا بإجراء دراسة إحصائية لأبرز أعلام وعلماء التفسير الذين أمكننا الوقوف عليهم من خلال إطلاعنا وتتبعنا لأسمائهم من خلال المصادر التاريخية وكتب السير والتراجم على وجه الخصوص ومن أبرزهم خلال الفترة الزيانية نذكر:

1/ أبو عبد الله محمد الشريف التلمساني (710 هـ 771 هـ/ 1310 – 1370 م)

حسبما أجمعت عليه معظم المصادر التاريخية وكتب السير والتراجم ومنهم صاحب البستان، هو محمد بن أحمد بن علي بن يحيى ابن علي بن محمد بن القاسم بن محمود بن أبي طالب رضي الله عنه[20]، وقال ابن خلدون يعرف بالعلوني نسبة لقرية من أعمال تلمسان تسمى العلونيين، ويعرف أيضا

[18]- المرجع نفسه، ص 279.

[19]- نفسه، ص ص 279 – 280.

[20]- ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (دت)، ص 164.

بالشريف التلمساني علامة تلمسان، بل إمام المغرب قاطبة[21]، وذكره الإمام ابن مرزوق الحفيد قائلا في شأنه :" هو شيخ شيوخنا، أعلم أهل عصره بإجماع وعالما من علماء التفسير الكبار[22].

ولد بتلمسان ليلة الأحد الرابع من ذي الحجة من سنة (710ه/ 1310م) ونشأ بها، كان شغوفا بطلب العلم، كما عرف بحضوره الدائم لمجالس كبار علماء تلمسان الذين انتفع منهم، حيث أخذ عنهم الكثير من العلوم والمعارف، واختص تحديدا بابني الإمام أبي زيد وأبي موسى[23] ، كما أخذ عن كبير العلماء الشيخ ابراهيم الأيلي[24] .

وفي سنة (740ه / 1339م) ارتحل إلى تونس، حيث التقى الشيخ ابن عبد السلام[25]، وأخذ عنه عدة علوم في التصوف والحساب والهندسة والفرائض ثم عاد بعدها الى تلمسان، حيث اشتغل بالتدريس، وعندما حاصر أبو عنان المريني مدينة تلمسان (753ه / 1352م) قرب هذا الأخير الشريف التلمساني من مجلسه وضمه إلى زمرة العلماء في بلاطه، وكما ارتحل إلى فاس صحبه معه، لكن الشريف اشتد به الحنين الى مسقط رأسه، وضاق من الاغتراب حتى باح بذلك، وهو ما دفع

---

[21]- أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، دار الأبحاث للترجمة والنشر والتوزيع ، ط 1 ، الجزائر، 2011، ص 437.

[22]- ابن مريم، المصدر السابق، ص 164.

[23]- ابني الإمام أبي زيد وأبي موسى: هما الأخوان أبو زيد عبد الرحمن وأبو عيسى ابن الإمام، من أهل برشك، فقيهان كبيران مشهوران بالعلم والرياسة، نزلا تلمسان في أيام السلطان أبي السلطان أبي حمو الأول وتتلمذ على أيديهما ثلة كبيرة من العلماء، توفي عبد الرحمن سنة 743ه/ 1342م، وتوفي أخوه سنة 749ه/ 1348م ينظر ترجمتهما عند ابن خلدون العبر ج7، ص 463، ابن مرزوق المناقب المرزوقية ، دراسة وتحقيق سلوى الزاهري، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 1429ه / 2008، ص ص 202–203 ، التنسي، نظم الدر والعقيان، تحقيق وتعليق محمود بوعياد، المكتبة الوطنية، 1985، ص 139.

[24]- إبراهيم الآبلي: توفي بفاس 757ه/ 1356م لمزيد من المعلومات ينظر: ترجمته عند ابن مريم البستان، المصدر السابق، ص 214، التنبكتي، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، ضبط النص وعلق عليه أبو يحيى عبد الله الكندري، دار ابن حزم، بيروت ط1 – 1422ه/ 2002م ص 108.

[25]- ابن عبد السلام: هو محمد بن عبد السلام الهواري التونسي، علامة فقيه وقاضي الجماعة بتونس توفي سنة 749ه/ 1348م، ينظر ترجمته عند الزركشي، تاريخ الدولتين، تحقيق وتعليق محمد ماضور، المكتبة العتيقة تونس، دت، ص 88.

السلطان الى عزله وإبعاده عن مجلسه، لكن سرعان ما أعاده إليه وقربه من مجلسه العلمي، حيث ظل عضوا فيه إلى أن هلك السلطان أبو عنان (سنة 759ه/ 1358م)، حيث ألحقه الأمير أبو حمو موسى الزياني الثاني به وقربه منه، وأصهر له في بنته فزوجها له وبنى له مدرسته اليعقوبية إلى أن وافته المنية ليلة الأحد الرابع ذي الحجة 771ه/ 1370م ، ولأنه كان من زمرة الصالحين، فقد أمر السلطان أبو حمو موسى الثاني بدفنه بجوار قبر والده المولى أبي يعقوب تبركا له[26].

2/ محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق الخطيب :

هو شمس الدين المشهور بالجد والخطيب[27]، ذكره ابن فرحون في ديباجه وأثنى عليه، وخصه عبد الرحمن بن خلدون بالذكر قائلا في شأنه :هو صاحبنا الخطيب أبو عبد الله من أهل تلمسان، كان سلفه نزلاء الشيخ أبي مدين بالعباد ومتوارثين تربته من لدن جدهم خادمه في حياته، وكان جده الخامس أو السادس أبو بكر بن مرزوق معروفا بالولاية فيهم[28].

نشأ محمد بن مرزوق الخطيب هذا بتلمسان، وكان مولده فيها أواخر عام (710ه/ 1310م)، وفي سبيل بلوغ نهمه العلمي مارس الرحلة، حيث ارتحل مع والده في سنة (718ه/ 1318م) إلى المشرق، حيث جاور أبوه بالحرمين لمدة، ثم رحل بعدها إلى القاهرة، وأقام بها وقرأ على برهان

[26]– ابن مريم البستان، المصدر السابق، ص 164.

[27]– المصدر السابق، ص 184.

[28]– نفسه، ص 184.

الدين الصفاقصي[29]، وأخيه وبرع في الطلب والرواية، كما كان يجيد الخطين وله براعة في علم التفسير[30] .

وبعد عودته إلى تلمسان، ووفاة عمه خطيب مسجد العباد، ولاه السلطان خطابة ذلك المسجد مكان عمه، ونال خطوة السلطان فصار من المقربين إليه[31]، وجعله يلازم العلماء والفضلاء والأكابر، وحضر معه وقعة طريف، ثم استعمله رسولا إلى بلاد الأندلس ثم الى ملك قشتالة حيث أصبح عنصرا هاما في المفاوضات التي كانت بين السلطان المريني أبا الحسن المريني وملك قشتالة، وفي تقرير الصلح بينهما وإنقاذ والد السلطان المأسور يوم طريف، كما كلف بمهام أخرى منها مهمة المصالحة بني الملك أبي سعيد الزياني والسلطان أبي الحسن المريني الأمر الذي أدى بأبي ثابت الى القاء القبض عليه وسجنه[32].

بالإضافة الى ذلك فقد تولى أبو عبد الله مرزوق الخطابة بمسجد الحمراء بغرناطة، وجامع الموحدين بتونس في عهد السلطان أبي إسحاق إبراهيم الحفصي (751هـ-770هـ/ 1350-1369م) ثم ارتحل بعدها إلى المشرق حيث نزل الإسكندرية والقاهرة، ولقي أمراء الدولة وأهل العلم، وتفتقت بضائعه عندهم، وأوصلوه الى السلطان الأشرق وولاه الوظائف العلمية، فلم يزل

[29]- ينظر: التنسي، المصدر السابق، ص 184، لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة تحقيق محمد بن عبد الله عنان، الشركة المصرية للطباعة القاهرة، ط2 ، 1993 ، ص 104، يحيى بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد تحقيق عبد الحميد حاجيات ،المكتبة الوطنية الجزائر 1980، المصدر السابق ص 115، بودواية مبخوت، العلاقات الثقافية والتجارية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي في عهد دولة بني زيان، دكتوراه دولة في التاريخ، جامعة أبو بكر بلقايد – تلمسان – 2005- 2006 ، ص 96.

[30]- ابن مريم، المصدر نفسه، ص 185.

[31]- بودواية مبخوت، المرجع السابق، ص 96 ، عبدلي لخضر: الحياة التقافية بالمغرب الوسط في عهد بني زيان (633-962هـ / 1236-1554م) رسالة دكتوراه، قيم التاريخ جامعة تلمسان 2004 -2005 ص 199.

[32]- ابن مريم، المصدر السابق، ص 185.

بها موفور الرتبة معروف الفضيلة مرشحا للقضايا المالكية ملازما للتدريس الى أن هلك (سنة 781ه/ 1379م)[33].

3/ سعيد بن محمد بن محمد العقباني التلمساني:

ولد بمدينة تلمسان سنة (720ه/ 1360م)، وبها تلقى معظم علومه ومعارفه، حيث تتلمذ على الشيخ الآبلي إمام الأصول وشيخ العلوم العقلية كما أخذ فيها من الأخوان ابني الإمام والشيخ السطي في علم الفرائض، وصار بفضل ذلك التكوين الذي ناله وحاز عليه معلما فذا وإمام تلمسان الأعظم، وقد تخرج على يده كبار فطاحلة علماء تلمسان[34].

ويعرف بالعقباني نسبة لعقبان قرية بالأندلس وأصله منها تجيبي النسب[35] ومن خلال شيوخه يبدوا أنه برع في علوم مختلفة منها: الفقه والفتوى والتفسير وعلم الفرائض والحساب والمنطق وعلم الأصول[36].

كما ولي قضاء بجاية أيام السلطان أبي عنان وأيضا قضاء تلمسان وسلا ومراكش وقد استغرقت مدة ولايته ما يزيد عن أربعين سنة، أما وفاته فكانت سنة (811ه/ 1408م)[37] .

4/ ابن الإمام أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد عبد الله:

هو الإمام العلامة المجتهد الشهير بابن الإمام هو وأخوه شقيقه أبو موسى عيسى، ولد بقرية برشك بولاية تلمسان[38]، ذكره ابن فرحون في الديباج قائلا:"أبو زيد شيخ المالكية بتلمسان العلامة

---

[33]- المصدر السابق، ص 186.

[34]- عبد القادر بوعرفة الهلالي، أعلام الفكر والنصوص بالجزائر، ما قبل الميلاد إلى القرن السادس عشر ميلادي، دار الغرب للنشر والتوزيع وهران، 2004، ج1، ص 70، ابن مريم، المصدر السابق، ص 106/ التنبكتي، المصدر السابق، ص 178.

[35]- المصدر نفسه، ص 178.

[36]- عبد القادر بوعرفة الهلالي، المرجع السابق، ص 70.

[37]- ابن مريم، المصدر السابق، ص 106 . التنبكتي، المصدر السابق ص 178، يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص 133.

الأوحد، وهو أكبر الأخوين المشهورين بأولاد الإمام التنسي البرشكي"[39]، رحل في شبابه من بلده تلمسان الى تونس، فأخذ عن ابن جماعة وابن القطان والبطرني، وأدركا المرجاني من أعجاز المائة السابعة، ثم ورد في أول المائة الثامنة تلمسان وهي محاصرة من المرينيين[40]، وفي حدود سنة (720ه/ 1320م) رحل الفقيه أبو زيد ابن الإمام الى بلاد المشرق ولقيا بها الجلال القزويني صاحب التلخيص، وسمع صحيح البخاري على الحجار، قال المقري، وقد سمعته آنا عليهما، وناظر تقي الدين بن تيمية فظهر عليه، وكان ذلك من أسباب محنته كما أجمعت عليه معظم المصادر التاريخية بما فيها كتب السير والتراجم التي تعرضت لشخصيته[41]، مما يعرف على الإمام أبو زيد، أنه كان واسع المعرفة، كما كان يتريث في إصدار الفتاوى، وفي تفسير الذكر الحكيم وشرح الأحاديث النبوية[42] كما عرف أبو زيد مع شقيقه أبي موسى عيسى بالاجتهاد وتركهم للتقليد[43]، قال عنهما ابن الخطيب بأنهما:" علمي الأفق المغربي وعالمي تلمسان والمغرب جميعا"[44]، وأثنى عليهما جلال الدين القزويني قائلا: "بمثلهما يفخر المغرب" [45]، توفي أبو زيد بتلمسان سنة (743ه/ 1342م)[46].

[38]- ابن مريم، المصدر السابق، ص 123، محمد مرتاض من أعلام تلمسان – مقاربة تاريخية فنية – دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2004، ص 81.

[39]- ابن مريم، المصدر السابق، ص 123.

[40]- المصدر نفسه، ص 123.

[41]- ابن مريم، المصدر نفسه، ص 123.

[42]- محمد مرتاض، المرجع السابق، ص 83.

[43]- ابن مريم، المصدر السابق، ص 124.

[44]- لسان الدين بن الخطيب: نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، تحقيق أحمد مختار العبادي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ص 374 عبد الجليل قريان، التعليم بتلمسان في العهد الزياني، جسور للنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، ص 349.

[45]- ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن تحقيق ماريا خيسوس بيغيرا الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء ، ط1، 2008،ص 266.

[46]- ابن مريم، المصدر السابق، ص 126.

5/ سيدي عبد الله بن محمد بن أحمد الشريف الحسني التلمساني:

هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد بن علي الحسني الشريف، نجل الإمام العلامة أبي عبد الله الشريف التلمساني، ولد بتلمسان سنة (748ه/ 1347م)، عرف بعفته وجديته وأخلاقه الحميدة، ونبله وفهمه وحذقه وحرصه على طلب العلم .

ونذكر كتب السير والتراجم ومنها صاحب البستان ونيل الابتهاج على أن والده قد بشر به في المنام، حيث رأى قائلا يقول له: "يزداد عندك ولد عالم لا تموت حتى تراه يقرئ العلم"[47].

أما فيما يخص تكوينه العلمي، فقد تتلمذا أبو محمد عبد الله الشريف التلمساني على كوكبة من العلماء الأجلاء الذين ساهموا في نبوغه العلمي وسعة معارفه، حيث قرأ القرآن على الأستاذ النحوي أبي عبد الله بن زيد بفاس بسبب وجود والده بها يومئذ، كما أتى على حفظ كتاب الله (القرآن الكريم) وهو لا يزال صغيرا كما ألم بجمل الزجاجي وألفية ابن مالك، وقرأ على الفقيه النحوي الأستاذ الصالح ابن حياتي الجمل والمقرب والتسهيل وقسما كبيرا من كتاب سيبويه على يد الفقيه النحوي ابن حياتي، وشرح صحيح البخاري على يد ابن مرزوق الخطيب، وشرح المدونة على يد الفقيه أبي عمران العبدوسي جملة من المدونة[48]، كما تلقى طائفة من العلوم الأخرى تمثلت على وجه الخصوص في كل من التلقين والرسالة وقصيدة الكفيف في أصول الدين، على يد الفقيه أحمد القياب[49]، وحضر على الشيخ الفقيه الحسن الونشريسي والشيخ الصالح إلى العباس الشماع فرعي ابن الحاجب، وعلة القاضي أبي العباس أحمد بن حسن الذي درس على يديه موطأ الإمام مالك[50]. كما درس على يد أبوه أبو عبد الله الشريف الأصول والاقتصاد والاعتقاد للإمام أبي حامد الغزالي، ووقف مطولا عند مؤلفات ابن الحاجب ومن ذلك نذكر المختصر ومفتاح الوصول الى بناء الفروع

[47]- ابن مريم، المصدر السابق، ص 117، التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص 214.

[48]- ابن مريم، المصدر نفسه، ص 117، التنبكتي، المصدر نفسه، ص 214.

[49]- ابن مريم، المصدر السابق، ص 117.

[50]- التنبكتي، المصدر السابق، ص 214.

على الأصول، كما درس كتاب إقليدس في الهندسة وجمل الخونجي في المنطق، ودرس على يديه كذلك رواية الأحكام الصخري للشيخ عبد الحق فقها وسماعا.

ويبقى أهم ما أخذه عن والده واستفاد منه وما قوى ثقافته الدينية وأساليبه البيانية والفنية هو كثرة مواظبته على الجلوس الى دروس والده النابغة في علم التفسير[51]، وهو ما جعل منه أذكى طلبة أبيه فهما وحفظا ودراية وتفوقا [52].

ومما يحسب له، حسب ما تذكره لنا المصادر التاريخية وتحديدا كتب السير والتراجم هو تفوقه في ميدان التدريس، وقد شهد له بذلك الكثير من الطلبة وكبار الفقهاء الذين حضروا مجلس علمه وهو في سن مبكر، وثمنوا معلوماته، وشهد له بصحة أجوبته وسداد رأيه الى درجة أن الكثير منهم من كان يقوم من مجلسه، ويذهب إليه وهو يلقي درسه لتقبيله بين عينيه تقديرا له واحتراما لمقامه ومنزلته العلمية[53].

لقد تنقل أبو محمد عبد الله الشريف التلمساني بين المراكز الثقافية والمدارس والمساجد الكبرى للتدريس، ومنها جلوسه للإقراء بالمسجد الأعظم في فاس، حيث قام بتدريس أحكام عبد الحق وفرعي ابن الحاجب، وكان يحضر دروسه طلبة فاس المشهورين بالحفظ للمسائل المعقدة[54].

أما عن أبرز طلبة أبو الفضل محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق الحفيد التلميذ النابغة في علم التفسير[55]، والقاضي الأندلسي أبو بكر بن عاصم والشيخ الزاهد أبو العباس أحمد بن موسى البجائي[56]، توفي غريق في البحر لما كان عائدا من مالقة إلى تلمسان سنة(794ه/ 1390م)[57].

[51]- المصدر نفسه، ص 214.

[52]- المصدر نفسه، ص 215.

[53]- ابن مريم، المصدر السابق، ص 218 ، محمد مرتاض، المرجع السابق، ص 184.

[54]- محمد مرتاض، ص 185.

[55]- التنبكتي، المصدر السابق، ص 215، محمد مرتاض، ص 187.

6/ ابن مرزوق الحفيد:

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر أبن مرزوق الحفيد، ولد بتلمسان سنة (766ه/ 1354م) وتوفي عام (842ه/ 1438م)[58]، فقيه أصولي ومفسر ومحدث حافظ للرواية والسند ومتصوفا وناظما لغويا متضلعا في النحو والبيان والعروض، ومفتي سني، لقب بشيخ الإسلام والعلماء في زمانه وإمام المسلمين في عصره[59] .

نشأ وتعلم بتلمسان، ثم ارتحل إلى تونس ففاس وبعدها سافر الى القاهرة تتلمذ في بداية مشواره بتلمسان على شيوخها الأجلاء، ويأتي في مقدمتهم والده وعمه، كما أخذ العلم من الشيخ سعيد العقباني، وأبي إسحاق المصمودي، الشيخ ابن عرفة، وحج رفقته سنة 790ه/ 13م، وعن الشيخ القصار، وبفاس عن الشيخ المكودي وعن سراج الدين البلقيني وأبي الفضل والفيروز آبادي وابن هشام والنويري بالقاهرة وغيرهم من أعلام تلك الحقبة الذين أجازوه، ومنهم أبو القاسم محمد الخشاب ومحمد علي الحفار الأنصاري[60]، كما لقي الإمام ابن حجر الذي خصه بالذكر قائلا:" نعم الرجل معرفة بالعربية والفنون وحسن الحظ والخلق والوقار والمعرفة والأدب التام "[61] .

اشتغل في عدة حقول معرفية منها النحو والمنطق والفقه والأصول حيث أتقن فقه مالك، وتولى الإفتاء على مذهبه، كما أتقن فقه ابن القاسم والمازري وابن رشد اللخمي والقرافي، وأخذ في التفسير بالتأويل على طريقة الزمخشري[62]. أما عن تلاميذه، فقد أخذ عنه كل من أبو الفرج بن أبي

[56]- التنبكتي، المصدر السابق، ص 215.

[57]- ابن مريم ، المصدر السابق، ص 120.

[58]- المصدر نفسه ص120 ، بودواية مبخوت، المرجع السابق ص 98، عبد القادر بوعرفة ، المرجع السابق ص 71.

[59]- التنسي، المصدر السابق، ص 14 ، التنبكتي، نيل الابتهاج، ص 172.

[60]- المصدر نفسه، ص 179، عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، مؤسسة نويهض، ط2، بيروت 1983 ص ص 290-291، بودواية مبخوث، المرجع السابق، ص 99.

[61]- التنبكتي، المصدر السابق، ص 179.

[62]- التنبكتي، المصدر السابق، ص 179، عبد القادر بوعرفة الهلالي، المرجع السابق، ص 71.

يحيى الشريف التلمساني، وأبو زيد الثعالبي التونسي والشيخ عبد الرحمن الثعالبي الجزائري، وقاضي الجماعة عمر القلشاني وحضر الزواوي والحسن أبركان والقلصادي[63]، توفي بتلمسان عن عمر يناهز 74 عاما، وكان ذلك سنة 842ه/ 1438م[64].

7/ عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي أبو زيد:

هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي ولد بوادي يسر جنوب شرقي الجزائر العاصمة، ولد سنة 786ه/ 1384م[65]، رحل إلى كثير من حواضر العلم والثقافة، كبجاية التي تعلم بها اشهر علوم عصره على يد علمائها، وكان في مقدمتهم أبو العباس النقاوسي، وأبو الحسن علي بن عثمان المانجلاني، وأبو الربيع سليمان بن الحسن الفقيه المحقق، وأبو الحسن علي بن محمد البليليني وعلي بن موسى[66]، وفي سنة 209ه/ 1406م ارتحل إلى تونس، وأخذ عن كل من الإمام أبي عبد الله الآبي والإمام أبي القاسم البرزلي وأبي يوسف يعقوب الزغبي، ثم رحل إلى بلاد المشرق والتقى الشيخ علي البلالي الذي سمع عليه البخاري، كما حضر مجلس شيخ المالكية بها أبي عبد الله السباطي، وشيخ المحدثين بها ولي الدين العراقي الذي انتفع منه كثيرا في علم الحديث وأجازه[67]، ثم توجه إلى تركيا وبعدها إلى الحجاز فأدى مناسك الحج، ثم بعدها رجع إلى تونس سنة 819ه/ 1416م، فأخذ عن عالمها ابي عبد الله القلشاني، ومنها عاد الى المغرب الأوسط، حيث ولي القضاء مكرها لمدة ثم استقال بعد ذلك، ليشتغل في الحقول الفكرية التالية: الفقه والتفسير والتاريخ والتصوف و يتفرغ نهائيا للتدريس والتأليف[68].

---

[63]- عادل نويهض، المرجع السابق، ص ص 291-292.

[64]- التنبكتي، النيل، المصدر السابق، ص 180.

[65]- المصدر نفسه، ص 282، عادل نويهض، المرجع السابق، ص 90 ، بودواية مبخوت، المرجع السابق ص 103.

[66]- المصدر السابق، ص 251، عادل نويهض، المرجع السابق، ص 90 ، بودواية مبخوت، المرجع السابق ص 103.

[67]- التنبكتي، المصدر السابق ص 251.

[68]- بودواية مبخوث، المرجع السابق، ص 103.

أما عن أبرز تلاميذته فنذكر الشيخ العالم محمد بن محمد بن مرزوق الكفيف، والإمام السنوسي، وأخيه لأمه علي التالوني، والإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي حسبما تذكره لنا كتب التراجم[69]. كما ترك رصيدا قيما من التأليف سنأتي على ذكرها فيما بعد عندما نتطرق للنقطة المتعلقة بأهم مؤلفاتهم خاصة في مجال علم التفسير، أما عن وفاته، فقد كانت ببجاية سنة 875ه/ 1470م[70].

8/ ابن زاغو التلمساني:

هو أحمد بن محمد بن عبد الرحمن، من قبيلة مغراوة البربرية التي أسست مدينة وهران حوالي القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، غير أنه تلمساني المولد والمنشأ، اشتهر بابن زاغو[71]، ولد بتلمسان سنة 782ه/ 1380م، وتعلم على كبار شيوخها وعلمائها كأبي عثمان العقياني، والشيخ العارف والمفسر أبي يحيى الشريف وغيرها[72].

كان أعلم الناس في وقته في التفسير وأفصحهم في التعبير، أخذ بمذهب الإمام مالك، وفاق أقرانه في دلائل السبل والمسالك[73].

لازم التدريس بالمدرسة اليعقوبية بتلمسان، وكان متضلعا في التفسير والحديث والفقيه والبيان والحساب والفرائض، وقد تتلمذ عليه الكثير ممن اشتهروا في العلوم الدينية كابن زكري، وأبي الحسن القلصادي والحافظ التنسي[74]، قال عنه تلميذه، أبو الحسن القلصادي في رحلته:"شيخنا الفقيه الإمام المصنف المدرس اعلم الناس في وقته بالتفسير وأفصحهم، فاق نظراءه و أقرانه في

[69]- التنبكتي، النيل، المصدر السابق، ص 153.

[70]- المصدر نفسه، ص 153، محمد بن مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الفكر للطباعة والنشر، د.ت، ص 265.

[71]- الحسن القلصادي، رحلة القلصادي دراسة و تحقيق محمد أبو الجفان، الشركة التونسية، تونس، 1978 ص 102، عبد القادر بوعرفة المرجع السابق، ص73.

[72]- القلصادي، المصدر السابق، ص 103، التنبكتي، النيل، المصدر السابق، ص 123.

[73]- ابن مريم، المصدر السابق، ص ص 41-42، التنبكتي، النيل، المصدر السابق، ج1، ص 122.

[74]- عبد القادر بوعرفة، المرجع السابق، ص 73.

دلائل السبل والمسالك ذي سبق في الحديث والأصول والمنطق وقدم راسخة في التصوف، مع الذوق السليم والفهم المستقيم، وبه يضرب المثل في الزهد والعبادة"[75]، توفي بالطاعون عن عمر يناهز 63 حولا وكان ذلك سنة 845هـ/ 1441م[76].

9/ أبو عبد الله السنوسي :

هو محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب، ولد بتلمسان سنة 832هـ/ 1428م ونشأ بها، وأخذ عن كبار علمائها العلوم النقلية والعقلية من أمثال الحسن أبركان، ونصر الزواوي، ومحمد بن تومرت، وعبد الرحمن الثعالبي، وأبي عبد الله الحباك ومحمد بن أحمد الجلاب وإبراهيم التازي صاحب وخليفة محمد الهواري الذي أسس زاوية بوهران[77]، والشيخ الشريف أبو الحجاج يوسف بن أبي العباس بن محمد الشريف الحسني، الذي أخذ عنهم علم القراءات وعن الإمام الحجة والصالح أبي زيد الثعالبي الصحيحين وغيرهما من كتب الحديث وأجازه وعن أبي الحسن القلصادي الأندلسي الفرائض والحساب وأجازه جميع ما يرويه وغيرهم[78].

10/ محمد بن ابراهيم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن الإمام ابي الفضل التلمساني:

هو الإمام العالم العلامة الحجة النظار المحقق العارف اللوذغي الرحلة أحد أقران الإمام ابن مرزوق الحفيد، شهر بابن الإمام من بيت علم وشهرة وجلالة[79]، ارتحل في سنة 810هـ/ 1407م إلى تونس، وأقام بها شهرا، ثم قدم القاهرة فحج منها وعاد إليها، ثم سافر في 812هـ/ 1409م لبلاد

[75]- القلصادي، المصدر السابق، ص 103، التنبكتي، النيل، المصدر السابق، ص 123.

[76]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر الى الرابع عشر (16-20م)، ج1، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، 1981،ج1، ص 87، بودواية مبخوث، المرجع السابق، ص 113.

[77]- عبد القادر بوعرفة الهلالي، المرجع السابق، ص 73.

[78]- التنبكتي، النيل، المصدر السابق، ص 253-260

[79]- عبد القادر بوعرفة، المرجع السابق، ص 81.

الشام فزار القدس وقد تزاحم عليه الناس بدمشق حين علموا فضله وأجلوه[80]، ذكره القلصادي في رحلته فقال: حضرت مجلسه، وكان فقيها إماما صدرا عالما بالمعقول [81] له كلام وأبحاث في التفسير تكلم فيها مع الإمام المقري في مسائله التفسيرية، وقد أخذ عنه محمد بن مرزوق الكفيف، ووصفه بشيخنا الإمام العالم النظار الحجة أبو الفضل ابن الإمام. كما أخذ عنه بالمشرق التقى الشمني شارح المغنى الذي ذكر بخصوصه أنه كان يجاب على المسائل بعد قيام البراهين القاطعة[82]، توفي عام 845ه/ 1441م[83].

11/ محمد بن أحمد بن النجار:

هو الفقيه العلامة الأصولي أبو عبد الله التلمساني[84]، ذكر تلميذه القلصادي وعرف به في رحلته قائلا: شيخنا الفقيه الإمام العلامة المتفنن السيد كانت له مشاركة في العلوم النقلية والعقلية، قرأت عليه أيضا مختصر الشيخ خليل ومستصفى الغزالي وأصلي ابن الحاجب، وحضرت عليه تفسير القرآن، وبعض إرشاد إمام الحرمين، ومنهاج البيضاوي والسلاجية وجمل الخونجي، وتلخيص المفتاح غير مرة وقواعد القرافي وتنقيحه، وبعض الألفية والمرادي والجمل وشيئا من المدونة وتوفي عام 846ه/ 1442م[85] .

---

[80]– التنبكتي، المصدر نفسه، ص 537– 538.

[81]– المصدر نفسه، ص 538.

[82]– المصدر نفسه، ص 538.

[83]– المصدر نفسه، ص 538.

[84]– المصدر نفسه، ص 221.

[85]– ابن مريم، المصدر السابق، ص 222.

12/ محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي:

هو محمد بن عبد الله محمد الحافظ التنسي فقيه و مفسر مؤرخ و أديب وشاعر، ولد بمينة تنس[86]، وتعلم ونشأ بالحاضرة تلمسان، وصفة أحمد بابا التنبكتي فقال:" الفقيه الجليل الحافظ الأديب المطلع من أكابر علماء تلمسان، والده هو أبي عبد الله التنسي الذي ذكره المقري في معرض حديثه اتصاله برواية الإمام ابي حيان"[87]، أخذ العلم عن علماء تلمسان ومنهم الإمام أبي الفضل محمد بن مرزوق الحفيد، والإمام أبي الفضل ابن الإمام والإمام قاسم العقباني، والإمام الأصولي محمد بن النجار، والولي الصالح إبراهيم التازي والإمام أبي العباس وغيرهم كثيرون[88].

اشتهر محمد بن عبد الجليل التنسي في زمانه بالعلم، حتى لقد ذكر عن الشيخ أحمد بن داود الأندلسي أنه مثل حين خرج من تلمسان عن علمائها فقال : " العلم مع التنسي، والصلاح مع السنوسي والرياسة مع ابن زكري[89].

اشتغل مترجمنا في حقول علمية متنوعة منها التفسير والحديث والفقه والأدب وغيرها وقد نقل عنه الونشريسي بعض فتاويه في المعيار، ومن أبرز تلاميذته العلامة أبو عبد الله ابن صعد، والشيخ الخطيب حفيد الحفيد ابن مرزوق، والشيخ العالم أبو عبد الله ابن الإمام ابن العباس .توفي عبد الجليل التنسي سنة 899ه/ 1493م[90].

[86]- هي مدينة قديمة بناها الأفارقة، أصلها مستودع تجاري قرطاجني، أقام الرومان مكانه مدينة كارتيناس ومنها جاء الاسم المتداول حتى اليوم، وقد كانت دائما خاضعة لملك تلمسان، ينظر: الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، 1983، ج2 ، ص35.

[87]- التنبكتي، النيل، المصدر السابق، ص 209.

[88]- التنبكتي، المصدر نفسه، ص 261.

[89]- ابن مريم، المصدر السابق، ص 248.

[90]- المصدر نفسه، ص 249.

13/ **سعيد العقياني**:

هو إمام تلمسان وعلامتها، إمام فاضل فقيه ومفسر متفنن في علوم شتى، سمع من ابني الإمام وتفقه بهما، ولي قضاء تلمسان أكثر من أربعين سنة. توفي سنة 811ه/ 1408م[91].

14/ **محمد بن يوسف السنوسي** :

ولد بتلمسان سنة 832ه/ 1428م ، وتلقى العلم على كبار شيوخها ومن بينهم والده الذي كان واحدا منهم، وأبو الحجاج يوسف بن العباس محمد بن أحمد التالوتي أخوه من أمه وأبو الحسن القلصادي، عالم صالح وزاهد ومفسر، جمع بين علوم الظاهر والباطن وكان لا يقرأ علم الظاهر إلا خرج منه لعلوم الآخرة سيما التفسير والحديث لكثرة مراقبته الله تعالى كأنه يشاهد الآخرة[92]، كما ساهم في تخريج العديد من العلماء الأجلاء في زمانه[93].

ونذكر المصادر التاريخية ومنها كتب السير والتراجم على أن لما طلبه السلطان أن يطلع عليه ويقرأ التفسير بحضرته على عادة المفسرين، امتنع، فألحوا عليه فكتب معتذرا بغلبة الحياة له[94]، ترك الكثير من التأليف أغلبها في العقيدة والتوحيد وفي علم التفسير، وتوفي عالمنا محمد بن يوسف السنوسي سنة 89ه/ 1489م[95].

---

[91]- التنبكتي، النيل، المصدر السابق، ص 189-190 ، لخضر سعيداني، تراجم لعلماء منطقة تنس وأثارهم الفكرية،منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، 2015، ص 206.

[92]- ابن مريم، المصدر السابق، ص 237، حساني مختار، الحواضر والأمصار الإسلامية الجزائرية ، دار الهدى، الجزائر -2011، ص 221.

[93]- المصدر نفسه، ص 240.

[94]- التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص587.

[95]- ابن مريم، المصدر السابق، ص 245.

15/ أحمد بن محمد بن زكري:

هو أحمد بن محمد بن زكري المانوي التلمساني، لم نعرف تاريخ ولادته لأن المصادر التاريخية، وخاصة كتب التراجم التي ترجمت له اكتفت بذكر وفاته فقط وهي 899هـ/ 1493م، تتلمذ على كوكبة من علماء تلمسان الأجلاء، ومنهم على وجه الخصوص ابن مرزوق الحفيد / وقاسم العقباني وابن زاغوا، ومحمد بن العباس وهؤلاء العلماء كلهم من علماء تلمسان، وكان تكوينه على يد هؤلاء العلماء، قد سمح له بأن يلقب برئيس العلماء في عصره[96] .

ومما يطلعنا به كتب السير والتراجم ومنها البستان لمؤلفه ابن مريم والنيل لمؤلفه أحمد بابا التنبكتي أنه روى أن علماء تلمسان توافقوا على قراءة التفسير. فقدموا سيدي محمد بن العباس يقرئ فطالع ما في التعوذ وما في البسملة والفاتحة وفسرها الشيخ ثم إن القارئ قرأ أنا فتحنا لك فتحا مبينا خلاف ما طالع فعسر عليه الأمر لأن الفقهاء أرادوا أن يفضحوه لأن هذه القراءة بين يدي السلطان، ثم إن سيدي أحمد وقف بين يدي الشيخ و قال له يا سيدي أنا محلها من الإعراب محل خال ثم أن الشيخ رضي الله عنه فتح له طريقه في كل فن، فلما فتح له الطريق صار من الضحى وهو يفسر إنا فتحنا إلى الزوال، فلما فرغ الشيخ ضم سيدي أحمد بن زكري إلى صدره وهو يقول يا ولدي فتحت علي فتح الله[97]، و قيل أنه توفي في صفر سنة 899هـ/ 14م[98].

16/ محمد بن الكريم المغيلي:

هو محمد بن عبد الكريم محمد المغيلي، ولد بتلمسان ونشأ بها ينحدر من أصول أمازيغية، اذ ينتسب الى قبيلة مغيلة، تنقل في بلاد المغرب الإسلامي، فمن تلمسان الى قوات بالصحراء الجزائرية

[96]– ابن مريم، المصدر السابق، ص ص 38–39 حساني مختار، المرجع السابق، ص 123.

[97]– ابن مريم، المصدر السابق، ص 40.

[98]– المصدر نفسه، ص 41.

إلى بلاد السودان وأرض التكرور[99]. ذكره التنبكتي صاحب النيل قائلا في شأنه :" هو خاتمة المحققين الإمام العالم الفهامة القدوة الصالح السني أخذ الأذكياء، ممن له بسطه في الفهم والتقدم"[100].

درس في مسقط رأسه على علماء تلمسان من أمثال الشيخ محمد بن أحمد بن عيسى المغيلي الشهير بالجلاب التلمساني، كما أخذ عن الإمام عبد الرحمن الثعالبي والشيخ يحيى بن بدير وغيرهم، فبرع في مجموعة من المعارف، أما من تلاميذته الذين تكونوا عليه نذكر الفقيه الشيخ العاقب الأنصمني المسوفي، ومحمد بن عبد الجبار الفيجيجي والشيخ محمد بن أحمد بن أبي محمد التارختي[101] .

اشتغل في عدة حقول معرفية منها الفقه والحديث والمنطق والأصول والتفسير الذي نبغ فيه، له آثار مشهورة ومواقف مشهورة ضد اليهود بسبب ازدياد نفوذهم داخل الدولة الزيانية، وبعض علماء المغرب، خالف جلال الدين السيوطي حول مسالة المنطق، بلغت حد النزاع، وكان السيوطي قد حرم المنطق ونهى الطلبة عن الخوض فيه، فكتب إلى المغيلي قصيدة مطولة يفند فيها أدلة السيوطي حيث يقول:

هل المنطق المعنى إلا عبارة عن الحق أو تحقيقه حيث جهله[102]

توفي محمد بن عبد الكريم المغيلي سنة 909ه/ 1503م[103] .

[99]– عبد القادر بوعرفة الهلالي، المرجع السابق، ص 84.

[100]– التنبكتي النيل، المصدر السابق، ص 598.

[101]– ابن مريم، البستان، ص 256.

[102]– عبد القادر بوعرفة، المرجع السابق، ص 24.

[103]– ابن مريم ، المصدر السابق، ص 256.

رابعا : دراسة إحصائية لأهم مؤلفاتهم التي اشتهروا بها في علم التفسير:

اهتم علماء تلمسان كغيرهم من المسلمين بتفسير القرآن الكريم لعامة الناس وخاصة القوم والطلبة في المدارس والمساجد بعاصمة بني زيان، والمصادر التاريخية لهذه الفترة تطلعنا على العدد الهائل من التلمسانيين الذين اشتغلوا بعلم القرآن وتفسيره اما شفويا أو تدريسا، في حين تبقى أثارهم ومؤلفاتهم التي سجلوها تدوينا قليلة[104]، كما سوف نوضحه في هذا الجدول الإحصائي الخاص بمؤلفاتهم:

الرقم	اسم المؤلف	سنة الوفاة	عدد المؤلفات الإجمالي	عدد المؤلفات في علم التفسير	أهم الملاحظات	المصدر
1	أبو عبد الله الشريف التلمساني	(771ه/ 1370)	(06)	(02) -تفسير القرآن من سورة النحل إلى الختم - تفسير القرآن من أوله الى قوله تعالى في سورة آل عمران الآية 171 (يستبشرون بنعمة من الله)	كان قليل التأليف ومصنفاتهم في علم التفسير مفقودة وأكبر اعتناؤه كان بالتدريس -مارس علم التفسير تدريسا أكثر من خمسة وعشرون سنة كان يفسر كل يوم ربع حزب من القرآن الكريم.	ينظر: ابن مريم، البستان، المصدر السابق ص 173 - التنبكتي، النيل، ص 444 ، مرتاض، من أعلام تلمسان، ص 183.
2	محمد بن أحمد بن محمد بن	(ت 781ه/ 1379)	(08)		لم نقف على مؤلفاته في التفسير بالرغم على أن المصادر	ينظر: ابن مريم، المصدر السابق ، ص 186

[104]– عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ج2 ، ص 438.

	مرزوق الخطيب				التاريخية تشير على أنه كان متسع الرواية مشارك في فنون من أصول وفروع وتفسير وكان ملازما للتدريس الى أن هلك، ربما يعود ذلك إلى فقدانها.	– التنبكتي المصدر السابق، ص 461، ولسان الدين بن الخطيب الإحاطة، ص 126.
3	ابن الإمام أبو زيد عبد الرحمن بن محمد	(ت 745ه/ 1342م) (ت 745ه/ 1344م)	(01)		ذكر ابن فرحون أنه له تصانيف مفيدة ولعلها ضاعت وسط تلك الحوادث والاضطرابات التي شهدها المغرب الإسلامي يومئذ	ينظر: ابن مريم البستان، ص 126 – التنبكتي، نيل الابتهاج ص 269
4	سيدي عبد الله بن محمد بن أحمد الشريف الحسني التلمساني	(ت 794ه/ 1390م)			لم تطلعنا المصادر التاريخية على أهم مؤلفاته التي ألفها بشكل عام ولا حتى في علم التفسير واكتفيت فقط بالإشارة الى تفسيره الشفوي لآية 91 من سورة آل عمران في مجلس إقرائه.	ينظر: التنبكتي نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص 216. – ابن مريم البستان المصدر السابق، ص 117.

5	سعيد بن محمد بن محمد العقياني التلمساني	(ت 811هـ/ 1408م)	(08)	(02) -تفسيره لسورة الفتح -تفسيره لسورة الأنعام		ينظر: ابن مريم المصدر السابق، ص106/ التنبكتي النيل المصدر السابق، ص 204 فيلالي عبد العزيز ، المرجع السابق، ج2، ص 439
6	ابن مرزوق الحفيد	(ت 842هـ/ 1438م)	(36)	(01) كتابه في تفسير سورة الإخلاص -تفسير سورة المائدة -تفسير سورة مريم ولقب بفارس التفسير	لم تذكر لنا كتب السير والتراجم مصنفات أخرى له في علم التفسير وربما يعود ذلك الى فقدانها	ينظر: التنبكتي المصدر السابق، ص ص 180-181 ابن مريم المصدر السابق، ص ص 206-208. التنسي، المصدر السابق، ص ص 14-15
7	ابن زاغو التلمساني	(845هـ/ 1441م)	(07)	(03) وهي: - مقدمة في التفسير -تفسير الفاتحة -التذليل عليه في ختم التفسير	ألف في علم الفقه والتفسير	ينظر: التنسي، المصدر السابق، ص 16 ابن مريم المصدر السابق، ص 42-43 التنبكتي، المصدر

						السابق، ص ص 123–124
8	محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن الإمام أبي الفضل التلمساني	(ت 845هـ/ 1441م)		لم يترك مؤلفاته معروفة أو موصوفة بسبب انشغاله بمهنة التدريس	ذكر القلصادي أنه له كلام وأبحاث في التفسير تكلم فيها مع الإمام المقري في مسائله التفسيرية كان اهتمامه بتدريس التفسير وليس التأليف	ينظر: التنبكتي المصدر السابق، ص 538
9	محمد بن أحمد بن النجار	(ت 846هـ/ 1442م)		لم يترك مؤلفات في علم التفسير بسبب انشغاله بتدريسه	ذكره القلصادي في رحلته قائلا حضرت عليه تفسير القرآن ...	ابن مريم البستان، ص 222.
10	عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي أبو زيد	(ت 75هـ/ 1470م)	(17)	(04) وهي : -الجواهر الحسان في تفسير القرآن. -الذهب الإبريز في غريب القرآن العزيز. -تحفة الإخوان في اعراب بعض آيات القرآن. -كتاب الأنوار في آيات النبي المختار.	ألف في علم الفقه والتفسير	التنبكتي ، المصدر السابق، ص 284 - ابن مريم المصدر السابق، ص 123 - عبد القادر بوعرفة، أعلام الفكر ص 70

11	محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي	(ت 895ه/ 1490م)	ذكره مترجموه أن له ما يربو عن (50) مؤلفا وشرحا اهتم فيها بالعقائد الكلامية – الحديث والفقه والتفسير والمنطق والأصول والقراءات	(08) وهي: -تفسير القرآن الكريم كله -تفسير سورة الإخلاص -تفسير سورة ص -تفسير سورة الفاتحة وهو تفسير مطول نسبيا - تفسير صدر سورة البقرة -تفسير حديث" المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء" - تفسير قوله تعالى : "لا يسخر قوم من قوم ... و لا نساء من نساء" من سورة الحجرات الأية (11) - تفسير المعوذتين	كان ينوي التفرغ للتفسير إلا أن انشغاله بالعلوم حال دون تحقيق رغبته. - اشتهر هذا الإمام العالم بالعلوم الظاهرة وانفرد بعلوم الباطن لاسيما التوحيد القراءات و التفسير والحديث.	ينظر: عبد ص ، المرجع السابق ، ج2 ص 439 ابن مريم، المصدر السابق، ص 246

12	محمد بن عبد الله التنسي	(ت 899هـ/ 1493م)	حسب مترجمون له تعاليق عدة لم يأتو على ذكرها كلها	(01) وهو شرح لكتاب محمد بن محمد الأموي الشريسي الشهير بالخراز والمسمى بالمورد الضمأن في رسم أحرف القرآن.	ذكره ابن مرزوق قائلا:" لازمت مجلس الفقيه سيدي التنسي عشرة أعوام و حفرت اقراءه تفسيرا وحديثا وفقها وعربية وهو ما يدل على انشغاله بالتفسير تدريسا و ليس تأليفا.	ينظر: التنبكتي المصدر السابق، ص 261، ابن مريم المصدر السابق، ص 17.
13	أحمد بن محمد بن زكري	(ت899 هـ/ 1493م)	حوالي (30) مؤلفا في العقيدة والفقه والمنطق والتفسير وغيرها	(02) - تفسير القرآن الى قوله :" أولئك هم المفلحون " سورة البقرة الآية 05 - تفسير سورة ص وما بعدها	بدأ التأليف وهو في عمر التسعة عشر عاما.	ينظر: التنبكتي المصدر السابق، ص ص 592-593
14	محمد بن عبد الكريم المغيلي	(ت 909هـ/ 1503م)	(18) مؤلفا في الفقه والحديث والتفسير والمنطق وغيرها	(01) وعنوانه البدر المنير في علوم التفسير	يعود سبب قلة مؤلفاته في التفسير بسبب انهماكه وانشغاله بالتدريس من جهة، وانشغال وقته بمسألة يهود توات والأنظار التي كانت تحدق	ينظر أحمد الحمدي محمد بن عبد الكريم المغيلي رائد الحركة الفكرية بتوات عصره وآثاره 870هـ- 1465م /

					بالمسلمين من جهة أخرى	909هـ-1503م رسالة ماجستير وهران، 1999-2000، ص 45.-54 المقري أبو العباس ، روضة الأسس العاطرة الأنفاس المطبعة الملكية ، الرباط، 1964، ص .305-304

من خلال تتبعنا لهذه الدراسة الإحصائية لأهم مؤلفات علماء تلمسان في علم التفسير في العهد الزياني، يتضح لنا جليا أن عددها يبدوا قليلا مقارنة بإسهاماتهم في العلوم الأخرى، ويعود السبب في ذلك إلى أن الكثير منهم كما رأينا من خلال الملاحظات الواردة في الجدول الإحصائي كان منشغلا بتدريس هذا العلم، وبالتالي لم يتسنى لهم الوقت الكافي في الخوض فيه تأليفا، ومع ذلك، فقد استطاعوا أن يتركوا لنا بعض المؤلفات القيمة التي لا ينبغي لأي باحث ومهتم في المجال الاستغناء عنها، في الوقت الذي نجد فيه علماء آخرون قد اجتهدوا في المجال وألفوا لنا مؤلفات قيمة في علم التفسير لكن للأسف الشديد، فقدت بسبب الحروب والاضطرابات التي كانت شهدها بلاد المغرب الإسلامي آنذاك.

خامسا: مدى اسهامهم وتأثيرهم في هذا المجال :

لم يكن لعلماء الدولة الزيانية تلمسان تأثير في أراضيهم فقط[105]، بل امتدا ذلك أيضا إلى أجزاء كبيرة من أراضي العالم الإسلامي مشرقا ومغربا وأندلسيا وحتى في بلاد السودان الغربي الذي له علاقة بالدولة الزيانية، وهذا في عصرها الذهبي[106].

ويكفينا فخرا في هذا المقام كأبناء المغرب الأوسط أن نذكر القارئ بتلك المناظرة العلمية والقيمة التي جمعت بين عالمان من أهل المغرب الأوسط بشيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية ببلاد المغرب وتفوقهما عليه، وكانت سببا في المحنة التي ألمت به حسب ما تذكر لنا كتب المصادر التاريخية[107].

وكذلك الشأن بالنسبة للمفسر أبو عبد الله الشريف التلمساني (ت771ه/ 1370م) والتي تخبرنا كتب السير والتراجم، لما اجتمع العلماء عند أبي عنان أمر الفقيه العالم المقري بإقراء التفسير، فامتنع منه ، وقال الشريف أبو عبد الله أولى مني بذلك، فقال له السلطان تعلم أنت علوم القرآن وأهل تفسيره ، فأقرأه، قال له: أن أبو عبد الله بحضرة العلماء كافة في دار السلطان ونزل السلطان عن سرير ملكه وجلس معهم على الحصير، فأتى بما أدهش الحاضرين حتى قال السلطان عند فراغه أني لأرى العلم يخرج من منابت شعره[108]، وقال الخطيب ابن مرزوق : لما سافر أبو عبد الله لتونس كرهت مفارقة، ولكن حمدت الله على رؤية أهل إفريقية مثله من المغرب[109].

ولم يتوقف عمل المغيلي على توات فقط، بل توجه إلى إمارة مالي وبالتحديد إلى نكدة، فاجتمع بصاحبها الذي كان معتنقا للإسلام وساعده في نشر تعاليم الإسلام مما جعل الناس ينتفعون به

---

[105]– حساني مختار، الحواضر والأمصار، المرجع السابق ج4 ، ص 131.

[106]– المرجع نفسه، ص 131.

[107]– التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق ، ص442.

[108]– التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص 443.

[109]– المصدر نفسه ، ص 443.

ويتخرج عليه مجموعة من طلبة العلم تركهم بنكدة ينجزون ما بدأه هو، ثم توجه إلى بلاد كنورش التي اجتمع فيها أمراء المسلمين في تلك النواحي، وقد استمع هؤلاء إليه واستفادوا منه في تيسير أمور المسلمين[115] .

خاتمة الدراسة:

وفي الأخير يمكننا القول بأنه، لقد أنجب البيت الزياني مجموعة من المفسرين الأفذاذ والأجلاء الذين شكلوا موضع افتخار لبلاد المغرب الأوسط بشكل خاص ولأجيال الأمة الإسلامية بشكل عام.

فقد استطاعت هذه الكوكبة الرائعة من المفسرين التلمسانيين في العهد الزياني أن تؤسس بالفعل لمدرسة التفسير بتلمسان الزيانية، وذلك من خلال ما تركته لنا من تراث فكري قيم في مجال التفسير يستحق منا اليوم كل العناية والاهتمام من أجل البحث في طياته واكتشاف حقائقه وخباياه من خلال عملية الدراسة والتحقيق، ومن أمثال ذلك مؤلفات المفسر التلمساني الشهير محمد السنوسي الذي تعد كتبه من أهم كتب التلمسانيين، حيث لا تخلو منها خزينة من خزائن المخطوطات داخل المغرب الأوسط (الجزائر حاليا) أو خارجه والتي تدل على عظمة الرجل ومنزلته العلمية الرفيعة آنذاك.

قائمة المصادر و المراجع :

أ/ المصادر:

1) عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، الدار التونسية للنشر والتوزيع، تونس، 1984 .

2) عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت 1998، ج1،ج7.

[115]– حساني مختار، المرجع السابق، ص 129 .

3) ابن النديم، الفهرست، تحقيق يوسف علي الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 ، 1416ه/ 1996م.

4) الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتاب العربي ، بيروت، ط3، 1980، ج6.

5) فتاوى ابن تيمية ج20 نقلا عن حميد لحمر مدرسة التفسير الأندلسية وجهودها في جميع تفسير عالم المدينة الإمام مالك (ض)، جامعة محمد عبد الله فاس مقال ضمن مجلة الحضارة الإسلامية العدد1 – وهران 1993.

6) ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر دت.

7) أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، دار الأبحاث للترجمة والنشر والتوزيع ط1، الجزائر، ت 2011.

8) أحمد بابا التنبكتي، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، ضبط النص وعلق عليه أبو يحيى بن عبد الله التنبكتي، دار ابن حزم ، ط1 بيروت ، 2002م.

9) التنسي، نظر الدر والعقيان، تحقيق وتعليق محمود بوعياد، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1985م.

10) ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، دراسة وتحقيق سلوى الزاهري ، منشورات وزارة للأوقاف والشؤون الإسلامية ط1، المملكة المغربية، 2008.

11) ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن تحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر، مطبعة النجاح ، ط1، الدار البيضاء، 2008م.

12) الزركشي، تاريخ الدولتين، تحقيق وتعليق محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس (دت).

13) لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، الشركة المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، ط2، 1973.

14) لسان الدين بن الخطيب، نفاضة الجراب في علالة الإغتراب، تحقيق أحمد مختار العبادي، دار الكتاب العربي، القاهرة.

15) يحيى بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، ج1، 1980.

16) محمد بن مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الفكر للطباعة والنشر (دت).

17) أبي الحسن القلصادي، رحلة القلصادي، دراسة وتحقيق محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية، تونس 1978.

18) الحسن الوزان، وصف إفريقيا ترجمة محمد حجي، ومحمد الخضر، دار الغرب الإسلامي ط2، بيروت ج2 ، 1983.

19) أبو العباس المقري، روضة الآس العاطرة الأنفاس، المطبعة الملكية، الرباط 1964.

ب/ المراجع:

20) بن الذيب عيسى وآخرون، الحواضر والمراكز الثقافية في الجزائر خلال العصر الوسيط، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة نوفمبر 1954، الجزائر.

21)عاشور بوشامة، علاقات الدولة الحفصية مع دول المغرب و الأندلس 627-981ه/ 1228-1573م رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 1991.

22) بلحسن براهيم، العلاقات الثقافية بين المغربين الأوسط والأدنى من القرن 7ه الى القرن 9ه / 13-15م رسالة ماجستير، جامعة تلميان 2004-2005م.

23) عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، دار موفم للنشر والتوزيع، الجزائر 2002، ج2.

24) حساني مختار، الحواضر والأمصار الإسلامية الجزائرية دار الهدى، الجزائر ج4.

25) بشار قويدر، دراسات وأبحاث في تاريخ المغرب والمشرق الإسلامي، دار الهدى الجزائر ج4.

26) فهد بن عبد الرحمن بن سلمان الرومي، التفسير الفقهي في القيروان حتى القرن الخامس الهجري، مكتبة التوبة، الرياض، 2006.

27) وسيلة بلعيد بن حمدة، نشأة التفسير، مقال ضمن مجلة جامعة الزيتونة، العدد 1 ، تونس 2008.

28) بودواية مبخوت، العلاقات الثقافية و التجارية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي في عهد دولة بن زيان – دكتوراه دولة بني زيان ، دكتوراه في التاريخ، جامعة تلمسان 2008-2006.

29) عبدلي لخضر، الحياة الثقافية بالمغرب الأوسط في عهد بني زيان 633-962ه/ 1236-1554م ،رسالة دكتوراه،جامعة تلمسان، 2004-2005.

30) عبد القادر بوعرفة الهلالي، أعلام الفكر والتصوف بالجزائر ما قبل الميلاد الى القرن السادس عشر ميلادي دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران 2004 ، ج1.

31) محمد مرتاض، من أعلام تلمسان، مقاربة تاريخية و فنية، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2004.

32) عبد الجليل قريان، التعليم بتلمسان في العهد الزياني، جسور للنشر والتوزيع ط1- الجزائر، 2011.

33) عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، مؤسسة نويهض ط2، بيروت، 1983.

34) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر الى الرابع عشر (16-20م) الشركة الوطنية للنشر، الجزائر 1981،ج1.

35) لحفر سعيداني، تراجم العلماء، منطقة تنس وآثارهم الفكرية، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف الجزائر 2015.

36) أحمد الحمدي، محمد بن عبد الكريم المغيلي رائد الحركة الفكرية بتوات عصره وآثاره 870-1468/ 909-1503م، رسالة ماجستير، وهران، 1999-2000م.

أعلام التفسير في الجزائر من كتب الببليوغرافية

د. بن زيان خالد، كلية الآداب والفنون ، جامعة حسيبة بن بوعلي ، الشلف، الجزائر

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ولا عدوان إلا على الظالمين وأصلي وأسلم على محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم. ثم أما بعد:

إنّ من واجب أعلام الجزائر علينا أن نحيي ما اندرس من تراثهم، والمساهمة في نشر علومهم، وأن يعنى الباحثون بتراث بلدهم خاصة ما يتعلق بكتاب الله عز وجل، والعلوم المتعلقة به، وأن يعملوا على تحقيقها ودراستها وإعادة نشرها.

يقول القاضي أبو القاسم الحفناوي (ت: 1360 هـ): "والظاهر أن القطر الجزائري قد اجتهد قديما في طلب العلم بجميع أسبابه، وأتاه من سائر أبوابها، ووقف على معقولهِ ومنقولهِ، فتمكن من أصوله وفصوله، وكان لعلوم وقته جامعا، ولرايتها رافعا، مثل أخويه المغربين الأقصى والأدنى فظهر في الأقاليم بدره، واشتهر في التاريخ قدره، بعلماء بنوا تآليفهم على أركان التحقيق، وحصّنُوها بأسوار التدقيق، فكانوا في عصرهم نجوم اهتداء وأئمة اقتداء ولكن طواهم وأضرابهم فُلْكُ الانقلاب في مغارب الأفول...

وهذه أسمائهم وتراجمهم مزاحمة لأسماء وتراجم أعيان الزمان في كتب المتيقظين لحفظ الطبقات العليا من عالم الإسلام في بطون الدفاتر، لئلا تقع في أغوار التناسي وآبار الإهمال"[1].

إنَّ الحديث عن أعلام الجزائر جدير الاهتمام والعناية، نظرا لنبوغهم ولإسهاماتهم الواسعة في إثراء الثقافة العربية الإسلامية بالمغرب العربي خاصة، وفي العالم الإسلامي عامة، فقد كانت لهم مكانة مرموقة بين مشاهير العلماء في الإسلام، وقد حققوا بجهادهم الفكري والعلمي ما يظل عبر التاريخ آية بَيِّنَّة على نبوغهم واجتهادهم، ومن هؤلاء أعلام التفسير في الجزائر الذين يحتاجون إلى دراسة تراجمهم وسيرهم وإبراز جهودهم في تفسير الكتاب العزيز.

إنَّ الاهتمام بكتب التراجم والسير والطبقات والفهارس والرحلات، في غاية الأهمية لأنها تعد مظان تراجم أعلام التفسير في الجزائر.

والناظر في هذه الكتب يقف على جهود علماء الجزائر في التفسير وعلوم القرآن تأليفا أو تدريسا، ويكتشف الباحث آثارهم المصنفة فيدرك منها ما هو مخطوط، ومفقود ومطبوع.

ومنه فإن العناية بأعلام التفسير من خلال كتب البيبليوغرافيا التي هي وصف عام للكتب التي اهتمت بتراجم وسير وعلماء الجزائر كفيل بفتح آفاق البحث العلمي لإبراز أهم الشخصيات التفسيرية الجزائرية من الفتح الإسلامي إلى يومنا هذا.

وهذه الكتب المصنفة في التراجم تدفع بالباحثين إلى تتبع آثار هذه الجهود واكتشاف أماكن وجودها في الزوايا والمكتبات العامة خارج الوطن أو داخله.

[1]- أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط2، 1405 هـ/ 1985م، 1/ 5- 6.

وهذا البحث هو محاولة لجمع واستقراء كتب البيبلوغرافيا والسير التي حوت مادة علمية ثرية حول تراجم وجهود علماء الجزائر في التفسير، ووصفها وترتيبها وذكر نبذ مختصرة من مناهج أصحابها في التأليف، وعنوان الدراسة :"أعلام التفسير في الجزائر من كتب البيبلوغرافيا".

اشكالية البحث: قد تميزت هذه الأمة بالترجمة لأعلامها ومشاهيرها في كل الفنون والعلوم، وقد صنفت الكثير من السير والتراجم والطبقات وتعددت مناهجها بيت تطويل وإيجاز، وتنوعت طرائق التأليف فيها:

من الاقتصار على مكان معين، أو مذهب فقهي معين، أو فن معين، أو شخصية معينة، وأخرى بحسب القرون والدول المتعاقبة وغيرها من أنواع التصانيف. وأعلام التفسير في الجزائر، تراجمهم وسيرهم مبثوثة في تلك التصانيف، والباحث عنها يحتاج إلى جهد كبير ودقة في التنقيب حتى يصل إلى مراده، فما هي أشهر المؤلفات والتصانيف التي ترجمت لأعلام التفسير في الجزائر؟ وما هو منهج أصحابها في إيراد هاته التراجم والسير والطبقات؟

أهداف البحث: تهدف هذه الدراسية إلى:

1-تعريف الدارسين بمضان ترجمة أعلام التفسير الجزائريين.

2-تسهيل ترجمة الأعلام المفسرين.

3-احياء ما اندرس من تراث أعلام التفسير في الجزائر، فالوقوف على هذه الكتب يكشف الغطاء عن كثير من علماء التفسير المغمورين في الجزائر.

4-التيسير للباحث معرفة جهود أعلام الجزائر في التفسير تأليفا وتدريسا، وكذلك تعطي ملمحا عاما عن مناهجهم في التفسير.

وقد قسمت الدراسة إلى ثلاثة محاور:

الأول: الإشادة بأهمية البيبلوغرافيا في البحث العلمي، وأنواع كتب التراجم

الثاني: التصانيف البيبليوغرافية الجزائرية، وذكر نبذة مختصرة عن منهج أصحابها في التأليف.

الثالث: تصانيف الأعلام لغير الجزائريين (كتب البيبلوغرافيا المشارقية والمغاربية).

المنهج المتبع: اتبعت في هذه الدراسة المنهج الوصفي والاستقرائي لأن البحث يعتمد على الجمع والوصف وكذلك بيان منهج المؤلف.

ووفقت في هذه الدراسة على أكثر من 81 مصنفا في التراجم التي عنت بأعلام التفسير في الجزائر، حصلت أغلبها من خلال تعاملي مع هذه الكتب طيلة إعدادي لمشروع الدكتوراه :"أقوال ومرويات الإمام أبو جعفر أحمد بن نصر الدّاوي (ت: 402هـ) في التفسير، جمعا ودراسة".[2]

أولا: أهمية البيبليوغرافيا في البحث العلمي:

إنَّ كلمة البيبلوغرافيا مكونة من (bibliography) ومعناه الرسم أو التخطيط أو الكتابة، وقد أخذت عن اللغة اليونانية القديمة، ومعناه كتابة الكتب، وبعد عام 1761م. أصبحت تطلق على من يؤلف أو ينسخ الكتب، وفي عام 1763م، تطور مفهومها إلى الكتابات التي تصف الكتاب، ولازالت إلى يومنا هذا بمعنى "وصف الكتب"، وهذا المعنى هو المستعمل والمتداول في لغة الباحثين المعاصرين فالبيبلوغرافيا وصف للكتب بإعداد القوائم ومعرفة مؤلفيها وموضوعاتها وكافة بيانات النشر[3].

وللعمل البيبليوغرافي أهمية بالغة في البحث العلمي لأنَّه يوفر على الباحث وقته وجهده في الكشف عن المصادر والمراجع ومضان المادة العلمية التي يبحث عنها فضلا عن أن البيبلوغرافيا

---

[2] – الكتاب مطبوع بعنوان: تفسير الدّاودّي، طبعة دار الإمام، ط1، 2019م.

[3] ينظر: منهجية البحث في العلوم الإسلامية، سليمان خسال، دار الإمام مالك، الجزائر، الطبعة الأولى، 1436 هـ/ 2015م، ص48.

تجعل الباحث يطمئن على وجود هذه المصادر التي سيعتمد عليها بحثه، لأنه وجد كل ما يتعلق ببيانات النشر والمطبوع منها والمخطوط والمفقود. لذا ينصح في بداية البحث العلمي الوقوف على مثل هذه الدراسات التي اهتمت بوصف الكتب لأنَّها كفيلة بالولوج لصلب الموضوع مع توفير الجهد والوقت.

إنّ البحث في الإحصاء الببليوغرافي حول موضوع ما يرتقي بالبحث العلمي إلى الإتقان والضبط والتحقيق، وما نراه من الفجوات العلمية التي يتركها الباحثون في دراساتهم، وذلك القصور والنقص ما هو إلا نتيجة الفقر المعرفي وتجاهل البيبلوغرافيا والدراسات السابقة حول الموضوع المبحوث عنه.

ولذا جاءت فكرة هذا المقال وهو الإسهام في وضع هذا الإحصاء البيليوغرافي للكتب والمصادر والمراجع التي هي مضان لأعلام الجزائر في التفسير، لعلها توفر للباحثين الوقت والجهد وتسهل عليهم انجاز بحوثهم ودراساتهم بأقل الأخطاء والهفوات وأذكر هنا أنَّ أي عمل بيبليوغرافي لا يستطيع صاحبه أن يحقق له صفة الشمول والاستيعابْ ولو حرص على ذلك، لكن أقول هنا تتبع هذه المصادر والمراجع المذكورة في هذه الدراسة كفيل بإذن الله أن يكون دعامة معرفية فكرية للباحثين والمهتمين بأعلام التفسير في الجزائر لجمع هذه التراجم في موسوعة جزائرية من الفتح الإسلامي إلى العصر الحديث، أو معجم جزائري يعنَى بتراجم كل المفسرين الجزائريين وهذا الذي نهدف إليه من خلال ذكر هذه المصادر والمراجع الجزائرية والمغربية والمشرقية المتنوعة.

إن أهمية هذه الدراسة البيليوغرافية يكمن في أنَّ الباحث في أعلام التفسير في الجزائر يعتقد أنَّ مظانها هي كتب التراجم والسير على وجه الخصوص ولذا لن يهتدي إلى تحقيق بغيته، وذلك الوقوف على تراث أعلام الجزائر عموما وأهل التفسير خصوصا يحتاج إلى تحري وبحث وتنقيب في هذه المصادر والمراجع، ولذا حدت هذه الدراسة جملة من المصادر المتنوعة والمخالفة منها:

1-كتب التراجم الخاصة وهي كذلك أنواع مختلفة منها التراجم المتعلقة بمكان معين: كتلمسان، أو بجاية، أو عنابة، أو بلاد توات، أو واد مِيزابْ وغيرها.

وهناك تراجم متعلقة بالمذهب المالكي لأنه مذهب غالب أهل البلد فكانت مظنة لوجود تراجم أهل التفسير فيه، وهناك تراجم متعلقة بشخص معين بذاته وحياته، وهناك من صنف في أعلام التفسير في الجزائر على قلة دون استيعاب.

2-كتب الطبقات والفهارس والرحلات، تعد كذلك مظان لوجود تراجم علماء الجزائر في التفسير.

3-كتب التاريخ التي أرّخت للحياة السياسية والثقافية والعلمية حوت الكثير من تراجم أعلام التفسير.

4-كتب الفقه والنوازل والفتاوى المالكية على قلة ولكن حفظت لنا بعض الآثار والجهود التفسيرية لعلماء جزائريين كصنيع الونشريسي (ت: 914 هـ) رحمه الله في المعيار.

ولذلك هذه الدراسة تفيد من الناحية العملية الباحث في أعلام التفسير في الجزائر بشكل كبير وتوفر الوقت والجهد ويمكن وضع هذه الخطوات بين يدي الباحث للظفر بترجمة علم من الأعلام:

1-إذا كان الباحث قد حاز على الاسم الكامل للعلم يبحث في المعاجم وكتب التراجم المرتبة على حساب الحروف الأبجدية.

2-إذا كان اسم العَلم مع تاريخ الوفاة فيمكن البحث في كتب التراجم التي اعتنت بالبحث في بعض القرون كأعلام المائة السابعة أو الثامنة أو عن طريق القرون، أعلام القرن العاشر وغيرها.

3-إذا اشتهر العلم بحاضرة معينة كتلمسان أوبجاية أو عنابة أو غيرها يبحث عنه في التراجم التي اهتمت بالحواضر وأعلامها.

4- إذا كان العَلَمُ مشهور بالفقه المالكي والفتاوى والنوازل فيمكن العثور على ترجمته في كتب المذهب كترتيب المدارك للقاضي عياض (ت: 544هـ) والديباج لابن فرحون (ت: 799 هـ) وشجرة النور الزكية لابن مخلوف (ت: 1360 هـ) وغيرها.

5-إذا وجدنا العَلَم أنَّه دخل حاضرة من الحواضر كالقيروان أو طرابلس أو الأندلس أو فاس أو غيرها فنبحث في التراجم التي اعتنت بهذه الحواضر وضبط تراجم من دخلها واستقر فيها وغيرها.

فالحاجة ماسة إلى مثل هذه الدراسات لتقريب الباحث من تراث أعلام الجزائر وتسهيل عملهم وتعريف الأجيال بأسلافهم وإحياء ما اندرس من تراثهم والمساهمة في نشر علومهم.

وها أنا أضع بين يدي الباحثين هذه الدراسة البيبليوغرافية.

42 مؤلف مطبوع، تناولت تراجم أعلام جزائريين عموما وفي التفسير خصوصا.

وتبقى مسألة منهجية في غاية الأهمية هي أن يضع الباحث في أعلام التفسير في الجزائر ضوابط في تحديد مسمى المفسر الجزائري، لأنه وقع خلط كثير في هذا الباب بين الناقل للتفسير ومن اشتغل به تأليفا وتدريسا.

كما لا يجب أن نغفل الجهد المبذول في كثير من الأقسام على مستوى الجامعة الجزائرية، فكثير من رسائل الماستر لازالت حبيسة الرفوف حول أعلام جزائريين في التفسير تحتاج إلى النشر.

كما لا يفوتني أن أنبه إلى بعض الصفحات على مستوى وسائل التواصل الاجتماعي فهي في غاية الأهمية ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

- صفحة عبد الحميد بكري ينشر تراجم علماء توات.

- صفحة تقي الدين بوكعبر معسكر رجال وتاريخ.

- صفحة الأستاذ محمد بسكر.

- صفحة الإمام علي حمادوش.

- صفحة جيلالي فاطمي وغيرها من الصفحات ففيها فوائد نفيسة وتنبيهات لطيفة عن كثير من أعلام التفسير في الجزائر.

ثانيا: التصانيف الببلوغرافية الجزائرية

في هذا المبحث سأورد مجموعة من أهم التصانيف الببليوغرافية الجزائرية التي حوت تراجم وسير لأعلام جزائريين في التفسير، وهذا العمل لا يزعم صاحبه الاستقراء التام والحصر لأنه لا يمكننا الحكم على حجم ما صنف من كتب التراجم التي صنفها علماء جزائريون، إذ المطبوع منها قليل جدا، وغالبها لازال مخطوطا أو مفقودا يحتاج إلى الكشف والتحقيق والإخراج من جديد.

وهذه التصانيف الجزائرية مختلفة ومتنوعة في أسلوبها ومنهجها وغرض تأليفها فمنها، كتب السير والتراجم، والطبقات، والفهارس، والرحلات والمشيخات، وعلى الباحث في أعلام التفسير في الجزائر أن يعتني بها لأنَّها مظان سيرهم وتراجمهم وآثارهم التفسيرية. وقد حفظت لنا هذه التصانيف جملة من جهود وآثار علماء الجزائر في التفسير تأليفا وتدريسا.

وسأكتفي في هذا المبحث بذكر جملة من هذه المصنفات التي وقفت عليها مع نبذة مختصرة لمناهج أصحابها وأهم محاورها مرتبا لها على حسب تاريخ وفاة أعلامها. أبدأ بذكر عنوان الكتاب كاملا مثنيا بذكر مؤلفه وتاريخ وفاته.

1-السير وأخبار الأئمة، يحيى بن أبي زكريا الورجلاني (ت: 474 هـ)، جمع فيه أخبار وأئمة المذهب الإباضي شمال إفريقيا في القرون الهجرية الأولى.

2-عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، ل: أحمد بن أحمد، أبو العباس الغبريني (ت:714 هـ)

يعتبر هذا الكتاب من أقدم كتب التراجم التي اهتمت بعلماء حاضرة بجاية أو الوافدين عليها في المائة السابعة، وقد أرَّخَ الغبريني لعصرين مهمين هما الموحدي والحفصي في بجاية العتيقة.

وقد ذكر في هذا المُصَنَفِ 149 ترجمة، جاءت غالبها مطولة جدا، حيث كان يذكر حياة المترجَم له، وشيوخه، وتلامذته ثم مؤلفاته فوفاته، وقد انتهى من تأليفه سنة: 699 هـ[4].

3-الوفيات، معجم زمني للصحابة وأعلام المحدثين والفقهاء والمؤلفين، لابن قنفد القسنطيني (ت: 810 هـ).

4-النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر ومناقب ل: محمد بن أحمد المشهور بابن صعد التلمساني (ت: 901 هـ).

وقد ذكر رحمه الله أنَّه ألَّفه بطلب من السلطان الزياني أبو عبد الله المتوكل[5]، وقد بدأه بمن اسمه ابراهيم فأحمد مرتبا إياه ترتيبا أبجديا، ولم يقتصر فيه على أعلام الجزائر فقط بل ذكر كذلك أعلام من المشرق والمغرب من السلف والخلف واعتنى بأهل التصوف منهم.[6]

[4] نشر هذا الكتاب لأول مرة في مدينة الجزائر سنة 1910، بعناية محمد بن أبي شنب، ثم أعاد تحقيقه رابح بونار وطبع في الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر، كما قام بتحقيقه الأستاذ عادل نويهض سنة 1979م، وطبع بدار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان.

[5] الكتاب مطبوع بدار صادر سنة 2011م، بتحقيق الدكتور محمد أحمد الديباجي.

[6] طبع بتحقيق الدكتور يحيى بوعزيز (ت:2007م)، بمطبعة منشورات الوكالة الوطنية للنشر والإشهار بالجزائر، سنة 2002م.

5-روضة النَّسرين في مناقب الأربعة المتأخرين ل: ابن صعد التلمساني (ت: 901 هـ).

وهي تراجم مطولة لأربعة من الأعلام هم: محمد بن عمر الهواري الوهراني (ت: 843 هـ)، الحسن أبركان التلمساني (ت: 875 هـ)، إبراهيم التازي نزيل وهران (ت: 866 هـ)، أحمد الغماري (ت: 875 هـ)، وهذه التراجم مستخلصة من كتابه: النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر ومناقب.[7]

6-المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء إفريقية والأندلس والمغرب، أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي (ت: 914 هـ) فقد ضمنه بعض الآثار والجهود التفسيرية لمفسرين جزائريين كالسنوسي (ت:895 هـ)، والتنسي (ت: 899 هـ)، وغيرهم.

7- ثبت أبي جعفر بن علي البلوي الوادي آشي (ت: 938 هـ) وهو تلميذ الإمام محمد بن عبد الله بن عبد الجليل أبو عبد الله التَنَسي (ت:899 هـ).

8- البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، لإمام ابن مريم المليتي التلمساني (كان حيا سنة 1025 هـ).

وفي الكتاب ترجمة لعلماء وأولياء تلمسان وضواحيها ورتب التراجم أبجديا مبتدئا باسم أحمد، سواء باعتبار المولد أو الاستقرار، وقد رتب التراجم ترتيبا أبجديا، ولم يقتصر على علماء تلمسان فقط فقد ذكر غيرهم للتبرك كما علل ذلك، وقد أغفل ذكر بعض أعلام تلمسان على شهرتهم ولا نعرف توجيها لصنيعه كما هو الحال مع أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي (ت:402 هـ) دفين تلمسان.

حوى الكتاب 182 ترجمة، اعتمد فيه على بعض المصادر والمراجع ك: "نيل الإبتهاج بتطريز الديباج" لأحمد بابا التنبكتي (ت: 1036 هـ) و "بغية الرواد في أخبار الملوك من بني عبد الواد" لأبي زكريا يحيى بن خلدون (ت: 780 هـ) و غيرها.

وقد صدر الكتاب باعتناء الشيخ محمد بن أبي شنب (ت: 1347 هـ) وطبع بالمطبعة الثعالبية سنة 1908م، وأعاد نشرة العلاَّمة طالب عبد الرحمن (ت: 2016م) سنة 1986م،وقد ترجمه المستشرق الفرنسي بروفنزالي إلى اللغة الفرنسية ونشره سنة 1910م.

9- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أبو العباس أحمد المقري (ت: 1041 هـ).

10-روض الآس العطر الأنفاس بذكر من لقيته من أ علام الحاضرتين مراكش وفاس، أبو العباس أحمد المقري (ت: 1041 هـ).

11-منشور الهداية في كشف من أدعى العلم والولاية ل: الشيخ عبد الكريم الفكون القسنطيني (ت: 1073 هـ).

وقد بلغت تراجمهُ 75 تراجمه، فإذا أضيف لها من ترجم لهم ضمنيا أو استطراد قد تصل حد 90 ترجمة، غالبها تراجم أهل زمانه وشيوخهم في الحواضر العلمية في الجزائر، وقد اتسمت تراجمه بالطول والإسهاب، وإيراد مشاجراته وخصوماته مع الآخرين.

وقد ذكر الشيخ عبد الكريم فكون منهجه في كتابه ولمن ترجم حيث يقول: "من لقيناه من العلماء والصلحاء المقتدى بهم، ومن قبل زمنهم ممن نُقلت إلينا أحوالهم وصفاتهم تواترا...والمتشبهين بالعلماء... في المبتدعة الدجاجلة الكذَّابين"[٧]. فقد رتب كتابه على ثلاثة فصول في كل فصل ذكر جملة من التراجم.

12-ماء الموائد ل: عبد الله العياشي (ت: 1090 هـ) والمشتهرة بالرحلة العياشية.

13-الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة، أحمد بن أبي عبد الله قاسم البوني (ت: 1139 هـ).

[٧] منشور الهداية في كشف من ادعى العلم والولاية، عبدالكريم الفكون، تحقيق: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1987،1، ص: 33-34.

14-نزهة الأنظار في علم التاريخ والأخبار للحسين الوريتلاني (ت: 1193 هـ) والمشتهرة بالرحلة الوريتلانية.

15-لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال لابن حمادوش (ت: 1197 هـ) المشتهرة برحلة ابن حمادوش.

16-فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، أبوراس الناصري (ت: 1238 هـ).

وكذلك كتابه: عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، تحقيق الأستاذ بوركبة محمد.

17-تعريف الخلف برجال السلف، لأبي القاسم محمد الحفناوي (ت: 1360 هـ/ 1942م) ذكر فيه ترجمة 420 علما من أعلام الجزائر، علماء وصلحاء وأولياء، نسجه على منوال كتاب الحاجي خليفة (ت:1067 هـ) "كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون" وقد قسَّم الحفناوي كتابه إلى قسمين:

خصص القسم الأول لترجمة الأعلام الذين وجد أسماءهم منقوشة في قباب المدرسة الثعالبية التي فتحت سنة 1904م، بجوار قبر الإمام المفسر عبد الرحمن الثعالبي (ت:875 هـ)، وقد وصل عدد الأعلام في القسم الأول 50 علما.

وخصص القسم الثاني لتراجم علماء الجزائر وغيرهم من أعلام السودان والمغرب وتونس والأندلس وبعض بلاد المشارقة، وبلغ عدد من ترجم لهم في هذا القسم 369 علما، وصل حتى لبعض أعلام زمانه، وقد اعتمد في كتابه كثيرا على أحمد بابا التنبكتي (ت: 1036 هـ) في كتابه: "نيل الإبتهاج بتطريز الديباج".

18-معجم مشاهير المغاربة، تنسيق الدكتور: بوعمران الشيخ، تقرير ناصر الدين سعيدوني، إعداد فرقة البحث العلمي (1416 هـ، 1995م)، جامعة الجزائر.

19-أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، الدكتور يحيى بوعزيز رحمه الله (ت: 2007م).

وفكرة هذا الكتاب أنَّ صاحبه رحمه الله جمع واعتمد على من سبقه في تراجم أعلاه الجزائر وقد أشار إلى ذلك في مقدمة كتابه: "...بين عمل الغبريني.[8] وابن مريم[9] وابن صعد[10]والحفناوي[11]"[12].

20-الغصن الداني من ترجمة وحياة الشيخ عبد الرحمن التنلاني، الشيخ محمد عبد القادر باي بلعالم (ت: 2009م).

21-إرشاد الحائر إلى معرفة قبيلة فُلاَّن في جنوب الجزائر، الشيخ محمد عبد القادر باي بلعالم (ت، 2009م)

22-تاريخ الجزائر العام ل: عبد الرحمن الجيلالي (ت: 2010م) وقد تناول فيه صاحبه جل المجالات غير أن ما يتعلق بالمعلومات حول الأعلام وجهودهم التي قدمها كانت مختصرة ولكنها مفيدة تفتح آفاقا للباحثين للتحري والتحقيق.

23-رائد التجديد الإسلامي ابن العنابي، أبو القاسم سعد الله (ت: 2013م).

24-تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله (ت: 2013م) لقد بذل العلاّمة أبو القاسم سعد الله جهودا عظيمة وكانت له عناية فائقة بتاريخ وتراث الجزائر، وكان لهذا الكتاب شهرة واسعة نظرا لمكانة صاحبه فهو المؤرخ والأديب والبحاثة المحقق الذي فتش ونقب على

---

[8] عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية.

[9] البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان.

[10] النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر ومناقب.

[11] تعريف الخلف برجال السلف.

[12]أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، يحي بوعزيز، دار البصائر، الجزائر، 2009م، 1/ 07.

المخطوطات داخل البلاء وخارجها، وقد أثنى عليه العلاَّمة محمد البشير الإبراهيمي قائلا: "مشغوف إلى حد الافتتان بالبحث عن الآثار الأدبية والعلمية لعلماء الجزائر في جميع العصور".[13]

وقد خص أبو القاسم سعد الله –رحمه الله – أعلام التفسير في هذا المصنف بالذكر، وعقد مبحثا خاصا نوه بجهود علماء الجزائر في التفسير تدريسا وتأليفا، والحواضر العلمية التي عنت بالتفسير وعلوم القرآن كحاضرة بجاية، وتلمسان، وقسنطينة، وتوات ومازونة والجزائر وغيرها.

والباحث عن أعلام التفسير في الجزائر يجد بغيته في الجزأين الأوليين من تاريخ الجزائر الثقافي.

25-المفسرون الجزائريون عبر القرون، محمد مختار اسكندر الحنفي، (ت: 2017م).

26-إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر ل: محمد شاوش، والغوثي بن حمدان.

أورد الباحثان في هذا الكتاب 217 ترجمة لأعلام فكرية ودينية وثورية، وجاءت الدراسة مرتبة ترتيبا تاريخيا من الفتح الإسلامي إلى عصرنا، والكتاب طبع بدار البصائر بالجزائر في إطار تظاهرة تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية 2011م.

27-معجم الصَّفوة، سير وتراجم لعلماء وأعلام وشيوخ من الجزائر في الفقه والتصوف، الثقافة والأدب، العلم والجهاد، الإصلاح والسياسة، للأستاذ عبد القادر موهوبي السائحي الحسني.

كما صرح صاحب الكتاب فإن غالب تراجم الكتاب في شيوخ الطرق الصوفية – إلا ما ندر – بمنطقة ورقلة وضواحيها، وقد حوى الكتاب 42 ترجمة مرتبة بحسب سني الوفاة أو تاريخ الميلاد

[13] شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة الطبعة الأولى، 1960م.

إن خفي الأول[14]، بدأ الباحث من القرن الرابع الهجري ولم يقصد الاستقراء والجرد التام بل كان منهجه قائما على الانتقاء.

28-أعلام الفكر الجزائري من خلال آثارهم المخطوطة والمطبوعة الأستاذ محمد بسكر.

يقول صاحب الكتاب واضعا معلما زمنيا لعمله في ترجمة أعلام ومفكري الجزائري: "يمتد حيزها الزمني من غرَّة القرن العاشر الهجري إلى مطلع القرن الخامس عشر"[15]، وغالب من ذكر هم من أعلام من العصر الحديث، وقد بذل الباحث جهدا كبيرا تتبع آثار علماء الجزائر المخطوطة والمطبوعة حيث ضمن في كتابه 3560 عنوانا بين مخطوط ومطبوع، وقد وصل عدد المترجم لهم 360 ترجمة.

29-معجم أعلام بسكرة، عبد الحليم صيد.

30-فهرست معلمة التراث الجزائري بين القديم والحديث، تأليف: بشير ضيف بن أبي بكر الجزائري، طبعة دار ثالة، الأبيار، الجزائر، 2002.

31- معجم أعلام الإباضية، محمد بن موسى بابا عمي وآخرون.

32-معجم أعلام الإباضية، إبراهيم بحاز.

33-تاريخ بني ميزاب، يوسف بن بكير الحاج سعيد.

34-الإعلام بأعلام الجزائر من كتاب الأعلام للدكتور عبد الغني عيساوي.

---

[14] معجم الصفوة، عبد القادر السائحي، دار تين وزيتون، 2012، 1/ 13.

[15] أعلام الفكر الجزائري من خلال آثارهم المخطوطة والمطبوع، محمد بسكر، دار كردادة، الجزائر، 2013م، 1/ 10.

قام فيه الباحث بانتقاء أعلام الجزائر من كتاب الأعلام لخير الدين الزركلي (ت:1976م)، وأورد فيه 213 ترجمة، إضافة إلى تراجم أخرى مضافة من الذيول والتتمات على كتاب الأعلام.[16]

35-أعلام التفسير في الجزائر المحروسة من الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الزيانية، للدكتور عبد الغني عيساوي، وقد رتب الأعلام زمنيا بحسب الدول المتعاقبة على أرض الجزائر، من الفتح الإسلامي إلى غاية الدولة الزيانية 957هـ.

وقد قدم لكتابه بمقدمة منهجية مهمة للباحثين في أعلام التفسير ضمنها ضوابط المفسر،، وضبط بعض المصطلحات ونوه بجملة من كتب التراجم التي حوت أعلام التفسير، وذكر المنهج المتبع في كتابة تراجم أعلام التفسير الجزائريين.

وقد بلغ عدد المفسرين المترجم لهم 38 علما.[17]

36-كتاب الإعلام في من حل بوهران من الأعلام للدكتور قدور المهاجي.

37-نهضة الجزائر الحديثة ل: محمد علي دبوز.

38-شخصية الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي وتراثه العلمي (تفسير الفاتحة ومراجعاته مع الإمام السَنُوسي، دراسة وتحقيق الدكتور علال بوربيق، مؤسسة البلاغ للنشر والدراسات والأبحاث، طبعة خاصة 2013.

39-كتاب معسكر رجال وتاريخ، ل: جلول جيلالي.

[16] طبع الكتاب بدار أوراق ثقافية للنشر والتوزيع بالجزائر سنة 2016.

[17] أعلام التفسير في الجزائر المحروسة من الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الزيانية، عبد الغني عيساوي، دار المجدد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2019.

40- أعلام من الصحراء للدكتور محمد سعيد القشاط، دار الملتقى للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، لبنان، 1418 هـ.

41-تلمسان عبر العصور، ودورها في حضارة الجزائر، لمحمد بن عمرو الطمار.

42-اسهامات العلامة الآبلي التلمساني في الحياة الفكرية بحواضر المغرب، ل: سيدي محمد نقادي، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية، 2011.

ثالثا: تصانيف الأعلام لغير جزائريين (كتب البيبلوغرافيا المشارقية والمغاربية)

لقد اهتمت كتب البيبلوغرافيا والتراجم المشارقية والمغاربية بأعلام الجزائر قديما وحديثا لأنها كانت عامرة بالحواضر العلمية كحاضرة تلمسان، وبجاية، وحاضرة توات والجزائر المحروسة وغيرها، وقد أشادت بفضلهم وعلمهم وسبقهم وذكرت أهم آثارهم وجهودهم المخطوطة والمطبوعة، ولعل هذا الاهتمام مرده إلى تلك الصلة الوثيقة الذي امتدت بين علماء الجزائر وحواضر المشرق كالأزهر الشريف والزيتونة والقيروان والقرويين وغيرها عن طريق الرحلات العلمية أو مواسم الحج وغيرها من صور التواصل العلمي فذاع صيت كثير من أعلام الجزائر في علم التفسير خاصة أو غيرها.

وسأذكر في هذا المحور أهم وأشهر كتب التراجم والسير والفهارس والطبقات التي ترجمت لعلماء الجزائر ومنهم أعلام في التفسير.

43-طبقات علماء افريقية، محمد بن تميم الإفريقي، محمد بن أحمد أبو العرب القيرواني (ت:333هـ).

44-رياض النفوس في طبقات علماء القيروان، أبو بكر عبد الله بن أبي بكر المالكي (توفي بعد: 453 هـ).

45-الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب، لأبي نصر علي بن ماكولا (ت:475 هـ).

46-فهرس ابن خير الإشبيلي، أبو بكر محمد بن خير الإشبيلي (ت:575 هـ).

47-الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، لابن بشكوال (ت: 578 هـ) ويلحق به التكملة لابن الآبار (ت:658 هـ).

48-التشوف إلى رجال التصوف، أبو يعقوب يوسف بن الزيات (ت:617 هـ).

49-البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذارى المراكشي (ت: 695 هـ).

50-معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الدَّبَاغ (ت: 699 هـ).

51-الرحلة المغربية، لـ محمد العبدري البلنسي (ت: 720 هـ).

52-سير أعلام النبلاء وتاريخ الإسلام ل: شمس الدين الذهبي (ت: 748 هـ).

53-الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك الصَّفدي (ت: 764 هـ) اعتمد فيد الصفدي على "وفيات الأعيان" لابن خلكان (ت:681 هـ) "طبقات الأدباء" لياقوت الحموي (ت: 626 هـ)، وزاد عليهما، وقد ترجم لنحو 14 ألفا من الأعلام والأعيان والمشاهير من الصحابة والتابعين والملوك والأمراء والقضاة والقراء والمحدثين والفقهاء والعلماء والأولياء والنحاة والأدباء والشعراء والأطباء والحكماء وغيرهم. رتبهُ على حروف المعجم من الألف إلى الياء[18].

[18] طبع سنة 2000 بدار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، بإعتناء أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، في 29 مجلدا.

54-الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، ابراهيم بن فرحون المالكي (ت:799 هـ).

قد يجد الباحث في أعلام التفسير في الجزائر بغيته في تراجم فقهاء المذهب المالكي لأن الغالب على أعلام الجزائر هو المذهب المالكي وقد اشتهروا بالفقه أكثر من الفنون الأخرى كالتفسير والحديث وغيرها، ولكننا نجد بعض الإشارات والشهادات تثبت نسبة ذلك العالم إلى التفسير أو غيره من العلوم.

55-رحلة القلصادي، ل:أبو الحسن علي القلصادي (ت:891 هـ).

56-الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، شمس الدين السخاوي (ت: 902 هـ).

57-طبقات المفسرين ل: جلال الدين السيوطي (ت: 911 هـ) والسيوطي لم يستوف تراجم كل المفسرين لأسباب ذكرها في مقدمته التي ذكر فيها منهجه ومن اعتنى بتراجمهم، وقد بلغ عدد من ترجم لهم 136 مفسرا.

58-طبقات المفسرين ل : الداودي (ت: 945 هـ)

وقد ضمنه شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الدَّاودي المصري 704 ترجمة لمفسرين على اختلاف بلدانهم وتفاوت أزماتهم، وهو من أنفس الكتب في بابه.

59-دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، محمد بن عسكر الشفشاوني (ت: 986 هـ).

60-فهرس ابن منجور الفاسي، أبو العباس أحمد بن منجوز (ت: 955هـ).

61-درة الحجال في غرة أسماء الرجال لأبي العباس أحمد بن محمد بن أبي العافية المكناسي الشهير بإن القاضي (ت:1025 هـ)

62-نيل الإبتهاج بتطريز الديباج، محمد بابا التبنكتي (ت: 1036 هـ) وينظر معه: كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، تحقيق : الدكتور علي عمر، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، 1425 هـ).

63-الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، نجم الدين محمد الغزي (ت: 1061 هـ).

64-كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لحاجي خليفة (ت:1067 هـ) هذا الكتاب اعتنى فيه صاحبه بعناوين الكتب، وهو من أوسع كتب البيبلوغرافيا، فقد احتوى على نحو خمسة عشر ألفا من أسماء الكتب وأدخل فيها كتبا بالتركية والفارسية واحتوى على عشرة آلاف مُؤلِف.

ويستفيد منه الباحث في أعلام الجزائر من خلال عناوين الكتب فهذا كذلك مسلك وطريق لمعرفة جهود وآثار علماء الجزائر بعد كتب التراجم والسير والطبقات.

وعليه ذيل موسوم: ايضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، ل: اسماعيل باشا البغدادي (ت: 1339 هـ).

65-طبقات المفسرين ل: أحمد بن محمد الأدرنه وي (الأدنه وي) (كان حيا سنة 1092 هـ)، جمع فيه تراجم المفسرين من صدر الإسلام حتى القرن الحادي عشر الهجري، وجعلهم طبقات، كل طبقة مائة سنة.

66-خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، محمد الأمين المحبي (ت: 1111 هـ).

67-نشر أزاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء أكابر الأعيان، ابن زاكور الفاسي (ت: 1120 هـ).

68-نفحات النسرين والريحان فيمن كان بطرابلس من الأعيان، أحمد النائب الأنصاري (ت: 1163 هـ).

69-نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، محمد بن الطيب القادري (ت: 1187هـ).

70-طبقات الحضيكي، لمحمد الحضيكي (ت: 1189 هـ).

71-سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، محمد خليل أبو الفضل الحسيني (ت: 1206 هـ).

72-سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، أبو عبد الله محمد الكتاني (ت: 1345 هـ).

73-شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد بن محمد مخلوف (ت: 1360 هـ).

74-الإعلام بمن حَّل مراكش وأغمات من الأعلام، العباس بن ابراهيم السملالي (ت: 1378 هـ).

75-فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات ل: محمد عبد الحي الكتاني (ت: 1382هـ) قال رحمه الله فرحلت لأقاصي البلدان وشاسع الأطراف والسكان، من حجاز ومصر وشام وتونس والجزائر وبلاد المغرب الأقصى حواضره وبواديه، وكاتبت أهل الجهات البعيدة كالعراق واليمن وإسطنبول وصحراء إفريقية شنجيط وغيره رغبة في الاستكثار، فحصل لي من ذلك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب أحد من أهل جيلنا وأقراننا".[19]

فقد ترجم في كتابه للعشرات أمن أعلام وشيوخ الجزائر في كل الفنون بما فيها علم التفسير "...من تلمسان ومازونة ومعسكر ومستغانم والبليدة والجزائر وبوسعادة وبرج بوعريريج

[19] فهرس الفهارس، محمد الكتاني، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1982، 1/

وقسنطينة وتونس والقيروان... وهذه أسماء غالب من رويت عنه في كتابي في هذا مرتبة على جروف المعجم أيضا".[20]

نشر الكتاب سنة 1982 في مجلدين، بتحقيق إحسان عباس عن دار الغرب الإسلامي بيروت، لبنان.

76-الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، خير الدين الزركلي الدمشقي (ت: 1976 م).

يعتبر من أشمل الموسوعات الحديثة، لأنَّه ترجم لجميع العصور وفي كل الفنون، فذكر العلماء والأمراء والملوك، وقد بلغ عدد المترجمين في طبعته الأخيرة نحو 12 ألف ترجمة.[21]

ولأهمية الكتاب نجد له ذيول واستدراكات وتتمات مفيدة ومتنوعة وانتقاء لبعض التراجم وأشهرها:

-إتمام الأعلام لنزار إباضة.

-ذيل الأعلام لأحمد العلاونة.

-تتمة الأعلام لمحمد خير رمضان يوسف.

-المستدرك على تتمة الأعلام له أيضا.

-الإعلام بأعلام الجزائر من كتاب الأعلام ل: عبد الغني عيساوي.

77-معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة الدمشقي (ت:1987م)

---

[20] المرجع نفسه، 1/ 50.

[21] طبع الكتاب طبعته 15، سنة 2002 في 8 مجلدات، صدرت عن دار العلم للملايين في بيروت، لبنان.

قال رحمه الله:" بدأت بذكر اسم المترجم، وشهرته، وبجانبه ولادته، ووفاته، أو الزمن الذي كان حيا فيه، بالتاريخ الهجري والميلادي، ثم نسبته، وكنيته، ولقبه، ثم اختصاصه في العلم".[22]

وقد بلغت تراجمه نحو 20 ألف ترجمة.

78-تاريخ بايات قسنطينة في العهد التركي، أوجين فيست، ترجمة صالح نور (ت: 1995م).

79-معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، الأستاذ عادل نويهض.

ترجم فيه ل: 856 علما من أعلام وشيوخ وصلحاء ورجالات الجزائر، 26 منها كانت في المستدرك الذي ألحقه بآخر الكتاب، كما اهتم بذكر مصنفات وآثار العلم المترجم له.

هذا الكتاب له أهمية بالغة للباحثين فقد ضمنه عددا هائلا من المصادر والمراجع والأعمال والأبحاث التي هي مضان لأعلام الجزائر عموما وأعلام التفسير خصوصا.[23]

80-معجم المفسرين من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، الأستاذ عادل نويهض.

هذا الكتاب يشهد لصاحبه لما له من باع طويل في ميادين البحث والتحقيق والتنقيب عن آثار العلماء الأعلام عزَّ نظيره في هذه الأزمان، ويضم هذا المعجم نحوا من ألفي ترجمة لمفسري القرآن العظيم من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، لا فرق في ذلك بين فسر القرآن كله أو فسر سورة منه أو آية من آياته البيّنات وخلفوا أثرا يذكر لهم، وقد بين منهجه في هذا المعجم في مقدمته.[24]

81-التفسير والمفسرون في غرب افريقيا، محمد بن رزق الطرهوني.

---

[22] معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1/ 3.

[23] طبع كتاب طبعته الثانية 1980 في مجلد واحد، بمطبعة مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، لبنان، وأعادت طبعه دار الوعي بالجزائر سنة 1438 هـــ/ 2017.

[24]معجم المفسرين من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، الطبعة الأولى، 1403هـــ/ 1983م، المجلد الأول.

الخاتمة:

لا يسعني في خاتمة هذا البحث إلاَّ أن أسجل أهم النتائج المتوصل إليها وبعض التوصيات:

1-إن تراث أعلام الجزائر في التفسير تراث ثري يحتاج عناية الباحثين واهتمامهم بالدراسة والتحقيق.

2-ينبغي توجيه عناية الباحثين إلى أهمية البحث في البيبليوغرافيا لتوفير الجهد والوقت.

3-بين البحث مضان ومصادر تراجم أعلام التفسير في الجزائر في مصنفات الجزائريين وغيرهم من المشارقة والمغاربة.

4-وقف الباحث على 81 مصنفا من كتب التراجم تعد أساسا لمشروع علمي ضخم يجمع فيه كل تراجم أعلام التفسير في الجزائر من الفتح الإسلامي إلى اليوم.

5-أنّ هذه الدراسة تصلح أن تكون لبنة لإعداد معجم للمفسرين الجزائريين.

6-هذه الدراسة توفر الجهد والوقت للباحثين بالولوج مباشرة في صلب أبحاثهم في البحث عن تراجم وسير أعلام التفسير في الجزائر.

وصل الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

قائمة المصادر والمراجع:

1-منهجية البحث في العلوم الإسلامية، سليمان خسال، دار الإمام مالك، الجزائر، الطبعة الأولى، 1436 هـ/ 2015م.

2-منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، عبد الكريم الفكون، تحقيق: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1987م.

3-أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، يحيى بوعزيز، دار البصائر، الجزائر، 2009م.

4-معجم الصفوة، عبد القادر السائحي، دار تين وزيتون، 2012.

5-أعلام الفكر الجزائري من خلال آثارهم المخطوطة والمطبوعة محمد بسكر، دار كردادة، الجزائر، 2013.

6-أعلام التفسير في الجزائر المحروسة من الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الزيانية، عبد الغني عيساوي، دار المجدد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2019.

7-فهرس الفهارس، محمد الكتاني، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1982.

8-معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

09-معجم المفسرين من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، عادل نويهض مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، الطبعة الأولى، 1403هـ/ 1983م.

10-تعريف الخلف برجال السلف، أبو القاسم الحفناوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط2، 1405هـ/ 1985م.

11-تفسير الدَّاودي، جمع ودراسة: بن زيان خالد، دار الإمام مالك، الجزائر، الطبعة الأولى، 2019م

التراث التفسيري في القرن الثالث عشر ـ 1200هـ 1246هـ ـ

-الشيخ عثمان بن سعيد المالقي المستغانمي (أبو سعيد ت: أوائل القرن 13هـ)

-الشيخ محمد بن أحمد بن أحميد الأنصاري الزجلاوي، أبو عبد الله (ت: 1212هـ)

-الشيخ محمد بن محمد السنباوي المازوني

- الشيخ إبراهيم بن بيجمان بن أبي محمد الثميني اليسجني (ت1232هـ)

-الشيخ أبوراس المعسكري (1150هـ – 1238هـ، 1737م – 1824م)

-الشيخ محمد الزّجّاي

-الشيخ علي بن محمد الميلي الجّمالي

-الشيخ ابن عدّون (1158هـ – 1252هـ، 1745م – 1808م)

د. نجوى مناع، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية،

قسنطينة، الجزائر

مقدمة:

اعتنى علماء الجزائر بعلم التفسير عناية كبيرة، فكانت لهم اسهامات كبيرة في هذا العلم عبر التاريخ الإسلامي، وكان لهم دور فعّال في خدمته تأليفا وإثراء للمكتبة العربية والإسلامية بصنوف من التّآليف في التفسير أو في علوم القرآن، وتدريسا من خلال حلقاتٍ ودروس علمية مبثوثة في المساجد والزوايا والمدارس الخاصة والعامة، وهو ما جعل كثيرا من الباحثين يشتغلون على إبراز هذا التراث التفسيري الزاخر لعلماء الجزائر، وقد اخترت إبراز علماء التفسير في القرن الثالث عشر

الهجري، حيث تعتبر هذه الحقبة الزمنية من أثرى وأزخر الحقب في تاريخ الجزائر خدمة لعلم التفسير، فمن هم أشهر علماء التفسير الجزائريين في هذه الفترة؟

أعلام التفسير في الجزائر في القرن الثالث عشر:

لم يكن العامل السياسي في هذه المرحلة بعد بداية أُفول القوة العثمانية وكثرة التوارث على الحكم العثماني بعامل سلبي في التنامي والاهتمام بالتفسير لدى علماء الجزائر، ولم يكن بضده عاملا إيجابيا في ذلك، إنما عدم مساس تلك الاضطرابات على العلوم بصفة عامة وعلى علم التفسير خاصة كان هو الصفة التي امتازت بها هاته المرحلة، مع شهود مواقف متباينة بين تأييد العثمانيين في آخر رمق لهم لدى علماء التفسير الجزائريين ممثلا في شخص أبي راس الناصري مثلا، وتأييد للثورات ضد العثمانيين ممثلا في شخص المفسر محمد الزجاجي[1]، وقد انحصر التراث التفسيري لعلماء الجزائر في هذه المرحلة في:

أولا: الشيخ عثمان بن سعيد المالقي المستغانمي (أبو سعيد ت: أوائل القرن 13هـ)

أحد رجالات التفسير المغمورين ببلاد مستغانم، لا توجد له ترجمة في كتب التراجم والبيبليوغرافيا ولا في كتب السير والتاريخ، ولم يذكره غير صاحب "معجم المفسرين" إذ يقول: "عثمان بن سعيد المالقي المستغانمي، أبو سعيد، مفسر، نحوي من فقهاء المالكية، ولد بمستغانم وبها نشأ وتعلم، من آثاره: تفسير القرآن الكريم، كبير وصغير[2]، وهو بهذا الوصف أحد أعلام الجزائر الذين صنفوا في التفسير بمؤلفين الأول: التفسير الكبير والثاني: التفسير الصغير، ويحتمل كون الثاني تلخيصا للأول، أو أن الثاني كان للمبتدئين، على عادة بعض الشيوخ في اختصار بعض كتبهم للطلبة المبتدئين.

---

[1]- جهود علماء الجزائر في علم التفسير زمن العهد العثماني، عبد الغاني عيساوي، رسالة دكتوراه، جامعة باتنة. 2015م-2016م، ص221.

[2]- معجم المفسرين. عادل نويهض. مؤسسة نويهض الثقافية. ط3/ 1409ه- 1988م. 2/ 786.

ولا يعلم مزاولة الشيخ لتدريس التفسير بمساجد ومدارس مستغانم وما نظام حلقاته التفسيرية، وإذا ما كان في حلقاته التفسيرية وإذا ما كان في حلقاته يفسر متن هذا التفسير "المفقود"، أو معتمدا على تفسير آخر لشرحه للطلبة، كل ذلك مما لا يمكن الإجابة عليه، لندرة المصادر التاريخية التي تعرضت لهذه الشخصية، وفقد كلا المصنفين[3].

ثانيا: الشيخ محمد بن أمحمد بن أحميد الأنصاري الزجلاوي، أبو عبد الله (ت: 1212هـ)

شهد إقليم توات نهضة فكرية وعلمية منذ القرن التاسع هجري الخامس عشر ميلادي إلى غاية القرن الثالث عشر هجري التاسع عشر ميلادي، برز خلالها مجموعة من الفقهاء والعلماء والمفتين داخل توات وخارجها، وتعدى صيتهم ربوعها إلى مختلف حواضر المغرب الإسلامي، كما وفد على توات عدد كبير من علماء المغرب الإسلامي وقد كان لهؤلاء دور كبير في ازدهار العلوم والفتوى فيها، كما تتواجد في خزائنها ومكتباتها الكثير من كتب علمائها في الفتوى والذين من أبرزهم الشيخ محمد بلعالم الزجلاوي[4]

من آل سيدي علي بن حنيني الأنصاري نسبا، التواتي منشأً ودارا، ولد بزاجلو ولا يُعلم تاريخه، وأخذ العلم بها ثم انتقل إلى تنلان، أين أخذ عن شيوخها كعبد الرحمن بن التنلاني ووالده أمحمد بن أحميد الأنصاري، الذي قرأ عليه القرآن و الفقه وجل العلوم، وتتلمذ عليه خلق كثير كابنه الحسن بن محمد بن أحميد الزجلاوي[5]، وأخوه عبد الرحمن بن أحميد بلعالم الزجلاوي[6]، وعبد الله بن عبد الرحمن بن عمر الأموي التنلاني[7] وعبد الرحمن بن إدريس الأموي[8].

[3]- انظر: جهود علماء الجزائر. عبد الغاني عيساوي. ص221-222.

[4]- الزاوية الزجلاوية: نشأتها ودورها في الحركة العلمية بإقليم توات خلال القرنين 18 – 19م . إيمان زاجلو. جامعة أدرار- 2014م. ص31.

[5]- ولد قبل 1212هـ، كان إماما حافظا متقنا، تتلمذ على والدخ الزجلوي، انتهى إليه علة الإسناد بالديار التواتية، وكان يتحرز في الفتوى لا يعلم تاريخ وفاته، انظر: موسوعة تراجم علماء الجزائر. ص25.

كان من الأربعة الذين اعتدهم القاضي عبد الحق بن عبد الكريم في مجلس شوراه، وله من التصانيف: "ألفية الغريب" و"الوجيز شرح لمختصر الخليل"، و"شرح على التلمسانية في الفرائض"، و"كتاب النوازل" و"شرح الأخضري"، و"شرح المرشد المعين" وغيرها كثير.

أحد أعلام الديار الصحراوية ببلاد توات، لقب بمفتي الأنام، قائم على التفسير تدريسا وتأليفا، حتى قيل عنه أنه "مدرسته يحج إليها ويقصدها كل من يطلب العلم"[9].

له في التفسير ألفية، تعرف بـ"ألفية التفسير"، ولا يوجد من علق عليها، ويظهر أنها منظومة في مسائل التفسير وعلومه وفنونه، وأنه أسهب في بيان هذا العلم وفروعه كأسباب النزول والقراءات والناسخ والمنسوخ وطرق التفسير والتفسير بالرأي والمأثور وغيرها من المسائل... وله "ألفية في غريب القرآن"، قال الشيخ محمد باي بلعالم[10] في وصفها، تشتمل على ألف بيت، وقد مدح ألفيته هذه صديقه العلامة سيدي عبد الكريم بن بابا حيدة التمنطيطي[11] ، فقال فيها في سنة 1183ه:

[6]- صاحب مختصر الدر المصون للسمين الحلبي

[7]- انظر ترجمته: في موسوعة تراجم علماء الجزائر. ص374

[8]- عبد الرحمن بن إدريس الأموي التنلاني، ولد سنة 1181ه بتنلان، كان من غرائب الدهر في الحفظ، أخذ عن عبد القادر بن شقرون بفاس، ومحمد بن أحميد الزجلاوي وغيرهم، سافر لفاس وأخذ عن أعلامها، توفي سنة 1233هـ، انظر موسوعة تراجم علماء الجزائر. ص374.

[9]- جهود علماء الجزائر في علم التفسير. ص223، نقلا عن موسوعة تراجم علماء الجزائر. علماء تلمسان وتوات. عبد الحق حميش. ص423.

[10]-الشيخ الجليل، ولد سنة 1930م، في قرية ساهل من بلدية أقبلي دائرة أولف ولاية أدرار، كان والده السيد الحاج محمد عبد القادر من كبار علماء تلك الجهات، أخذ على والد المبادئ النحوية والفقهية، ثم انتقل إلى زاوية الشيخ أحمد السباعي وتعلّم بها، له إجازات عدّة داخل الوطن وخارجه، أسّس مدرسة مصعب بن عمير لتدريس العلوم الشرعية ، له العديد من المؤلفات والشروح والحواشي في كلّ الفنون تقريبا.توفي سنة 1430ه. انظر: مقال الأستاذ يوسف عبد الحفيظ "رجال صدقوا". بجريدة البصائر. عدد شهر سبتمبر 2006م.

[11]- عبد الكريم بن أحمد الملقّب ببابا حيدة، كان عالما صالحا، له اعتناء بالمذاكرة والحرص على أمور الخير والموعظة البليغة، مع التخلي والانقطاع عن النّاس، تتلمذ على يد الشيخ عبد الرحمن بن عمر، من آثاره حاشية على ألفية الغريب لمحمد بن العالم الزّجلاوي، انظر: موسوعة تراجم علماء الجزائر. ص650- 651.

إِذَا رُمْتَ ذَوْقًا كَالعَسَلِ حَلاَوَةً   عَلَيْكَ بِنَظْمٍ كَالجَوَاهِرِ رُصَّعَـــا

وَهَذَا عَلَى التَّقْرِيبِ وَالحَقَّ أَنَّهُ   مِنَ الشَّهْدِ وَاليَاقُوتِ قَدْ بَانَ أَنْفَعَا

وَكَيْفَ وَقَدْ أَبْدَاهُ فِكْرُ ابْـــنُ عَالِمٍ   بِالشَّرْحِ فَبَيَّنَ لُبَّهُ بِالشَّرحِ تَبَرُّعَــا

وَقَدِ اسْتَمَالَ اللُّبَّ فِي صَنِيعِــهْ   بِأَلْفِيَةِ الغَرِيـــبِ لَا زِلْتُ مُولَعَا

فَلِلَّهِ دَرُّهُ وَعَلَيْـــــــهِ أَجْرُهْ   وَبِاللهِ أَرْقِيـــــهِ لِعَافِيَةٍ أَودِعَـــا[12]

وقد تتبع الإمام الزجلاوي غريب القرآن الكريم في هذا النظم فجعل لكل سورة أبياتا يذكر فيها ألفاظ الغريب، ومفرداته فيها، وكان أحيانا يمزج بيم السورة والسورتين والثلاث في أبيات واحدة كما فعل في مفردات الحواميم وسورة القتال والفتح وغيرها[13].

ويقوم بتفسير وشرح المفردة غالبا بكلمات موجزة وبشرح لغوي أدبي مع إيراده أحيانا لأوجه الخلاف فيها – إن وجد- بقوله: وقيل: كما هو في سورة الواقعة إذ يقول في ألفاظ الغريب التي أحصاها فكانت ثلاث عشرة مفردة، وهي: مَوْضُونَةً، رَجًّا، البَسُّ، مَخْضُودْ، ثُلَّةٌ، صداع، الطَّلْحْ، مَسْكُوب، العرب، اليَحْمُوم، الهِيم، الحِنْث، حيث يقول:

مَوْضُونَةً مَنْسُوجَةً بِالذَّهَبِ   وَالدُّرِ وَاليَاقُوتِ فِي التَّرَكُّبِ.

وَقِيلَ بَلْ مَصْفُوفَةً فِي الرُّتَبِ   رَجًّا تَحَرُّكًا لِوَقْعِ الغَضَبِ

وَالبَسُّ فَتٌّ بِوُقُوعِ الزَّلْزَلَة   مَخْضُودٌ أَيْ لَا شَوْكَ فِيهَا حَمَلَهْ

وَثُلَّةٌ جَمَاعَةَ الأَشْيَاءِ   وَوَجَعُ الرَّأْسِ صُدَاعٌ جَائِي

[12]– انظر: جهود علماء التفسير في الجزائر. ص224.

[13]– جهود علماء الجزائر في علم التفسير. ص224.

وَالطَّلْحُ مَوزٌ جَائِمُ الإِثْمَارِ   وَوَصْفُ مَسْكُوبٍ بِمَعْنَى الجَارِ

وَالعَاشِقَاتُ العُرْبِ فِي التَّبَعُّلِ   المُتَحَجِّبَاتُ فِي التَّشَكُّلِ

ثُمَّ الدُّخَانُ الأَسْوَدُ اليَحْمُومُ   وَالإِبِلُ العِطَاشُ ذَاكَ الهِيم

وَالحِنْثُ هَاهُنَا ذُنُوبُ الكُفْرِ   مُقَوٍّ مِنَ القِوَى بِمَعْنَى الفَقْرِ[14]

وقد يجعل الإمام الزجلاوي صدر البيت لشرح مفردة غريبة في سورة؛ وشطره لمفردة أخرى من سورة أخرى كما في قوله:

مِنْ وُجْدِكُمْ سَعْيُكُمْ فِي المَالِ   وَالمَنْكَبُ الجَانِبُ فِي الأَحْوَالِ

ولفظ "الوُجْدِ" في صدر البيت الأول من قوله تعالى: "أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ" [سورة الطلاق]، ولفظ "المَنْكَبْ" في قوله تعالى في سورة الملك "فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورْ"[15].

كما جعل الإمام الزجلاوي في آخر ألفيته أبياتا حول علم الوجوه والنظائر، فقال في فضل هذا العلم ومراده من إيراده:

مَعْرِفَةُ الوُجُوهِ وَالنَّظَائِرِ   نَتِيجَةَ اسْتِنَارَةِ البَصَائِرِ

إِذْ جَاءَ لَا يَبْلُغُ كُلَّ الفِقْهِ   حَتَّى يَرَى لِلَّفْظِ غَيْرَ وَجْهِ

---

[14]- انظر: جهود علماء الجزائر في التفسير .ص225.

[15]- انظر: جهود علماء الجزائر في علم التفسير. ص225- 226.

إذ اشترط في استنارة البصائر العلم بهذا الفن، معتمدا في ذلك على حديث: "لا يكون الرجل فقيها كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوها كثيرة"، ومعنى يرى أي يعلم أن اللفظ يحتمل معان متعددة فيحلمه عليها.

ثم أتى على ألفاظ الوجوه والنظائر في القرآن مرتبا إياها ترتيبا أبجديا بدءا من سورة البقرة إلى آخر الناس[16].

وقد شرح الشيخ محمد باي بلعالم رحمه الله هذا النظم، وسماه "ضياء المعالم شرح ألفية الغريب لابن العالم " جاء في جزءين.

ثالثا: الشيخ محمد بن محمد السنباوي المازوني الأصل، الأزهري التحصيل والعطاء، الفقيه المالكي، عالم بالعربية والتفسير، اشتهر بالأمير لأن جده أحمد له امرأة في الصعيد ، ولد سنة 1154ه في ناحية سنبو من أعمال منفلوط بمصر، توفي سنة 1232ه[17]، برع في الحديث وجميع فنون العلوم، وانتهت إليه الرحلة، وحاز الرئاسة والسياسة بدوام الدراسة، وقصده الأكابر وخطباء المنابر، فكان رحمه الله محط الرجال لا يخلو منهم في كل حال أتاه الرفاق من كل الآفاق وطار صيته في المغرب والشام والعراق"[18]، أخذ عن شيوخ أعلام كمحمد البليدي وهو أعلى شيوخه إسنادا والتاودي ابن سودة[19]، وعبد الرحمن العيدروس[20] وغيرهم.

[16]- المرجع نفسه. ص227.

[17]- جهود علماء الجزائر في التفسير، ص: 230، وانظر ترجمته في:: الأعلام 6/ 62.

[18]- فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته،أبو راس الناصري. حققه وضبطه، محمد بن عبد الكريم الجزائري. المؤسسة الوطنية للكتاب

[19]- محمد التاودي بن محمد الطالب بن محمد بن علي ابن سودة الفاسي، ولد سنة 1111هـ.

[20]- عبد الرحمن بن مصطفى العيدروس الحسيني، ولد سنة 1135هـ ارتحل إلى مصر وتوطنها ثم دمشق، توفي سنة 1132هـ، انظر ترجمته في الأعلام. 3/ 338

وقد جمع بعض تلاميذه أسماء مؤلفاته في جزء لطيف سماه "إرشاد أمل العرفان لأسماء مؤلفات الأمير الحسان"[21].

ذكر الإمام في ثبته مجموعة من مشايخه وطريقه في التفسير إليهم، وإجازاتهم له، فذكر طريقه لتفسير ابن عطية، ثم الزمخشري ثم البيضاوي، ثم ابن جرير وسائر مؤلفاته، ثم تفسير الثعلبي وسائر مؤلفاته، ثم تفسير الواحدي وسائر مصنفاته، ثم تفاسير أبي حيان، ثم تفسير الماوردي وسائر مصنفاته، ثم "حقائق التفسير" للسلمي وسائر مصنفاته، بهذا الترتيب المذكور، وهو شيخ أبي راس الناصري الذي حلاه بالقول: " إن أخذ في التفسير كلَّ عنه "[22]

وأكثر كتبه حواش وشروح، أشهرها "حاشية على مغني اللبيب" لابن هشام، ومنها "الإكليل شرح مختصر خليل" في فقه المالكية، وحاشية على شرح الزرقاني"، "و"حاشية على شرح ابن تركي على العشماوية" و"المجموع"، و"ضوء الشموع على شرح المجموع"، و"حاشية على شرح الشيخ خالد على الأزهرية" في النحو، و"حاشية على شرح الشذور" في النحو، و"تفسير المعوذتين"، و "تفسير سورة القدر"، و"حاشية على شرح عبد السلام لجوهرة التوحيد"، وله ثبت في "أسماء شيوخه ونبذ من تراجمهم وتراجم من أخذوا عنهم"[23].

وصفه صاحب شجرة النور الزكية بأزكى الأوصاف فقال: "هو الأستاذ العالم العلامة العمدة الفاضل الفهامة صاحب التحقيقات الرائقة والتآليف البارعة الفائقة شيخ شيوخ أهل العلم وصدر صدور أهل الفهم المتفنن في العلوم كلها نقليّها وعقليّها وأدبيّها، إليه انتهت الرئاسة في العلوم بالديار المصرية وباهت مصر ما سواها بتحقيقاته البهية، واستنبط الفروع من الأصول،

---

[21]- فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات. عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، دار الغرب الإسلامي- بيروت. ط2/ 1402ه-1982م. اعتناء إحسان عباس. 1/ 134.

[22]- جهود علماء الجزائر في التفسير. ص231.

[23]- الأعلام للزركلي. دار العلم للملايين- بيروت. ط15/ 2002م. 7 / 71

واستخرج نفائس الدرر من نخور المنقول والمعقول، وأودع الطروس فوائد وقلدها عوائد فوائد"[24].

ثم يضيف الحديث عن جهوده العلمية من تدريس وتكوين لطلبة العلم قائلا: "ومهر وأنجب وتصدر لإلقاء الدروس في حياة شيوخه ونما أمره واشتهر فضله وذكره في الآفاق خصوصا بلاد المغرب... ووفد عليه الطالبون وأخذ عنه من لا يعد كثرة منهم ابنه محمد وأجازه إجازة عامّة بما في فهرسته والشيخ الدسوقي وعلي الزروالي المهدوي، وصالح بن عبد الجبار الفرشيشي والشيخ مصطفى العقباوي، وأحمد الصاوي والشيخ حسن الأبطحي، والشيخ حجازي، والشيخ علي بن عبد الحق القوصي..، والشيخ أحمد منة الله، وتوجه لدار السلطنة وألقى هناك دروسا حضره فيها علماءهم وشهدوا بفضله واستجازوه وأجازهم..."[25].

لم يفسر الإمام السنباوي القرآن الكريم كاملا، بل فسر بعض السور فقط، ولعله اكتفى بتفسير "الكشاف" وبعض كتب التفسير تدريسا وفي حلقاته.

ويندرج تفسيره ضمن التفسير بالرأي وهو ما يظهر في تفسيره لسورة القدر، فقد كان مقلا من النقول الأثرية ومن الآيات والأحاديث، معتمدا على رأيه وتوجيهاته كصنيعه في تفسيره لهذه السورة في قوله تعالى: "سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الفَجْرْ"، إذ يقول: " أي ذات سامة من الآفات لا يقدّر فيها إلا الخير، والتوقّع بأن يقع فيها آفات لابدّ من تقديرها مردود بما علمت أنّ التقدير اللازم العام أزلي، والمراد هنا إظهار المقادير في مواكب الملإ الأعلى، وجاز تخصيصه بأنواع النّعم والخيرات وبدائع التّفضّل وعظائم النّفحات.

ويحتمل ربط "هي" بما بعده وربط "سلام" بما قبله .

[24]- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية. محمد بن محمد مخلوف، دار الكتاب العربي. ص362.

[25]- شجرة النور الزكية. ص363.

وتفسيره لقوله تعالى: "وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ القَدْرِ" –القمر2–، إذ يقول: أي ما مقدار شرفها، بدليل ما بعدها لا ما حقيقتها، فإنّ حقيقتها مدّة مخصوصة من الزمن وفي حقيقة الزّمن خلاف مشهور".

كما امتاز تفسيره بقلة اعتماده على بقية التفاسير والحواشي، وهو في طريقته في التفسير يبتدئ بذكر المكي والمدني في السورة، فبين أنها مدنية النزول، ثمّ أورد الخلاف وذكر القول بمكيتها، دون أن يورد أصحاب تلك الأقوال وأدلّتهم، ثمّ نقل تفسير آية البسملة، وهو بصنيعه هذا يعتدّ بها كآية قرآنية من كلّ سورة، وذكر في أوّل تفسيرها أنّه يُؤتى بها للتّأكيد ردّا على منكر وشاكٍّ"[26].

وكما يذكر القراءات ويتعرض للأحكام الفقهية المتعلقة بالسورة، مقللا من ذكر الفوائد النحوية واللغوية والبلاغية ذاكرا لها بقدر الحاجة دون توسع فيها، كما يتطرق لذكر المسائل العقائدية والكلامية، معرجا على ذكر بعض المسائل في علوم القرآن مثل إنزال القرآن الكريم وكيفيته ونزوله، ومسالة المجاز. كما اتسم منهجه بالاستدلال بالأحاديث النبوية بإيرادها دون سند ولا راو[27]. "ويمثل الإمام السنباوي بتفسيره هذا استمرارا للمدرسة التقليدية التفسيرية التي لم تمارس التجديد في طرحها، بل اصطبغ تفسيره بالنسق العام الذي تمثلته ورسمته كل التفاسير السالفة، دون الخروج عن مألوف المدرسة التقليدية إلا ما كان من عدم اعتماده على مشهور الحواشي وكتب التفسير والتقيد بآرائها واختياراتها بل وتوجيهاتها"[28].

رابعا: الشيخ إبراهيم بن بيجمان بن أبي محمد الثميني اليسجني (ت1232هـ)

هو إبراهيم بن بيجمان بن ابي محمد بن عبد الله بن عبد العزيز الثميني اليسجني، من علماء بني يسجن البارزين، كان مؤلفا وشاعرا جليلا وعالما حكيما وأديبا فيلسوفا ورحالة، وممن تولى رئاسته

[26]– جهود علماء الجزائر في التفسير . ص234.

[27]– انظر: جهود علماء الجزائر في التفسير(من ص233–238 بتصرف)

[28]– المرجع نفسه. ص238.

مسجد بني يزقن[29]، وهو من أنصار النهضة الإسلامية الحديثة، والدعاة لها بالخطب والوعظ والإرشاد، فكان يتنقل بين مدن وادي ميزاب يدعو إلى العلم ويحارب الجهل والبدع، له صلاة وثيقة بعلماء الجزائر والمغرب وعمان[30].

من شيوخه الشيخ عبد العزيز الثميني، والشيخ أبي زكريا يحيى بن صالح الأفضلي وغيرهم، وهو شاعر تمتاز قصائده بقيمتها التاريخية، ويملك مكتبة ثرية بنفيس المخطوطات، انتقلت بعد وفاته إلى حفيده عبد الله بن محمد بن إبراهيم.

من آثاره: "شرح موازين القسط"، و"بيان جملة التوحيد"، و"الرحلة الحجازية" نثرا ونظما، "تلخيص عقائد الوهبية في نكتة توحيد خالق البرية"، وقصائده عديدة منها." قصيدة البردة في مدح خير البرية "[31] وغيرها.

فهو أحد أعلام الميزابيين والمشايخ الإباضيين الذين خدموا التفسير تأليفا وتدريسا، في التفسير مجموعة من التآليف والتصانيف غالبها في عداد المخطوط الذي لم يطبع وهي: "تفسير آيات النور في سورة النور" مخطوط، أشار الشيخ يوسف بن بكير أنه ألفه في محرم سنة 1221ه، "أصداف الدر وأكمام الزهر الموضوعة على سورة العصر"

- "حاشية على تفسير أنوار التنزيل وأسرار التأويل"[32].

ويمكن تبين منهج الشيخ بن بيجمان وأسلوبه في التفسير وعلومه من خلال كتابة "أهداف الدر وأكمام الزهر". حيث يستفتح الشيخ تفسيره ببيان فضائل القرآن، وأنّ سورة من أقصر سوره قد

---

[29]- جهود علماء الجزائر في التفسير. ص 239.

[30]- معجم أعلام الإباضية من القرن الأول الهجري إلى العصر الحاضر. محمد بن موسى بابا عمي وآخرون. دار الغرب الإسلامي- بيروت. ط2/ 1421ه- 2000م. 2/ 13.

[31]- انظر: المرجع نفسه، 2/ 13.

[32]- معجم أعلام الإباضية 2/ 13.

أحاطت ببعض ما ذكر من غرائبه، وهي سورة العصر، لمن تأمّل ما فيها وتدبّر وأمعن نظره فيها وتفكّر و"أنّها تحتاج إلى تعليق يكشف النّقاب عن وجوه مخدّراتها، ويزيل الحجاب عن أبكار مهمّاتها ومعضلاتها.

ثمّ ذكر عنوانها وآياتها جميعا وأردفها بكونها مكية النزول.

ثم يعقد لكل آية تعاريف لغوية وإعرابية ثم مسائل فقهية أو عقدية أو مواعظ تذكيرية، وعلى هذا المنوال سار في تفسيره لسورة العصر غالبا.

ففي أوّل آية منها في قوله تعالى: " وَالعَصْرِ" بعد أن تعرّض لاختلافهم في معنى العصر باختصار موجز دون اسهاب منه، ودون أن يبيّن مذاهب أصحابها تعرّض لمسألة ما يجوز الحلف به ثمّ كفارة اليمين فأنواع الأيمان ثمّ الحنث ثمّ وقت إخراج الكفّارة وبعض مسائلها.

وفي قوله "إنّ" بعد بيانه أنّها من الأحرف النّاسخة تعرّض لمواضع كسرها، ومنها عشرة مواضع مستشهدا بالآيات القرآنية الكريمة [33]

وفي قوله تعالى: "إِنَّ الإِنْسَانَ" بعد إعرابه للإنسان ذكر كلاما طويلا في المنطق، من تعاريف لماهية الإنسان ، وأنّها كليات منحصرة في خمسة ، ثمّ عددها وختم كلامه بالقول: "ومحلّ بسط الكلام في هذا المقام كتب المعقول"[34].

وتظهر المسائل الكلامية والعقائدية جلية في تفسيره هذا، فقد كان يشير إليها، وإلى ما ذهب إليه الإباضية في كلّ فرصة أتيحت له، كتعرّضه لمسألة الإيمان والتعريف به، وندّد طويلا برأي المرجئة لمخالفتهم مفهوم الإيمان والتعريف به، ثمّ تطرّق للتكفير بالكبيرة عند قوله تعالى: "إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات" إذ يقول: "والمرتكب للكبيرة والمضيّع للفريضة يسمّى عندنا موحّدا منافقا

[33]- انظر: جهود علماء الجزائر في التفسير. ص243.

[34]- المرجع نفسه. ص244.

كافرا كُفر نفاق عاصيا ضالا فاسقا، مجرما بارئا من الشرك، وانعرى من الإيمان ووسم بحلية النفاق والعصيان، مذبذبا بين هؤلاء وهؤلاء[35].

ثمّ عرّف الصلاح والمراد بالأعمال الصالحة وتطرّق لمسألة الخلط بين الأعمال الصالحة والسيئة والموقف الشرعي من صاحبها، وكلّ ذلك مستندا لمجموعة من الآيات والأحاديث من متون وكتب ومصادر السنّة، وغيرها من الفرق الإسلامية الأخرى.

وفي نفس الآيات تعرّض لمسائل فقهية متعدّدة، فقد ذكر ركن الصلاة وبعض أحكامها وشروطها، ثمّ ركن الزّكاة، وركن الصيام وشرطه من تقديم النّيّة وإمساك عن مفطر ثمّ عدّد مجموعة منها كالحجّ والجهاد وأمرٍ بمعروف ونهي عن منكر وغيرها من الأمور التي ذكرها للوصية ممزوجة بأحكامها الفقهية[36]

إلا أنه لم يعتني كثيرا ببعض علوم التفسير كأسباب النزول والناسخ والمنسوخ، وعلم القراءات وغيرها من الفنون، تحليل الاستناد للآيات القرآنية والأحاديث النبوية وإذا ذكر حديثا فيذكر منه فقط دون سنده[37].

خامسا: الشيخ أبوراس المعسكري (1150هـ ـ 1238هـ، 1737م 1824م)

هو محمد بن أحمد بن عبد القادر بن محمد الراشدي الجليلي المعسكري، المعروف بأبي راس العسكري[38] مؤرخ، حافظ،، له مشاركة في الفقه والأدب والحديث وغير ذلك، مولده ووفاته في

[35]- انظر: جهود علماء الجزائر في التفسير .ص 244.

[36]- انظر: المرجع نفسه. ص244.

[37]- جهود علماء الجزائر في التفسير(من ص242-246 بتصرف).

[38]- هذه الترجمة من كتاب معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر. مؤسسة نويهض الثقافية- بيروت، ط2 / 1400ه- 1980م ص306-307..... وانظر:ترجمته في مجلة للبحث العلمي عدد 8: 126، وتعريف الخلف (2/ 232 وفيه وفاته سنة 1238ه)، وفهرس الفهارس (1/ 104)، ودليل مؤرخ المغرب (106). وانظر: فتح الإله ومنته بفضل ربي ونعمته، معجم المؤلفين (8/ 277)، معجم المفسرين، الأعلام (6/ 242)، وبروكلمان .المذيل (2/ 880).

"معسكر" "رحل في طلب العلم وزار مصر والشام والحجاز وتونس والمغرب. قال عنه الكتاني، حافظ المغرب الأوسط ورحالته، صاحب التآليف الكثيرة في الفقه والأدب والتاريخ وغير ذلك. أخذ عن المرتضى الزبيدب والشرقاوي وعثمان الحنبلي وغيرهم... وعنه ابن السنوسي وأبو عمرو عثمان القادري وغيرهما"[39]، له كتاب "لب أفياض في عدّة أشياخي، و"تخريج أحاديث دلائل الخيرات"، و"شرح المقامات الحريرية" و"السيف المنتضى فيما رويته بأسانيد الشيخ مرتضى"، و"مروج الذهب في نبذة النسب ومن ولي الشرف انتمى وذهب" وذيل القرطاس في ملوك بني وطاس" و"در السحابة فيمن دخل المغرب الأقصى من الصحابة" و"الزمردة الوردية في الملوك السعدية" و"تفسير القرآن" و"الخير المعلوم في كل من اخترع نوعا من العلوم" و"حاشية علي المكودي" و"وشرح العقيقية" و"شرح الشمقمقية" و"كتاب التأسيس"، و"درء الشقاوة" و"حاشية على السعد" و"حاشية على الشرح الكبير" للخرشي، و"شرح الحلل السندسية" و"رحلة" ذكر فيها سياحته للمشرق والمغرب، ومن لقي من الأعيان، و"فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته"، و"الحاوي الجامع بين التوحيد والتصوف والفتاوى".

فهو أحد رجالات التفسير ببلاد الجزائر، كان حافظا متقنا لجميع العلوم، أخذ التفسير عن جملة من المشايخ منهم الشيخ عبد المالك الحنفي الشامي الذي أجازه برواية تفسير سورة النور و"تفسير ابن عطية" عن الشيخ محمد بن بنيس، والشيخ المفسر الأمير الكبير الذي أخذ عنه تفسير "الكشاف" بالأزهر الشريف[40].

[39]- التفسير والمفسرون في غرب إفريقيا. محمد رزق طرهوني. دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع – السعودية، ط1/ 1426ه. ص285، وانظر: ترجمته في الأعلام للزركلي. ج6/ ص18. دار العلم للملايين- بيروت. ط15/ 2002م، وانظر: تعريف الخلف برجال السلف. أبو القاسم الحفناوي. مطبعة بيرفو باتنة – الجزائر 1906م

[40]- انظر تفصيلا لشيوخه ورحلاته. ذكره الشيخ في كتابه فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، أبو راس الناصري. المؤسسة الوطنية للكتاب. تحقيق محمد بن عبد الكريم الجزائري. ص113–120.

خدم التفسير تأليفا وتدريسا فقد ذكر كل من ترجم له أنه ألف تفسيرا للقرآن الكريم، ذكر الكتاني في "فهرس الفهارس" أن له إجازة برواية تفسير الإمام أبي راس من طريق تلميذه ابن السنوسي[41].

وعقد في آخر كتابه "فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته" بابا بعنوان: العسجد والإبريز في عدة ما ألفت بين بسيط ووسيط ووجيز عدد فيه تآليفه في كل فن وعلم فذكر فيها كتابه مجمع البحرين ومطلع البدرين بفتح الجليل للعبد الذليل في التيسير إلى علم التفسير"[42].

كما له تقييد على الخراز الذي هو "الجمع بين الإطناب والإيجاز في شرح الخراز"، والدرر اللوامع الذي هو "السيوف القواطع في شرح الدرر اللوامع" والطراز الذي هو "إزالة الألغاز على كلام الطراز على الخراز"، كما ظهر لأبي راس الناصري في علم التفسير وعلوم القرآن، منها: "الإبريز والإكسير في علم التفسير"، وإغاثة اللهفان في شرح مورد الظمآن " وهو شرحه الثاني على منظومة "مورد الظمآن" و"التكلم مع صاحب عمدة البيان"، و"تكميل البيان في ضبط الجواهر الحسان"، في سفرين كما له "سر الرحمن في جمع القرآن وسبب جمعه على هذا المنوال" و"فتح المنان في ترتيب نزول القرآن"[43].

وعن أسلوبه ومنهجه في تفسير القرآن الكريم فيظهر من خلال كتابه "الإبريز والإكسير" في علم التفسير" فإنه يذكر المكي والمدني من السور وتسمية السورة، ثم يبدأ في شرح الآيات آية آية مع ذكر اللطائف اللغوية والنحوية والإعرابية وذكر القراءات، والاستشهاد بالأحاديث النبوية تارة، كما يتعرض لبعض المسائل في علوم القرآن كتعريفه لعلم التفسير وبيان فضله.

---

[41]- انظر: فهرس الفهارس. 1/ 151. وانظر: جهود علماء الجزائر في التفسير ص249.

[42]- انظر: فتح الإله ومنته. ص179

[43]- هذه المؤلفات ذكرها الدكتور المختار البوغناني في رسالته: اهتمام الجزائريين بالقرآن الكريم. 2002م، وانظر: جهود علماء الجزائر في التفسير. ص251.

كما ذكر مسألة التفاضل بين الآيات القرآنية، وطريقة جمعه وأول من سمى المصحف مصحفا، وأول من جمع القراءات السبع وأورد الخلاف في ذلك، ثم أول من حزبه وصنف في التفسير، ثم مسألة التحذير من التفسير بالرأي وأسهب في الرد عليها...".

ويستند في تفسير على التفسير بالمأثور بكل طريقة سواء منها تفسير القرآن بالقرآن أو بالسنة أو بأقوال الصحابة، كما يستند إلى التفسير بالرأي أحيانا. كما لم يتطرق إلى المسائل الفقهية العقدية والسلوكية؛ بل كان يقتصر على معاني وتفسير الآيات[44].

وقد صرح باقتباسه من تفاسير الأئمة بقوله "الاقتباس من تفاسيرهم السّايرة في الأنام مسير الشمس، ولا ينكرها إلا الذي يتخبطه الشيطان من المس كالبحر والأنوار والكشاف وابن عطية والجلالين وكشف الكشاف؛ ذو العبارات الصريحة الواضحة والإشارات المليحة اللايحة"[45].

لقد كانت حياة أبي راس الناصري مسيرة حافلة بالعلم والعطاء تأليفا وتدريسا في شتى الفنون والعلوم.

سادسا: الشيخ محمد الزجّاي:

أحد أعلام التفسير بحاضرة تلمسان، وتلميذ الشيخ ابن للّو التلمساني صاحب المجالس التفسيرية بالجامع الأعظم، لم يُترجم له إلّا في "إتمام الوطر في التعريف بمن اشتهر" تأليف محمد بن علي التلمساني أحد طلبة الشيخ الزّجّاي، اشتُهر بخزانته التي قيل إنّها إحدى الخزائن الكبار التي تحوي على أحمال من المجلّدات والأسفار[46].

---

[44]- انظر: جهود علماء الجزائر في التفسير. (ص252-259 بتصرف).

[45]-انظر: المرجع نفسه نقلا من كتاب أبي راس الناصري: الإبريز والإكسير في علم التفسير

[46]- انظر: تاريخ الجزائر الثقافي. أبو القاسم سعد الله. دار الغرب الإسلامي. ط1/ 1998م. ج1- ص297.

خدم التفسير وعلومه تأليفا، يقول أبو القاسم سعد الله –رحمه الله– : " وللزجاي مجموعة من التّآليف في التّفسير والنّحو والتّصوّف، ويهمّنا من أعماله ما فسّره من القرآن، فقد عدّ له أحد المترجمين "تفسير الخمسة الأولى".

وقول صاحب "إتمام الوطر" بأنّ شيخه له حواشٍ في التفسير دليل على اهتمام الزّجاي بالتفسير وعلومه تأليفا، ولا أستبعد أنّ تلك الحواشي كانت على كتب التفاسير المشهورة ك" أنوار التنزيل" للبيضاوي، أو "تفسير الجلالين" للسيوطي، والمحلّي ، أو"الكشاف" للزمخشري، ذلك أنّ غالب حواشي كتب التفسير التي اهتمّ بها علماء الجزائر في تلك الفترة كانت حول تلك التفاسير[47].

وقد نبّه الدكتور أبو القاسم أنّ عمل الزّجّاي قد يكون مشابها لما قام به يحي الشاوي بالقول: " ولعل هذه الحواشي تشبه ما قام به يحي الشاوي في تعاليقه على التفاسير المتقدّمة"، يريد به كتاب " المحاكمات"، الذي جمع فيه بين التفاسير الثلاث تفسير ابن عطية وأبي حيان والزّمخشري، والذي قصد فيه جمع اعتراضات الإمام أبي حيان على ابن عطية والزمخشري، ومناقشة تلك الاعتراضات، وليس لدينا ما يمكن اعتماده في إثبات ذلك"[48].

ويقول الدكتور سعد الله موضّحا منهج الزّجّاي في التفسير: "والظّاهر أنّ الزّجّاي كان يتبع في تفسيره طريقة الشروح المتداولة حيث كانوا يعمدون إلى عبارة الأصل فيُعربونها ويذكرون معناها ويستشهدون لذلك بما يعزز رأيهم، وقد يستطردون بعض الشيء لإثراء الفكرة التي يسوقونها أو للتّباهي بالحفظ والاطلاع"[49]

---

[47]– المرجع نفسه. ص262.

[48]–جهود علماء الجزائر في التفسير. ص262.

[49]– تاريخ الجزائر الثقافي. ج2، ص19.

كما أنّ ممارسة الشيخ لعلم اللغة والنحو والبيان وتدريسه لهاته العلوم وتأليفه فيها يعطي انطباعا أنّ تفسيره قد اعتمد تلك الفنون وفكّ بها الألفاظ والمعاني[50]

سابعا: الشيخ علي بن محمد الميلي الجَمالي:

مفسّر فقيه متكلّم نسبته إلى ميلة بقرب قسنطينة، استوطن مصر وتوفي بها سنة 1248ه-1833م، خلف مؤلفات عديدة منها: كتابه للتفسير "تحفة الأحباب في تفسير قوله تعالى "ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكِتَابْ"، و" الحسام السّمهري في تكذيب فرية نُسبت إلى الإمام الأشعري"، و"السيوف المشرفية في الرّدّ على القائلين بالجهة والجسمية"في التوحيد (مخطوط)، و"العجالة " متممة للسيوف المشرفية (مخطوط)، و"الشمس والقمر والنجوم الدّراري في إثبات القدر والكسب والاستطاعة والجزء الاختياري" (مخطوط)، و"أشراط الساعة وخروج المهدي" (مخطوط)، وعلامات السّاعة الصغرى"، و"الصوارم والأسنّة في الاعتراض على سيدي أحمد التيجاني"، و"الصمصام الفاتك بالقادح في مذهب الإمام مالك" وغير ذلك[51].

لم تُثبت المصادر التاريخية ممارسته للتفسير تدريسا، غير أنّه خدمه تأليفا حيث صنّف "تحفة الألباب في تفسير قوله تعالى: "ثم أورثنا الكتاب".

وقد جعل المؤلّف من أسلوب التعرض للآية بالأسئلة طريقا لفهمها وفهم مغاليقها وتيسير تفسيرها ، إذ يقول: "فلننشر بعض ما ظهر في الآية الكريمة من الأسئلة التي يحتاج إليها كلّ طالب يطلب الفهم في كتاب الله تعالى وشوق إلى معاني أسرار رسول الله –عليه الصلاة والسلام-.

[50]-جهود علماء الجزائر في التفسير. ص263، وقد ذكر أبو القاسم سعد الله أنّ له تآليف منها: شرح على ألفية السيوطي، وشرح على التسهيل لابن مالك، وعلى لامية الأفعال في التصريف وعلى نونية صاحب الشذور، انظر: تاريخ الجزائر الثقافي. ج2. ص164.

[51]- انظر: معجم أعلام الجزائر. عادل نويهض. ص324- 325. وانظر: الأعلام للزركلي. ج5، ص17، وهدية العارفين. اسماعيل باشا البغدادي. دار إحياء التراث العربي- بيروت/ 1951، ج1- ص773.

ثمّ أورد الأسئلة متتابعة فبدأ بالسؤال الأوّل فالثّاني فالثّالث حتّى أتمّ موفّى الواحد والعشرين سؤالا[52] دون إجابة ثمّ يبدأ في الإجابة عنها تباعا، فقال:

السؤال الأوّل: ماسرّ التعبير بـ: "ثمّ" ولم يكن ذلك بغيرها من حروف العطف، وقد وقع الفرق بين معانيها.

السؤال الثاني: ما سرّ قوله تعالى "أورثنا" دون الإيتاء، وقد قال تعالى: "آتَيْنَاهُمُ الكِتَاب"، وهل فرّق بين الإيتاء والإعطاء والوراثة والهبة والنّحلة".

السؤال الثالث: كيف يتقرر معنة الوراثة وترتيبها بعد ذكر الآية قبلها وهي: "إِنَّ الذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ الله" الآية.

السؤال الرابع: ما سرّ التعبير "بالكتاب"، دون القرآن ، وقد قال الله تعالى: "الذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ".

السؤال الخامس: ما سرّ التعبير بالموصول دون المصطفين من عبادنا كما قال تعالى في آية "المُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارْ"

السؤال السادس: ما سرّ التعبير ب" الكتاب" دون التعبير بكتابنا كما قال الله تعالى " الذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ".

السؤال السابع: "ما سرّ التعبير ب"اصطفينا" دون اخترنا أو آثرنا، وهل فرّق بين هذه الألفاظ وقد قال الله تعالى: "وربّك يخلق ما يشاء ويختار، وقال الله تعالى: "لَقَدْ آثَرِكَ الله عَلَيْنَا".

السؤال الثامن: ما سرّ التعبير ب"عبادنا" دون العبيد وهل فرّق بينهما.

[52]- انظر: جهود علماء الجزائر في التفسير. ص266- 269، حيث نقل هذه الأسئلة وأجوبتها من مخطوط تحفة الألباب لعلي الميلي الجمالي.دار الكتب المصرية. رقم 155).

السؤال التاسع: ماسرّ تقديم الظّالم لنفسه والعرب يقدّمون ما هم أعنى وأهمّ ، والسابق بالخيرات معلوم العناية عند الله تعالى؟.

السؤال العاشر: ما سرّ التقييد بقوله: ب"إذن الله" في القسم الأخير ، ولم يقيّد بمثل ذلك في القسمين الأولين؟

السؤال الحادي عشر: ما سرّ قوله تعالى "ذلك هو الفضل الكبير" دون التعبير بأولئك هم أهل الفضل كما قال الله تعالى: "أولئك على هدى من ربهم، وأولئك هم المفلحون".

السؤال الثالث عشر: ما سرّ التعبير ب" الفضل" دون الفوز ، كما قال الله تعالى: "ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العظيم" وغيرها من الأسئلة.

واعتمد الشيخ في تصنيفه هذا وفي إجابته على الأسئلة الطّويلة مصادر كثيرة نوّه إليها في مقدّمته، منها: أنوار التنزيل وأسرار التأويل" للإمام البيضاوي، وحاشية أبي السعود "إرشاد العقل السليم"، وحاشية الشهاب الخفاجي "عناية القاضي وكفاية الراضي"، ولم يكن ناقلا فقط بل كان معترضا في بعض الأحيان مبرزا رأيه مرجّحا بين الأقوال، فعند إيراده لكلام البيضاوي وأبي السعود في كلامهم عن قوله تعالى: "مصدّقا" فإن قلت: هذا مخالف لما ذكره العلامة البيضاوي أنّ "مصدّقا" حال مؤكّدة، قال عند قوله تعالى " هُوَ الحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَاَ بَيْنَ يَدَيْهْ " من سورة فاطر13، أحقّه "مصدّقا" لما تقدّمه من الكتب السماوية حال مؤكّدة لأنّ حقّيته تستلزم موافقته إيّاه في العقائد وأصول الأحكام، ووافقه السّعود وأقرّه الشّهاب، قلت: بحث في ذلك ابن هشام أنّ اللازم للحقّ هو صادقيته لا تصديقه لجميع الكتب السماوية، فالحال مؤسّسة لا مؤكّدة ، على أنّ التّأسيس أبلغ في التّأكيد، لأنّ حمل الكلام على الإفادة خير من حمله على الإعادة[53].

كما تميّز أسلوب الشيخ أحيانا بالاستطراد والتوسّع في الاستشهاد بالآيات الكثيرة مفسّرا لها.

[53]- انظر: المرجع السابق. ص270.

كما اهتم الشيخ بإيراد أقوال ومذاهب المدارس النحوية خاصة الكوفية والبصرية، فقد اعتمدها مثلا قي قوله تعالى : "جَنَّتُ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابُ"، إذ يقول : "وقد اختلف أهل العربية في الضّمير العائد من الصّفة على الموصوف في هذه الجملة، فقال الكوفيون التقدير " مفتّحة لهم أبوابها " وأل والإضافة فيقولون: مررت برجل حسن العينين أي عينيه، ومعنى قوله تعالى : " فَإِنَّ الجَحِيمَ هِيَ المَأْوَى" ، أي مأواه ، قال بعض البصريين: التقدير : مفتّحة لهم الأبواب منها، فحذف الضمير وما اتصل به[54]

إلا أنّه قليل الاهتمام بعلم القراءات والأحاديث النبوية إلا في مواضع معدودة[55].

ثامنا: الشيخ ابن عدون (1158هـ ـ 1252هـ ، 1745م 1808م)

هو يوسف بن عدون بن الشيخ حمّو الحاج اليزقني، أبويعقوب، عالم إباضي، مفسّر، له اشتغال بالتّاريخ، من أوائل المصلحين الكبار في وادي ميزاب في عصره، استخلفه الشيخ عبد العزيز الثّميني في مسجد بني يسجن لّما أسِن وعجز، أقام بالقاهرة أربع سنين بعد رجوعه من الحجّ ولقي كبار علماء الأزهر وتناقش معهم في المسائل العلمية[56].

تولّى رئاسة مجلس عزّابة بني يسجن وقضاء المدينة، فهو من أوائل رجال النّهضة العلمية الحديثة بميزاب ومن العلماء العاملين.

كان من شيوخه: الشيخ أبو زكريا يحي بن صالح الأفضلي والعلامة عبد العزيز الثّميني، وكان من مناصريه في حركة الإصلاح الاجتماعي بميزاب، وقد اختصّه شيخه الثّميني بمنشوراته[57]

---

[54]- انظر: المرجع نفسه. ص271.

[55]- انظر: المرجع السابق. ص270- 273.

[56]- انظر: معجم أعلام الجزائر في صدر الإسلام حتى العصر الحاضر. ص230.

[57]- انظر: معجم أعلام الإباضية. محمد بن موسى بابا عمي وآخرون. ج2- ص129.

له مؤلفات جليلة منها: " شرح الدّعائم" و"حاشية على البيضاوي" في التفسير، وكتاب في سيرة الرسول –عليه الصلاة والسلام–، وأرجوزة في بضعة آلاف بيت في الشريعة وأسرارها، و"القصيدة الحجازية" التي حوت 345 بيتا ، و"بيان في بعض التواريخ"، و"شرح البائية" في الحكم والمواعظ وغيرها.

لم تذكر المصادر التاريخية اشتغاله بالتفسير وعلومه تدريسا، ولا نُقل عن أحد من تلاميذه أنّه أشار إلى دروسه التفسيرية أو نقل نماذج عن ذلك، غير أنّه خدم التفسير تأليفا، له "حاشية في التفسير" ، ذكر صاحب المعجم أنّها مخطوطة، وأنّ نسختها موجودة بمكتبة الشيخ ابراهيم حفّار، دون إشارة إلى رقمها، أو إلى التفسير الذي قام بوضع هذه الحاشية، غير أنّ صاحب "معجم المفسّرين"أشار إلى أنّها "حاشية على أنوار التنزيل" للبيضاوي[58].

خاتمة الدراسة:

يتبين مما سبق عرضه عن أعلام التفسير في القرن الثالث عشر في الجزائر أنّ هذه الفترة كانت بمثابة العصر الذهبي للتراث التفسيري الجزائري حيث تزخر بعلماء أجلاء في هذا العلم، خدموا هذا الفنّ تأليفا وتدريسا.

كما يلاحظ تنوّع هذا التراث التفسيري بتنوع مصادره وحواضره، فمنه ما صدر عن حاضرة توات بالجنوب الصحراوي، ومنه ما كان غرب الجزائر كالتراث التفسيري التلمساني وغيره، ومنه ما صدر من مشرقها كحاضرة قسنطينة وضواحيها.

المراجع المعتمدة:

1. جهود علماء الجزائر في علم التفسير زمن العهد العثماني، عبد الغاني عيساوي، رسالة دكتوراه، جامعة باتنة. 2015م–2016م.

[58]–انظر: معجم المفسرين. نويهض. ج2.ص748، وانظر: جهود علماء الجزائر في التّفسير. ص275.

2. معجم المفسرين. عادل نويهض. مؤسسة نويهض الثقافية. ط3/ 1409ه- 1988م.

3. الزاوية الزجلاوية: نشأتها ودورها في الحركة العلمية بإقليم توات خلال القرنين 18 – 19م . إيمان زاجلو. جامعة أدرار- 2014م.

4. فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، أبو راس الناصري. حققه وضبطه، محمد بن عبد الكريم الجزائري. المؤسسة الوطنية للكتاب

5. فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات. عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، دار الغرب الإسلامي- بيروت. ط2/ 1402ه-11982م. اعتناء إحسان عباس.

6. الأعلام للزركلي. دار العلم للملايين- بيروت. ط15/ 2002م.

7. شجرة النور الزكية في طبقات المالكية. محمد بن محمد مخلوف، دار الكتاب العربي.

8. معجم أعلام الإباضية من القرن الأول الهجري إلى العصر الحاضر. محمد بن موسى بابا عمي وآخرون. دار الغرب الإسلامي- بيروت. ط2/ 1421ه- 2000م.

9. معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر. مؤسسة نويهض الثقافية- بيروت، ط2 / 1400ه- 1980م.

10. التفسير والمفسرون في غرب إفريقيا. محمد رزق طرهوني. دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع – السعودية، ط1/ 1426ه.

11. -تعريف الخلف برجال السلف. أبو القاسم الحفناوي. مطبعة بيرفو باتنة – الجزائر 1906م

12. تاريخ الجزائر الثقافي. أبو القاسم سعد الله. دار الغرب الإسلامي. ط1/ 1998م.

13. هدية العارفين. اسماعيل باشا البغدادي. دار إحياء التراث العربي- بيروت/ 1951.

المصنفات الإباضية في تفسير القرآن الكريم ببلاد المغرب الأوسط في العصر الوسيط.

تفسير عبد الرحمن بن رستم(ت208هـ/ 823م).

تفسير هود بن محكم الهواري(ق3هـ/ 9م).

تفسير أبي يعقوب يوسف بن ابراهيم الورجلاني(ت570م/ 1174م).

د. زقاوي محمد، جامعة مصطفى اسطمبولي،

معسكر، الجزائر

الملخص:

إنّ الغرض من هذه الدراسة هو تسليط الضوء على جهود علماء الإباضية ببلاد المغرب الإسلامي في الميدان الفكري وبالخصوص في ميدان التفسير، وإظهار قيمته الثقافية التي ساهموا بها في إثراء الحياة الفكرية ببلاد المغرب الإسلامي، محاولا التزام الموضوعية الى حد كبير، وسندي في ذلك المصادر الإباضية وغير الإباضية. وفي هذه الورقة البحثية أحاول أولا: أن أعرف بأعلام التفسير الإباضي للقرآن الكريم في المغرب الأوسط، والوقوف على الجهود التي بذلت في الموضوع وتمييز المفقود منها من الموجود:

تفسير عبد الرحمن بن رستم(ت208ه/ 823م).

تفسير هود بن محكم الهواري(ق3ه/ 9م).

تفسير أبي يعقوب يوسف بن ابراهيم الورجلاني(ت570م/ 1174م).

ثانيا: إبداء بعض الملاحظات حول ضياع التفسير الأول والثالث وبقاء التفسير الثاني.

ثالثا: التعريف بالخصائص العامة لتفسير هود بن محكم الهواري باعتباره متوفرا، وبخصائص تفسير أبي يعقوب الورجلاني المفقود من خلال كتبه الأخرى التي وصلت إلينا.

مقدمة:

لم يكن حظ الإباضية من التصنيف في تفسير كتاب الله العزيز كبيرا، ولسنا نبعد عن الحقيقة إن قلنا: إن لم يكن أقلها عددا بالمقارنة مع بقية الفرق والمذاهب الاسلامية الأخرى[1]، فبالعودة الى بعض الدراسات التي اعتنت بتاريخ بالتفسير والمفسرين ببلاد المغرب الاسلامي من أجل استقصاء الأمر، تبين لنا أن أصحابها لم يخصصوا في هذا الباب إلا بعض الورقات من كتبهم للتعريف بمصنفات الإباضية في هذا المجال مع شيء من التحذير منها[2] باعتبارهم من أصحاب الرأي المذموم، مع تفاوت بين الدارسين في درجة التحذير بين مغال ومعتدل.

إنّ ما يثير الانتباه في أمر التفاسير الإباضية للقرآن الكريم ببلاد المغرب الاسلامي التي فُقد جلها في العصر الوسيط، رغم ما عرف عن رجال الإباضية من ولعهم الشديد بحفظ تراث الأجداد والاعتزاز به، فقد لا نجد في بلاد المغرب كلها ما نجده عند الإباضيين من مخطوطات، خاصة في مدن ميزاب بالجزائر، لا نظير لها في مكتبات العالم بأسره[3]. ومن هنا يمكن أن نطرح

1- لم يتجاوز في مجموعها إلى يومنا هذا تسعة كتب بين إباضية المشرق والمغرب على أن بعضها ليس كاملا. ينظر، محمد حسين الذهبي: التفسير والمفسرون، مكتبة وهبة، القاهرة، د .ط، د، ت، ج2، ص232-233.

2- يعود ذلك في تقديرنا الى تهمة "الخوارج" التي ظلت تلاحقهم طوال تاريخهم من طرف مخالفيهم واصرارهم على ذلك، رغم تبرئهم منها بشكل صريح في جميع كتبهم، ومن النماذج على ذلك: محمد بن رزق بن طرهوني: التفسير والمفسرون في غرب أفريقيا، دار ابن الجوزي للطباعة والنشر، المملكة العربية السعودية، ط1، 1426ه، ص804. حسن مسعود الطوير: جهود علماء الغرب الإسلامي واتجاهاتهم في دراسة الإعجاز القرآني، دار قتيبة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2001، ص116-117، 190-191. محمد حسين الذهبي: المرجع السابق، مبحث الخوارج وموقفهم من تفسير القرآن كله. أحمد سليمان الأطرش: الإباضية وتأويل القرآن الكريم في القضايا العقدية وموقف أهل السنة، مجلة العلوم الإسلامية الدولية، المجلد1، العدد3، ديسمبر2017.

3- يقدر عدد المخطوطات في واد ميزاب بالجزائر بأكثر من 8000 مخطوط حسب إحصاء سنة 1992، موزعة على 114 مكتبة، وهو عدد مرشح للارتفاع في السنوات اللاحقة باكتشاف مكتبات وخزائن جديدة، ينظر: زهير بابا واسماعيل: جهود حماية مخطوطات وادي ميزاب

السؤال التالي: ما هي أهم التفاسير الإباضية التي وصلت إلينا وما هي أهم العناوين الآخرى التي لم تصل إلينا؟ وماهي أسباب قلة التفاسير الإباضية للقرآن الكريم بالمقارنة مع غيرها؟ ولماذا فقد بعضها على قلتها؟

1ـالإرهاصات الأولى لتفسير كتاب الله ببلاد المغرب الإسلامي:

أمام انتشار الاسلام مشرقا ومغربا تشوق الناس إلى فهم مضامين القرآن الكريم بحكم تلاوته في كل صلاة خاصة في الأقاليم التي لم تكن تتقن اللغة العربية كبلاد المغرب، فكانوا أشد احتياجا إلى معرفة معاني القرآن وإظهار مقاصده باعتبار اشتمال آيات القرآن على الأحكام الفقهية التي تتعلق بمصالح الناس، مما دفع المغاربة إلى الإقبال على مُدارسته وحفظه والتعمق في فهمه عبر مراحل.

المرحلة الأولى: مرحلة التلقي والفهم.

بدأت البوادر الأولى لتفسير كتاب الله مع استقرار بعض الفاتحين ببلاد المغرب، وذلك عند تأسيس الفاتح عقبة بن نافع الفهري (ت63ه/ 683م) حاضرة القيروان، وبنائه للمسجد الجامع، وجعله مركزا لنشر الدعوة الإسلامية، فأقبل البربر عليه يتلقون فيه أصول الإسلام ثم يعودون إلى أوطانهم لنشر ما تعلموه[4]، وأعقب ذلك جهود حسان بن النعمان (ت86ه/ 709م) الذي شرع في تعريب البلاد وكلف الفقهاء من كبار التابعين بتعليم القرآن وتفقيه الناس في الدين، وقام بإنشاء المساجد في المدن والقرى لهذا الغرض[5].

وقراءة وصفية لفهارسها، ص96، مصطفى بن الحاج بكير حمودة: المخطوطات في منطقة وادي ميزاب، قيمته الحضارية والتاريخية من خلال مكتبة الشيخ الحاج صالح بن عمر لعلي، المجلة المغاربية للمخطوطات، ع1، ديسمبر2004، ص15.

4- الفرد بيل: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، ترجمة عبد الرحمن بدوي، ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987، ص94.

5- عبد العزيز سالم: المغرب الكبير "العصر الإسلامي"، دار النهضة، بيروت، 1981،ج2، ص250.

من نماذج إقبال البربر على القرآن حفظًا ومدارسة: عمر بن يمكتن(ت144ه/ 761م) الذي حفظ القرآن وتعلمه من السابلة في طريق العرب الفاتحين[6]، وواصل موسى بن نصير(97ه/ 716م) عمل سلفه حين أوصى العرب الفاتحين بأن يتولوا تعليم القرآن للبربر وتفقيههم في الدين، ليضاعف هذا المجهود من طرف الخلفية الأموي عمر بن عبد العزيز(ت101ه-719م) حين أرسل إلى افريقية عشرة فقهاء من التابعيين[7]، لتختم هذه المرحلة بوصول دعاة المذاهب والفرق الى بلاد المغرب ومن أهم هؤلاء وداعيا الصفرية والإباضية عكرمة بن عبد الله مولى ابن عباس(105ه/ 723م) وسلمة بن سعد (135ه/ 752م)، وداعية الشيعة عيسى بن محمد النفس الزكية، وداعية المعتزلة عبد الله بن الحارث[8].

المرحلة الثانية: الرحلة إلى المشرق للتوسع والاستزادة

ازداد طموح المغاربة في التعمق في فهم الإسلام عن طريق الرحلة إلى المشرق لأداء فريضة الحج ولقاء العلماء والأخذ منهم[9]، تزامن ذلك مع بروز الملامح الكبرى للمذاهب الفقهية والمدارس الكلامية ببلاد المشرق، إذ سعى كل اتجاه فكري الى نشر أفكاره وتصوراته الفقهية والعقدية، وبذل كل تيار فكري جهودا معتبرة لتكوين قاعدة اجتماعية كبيرة لتوسيع دائرة تأثيرهم على حساب الاتجاهات الأخرى، تكون له سندا في تحقيق آمالهم، وذلك من خلال عدة وسائل أهمها بث الدعاة واستقبال طلبة العلم، فالتقوا بأئمة المذاهب في المدن الكبرى بالمشرق الإسلامي، ومن أشهر هؤلاء المغاربة من الاباضية: محمد بن عبد الحميد بن مغيطر الجناوني(حي بعد160ه/ 776م) وحملة

6- محمد بابا عمي وآخرون: معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب. دار الغرب الاسلامي، بيروت، ط2، 2000، ج2، ص314.

7- المالكي: رياض النفوس: تح البشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1994،ج1، ص99-117. أبو العرب محمد بن أحمد: طبقات علماء إفريقية وتونس، تحقيق علي الشابي ونعيم حسن اليافي، الدار التونسية للنشر والتوزيع، ط2، 1985، ص84.

8- تزامن قدوم هؤلاء الدعاة في فترات زمنية متقاربة جدا، يمكن تحديدها بالعقود الأولى للقرن الثاني للهجرة بين سنتي(100-110هـ/ 718-728م)، ينظر: المالكي: المصدر السابق،ج1، ص99-117. عبد المجيد بن حمدة: المدارس الكلامية بإفريقية الى ظهور الأشعرية، مطبعة دار العرب، تونس، ط1، 1986، ص162. الفرد بل: المرجع السابق، ص97.

9- بشير رمضان التليسي : الاتجاهات الثقافية في بلاد المغرب الإسلامي، دار المدار، لبنان،ط1، 2003، ص193.

العلم الخمس[10]، ومن غيرهم عبد الرحمان بن زياد بن أنعم(ت161ه/ 694م)، وعبد الله بن فروخ(ت172/ 789) وعلي بن زياد(ت183/ 799م) والبهلول بن راشد (183/ 799م) وابن غانم(ت190م/ 805ه).

المرحلة الثالثة: التدوين والتأليف.

تطور طموح المغاربة في فهم حقائق الدين وأسراره والتعمق أكثر في مسائله، ولم يعد الإيمان بالدين الإسلامي بسيطا، بل أصبح الإيمان يقوم على بناء الحجج وتركيب القناعات، وخصوصا بعد رواج أفكار الفرق والمذاهب وحصول بعضها على موضع قدم في بلاد المغرب كالإباضية والصفرية والشيعة الزيدية[11]، فعملوا على نشر الثقافة الإسلامية بين الشرائح المتعاطفة معهم[12]، خاصة إذا علمنا أن أرض المغرب الإسلامي كانت ملجأ للفارين من أصحاب النحل وملاذا مفضلا للهاربين من الصراعات السياسية والفتن العقدية لبعدها الجغرافي عن بلاد المشرق، خاصة وأن أغلب هؤلاء الفارين والمعارضين كانوا دعاة سياسيين ومن أصحاب الدراية والعلم.

فخاضوا في التفسير والتأويل في حلقات دروسهم، وكانوا يعكسون اتجاهاتهم المذهبية كل على طريقته، وما إن استهل القرن الثالث هجري على بلاد المغرب حتى ظهرت أولى المؤلفات التي تهتم بشأن العقيدة والتفسير، كتفسيرعبد الرحمن بن رستم[13](ت171ه/ 788م) ثم تفسير يحيى ابن

---

[10]- هي بعثة علمية تتكون من أربعة نفر:عبد الرحمن بن رستم، وعاصم السدراتي، وأبو داود القبلي النّفزاوي، وإسماعيل بن درار الغدامسي، وانظم اليهم في البصرة أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري اليمني، تتلمذوا مباشرة على زعيم المذهب الإباضي بالبصرة أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة، ينظر، الدرجيني: طبقات المشائخ، تحقيق ابراهيم طلاي، مطبعة البعث، قسنطينة، د ت،ج1، ص19.

[11]- مع مطلع النصف الثاني من القرن الثاني الهجري فقدت بلاد المغرب الإسلامي انسجام وحدتها السياسية والمذهبية بنشوءدول ذاتانتماءاتسياسية مختلفة لكل منها مرجعيتها الفكرية، فتأسست الدولة الرستمية الإباضية بالمغرب الأوسط دولة الأدارسة الزيدية الشيعية بالمغرب الأقصى ودولة الأغالبة بالمغرب الأدنى، ودولة بني مدرار الصفرية بجنوب المغرب، فأضحت بلاد المغرب فسيفساء من المجموعات السياسية والعقدية المختلفة. ينظر، علاوة عمارة: انتشار المذهب المالكي ببلاد المغرب الأوسط، مجلة آفاق الثقافية، نشر جمعية الماجد للثقافة والتراث، العدد56، جانفي2007، ص26.

[12]- إبراهيم حركات: مدخل الى تاريخ العلوم بالمغرب الإسلامي، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط1، 2000،ج2، ص20.

[13]- سيأتي التعريف به لاحقا.

سلام البصري القيرواني(ت200ه/ 815م)[14] وتفسير سليمان بن حفص الفراء(ت269ه/ 882م)[15] في كتاب "معاني القرآن" وكتاب "حدود المعرفة في تفسير القرآن" للقاضي النعمان[16](ت363ه/ 973م).

2ـ أسباب قلة التفاسير عند الإباضية:

2ـ1ـ الشروط الصارمة والتخوف من التفسير

وضع علماء الإباضية شروطا جد صارمة لمن يقدم على تفسير كتاب الله، وقد بلغ بهم تعظيم هذا الباب(التفسير) الى حد التكفير[17] حذرا من التقول على الله بغير علم، وبخاصة فيما تعلق

[14]- أبو زكرياء يحيى ابن سلام التميمي البصري القيرواني(124-200ه/ 742-815م): ولد بالبصرة ونشأ بها ثم انتقل الى القيروان واستقر بها وتوفي بمصر بعد عودته من رحلة الحج، صاحب التفسير المشهور وهو أقدم تفسير ببلاد المغرب الإسلامي وصل إلينا، ألفه صاحبه أثناء استقراره بالقيروان، وحسب تاريخ وفاة صاحبه نال السبق على تفسير الطبري(ت310ه) المشهور، ذاع صيته بلاد المغرب والاندلس كلها وكان محل تقدير، أنجزت خوله عدة شروحات واختصارات أهمها تفسير هود بن محكم وتفسير أبي عبد الله محمد ابن زمنين(399ه/ 1009م)، ينظر، المالكي: رياض النفوس، ص188-192. أبو العرب: طبقات علماء افريقية وتونس، ص112. محمد الفاضل بن عاشور، التفسير ورجاله، مجمع البحوث الاسلامية بالأزهر، مصر، 1970، ص24-28.

[15]- تختلف المصادر في نسبة سليمان بن حفص الفراء(أبو حفص) بين الإباضية والمعتزلة فالشماخي والوسياني يعتبرانه إباضي إلا أنه خالف الإباضية في بعض المسائل، قال الشماخي في سيق حديثه عن أحمد بن الحسين وبراءة الإباضية منه "وكلهم إباضية إلا أحمد بن الحسين "وكلهم تعود على سليمان بن حفص الفراء وأفلح بن عبد الوهاب الرستمي، وقال الوسياني في الشأن نفسه "وكان أحمد بن الحسين وأبو حفص لو لم يكن إلا واحد منهم لتبعته المذاهب، وقد أعطى الله أفلح مالم يعطيهم، وأما الفراء فرجل عالم مخالف من أهل القيروان ودَّعوا أنه رجع الى أهل الحق" أي الى المذهب الإباضي، هذا ونجد نسبته الى المعتزلة صريحة عند كتاب الطبقات المالكية كأبي العرب والمالكي والخشني، مرد هذا الاختلاف إلى التشابه الكبير بين الإباضية والمعتزلة في المسائل الكلامية، وقد كانت له مناظرات مع محمد بن سحنون، ينظر: الوسياني أبو الربيع سليمان بن عبد السلام: سير، تحقيق عمر بوعصبانة، نشر وزارة التراث والثقافة، مسقط، سلطنة عمان، ط1، 2009،ج1، ص328. الشماخي: كتاب السير، تحقيق محمد حسن، دار المدار، بيروت، ط1، 2009،ج2، ص415. المالكي: رياض النفوس، ج1، ص182، أبو العرب: طبقات علماء إفريقية وتونس، ص164-165. الخشني: طبقات علماء إفريقية، تحقيق محمد زنهم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 1994، ص219.

[16]- هو القاضي النعمان ابن أبي عبد الله بن محمد بن أحمد بن حيون (ت363ه/ 973م) مؤرخ الدولة الفاطمية الشيعية الإسماعلية وفقيها الأول، كان مالكي المذهب ثم تحول إلى مذهب الشيعة ترك العديد من الكتب تخدم كلها مذهب الشيعة، ينظر، الداعي عماد الدين إدريس: تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب، نحقيق محمد يعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1985، ص556،490-569.

بالمسائل العقدية كمسألة الصفات وغيرها، فإذا كان باب التأويل غير مفتوح على مصراعيه إلا إذا انسد باب الأخذ بظاهر النصوص، فيكون التأويل ضروريا لتفادي التشبيه والتجسيم وذلك وفق قاعدة: المتأولون المخطئون في المسائل العقدية مشركون.

وإن كان ولابد، فالأمر يقتضي الكفاءة المتأتية، أولا: من أسباب ذاتية: كسلامة الذهن، وأن يكون المتأول ثاقب النظر مدركا للعواقب، وأخرى موضوعية: ككثرة السماع ومدارسة أهل النصائح من العلماء، حتى يكون على دراية عميقة بمصادر التشريع ومختلف العلوم المرتبطة بالتفسير كاللغة[18]، وما تحمله من ثراء في دلالتها سواء منها النحوية والصرفية والبلاغية، كالمجاز الذي يقتضي التحول الدلالي في المعنى حسب السياق[19]، فضلا عن عدم المصادمة مع ما هو ثابت ومحكم في كتاب الله، وتمكنه من أساليب الاستدلال العقلي والنقلي، أما التأويل الباطني على طريقة الشيعة، والتفسير الحرفي الذي يوهم التشبيه في حق الله فمرفوضان جملة وتفصيلا.

فقلَّ من تتوفر فيه هذه الصفات، لذا اشتهر عند الإباضية تهيبهم من التفسير تورعا واحتياطا خشية القول في كتاب الله بغير علم[20]، وأمام افتقار المكتبة الإباضية لكتب التفسير التي يرجع إليها طلبة العلم ويعول عليها في هذا المجال، فُتح باب الاستعانة بكتب التفسير المخالفة للمذهب،

---

[17]- أبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي: التحف المخزونة في إجماع الأصول الشرعية، تحقيق حمزة بومعقل، دار الخلدونية، القبة، ط1، 2017، ص357-358. إلا أن كفرهم كفر نفاق لا كفر شرك، وهو حكم جماعي بين كل الفرق الإباضية ما عدى الحسينية والعمرية الذين ذهبا إلى أن المتأول في صفات الله كافر مشرك والمتأول فيها دون ذلك كافر منافق، ينظر كذلك المبروك المنصوري: الفكر العقدي وأسس سيادة الإسلام، الدار المتوسطية للنشر، تونس، ط1، 2011،ص330.

[18]- أبو يعقوبالورجلاني: الدليل والبرهان، تحقيق سالم بن حمد الحارثي، وزارة التراث والثقافة، مسقط، سلطنة عمان، ط2، 2006.ج2، ص81. أبو عمار عبد الكافي: الموجز،تحقيق عمار طالبي، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية، الجزائر، 2013، ج1، 422. بيير كوبرلي: مدخل الى دراسة الإباضية وعقيدتها، ترجمة عمّار الجلاصي، مكتبة الضامري للنشر، سلطنة عمان، ط1، 2010، ص237، 445.

[19]- فرحات الجعبيري: البعد الحضاري للعقيدة عند الإباضية، نشر جمعية التراث غرداية، 1987،ج1، ص274.

[20]- هود بن محكم: تفسير كتاب الله العزيز، تحقيق بالحاج بن سعيد شريفي، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1990، مقدمة التحقيق، ص34. التفسير والمفسرون، ج2، ص234.

ومعلوم أن الخلاف بين الإباضية وغيرها خاصة في مسائل التأويل، قد يؤدي الى زعزعة العقيدة الاباضية في نفوس أتباع المذهب خاصة من العامة.

كان قد صنف بعض علمائهم كتبا تتعلق بعلوم قريبة من التفسير والتأويل، كعلم أصول الدين أو الكلام تحتوي على اجتهادات مهمة في فهم آيات القرآن، ككتاب "الموجز" للشيخ أبي عمار عبد الكافي(ت570ه/ 1174م)، وكتاب "التحف المخزونة" لأبي الربيع سليمان بن يخلف المزاتي(ت471ه/ 1079م) وكتاب "أصول الدين" ل تبغورين بن عيسى الملشوطي (القرن06ه) وكتاب "تبين أفعال العباد" لأبي العباس أحمد بن محمد(ت504ه/ 1111م) إلا أنها تبقى مصنفات غير صريحة في التفسير ولم يقصد أصحابها التفسير لذاته.

فرض هذا الوضع في وقت متأخر إقامة البديل، فأقدم أحد علمائهم[21] على ذلك بدءًا من سورة الناس، ولما وصل الى الآية﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (44) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (46) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (47)﴾ [سورة الحاقة] تنبه الى عظمة ما يقوم به وخاف على نفسه الجرأة على كلام الله فتوقف عن ذلك، وهو موقف مثبط للعزائم وإن كان الغرض نزيها، كيف لا وهو المقدم على أهل زمانه. وقد كسر الشيخان امحمد بن يوسف اطفيش(ت1332ه/ 1914م) وإبراهيم بيوض(ت1401ه/ 1981م) من علماء الجزائر الإباضيين المعاصرين هذا الحاجز، الأول بكتابيه "هميان الزاد إلى دار المعاد" و"تيسير التفسير" والثاني بكتابه "في رحاب القرآن"[22].

---

[21]- هو الشيخ أبو النبهان جاعد بن خميس(ت1237ه/ 1821م) من علماء الإباضية بالمشرق له مؤلفات كثيرة منها "الدقائق في دق أعناق أهل النفاق" وكتاب الطهارات" و"مقاليد التنزيل" وهو في التفسير حققه كهلان الخروصي من علماء عمان المعاصرين، بقي من هذا التفسير تفسير سورة الفاتحة فقط، ينظر: محمد صالح ناصر وآخرون: معجم أعلام الإباضية-قسم المشرق- ص82-83. محمد بن خلفان الصقري: دراسة في مؤلفات أبي النبهان، ضمن أعمال ندوة قراءات في فكر أبي النبهان المنعقدة 14-16ديسمبر 1996 ، ط1، 2000، ص66.

[22]- وهو عبارة عن دروس مسجلة بالمسجد الجامع بمدينة القرارة بولاية غرداية، طبعت فيما بعد تحت عنوان "في رحاب القرآن".

وإن كان تهيب التفسير لا يتعلق بالإباضية وحدهم، فقد وردت عدة أخبار عن السلف تحذر من التعرض للتفسير خاصة فيما لا دليل عليه من النقل ولا رواية عندهم بشأنه[23]، فبالعودة الى كتب التفسير المشهورة كتفسير محمد بن جرير الطبري(ت310ه/ 923م) وعماد الدين إسماعيل بن كثير(ت 774ه/ 1374م) وغيرهما نجدها ذُيلت بمقدمات تشرح شروط التفسير والصفات الواجبة في المفسر، وتشير الى الرويات التي تفيد تحرج أئمة السلف من التأليف فيه تورعا وتقوى، إلا أن الأمر عند الإباضية كان مبالغا فيه فانعكس ذلك على كمّ انتاجهم الفكري فيما يتعلق بهذا الباب.

2ـ2ـ الاضطرابات السياسية والحروب العسكرية:

إن فترات الاستقرار والسلام بالنسبة الى جموع الإباضية ببلاد المغرب الإسلامي - على قلتها- خاصة بعد سقوط الدولة الرستمية ما هي إلا استعداد لثورة أو حملة عسكرية جديدة، فقد ذكر ابن عذاري في "البيان المغرب"[24] ما يفوق تسعة حملات عسكرية ضد الإباضية بين إخماد ثورة أو حملات توسعية، ما بين سقوط تيهرت إلى غاية منتصف القرن الرابع الهجري.

وإنْ كان ضياع بعض كتب التفسير مبررا بفعل الإتلاف المتعمد كالحرق والتدمير الذي لحق بعض المكتبات جراء تدمير مدنهم وحصونهم عبر التاريخ، كمكتبة المعصومة بتيهرت[25]، وحملة

[23]- أحمد الشرباصي: قصة التفسير، دار القلم، القاهرة، د ط، 1962، ص30. جولد تسيهر: مذاهب التفسير الإسلامي، ترجمة عبد الحليم النجار، مكتبة الخانجي، مصر، 1955، ص70-75.

[24]- ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج. س. كولان وليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ط3، 1983، ج1، ص163-164، ص187. الشماخي: السير، ج2، ص390، محمود إسماعيل عبد الرزاق: الخوارج ببلاد المغرب، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1985، ص235- 236.

[25]- محمود اسماعيل عبد الرزاق: الخوارج في بلاد المغرب، ص232. اختلف المؤرخون حول حادثة حرق مكتبة المعصومة بين مشكك فيها ومثبت لها، ومن المشككين في الحادثة الدكتور موسى لقبال لأسباب وجيهة جدا، باعتبار أن رواية الحرق كانت من طرف واحد وهي الروايات الإباضية، ولا تتحدث الرويات السنية أو الشيعية عن الحدث لا من قريب أو بعيد، مما يرجح أن الرواية الإباضية كانت ذاتية مبنية على التعصب للمذهب والرغبة في تشويه سمعة خصومهم الفاطميين، ويسوق الدكتور موسى لقبال الأدلة التالية: 1- إن سياسة عبد

المعز بن باديس الصنهاجي(401-454ه/ 1016-1062م) على جربة سنة(431ه/ 1039م)، ثم تخريب قلعة درجين[26] سنة(440ه/ 1048م) بالجنوب التونسي[27]، ليليها دخول القبائل الهلالية من الشرق وما أحدثته من اضطراب في البنية الثقافية والإجتماعية والبشرية، وقد كان من نتائجها: اختفاء المذهب الإباضي من بلاد الجريد ونزوح عدد من الجماعات الإباضية الى مناطق ورجلان[28]،

الله الشيعي كانت تقوم على احترام الأثار الأدبية للأقاليم المفتوحة، فلا تذكر المصادر أن عبد الله الشيعي حين دخل رقادة والقيروان أوسلجماسة أمر بحرق مكتباتها رغم الإختلاف المذهبي ورغم المقاومة العسكرية التي تكون ربما أحد الأسباب التي تدفعه الى الحرق والتدمير، في حين أن دخوله تيهرت كان دون مقاومة عسكرية تذكر. هذا إن حصل الحرق فكان قبل وصول عبد الله الشيعي إلى تيهرت بسبب الفتن في أواخر عهدها 2- إن دخول عبد الله الشيعي إلى تيهرت كان في طريقه إلى سلجماسة من أجل تحرير عبيد الله المهدي، فلا يعقل أن يثقل نفسه بحمل الكتب وهو متأهب لحرب اليسع بن مدرار، وبالتالي فإن ما كانت تزخر به هذه المكتبة قد تلقفته أيدي كثيرة خاصة مع الفارين إلى ورجلان مع الإمام يعقوب بن أفلح قبل وصول أبو عبد الله الشيعي، وما بقي منها استحسنه وأمر بحفظه. في حين يرجح الدكتور محمود إسماعيل عبد الرزاق صحة الخبر بحجة الغياب التام للمؤلفات الصفرية ببلاد المغرب، فالمرجح أن عبد الله الشيعي أجهز عليها -أي الكتب الإباضية والصفرية كلها- حين دخل تيهرت ثم سلجماسة، وما بقي من المصنفات الإباضية كان بفعل توزعه على مناطق تواجد الإباضية خاصة في جبل نفوسة، وبفضل لجوء أفراد البيت الرستمي إلى ورجلان، الذين صحبوا معهم ما يمكن أن يحمل إلى ورجلان ينظر، موسى لقبال: من قضايا التاريخ الرستمي الكبرى، مكتبة المعصومة بتيهرت، هل أحرقت؟ أو نقلت عيونها إلى سدراتة في جوار ورجلان؟ مجلة الأصالة، العدد41، جانفي، الجزائر1977. محمود إسماعيل عبد الرزاق: الخوارج في بلاد المغرب الإسلامي، ص16.

[26]- درجين: نسبة الى قبيلة بربرية وهبية، وهي آخر البلاد الجريدية، مدينة قديمة غرب مدينة نفطة، وهي إحدى قواعد المذهب الإباضي ببلاد الجريد قبل القرن الخامس الهجري، فقد كانت مركز إداري جهوي للدولة الرستمية في القرن(3ه/ 9م)، وملجأ للفارين إليها من مناطق تشترك معها في الانتماء المذهبي بعد سقوط الدولة الرستمية خاصة من جبل نفوسة، وبقية مناطق الإباضية الأخرى بفعل المضايقات السياسية أو الأزمات الاقتصادية ينظر، محمد بن عبد المنعم الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984، ص236. الشماخي: السير، ج3، ص852. محمد ضيف الله: أضواء على موقع أثري بالجنوب التونسي، قلعة درجين ورجالها، مجلة الحياة الثقافية، العدد213، ماي2010، ص72. VirginiePrévost, L'aventure ibadite dans le Sud tunisien, op. cit., p. 199-200

[27]- ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص276. الشماخي: السير، ج2، ص588، 670. الدرجيني: طبقات المشائخ، ج2، ص407.

[28]- علاوة عمارة: الهجرة الهلالية وأثرها في تغيير البنية الاجتماعية لبلاد الزاب، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، العدد10، جانفي 2009، ص12-25،13.

ولم تسلم هذه الأخيرة من الدمار والتخريب الذي لحقها سنة(626ه/ 1229م) من طرف بني غانية في عصر الموحدين[29].

أدت هذه الاضطرابات العسكرية إلى تراجع المذهب الإباضي وتحول الكثير من الأتباع عنه إلى المذهب المالكي، وهي حالة كثيرا ما يشتكي منها شيوخ الإباضية من ضعف في الهمة وغياب النخوة المذهبية وهو مدعاة لتراجع التأليف في المذهب[30]، ومال من بقي على مذهبه بعد هذه السلسلة من الهزائم العسكرية المتتالية إلى الانعزال والانطواء والتفرق على أقاليم منعزلة ومغلقة ذات مناخ وتضاريس صعبة كورجلان بالجزائر وجبل نفوسة بليبيا وجزيرة جربة بتونس، فأدى ذلك الى انحسار تراثهم الثقافي في هذه الأقاليم، ودفع بهم هذا الاضطهاد الى ستر ما بقي من مؤلفاتهم وحجبها عن عيون المخالفين بغية المحافظة على روح المذهب.

وتأكيدا لما سبق أورد البرادي(ق8ه/ 14م) في كتابه الجواهر المنتقاة شهادة حية أثناء حديثه عن قيمة وأهـمية كتاب التفسير لأبي يعقوب يوسف الورجلاني وهو يتفقد جموع الاباضية وحال الطلبة، عن الحالة التي وصل إليها أتباع المذهب من قلة حماسهم للمذهب وابتعادهم عن تعاليمه، موجها لومه لهم، فكيف لهم أن يفرطوا في كتاب بمثل هذه الأهمية بسبب الغفلة وعدم اكتراثهم[31]، حتى إن هناك من الطلبة من لا يعلم بوجوده أصلا.

[29]- عبد الرحمن بن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط المتن والحواشي والفهارس خليل شحاذة ومراجعة سهيل زكار، ط1، دار الفكر للطباعة، بيروت، لبنان ،2000، ج7، ص98. الشماخي: كتاب السير، ج2، ص643.

[30]- يستثنى من هذه الحالة فترة ازدهار نشاط حلقة العزابة بورجلان ما بين القرنين الخامس والسادس الهجري.

[31]- البرادي: الجواهر المنتقاة في إتمام ما أخل به كتب الطبقات، طبعة حجرية، د ت، ص221.

2ـ3ـ الفتن الداخلية:

عرف تاريخ الإباضية ببلاد المغرب موجة من الفتن، كان لها وقعها على انقسامها إلى مجموعة من الاتجاهات، سماها أبو زكريا يحيى الورجلاني(471هـ/ 1078م): الافتراقات الإباضية، أحصاها في خمسة افتراقات، وصل الحد في التحامل على بعضها إلى درجة التكفير[32]، وقد كانت عاملا من عوامل سقوط الدولة الرستمية الإباضية وضعف المذهب وتراجعه ببلاد المغرب الإسلامي.

وكثيرا ما كانت الصراعات الفكرية بينها تتجاوز حدود الحجة والبرهان إلى العنف اللفظي والجسدي، ومن ذلك ما كان بين رجل نكاري وآخر وهبي تناظرا فأفضى النقاش الى عراك جسدي واستنجد كل منهما بعصبته، فغضبت كل جماعة لما أصاب صاحبهم، فكان منهم لقاء فاقتتلوا قتالا شديدا[33]، وكاد أن يكون ضحية هذا الصراع شيخ الاباضية في زمانه أبو نوح سعيد بن زنغيل(ق4هـ/ 10م) الذي كان بين الفرق الإباضية الوهبية والنكار.

وقبل ذلك نجا شيخه أبو القاسم يزيد بن مخلد(ت358هـ/ 968م) من محاولة اغتيال من طرف رجل نكاري أظهر الرجوع الى مذهب الوهبية، حتى يتمكن من الاقتراب من الشيخ لأجل اغتياله ولم ينجح[34] في ذلك.

فرغم المساعي الحثيثة من طرف شيوخ الإباضية لاسترجاع أمجاد الدعوة، إلا أنهم لم يوفقوا في ذلك، إذ يبدو أن التيه السياسي والاجتماعي بلغ مداه بفعل هذه الفتن ووصل حد اليأس التام، ما

32- أبو زكريا الورجلاني: سير الأئمة وأخبارهم، تحقيق إسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1982ص198-199. أبو عمرو عثمان بن خليفة السوفي: رسالة في فرق النكار الست وما زاغت به عن الحق، تحقيق عامر ونيس، نص مرقون، المكتبة البارونية، 2001، ص59، 62، 118.

33- الدرجيني: طبقات المشائخ، ج1، ص149، أبو زكريا: سير الأئمة، ص240-241، الشماخي: السير، ج2، ص538.

34- الشماخي: السير، ج2، ص524. أبو زكريا: سير الأئمة، ص206-207.

جعل الشيخ أبا نوح يدعي المرض بقنطرار لما رأى من شدة الاختلاف بين أصحابه وأهل دعوته فانهارت قواه، واعتزل أمرهم ولزم فراشه، وندم ندما شديدا على فراق ورجلان[35]، ويُجيب عائده أبا يعقوب يوسف بن نفاث(ت440ه/ 1049م) ما بي مرض وكيف لا أمرض بقلبي[36]. واضح من كلام أبي نوح ما يعتريه من حسرة على حال الفُرقة بين جموع الإباضية، وهو ما انعكس سلبا على الإنتاج الثقافي في هذه الفترة على الأقل.

وليس ببعيد أن يكون الصراع المذهبي واجهة هذه القتن، وهو المرادف للاندفاع في إصدار الأحكام والوقوف تحت رهينة الأحكام المسبقة من الأسباب الرئيسية في ضياع بعض المؤلفات من خلال التعتيم والتغييب المتعمد أو التحذير منها صراحة، وإن وصل خبر بعضها إلينا فمن باب الاقتضاب المخل بالتفاصيل، وقد أشرنا الى ذلك في فيما سبق من هذا البحث.

4ـالتفاسير الإباضية للقرآن الكريم:

4ـ1ـتفسير عبد الرحمن بن رستم الفارسي(□ير)(ت171ه/788م):

تذكر المصادر التاريخية الإباضية أن أول تفسير لكتاب الله كان لعبد الرحمن بن رستم(حكم ما بين: 160-171ه/ 777-788م) مؤسس دولة بني رستم بالمغرب الأوسط[38]، قال عنه البرادي

---

[35]- الشماخي: السير، ج1، ص145.

[36]- الشماخي: السير، ج2، ص539.

[37]- عبد الرحمن بن رستم بن بهرام بن كسرى، مؤسس الدولة الرستمية ببلاد المغرب(حكم ما بين: 160-171ه/ 777-788م) ولد بالعراق يعود أصله إلى الفرس سافر مع أبيه إلى الحجاز لأداء فريضة الحج وهناك توفي والده فتزوجت أمه من مغربي، أحضرهما إلى القيروان وفيها تعلم، وكان الحال أن صادف الدعوة الاباضية هناك، ثم سافر إلى المشرق ليتعلم عنها أكثر، ولما عاد إلى بلاد المغرب عين قاضيا على القيروان في دولة أبي الخطاب عبد الأعلى المعافري (140-145ه/ 757-762م)، وبعد سقوط دولة أبي الخطاب اتجه شرقا صوب تيهرت معلنا ميلاد دولة جديدة هي الدولة الرستمية، من أهم آثاره كتاب في التفسير، ينظر، معجم أعلام الإباضية- قسم المغرب- ج2، ص247-248.

[38]- لا تذكر بقية المصادر الأخرى خاصة المالكية منها هذا التفسير وتكتفي بالإشارة الى تفسير يحيى بن سلام رغم الأسبقية الزمنية لتفسير عبد الرحمن بن رستم حتى يحظى المالكية وحدهم بهذا الشرف، وحتى لا يسجل التاريخ أي فضل للإباضية، وتقزيم دورها في الحياة

(ق8ه/ 14م) "وكتاب الامام عبد الرحمن في تفسير القرآن يذكرونه ولم يُر"[39]، نتأسف لعدم وصول هذا التفسير إلينا، شأنه في ذلك شأن الكثير من الكتب الإباضية المصدرية التي كانت تملأ مكتبة المعصومة بتيهرت، وكما هو معروف بعد دخول أبي عبد الله الشيعي(ت298ه/ 911م) تيهرت سنة(296ه/ 909م) الذي اقتنى منها ما ينفعه من الكتب وأمر بإحراق البقية التي تتعلق بالمذهب الإباضي[40].

وفي حديث مع الدكتور مسعود مسعودي[41] على هامش الملتقى الوطني حول نظام العزابة نشأته ودوره الحضاري في بلاد المغرب المنعقد بجامعة غرداية يومي17-18 جمادى الثانية1441ه/ 11- 12 فيفري2020، سألته عن المخطوطات الإباضية ومن جملتها تفسير عبد الرحمن بن رستم، فقال لي إنه عاين بعض ورقاته، وأضاف إنه أبلغ الجهات الرسمية بذلك، ولكن للأسف للمرة الثانية لم يظهر لهذا التفسير وجود إلى يومنا هذا. رغم ما بذله القائمون على المكتبات الإباضية بميزاب وجبل نفوسة وجربة من إعادة تنظيمها وفهرستها.

وآخر ما ورد في المصادر الاباضية عن تفسير عبد الرحمن بن رستم كان زمن الحماديين بالقلعة، حين علم أبو عبد الله محمد اللواتي(ت528ه/ 1133م)[42] من أصحاب دعوته أن نسخة من هذا

الفكرية ببلاد المغرب، وهي صورة من صور التعصب المذهبي للأسف تتكرر في العديد من الأحداث عبر تاريخ المغرب الإسلامي ينظر: حسن حافظي علوي: مراجعات حول الصراع السني الإباضي ببلاد المغرب، ضمن كتاب الصراع المذهبي ببلاد المغرب، ص88-97. إبراهيم بحاز: مشوهات الإباضية (نظرة من الداخل والخارج)، مجلة الحياة، نشر جمعية التراث، غرداية، العدد05، ديسمبر2001، كله.

[39]- البرادي: رسالة المؤلفات، تحقيق عمار طالبي، ص10.

[40]- الدرجيني: طبقات المشائخ، ج1، ص 94-95..

[41]- أستاذ التعليم العالي بجامعة الحاج لخضر- باتنة1- من المهتمين بتاريخ الإباضية ببلاد المغرب الاسلامي، له في ذلك كتابات كثيرة على سبيل المثال: الإباضية بالمغرب الأوسط، جبل نفوسة في العصر الاسلامي الوسيط، أحيل على التقاعد مؤخرا.

[42]- هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن ناصر بن ميال بن يوسف وزير الإمام أفلخ بن عبد الوهاب (432-528ه/ 1040-1133م) فقيه إباضي اشتهر ببراعته في التفسير، عاش متنقلا بين مواطن الإباضية أريغ والزاب ووغلانة، تخرج عليه علماء منهم أبو الربيع سليمان بن عبد السلام الوسياني صاحب كتاب السير، ينظر، الدرجيني: طبقات المشائخ، ج2، ص470، معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب، ج2، ص273.

التفسير نودي عليها بالبيع في سوق القلعة، فسافر لأجلها مستترا في زي التجار بحثا عن كتاب عبد الرحمن بن رستم في التفسير "فجعل يسأل عن الكتاب في خفاء برفق وسياسة"[43]، ولكنه لم يلحق بها فقد أُخبر بأنها بيعت. وبالعودة الى تصريح الدكتور مزهودي مسعود فيحتمل أن ما بقي من هذا التفسير هو تلك الورقات لا غير هذا والله أعلم.

4ـ2ـ تفسير هود بن مُحكّم الهواري[44](ق3هـ/9م).

يعتبر هذا التفسير من أوائل التفاسير التي شملت القرآن كله ببلاد المغرب الاسلامي، قال عنه البرادي(ق8ه/ 14م) "ومن تآليف أصحابنا أهل المغرب التفسير الذي هو لهود بن محكم الهواري في سفرين كبيرين"[45] ووصفه الشماخي "بالعالم المتفنن الغائص وهو صاحب التفسير المعروف، وهو كتاب جليل في تفسير كتاب الله لم يتعرض فيه للنحو والإعراب، بل على طريقة المتقدمين"[46]، أي الاكتفاء بشرح الآيات بطريقة الآثار المروية عن الصحابة والتابعين، والتفسير في أصله هو اختصار لتفسير يحيى بن سلام[47] القيرواني(ت200ه/ 815م).

إنّ السؤال الذي يطرح هنا كيف للشيخ هود بن مُحكّم أن يقدِم على اختصار تفسير يحيى بن سلام رغم الاختلاف المذهبي، وكان الأولى به أن يختصر تفسير الإمام عبد الرحمن بن رستم أو

[43]- الدرجيني: المصدر السابق، ج2، ص471.

[44]- من علماء الطبقة السادسة (250-300ه)، لا يعرف على التحقيق تاريخ مولده ووفاته، معلوماتنا عنه قليلة جدا فلا نكاد نعرف منها إلا قبيلته واسم أبيه الذي كان قاضيا للإمام الرستمي أفلح بن عبد الوهاب (ت258ه/ 871م)، أما عن نشأته العلمية وأساتذته وتلاميذه لم تذكر المصادر التي بين أيدينا شيئا عنها، اشتهر بمؤلفه "تفسير كتاب الله العزيز" وحسب المعلومات القليلة التي وصلتنا فقد كان محط أنظار المتعلمين قال عنه الشماخي "عالم متفنّن". ينظر، الدرجيني: المصدر نفسه، ج2، ص345، 398. الشماخي: كتاب السير، ج2، ص566. معجم أعلام الإباضية- قسم المغرب- ج2ـ، 443.

[45]- البرادي: الجواهر المنتقاة، ص219.

[46]- الشماخي: كتاب السير، ج2، ص566.

[47]- ظلت هذه الحقيقة غائبة لأكثر من عشرة قرون من الزمن حتى عند الاباضية أنفسهم وكان الباحث بالحاج بن سعيد شريفي محقق تفسير هود بن محكم أول من اكتشف هذه العلاقة بين التفسيرين، ينظر، مقدمة التحقيق، ص24.

تفسير ابنه عبد الوهاب لاشتراكهما في المذهب، لا نملك إجابة وافية على ذلك لفقدان كل منهما، إلا أنه يمكن أن نرجح بعض الحلول للمسألة وإن كنا لا نملك أي دليل على ذلك. فيحتمل أولا أن تفسير عبد الرحمن لم يكن كاملا فلم يشمل جميع سور القرآن أو أنه كان مختصرا، أو أنه لم يطلع عليه أصلا.

إنّ الحل الأخير ضعيف الاحتمال فليس ببعيد حسب محقق الكتاب الباحث بالحاج بن سعيد شريفي أن يكون هود بن محكم الهوّاري قد اطلع على تفسير عبد الرحمن بن رستم[48] واستفاد منه ومما نقح به تفسير يحي بن سلام حتى ينسجم مع العقيدة الإباضية، فصلته بهذا التفسير قد تكون من رحلته العلمية إلى تيهرت أو جبل نفوسة باعتبارهما من أهم المراكز الثقافية الإباضية[49] للاستزادة من العلم والتخصص فيه.

أما شأنه مع تفسير يحيى بن سلام، فمن المرجح أن هود بن محكم هاجر إلى القيروان للاستزادة من العلم واكتساب فنون اللغة العربية وإتقانها على عادة علماء الاباضية[50] وهي إذ ذاك أهم عاصمة علمية ثقافية ببلاد المغرب الإسلامي، باعتبار بيئة نشأته الأولى -جبل الأوراس- الأمازيغية حيث كان انتشار اللغة العربية فيها محدودا جدا خاصة في القرون الأولى للهجرة.

---

[48]- هود بن محكم: تفسير كتاب الله العزيز، ج1، ص85.

[49]- أورد كل من الدرجيني والشماخي في ترجمتها لأبي العباس أحمد محمد بن بكر(504هـ/ 1110م) في رحلته لطلب العلم من ورجلان إلى جبل نفوسة قال: "وكان بجبل نفوسة ديوان اشتمل على تآليف كثيرة فلازمت الدرس أربعة أشهر لا أنام إلا في ما بين آذان الصبح إلى صلاة الفجر، فتأملت ما فيه من تأليف أهل المشرق فإذا هي تقرب من ثلاث وثلاثين ألف جزء كلها لأهل المذهب قال عنها الشيخ إبراهيم اطفيش(ت1385/ 1965م) "أنها أغزر مادة من الأندلس بدون مبالغة. ينظر، الدرجيني: طبقات المشائخ، ج2، ص445. الشماخي: السير، ج2، ص617-618. أبو زكريا يحي الجناوني: كتاب الوضع، تحقيق إبراهيم اطفيش، مطبعة فجالة الجديدة، ط1، ب ت، مقدمة التحقيق، ص8-9.

[50]- أفرد لواب بن سلام الإباضي(ت بعد273هـ/ 887م) بابا في كتابه "بدء الاسلام وشرائع" سماه "تسمية فقهاء أصحابنا وعلمائهم ومشايخهم وذراريهم بمدينة القيروان وحوالها، تحدث فيه عن أحوالهم العلمية والاقتصادية، ينظر، ابن سلّام الإباضي(بعد283هـ/ 896م): بدء الإسلام وشرائع الدين، تحقيق ف. شفارتز وسالم بن يعقوب، النشرات الإسلامية لجمعية المستشرقين الألمانية، 1986، ص 132- 135.

والملاحظة الجديرة بالاهتمام كذلك هي التساؤل كيف لتفسير بهذه القيمة أن يظل أكثر من أحد عشر قرنا منسيا؟[51] لا يشار إليه ولا تقام عليه شروحات وحواش[52] أو اختصارات، وهي مدة زمنية طويلة جدًا، وقد عرف علماء الإباضية بذلك -خاصة بعد مرحلة النضج- الذروة من حيث الغزارة في الانتاج الفكري[53] في تبلور واستقرار معظم المواقف الدينية العقدية والفقهية الإباضية، ولا نجد ذكرا لتفسير هود بن محكم في قائمة الشروحات والاختصارات.

هذا ويمكن تصنيف تفسير الشيخ هود بن محكم الهواري ضمن اتجاه التفسير العقدي[54] حسب الباحث حسن مسعود الطّوير في كتابه "جهود علماء الغرب الإسلامي واتجاهاتهم في دراسة الإعجاز القرآني"، بعد أن عدد اتجاهات التفسير ببلاد المغرب في أربعة اتجاهات رئيسة هي:

[51]- هود بن محكم: تفسير كتاب الله العزيز، ج1، ص5. من مقدمة التحقيق.

[52]- وضع الشيخ أبي ستة محمد بن عمر المعروف بالمحشي(ت1088ه/ 1677م)حاشية على تفسير هود بن محكم وقد وصل في التعليق إلى الآية 238 من سورة البقرة في قوله تعالى ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا للهِّ قَانِتِينَ﴾، وللأسف حتى هذه الحاشية مفقودة، ينظر: مصطفى ين دريسو: الفكر العقدي عند الإباضية حتى نهاية القرن الثالث هجري، ص517. هود بن محكم: المصدر السابق، ص21 من مقدمة التحقيق.

[53]- تبدأ هذه المرحلة من منتصف القرن الخامس الى القرن السابع هجري، تتميز هذه المرحلة بتبلور واستقرار معظم المواقف الدينية العقدية والفقهية الإباضية توافق هذه المرحلة بروز أهم المؤلفات الكلامية ككتابات أبي عمار عبد الكافي(570م/ 1174م) وأبي يعقوب الورجلاني(570م/ 1174م)، وهي مرحلة النضج والذروة من حيث نوعية الإنتاج الفكري وجودته. يمثل الإنتاج الفكري لعلماء هذه المرحلة المرجع الأساسي لجميع الأعمال التي لحقتها، وفلا نكاد نجد بعدها إلا ترديدا لمقالاتهم عن طريق الشروح والحواشي أو الاختصارات. ينظر، عمرو خليفة النامي: دراسات عن الإباضية، ترجمة مخائيل خوري، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2002، ص225، 143. فرحات الجعبيري: البعد الحضاري للعقيدة عند الإباضية، ج2، ص766. سناء الباروني: آفاق دراسة المخطوط بين الضيق والسعة- المخطوط الإباضي نموذجا في المكتبات الخاصة في معاقل الإباضية بالجزائر وتونس وليبيا، ص10.

[54]- حسن مسعود الطّوير: المرجع السابق، ص51-52.

التفسير العقدي، التفسير الفقهي واللغوي والبياني، رغم أن تفسيره هو اختصار لتفسير يحيى بن سلام البصري القيرواني(200ه/ 815م)[55] الذي لا يصنف في هذا الاتجاه.

فما الباعث إذن على هذا الاتجاه في التفسير عند الشيخ هود بن محكم الهواري؟ قدم الباحث حسن مسعود الطّوير إجابة على هذا السؤال في ثنايا الحديث عن أهمية التفسير العقدي حين يعود هود بن مُحكّم الى آيات القرآن الكريم ليستدل بها على أراء الإباضية في المسائل العقدية[56] وفي الرد على الملل المخالفة للإسلام ودفع شبهة التعارض بين آياته.

والنظر إلى المسألة من زاوية تاريخية يؤكد على أسباب هذا الاتجاه في التفسير هو حدة الصراع المذهبي بين مختلف الفرق والمذاهب المشكلة للخريطة المذهبية ببلاد المغرب، خاصة وأن الإباضية عدت عند بعضها من الفرق المبتدعة.

فقد ذكرت كتب التراجم أن سحنون بن سعيد(240ه/ 854م)[57] إمام المالكية في زمانه بالقيروان لما ولي القضاء للأغالبة بين(234-240ه/ 848-858م) عزل أصحاب الفرق عن الناس، وفرق حلقهم التي كانت تقام بالجامع تتذاكر أفكارها وطردهم منه وكان من جملة هؤلاء

[55]- يعتبر تفسير يحيى بن سلام أقدم تفسير بالمأثور وصل إلينا، ثم انتقل بالرواية الى الأندلس واهتم به أبو عبد الله محمد بن زمنين وجعله مختصرا، وقام كذلك باختصاره من علماء الإباضية هود بن محكم الهواري الإباضي(ق3ه/ 9م) على أصول المذهب الإباضي، ينظر: هود بن محكم الهواري: تفسير كتاب الله العزيز، ج1، ص24، 34.

[56]- حسن مسعود الطّوير: المرجع السابق، ص51.

[57]-عبد السلام بن سعيد الملقب بسُحنون: انتهت اليه الرياسة في العلم ببلاد الغرب، شامي الأصل قيرواني المولد اشتهر بشجاعته في الحق، تولى القضاء للأغالبة سنة(234ه/ 884م)، تجمع المصادر على دوره في تثبيت وغلبة المذهب المالكي على المذاهب الأخرى، له ترجمات وافية وطويلة في كتب التراجم المالكية، من أهم آثاره كتاب "المدونة" وهو في الفقه المالكي. ينظر، القاضي عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك في لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998، ج1، ص339-362. المالكي: رياض النفوس، 345-375.

الإباضية[58]، وتواصل ذلك إلى نهاية العهد الأغلبي، وكان هذا الموقف قدوة لمن جاء بعده من المالكية.

ومن صور ذلك الصراع ما كان من رسالة الإمام أبي اليقظان محمد بن أفلح (ت281ه/ 894م) [59] في مسألة خلق القرآن كرد فعل على القاضي سحنون بن سعيد المالكي بالقيروان الذي كان ينكر على من يقول بخلق القرآن[60]، فينكر على المالكية ذلك ويعتبرهم ضالين يلبسون على العامة الحق ويحجبونه عنهم[61]، ثم كانت الرسالة مرجع جميع علماء الكلام الإباضية بالمغرب الإسلامي في التأصيل للمسألة والرد على المخالفين.

حظي تفسير هود بن مُحكّم بالعديد من الدراسات الأكاديمية أهمها دراسة تحقيقية للباحث بالحاج بن سعيد شريفي للكتاب كله وخرجه في أربعة أجزاء، طبع الكتاب طبعة دار الغرب الإسلامي، وهو تحقيق متقن نال السبق في إخراج الكتاب ونشره بين الناس، ويكفيه أنه أول من اكتشف أن تفسير هود بن محكم الهواري هو اختصار لتفسير يحيى بن سلام، وقد كان ذلك مجهولا لعدة قرون حتى عند رجال الإباضية، إذ لا يمكن لمشتغل على التفسير الإباضي أن يهمله، وتكاد كل الدراسات الأكاديمية المعاصرة تعتبره مرجعها الأول. ودراسة أخرى قيمة من إنجاز الباحثة زغيشي سعاد بعنوان: منهج هود بن محكّم الهواري في التفسير، أطروحة دكتوراه من جامعة باتنة، قسم أصول الدين في الموسم الجامعي (2006/ 2007)، بالإضافة إلى العديد من المقالات العلمية في المجلات الوطنية تنحصر جلها بين الدراسة اللغوية أو الشرعية.

أمّا في غير الجزائر، فقد حظي هذا التفسير كذلك بالعديد من الدراسات، نذكر منها: دراسة أكاديمية لنيل شهادة الدكتوراه معنونه بـ"هود بن محكّم الهـوّاري ومنهجه في التفسير" من طرف

---

[58]- القاضي عياض: المصدر السابق،ج1، ص347-348.

[59]- أبو اليقظان محمد بن أفلح (حكم ما بين: 261-281ه/ 874-894م) الإمام الخامس للدولة الرستمية.

[60]- المبروك المنصوري، الفكر العقدي وأسس سيادة الإسلام، الدار المتوسطية للنشر، تونس، ط1، 2011ص148.

[61]- ينظر نص الرسالة كاملة في كتاب البرادي: الجواهر المنتقاة، ص183.

الباحثة: عائشة علي محمد عبد الله، سنة (2001) من جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية بالسودان.

دراسة أبو اليزيد محمد حمامة عنوانها "الدخيل في تفسير الشيخ هود بن محكم الهواري المسمى تفسير كتاب الله العزيز-عرض ودراسة وتعليق- رسالة دكتوراه من جامعة الأزهر بالجمهورية العربية المصرية، سنة (2010).

رسالة ماجيستر من إعداد سامي محمود محمد أحمد بعنوان: منهج الشيخ هود بن محكم الهواري في تفسير كتاب الله العزيز، سنة المناقشة (2002) بالجامعة الإسلامية بغزة، كلية أصول الدين.

رسالة ماجستير من إعداد عابد منصور عابد بعنوان: "المسائل العقدية في تفسير كتاب الله العزيز للشيخ هود بن محكم الهواري الإباضي"-دراسة ونقد- سنة المناقشة (2009) بجامعة الازهر –مصر-. ورسالة ماجيستر أخرى من نفس الجامعة عنوانها: هود بن محكم الهواري ومنهجه في التفسير" من إعداد عبد السلام بركات الذهبي، سنة (2001).

منهجه في التفسير:

استهل هود بن مُحكّم مقدمة تفسيره بالحديث عن معلومات عامة حول كتاب الله، كأول آية نزلت من القرآن وآخر ما نزل منه، وعن أحرف القرآن وجمعه وتدوينه وعن المكي والمدني، وعن التحذير من الإقدام على تفسير آياته بغير علم، ثم الشروط العلمية الواجب توفرها في المقدم على التفسير، قال: "وإنه لا يعرف تفسير القرآن إلامن عرف اثنتي عشرة خصلة: المكي والمدني، والناسخ والمنسوخ، والتقديم والتأخير، والمقطوع والموصول، والخاص والعام، والإضمار والعربية"[62]، وعن أشهر الفسرين من الصحابة والتابعين ثم يشرع مباشرة في التفسير ابتداء من

[62]- هود بن محكم: تفسير كتاب الله العزيز: ج1، ص71.

سورة الفـاتحة حسب ترتيب السور تنازليا الى سورة الناس. ويمكن أن نحصر ما تميز به تفسيره فيما يلي:

- يحذف كل الروايات التّي لا تصح عنده ولا توافق مذهبه[63] تماشيا مع مذهبه الإباضي، ويروي بدلًا عنها روايات شيوخ الإباضية، كرويات الامام جابر بن زيد(ت93ه/ 711م)، وأبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة (ت145ه/ 762م)، خاصة ما تعلق بالمسائل الفقه والعقدية، فيعيد النظر في تفسير يحيى بن سلام لبعض آيات القرآن ويفسرها بما يتناسب مع معتقدات وآراء مذهبه الإباضي[64]، وإن كان هذا الحكم ليس عاما فقد ترد بعض الآيات تستدعي وفق منهجه هذا الوقوف عندها كمسألة الامامة[65] إلا أنه لم يقف عندها ويبدي موقف الإباضية منها.

---

[63]- هود بن محكم: المصدر السابق، مقدمة التحقيق، ص37. مصطفى بن دريسو: الفكر العقدي عند الإباضية حتى نهاية القرن الثالث الهجري، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، عمان، 2013، ص171. زغيشي سعاد: منهج هود بن محكم الهواري في التفسير، رسالة دكتوراه، جامعة باتنة1، قسم أصول الدين، 2006/ 2007، ص58.

[64]- والأمثلة على ذلك كثيرة في تفسيره، أنظر مثلا في مسألة خلق القرآن، ج4 من التفسير، ص107. ومسألة الإيمان (قول وعمل) والنفاق،ج2، ص385، 413-414. وإن كان هود بن محكم لم يتعرض في تفسيره إلى بعض القضايا العقدية التي تميز الإباضية عن غيرها كمسألة الرؤية ومسألة الصفات في حين فصل في مسائل أخرى كالمسائل السابقة الذكر، وهي ملاحظ جديرة بالاهتمام أشار إليها الباحث مصطفى بن دريسو في كتابه "الفكر العقدي عند الاباضية"، وتعليل ذلك في اعتقادي أن المسائل العقدية لم تكن قوالب جاهزة يمكن الرجوع إليها متى احتيج الى ذلك، بل على العكس من ذلك إذ نجد علماء الإباضية ما فتئوا يغيرون من مواضيع البحث وأساليب الرد حسب الحاجة، تأقلما مع ما يستجد على الساحة الفكرية والسياسية وما يطغى عليها من محاور الإهتمام، فيكون لكل مقام مقال، حسب الزمان والمكان فقد كان القرن الثالث الهجري لمقالة خلق القرآن والرابع للصفات والخامس لمقالة الرؤية وهكذا، وتعبر مراحل تطور الفكر العقدي الإباضي عن هذه الخاصية. ينظر، مصطفى بن دريسو: الفكر العقدي عند الاباضية، ص175.

[65]- مثال ذلك الآية﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللهَّ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [الآية 59سورة النساء] لم يشر المفسر إلى موقف الإباضية من الامامة، ينظر، إبراهيم حركات: مدخل الى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتى القرن9ه/ 15م، ج2، ص38-39.

– أحياناً يذكر أغلب سلسلة الإسناد وأحيانا أخرى يختصرها ولا يذكر من السلسلة إلا الصحابي راوي الحديث، أو التابعي وفي مواضع أخرى لا يذكر من الاسناد سوى كلمة ذكروا، وفي غالب الأحيان[66] يختصر سلسلة الإسناد ويحذفها ويكتفي بذكر الصحابي راوي الحديث فقط.

–لم يتعرض في تفسيره للشروحات اللغوية وما يتعلق بها من النحو والإعراب[67] والبلاغة والصرف، وهو ما يزيد في فهم آيات القرآن، فلربما لم يرد هود بن محكم إثقال المتن بهذه الشروحات، واكتفى بشروحات لغوية موجزة بسيطة، وهو نفس الغرض الذي لأجله كان يحذف سلسلة الاسناد، خاصة وأن الكتاب موجه لطلبة العلم ولعامة الناس في فترة لا يزال فيه اللسان البربري سائدا في بيئته جبل الأوراس.

– يذكر وجوه القراءة أحيانا ومع أسباب النزول ويتعرض الى وجوه التفسير عند من سبقه كابن العباس وعكرمة والحسن البصري والكلبي ومجاهد ويقابل بينها مع الترجيح.

[66]– هود بن محكم: المصدر السابق، مقدمة التحقيق، ص37. سامي محمود محمد: منهج الشيخ هود بن محكم الهواري في تفسير كتاب الله العزيز، رسالة ماجيستر، الجامعة الإسلامية بغزة، كلية أصول الدين، 2002، ص83.

[67]– الشماخي: كتاب السير، ج2، ص566.

3.4- تفسير أبي يعقوب يوسف بن ابراهيم الورجلاني[68](ت570م/1174م):

قال البرادي(ق8هـ/ 14م) في شأن تفسير أبي يعقوب الورجلاني: "كتاب عجيب رأيت منه في بلاد أريغ سفرا كبيرا لم أر ولا رأيت قط سفرا أضخم منه ولا أكبر منه، وحزرت أن يتجاوز سبعمائة ورقة أو أقل أو أكثر فيه تفسير الفاتحة والبقرة وآل عمران، وحذرت أنه فسر القرآن في ثمانية أسفار مثله"[69].

أخر أخبار هذا التفسير في المصادر الإباضية الوسيطة ما جاء في كتاب البرادي "الجواهر المنتقاة" إذا استثنينا ما جاء في كتاب السير للشماخي(928ه/ 1522م)[70]باعتبار أن هذا الأخير نقل أخبار أبي يعقوب الورجلاني عن كتاب طبقات المشائخ للدرجيني(670ه/ 1271م)[71] ولم يذكر أنه عاين هذا التفسير أو أطلع عليه، وهو ما يرجح أن ما بقي من أجزاء هذا التفسير قد ضاع في هذه الفترة.

---

[68]-أبو يعقوب يوسف بن ابراهيم الورجلاني ط12(550-600/ 1155-1203م): ولد بورجلان وإليها نسب من أبرز علماء الإباضية بالمغرب الإسلامي عرف بكثرة رحلاته وكثافة نشاطه العلمي، ومن ذلك رحلته إلى الأندلس وبلاد السودان وبلاد الحجاز، من أهم مؤلفاته كتاب "الدليل لأهل العقول لباغي السبيل بنور الدليل لتحقيق الحق بالبرهان والصدق" في ثلاثة أجزاء المعروف اختصارا بكتاب "الدليل والبرهان"، وله كتاب آخر "كتاب العدل والإنصاف في أصول الفقه والاختلاف" وهو كتاب في أصول الفقه، إضافة الى ذلك عمد الى جمع وترتيب مسند الربيع بن حبيب(ت170ه/ 786م) المرجع الأول للإباضية في الحديث على أبواب، وزاد فيه روايات جديدة وأطلق عليه اسم الجامع الصحيح وهو المتداول حاليا، ونظرا لقوة الطرح عنده وعند أبي عمار عبد الكافي لا يخلو مصدر من مصادر التراث الذي جاء بعد القرن السادس من الإحالة على كتاب "الموجز" أو "كتاب الدليل والبرهان". ينظر: تاديوش ليفتسكي، دراسات شمال افريقيا، ترجمة أحمد بومزقو، منشورات مؤسسة تاوالت الثقافية، ج1، 2005، ج1، ص23. عمار طالبي: آراء الخوارج الكلامية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، الرغاية، 2013،ج1، ص216. محمد بابا عمي وآخرون: معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب الإسلامي، ص481-483.

[69]- البرادي: الجواهر المنتقاة، ص220.

[70]- الشماخي: المصدر نفسه، ج2، ص641-644.

[71]- الدرجيني: طبقات المشائخ، ج2، ص491-495.

وقد أشار الشيخ إبراهيم اطفيش الجزائري الى ضياع هذا التفسير في "الحروب الداخلية التي منيت بها الأمة الإسلامية"[72]، ولعله يشير بذلك إلى التدمير الذي لحق ورجلان من طرف بني غانية في عصر الموحدين بعد وفاة الشيخ أبي يعقوب الورجلاني، أما ما تبقى من أجزاء التفسير الذي حدثنا عنه البرادي(سفر واحد من مجموع ثمانية أسفار) وعاينه بنفسه فيحتمل أنه ضاع بسبب الغفلة والاهمال[73] ناهيك عن عوامل الطبيعة.

وإن كنا لا نعلم شيئا عن محتوى تفسيره، بسبب ضياع كتابه في التفسير إلا أن الكثير من اجتهاداته في التفسير والتأويل قد وصلت إلينا من خلال كتبه الآخرى في علم أصول الدين وأصول الفقه وعلم الكلام، ومنها كتاب "الدليل لأهل العقول لباغي السبيل بنور الدليل لتحقيق الحق بالبرهان والصدق" في ثلاثة أجزاء المعروف اختصارا بكتاب "الدليل والبرهان"، يتضمن الكتاب أهم المسائل العقدية وموقف الإباضية منها كمسألة الصفات، وخلق القرآن، ورؤية الله في الآخرة، ومسألة الولاية والبراءة والوقوف والشفاعة ومسألة الجبر والاختيار، كما يناقش فيه مختلف الفرق الأخرى كالمعتزلة والأشاعرة بأسلوب حواري يمزج في اثباتاته بين النص الشرعي والحجج العقلية.

وكتاب "العدل والإنصاف في أصول الفقه والاختلاف" وهو كتاب في أصول الفقه كما يتضح من العنوان إلا أنه يحتوي على بعض الآراء العقدية التي تتطلب الاستشهاد بالقرآن. ويمكن كذلك معرفة بعض اجتهاداته في فهم آيات القرآن وتفسيره من خلال عمله على ترتيب مسند الربيع بن

---

[72]- إبراهيم اطفيش: الدعاية إلى سبيل المؤمنين، المطبعة السلفية، د ط، 1923، ص27. مصطفى باجو: أبو يعقوب الورجلاني أصوليا، وزارة التراث والثقافة، سلطنة عمان، ط2، 2007، ص150.

[73]- البرادي: الجواهر المنتقاة، ص221. وتذكر عدة مراجع نقلا عن الشيخ أبو اليقظان والشيخ عبد الرحمن الجيلالي أن هذا الجزء موجود بإحدى خزائن روما، أما في رواية المستشرق يوسف شاخت المهتم بالتراث الإباضي فهو موجود بإحدى مكتبات ألمانيا، إلا أن الجهود المبذولة للعثور عليه لم تفضي إلى شيء. ينظر: مصطفى باجو: المرجع السابق، ص150. دليلة خبزي: أبو يعقوب الورجلاني مفسرا، مجلة البحوث العلمية والدراسات الاسلامية، ع11، ص517.

حبيب(ت170ه/ 786م) خاصة في جزئه الثالث الذي خصص فيه جل محتويات هذا الكتاب لمسائل العقيدة[74].

منهجه في التفسير:

يحدثنا أبو يعقوب الورجلاني قبل الخوض في تفسير كتاب الله على الصفات الواجب توفرها في المجتهد في كتابه الدليل والبرهان:

- حفظ كتاب الله وتلاوته.

- أن يكون ملما بقواعد اللغة من نحو وصرف وإعراب.

- أن يكون على دراية بوجوه القراءات وأنواعها.

- أن يكون على دراية مسبقة باجتهادات المفسرين الذين سبقوه خاصة منهم من شهدت لهم الأمة بذلك.

- أن يكون فقيها عارفا بأحكام الشريعة وعلى دراية بالأحكام العامة والخاصة والشاذ منها.

- أن يحصل مقاليد أقفال الكتاب[75] ومن لم يحصلها فهو بعيد عن فهم معاني القرآن.

74- مصطفى بن دريسو: الفكر العقدي عند الإباضية حتى نهاية القرن الثالث الهجري، ص186، 194. محمد ناصر بوحجام: التواصل الحضاري بين عمان والجزائر، ص57-58.

75- أبو يعقوب يوسف الورجلاني: الدليل والبرهان،ج2، ص81. يبين المقصود منها من خلال تشبه القرآن بالشجرة جذورها وهي الأصول: المكي والمدني، الناسخ والمنسوخ، المحكم والمتشابه، الظاهر والباطن، العام والخاص. أما الأعضاء فهي: المجمل والمفسر، المطلق والمقيد، المقطوع والموصول، المقدم والمؤخر، الكناية والصريح، وأما الأغصان فهي: الحدود ولحن الخطاب، وفحوى الخطاب، ودليل الخطاب ومعنى الخطاب والأسماء الذاتية لله وأسماء الأبدان وأسماء الأفعال. وأما ثمار هذه الشجرة فهي: الأمر والنهي، الخبر والاستخبار، الوعد والوعيد، المواعظ والأمثال، والإعذار والإنذار. ينظر، أبو يعقوب الورجلاني: الدليل والبرهان، ج2، ص81-82. وفصل هذه الأحكام على أبواب في كتابه "العدل والإنصاف" وعلى سبيل المثال باب الظاهر والباطن والمحكم والمتشابه، باب الناسخ والمنسوخ. ينظر:

قال أبو يعقوب في شأن هذه الصفات: "فمن لم يكن له هذه الصفات فلا يوثق بشيء من علمه، ولا بعلم من تعلم منه، وإنما مغرور أو مقلد"[76].

أما عن أسلوبه في التفسير فقد أورد البرادي بصورة مختصرة دقيقة عن ما عاينه بنفسه واطلع عليه من تفسير سورة الفاتحة والبقرة وآل عمران قال البرادي "فلم أر ولا رأيت أبلغ منه ولا أشفى للصدور في لغة أو إعراب أو حكم مبين أو قراءة ظاهرة أو شاذة، أو ناسخ أو منسوخ أو في جميع العلوم"[77]، فأول ما يقوم به يذكر الآية ثم إعرابها ويتوسع في ذلك الى البلاغة والصرف، ثم ما يسند الآية من الأحاديث النبوية مرجعه في ذلك مسند الربيع بن حبيب[78] (ت170ه/ 786م) ثم يذكر اجتهادات المخالفين فيرد عليهم بما يوافق عقائد الاباضية[79].

مما سبق، يمكن القول أن اتجاه التفسير عند أبي يعقوب الورجلاني اتجاه عقدي يتناسب مع ميولاته الفكرية باعتباره أحد كبار متكلمي الإباضية ببلاد المغرب الاسلامي في العصر الوسيط.

خاتمة الدراسة:

لم يكن للفكر الإباضي الإطار السياسي المناسب للبروز والنضج في العصر الوسيط، إذ أن خفوت الاجتهاد الإباضي في مجال التفسير يعود لغياب العوامل المحفزة، خاصة السياسية منها التي كانت في صالح التيارات المخالفة بعد زوال دولتهم، وهوما أدى الى انحسار أتباع المذهب في مناطق محدودة ببلاد المغرب.

أبو يعقوب الورجلاني: العدل والإنصاف في معرفة أصول الفقه والاختلاف، دار نوبار، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، 1984.

[76]– أبو يعقوب الورجلاني: الدليل والبرهان، ج2، ص81.

[77]– البرادي: الجواهر المنتقاة، ص220.

[78]– مرجع الحديث النبوي عند الإباضية.

[79]– البرادي: الجواهر المنتقاة، ص220-221.

بقدر ما نعكس تهيب علماء الإباضية من التفسير سلبا على انتاجهم الفكري بقدر ما كان انعكاسها ايجابا على الدراسات الآخرى كالدراسات العقدية والكلامية، وكأنهم يعوضون تهيبهم من التفسير بالتأليف في العلوم القريبة منه. فمن مجموع ما ألف (46) مؤلفا في مختلف فروع الدين نجد (03) بما يوافق (52،06٪) تأليفا صريحا في التفسير، وهي نسبة ضعيفة جدا بالمقارنة مع بقية التآليف الأخرى، وإذا قارنا هذه النسبة بنسبة المؤلفات في أصول الدين وعلم الكلام نجد (16) بما يوافق (78أ34٪) تأليفا صريحا في علم الكلام مثلا.

رغم أن تفسير هود بن محكم هو اختصار لتفسير يحيى بن سلام على أصول المذهب الإباضي، تظهر قيمته العلمية في حفظ تفسير ابن سلام كاملا باعتبار أن تفسير ابن سلام لا تزال بعض ورقاته ناقصة، أما عن تفسير عبد الرحمن بن رستم وتفسير أبي يعقوب الورجلاني فلو كتب لهما البقاء، فالأكيد أنه كان سيكون للتفاسير الإباضية شأن آخر غير الذي نعرفه وتلك مشيئة الله والله الموفق.

مال التفسير الإباضي للقرآن الكريم الى التفسير العقدي تأقلما مع الاوضاع الفكرية التي آلت اليها بلاد المغرب خاصة بعد سقوط الدولة الرستمية واشتداد حدة الصراع المذهبي.

تدارك علماء الإباضية المعاصرين هذا النقص العددي في كتب التفسير المتخصصة فكان كتابا"هميان الزاد إلى دار المعاد"و"تيسير التفسير "للشيخ امحمد بن يوسف اطفيش وتفسير آخر للشيخ إبراهيم بيوض بعنوان "في رحاب القرآن".

1. **المصادر والمراجع:**

2. إبراهيم اطفيش: الدعاية الى سبيل المؤمنين، المطبعة السلفية، د ط، 1923.

3. إبراهيم بحاز: مشوهات الإباضية (نظرة من الداخل والخارج)، مجلة الحياة، نشر جمعية التراث، غرداية، العدد05، ديسمبر2001.

4. إبراهيم حركات: مدخل الى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتى القرن9ه/ 15م، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط1، 2000.

5. ابن سلّام الإباضي(بعد283ه/ 896م): بدء الإسلام وشرائع الدين، تحقيق ف. شفارتز وسالم بن يعقوب، النشرات الإسلامية لجمعية المستشرقين الألمانية، 1986.

6. ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج. س. كولان و ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ط3، 1983.

7. أبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي: التحف المخزونة في إجماع الأصول الشرعية، تحقيق حمزة بومعقل، دار الخلدونية، القبة، ط1، 2017.

8. أبو زكريا الورجلاني: سير الأئمة وأخبارهم، تحقيق إسماعيل العربي، دار الغرب، الإسلامي، ط،2، 1982.

9. أبو زكريا يحي الجناوني: كتاب الوضع، تحقيق إبراهيم اطفيش، مطبعة فجالة الجديدة، ط1، ب ت.

10. أبو عمار عبد الكافي: الموجز، تحقيق عمار طالبي، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية، الجزائر، 2013.

11. الخشني: طبقات علماء افريقية، تحقيق محمد زنهم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 1994.

12. الداعي عماد الدين إدريس: تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب، تحقيق محمد يعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1985.

13. الدرجيني: طبقات المشائخ، تحقيق إبراهيم طلاي، مطبعة البعث، قسنطينة، 1974.

14. زغيشي سعاد: منهج هود بن محكم الهواري في التفسير، رسالة دكتوراه، جامعة باتنة1، قسم أصول الدين، 2006/ 2007.

15. سامي محمود محمد أحمد: منهج الشيخ هود بن محكم الهواري في تفسير كتاب الله العزيز، رسالة ماجيستر، الجامعة الإسلامية بغزة، كلية أصول الدين، 2002.

16. الشماخي: كتاب السير، تحقيق محمد حسن، دار المدار، بيروت، ط1، 2009.

17. عبد الرحمن ابن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط المتن والحواشي والفهارس خليل شحاذة ومراجعة سهيل زكار، ط 1، دار الفكر للطباعة، بيروت، 2000.

18. عبد العزيز سالم: المغرب الكبير -العصر الإسلامي-، دار النهضة، بيروت، 1981.

19. عبد المجيد بن حمدة: المدارس الكلامية بإفريقية الى ظهور الأشعرية، مطبعة دار العرب، تونس، ط1، 1986.

20. علاوة عمارة: الهجرة الهلالية وأثرها في تغيير البنية الاجتماعية لبلاد الزاب، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، العدد10، جانفي 2009.

21. علاوة عمارة: انتشار المذهب المالكي ببلاد المغرب الأوسط، مجلة آفاق الثقافية، نشر جمعية الماجد للثقافة والتراث، العدد56، جانفي2007.

22. عمرو خليفة النامي: دراسات عن الإباضية، ترجمة مخائيل خوري، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2002.

23. فرحات الجعبيري: البعد الحصاري للعقيدة عند الإباضية، شر جمعيةالتراثغرداية،1987.

24. الفرد بيل: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، ترجمة عبد الرحمن بدوي، ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987.

25. مصطفى باجو: أبو يعقوب الورجلاني أصوليا، وزارة التراث والثقافة، سلطنة عمان، ط2، 2007.

26. مصطفى بن الحاج بكير حمودة: المخطوطات في منطقة وادي ميزاب، قيمته الحضارية والتاريخية من خلال مكتبة الشيخ الحاج صالح بن عمر لعلي، المجلة المغاربية للمخطوطات، ع1، ديسمبر2004.

27. مصطفى بن دريسو: الفكر العقدي عند الإباضية حتى نهاية القرن الثالث الهجري، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، عمان، 2013.

28. هود بن محكم الهواري: تفسير كتاب الله العزيز، تحقيق بالحاج بن سعيد شريفي، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1990.

29. Virginie Provost: Ilfalisme et sufrisme dans le Maghreb central. Un article dans un livre. histoire generale de l'algerie L'Algérie médiévale. Sous la direction de HOUARI Touati. ministère de la Culture. Algerie.2012.

عمر راسم مفسّراً

د. مختار قديري، جامعة حمه لخضر الوادي الجزائر

الملخص:

يتضمن هذا البحث التعريف بأحد علماء الجزائر، المجهولين في التفسير، خلال فترة الاحتلال الفرنسي، وذلك من خلال مطلبين، عرفت في المطلب الأول بالمفسّر عمر راسم، والمطلب الثاني: بتفسيره المسمى: "تفسير القرآن الكريم"، وقد خلص هذا البحث إلى عدّة نتائج أهمها: القيمة العلمية لمقدمته، والتي رسمت معالم تفسيره، ومن أهم التوصيات المتوصل إليها: دعوة الهيئات الرسمية وعلى رأسها إدارة الشؤون الدينية للبحث عن تفسير الشيخ عمر راسم الذي لا يزال مجهولاً.

مقدمة:

يُعد الشيخ عمر راسم فحلا من فحول علماء الجزائر في الفن والزخرفة والمنمنمات والصحافة والتاريخ والأدب، إلاّ أن الكثيرين وحتى من أهل التخصص يجهلون جهوده ومنهجه في التفسير، وتفسيره الذي لا يزال مجهولا لم ير النور لحد اليوم، لذا أردت من خلال هذه الورقة البحثية المقدمة لمشروع الكتاب الجماعي، حول: موسوعة أعلام التفسير في الجزائر، الذي ينظمه مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة بالأغواط، التعريف به وبتفسيره المسمى: "تفسير القرآن الكريم".
وتكمن أهمية هذا البحث في:

- التعريف بعلم من أعلام التفسير في الجزائر.

- بيان جهوده ومنهجه في التفسير.

هذا وقد تجنبت الخوض في بعض المسائل التي لها علاقة بالموضوع، كجهوده في خدمة المصحف الشريف "مصحف الثعالبية"، مراعاة لحجم البحث وآجال إيداعه، ورأيت أن تُفرد هذه المسائل بدراسة خاصة.

أما عن الدراسات السابقة لهذا الموضوع فلم أطلع -على حد علمي- على دراسة عُنيت ببيان جهوده ومنهجه في التفسير، وقد قُمت بتقسيم هذا البحث بعد المقدمة إلى مطلبين وخاتمة، كالآتي:

المطلب الأول : تناولت فيه التعريف بالشيخ عمر راسم

المطلب الثاني: التعريف بتفسيره "تفسير القرآن الكريم".

الخاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات.

وقمت في هذا البحث باستقراء منهج تفسير الشيخ عمر راسم من مصدر واحد فقط، وهو المتوفر -على حسب اطلاعي-، والمتمثل في : مقدمة تفسيره التي تم نشرها في جريدة الشهاب، سنة 1926م، إلى حين العثور على تفسيره الذي يُعد مجهولا. وقد لمست شح المادة العلمية المتعلقة بالتعريف بالمفسّر أو تفسيره، فهذا البحث وإن أعطانا صورة عن مسيرة الرَّجل في التفسير، إلا أن هناك جوانب كبيرة مازالت غامضة تحتاج إلى بحث، وهذه من بين التوصيات التي سيأتي ذكرها في خاتمة هذا البحث.

المطلب الأول: التعريف بالمفسّر عمر راسم

يشتمل هذا المطلب على ترجمة موجزة للشيخ عمر راسم المفسر، ذكرت فيها حياته الشخصية والعلمية، وثناء العلماء عليه ومؤلفاته، وذلك من خلال الفروع الآتية:

الفرع الأول: حياته الشخصية

تتضمن حياته الشخصية: اسمه ولقبه ونسبه، ومولده ونشأته، وكفاحه الثوري، ووفاته.

أولا: اسمه ولقبه

1. **اسمه:**

هو عمر راسم بن علي بن سعيد بن محمد[1]، وكان يُلقب نفسه في أغلب مقالاته التي كان يكتبها بـ: :"ابن المنصور الصنهاجي"، [2].

2. **نسبه:**

البجائي: نسبة إلى مدينة بجاية الجزائرية، الواقعة على ساحل البحر الأبيض المتوسط[3]

الصنهاجي: نسبة إلى منطقة جبال القبائل[4]

ثانيا: مولده ونشأته

1. **مولده:**

ولد بمدينة الجزائر يوم الثلاثاء 05 ربيع الأول 1302ه الموافق1884م وقيل سنة 1883م[5]، ويذهب محمد شريفي إلى أن أصول عائلة راسم تركية، وأن اسم (راسم) موجود في تراجم الخطاطين الأتراك[6].

[1] يُنظر: معجم أعلام الجزائر، ص 243.

[2] يُنظر: سلسلة جهاد شعب الجزائر، (7/ 82).

[3] يُنظر: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، (1/ 260)، وموسوعة المدن العربية والإسلامية، ص160.

[4] يُنظر: عمر راسم المصلح الثائر، ص6.

[5] يُنظر: تاريخ الجزائر الثقافي، (5/ 283)، وعمر راسم المصلح الثائر، ص7.

[6] يُنظر: اللوحات الخطية في الفن العربي

نشأته:

بدأ الشيخ عمر راسم تعليمه الأولي بكُتَّاب بابا عثمان بالعاصمة، فحفظ القرآن الكريم وهو ابن سبع سنين، وعيّنه الشيخ المفتي "بوقندورة"(7) حزّابا بمسجد سفير في حي القصبة لتفوقه في الحفظ، وهو ابن اثنتي عشرة سنة.

نشأ الصحفي والخطاط الجزائري عصاميا في ثقافته، ومع ذلك فقد تلقى بعض الدروس عن الشيخ محمد بن مصطفى بن الخوجة(8) في النحو، وسنة قضاها في المدرسة الشرعية الفرنسية (الثعالبية)، وأخذ بعض الدروس في اللغة الفرنسية عند مدرسة الشيخ فاتح (9)، وعَوَّضَ عمر راسم قلّة شيوخه بالانكباب على المطالعة باللغتين العربية والفرنسية.

ثالثا: كفاحه الثوري ووفاته

1. كفاحه الثوري:

كان عمر راسم متأثرا منذ بداية حياته بالحركات الإصلاحية كالإمام محمد عبده(10)، وهذا التوجه كان له أثر كبير فيما بعد في حياته ونضاله من أجل الإصلاح والكفاح ضد المستعمر بالكلمة والقلم، فاشتغل بالصحافة وأنشأ جريدتي: الجزائر سنة 1908م، وذو الفقار سنة 1913م، وأبدع

---

(7) هو الشيخ أحمد بن محمد بوقندورة، الذي ثبت في منصبه كمساعد بالمحكمة العليا الفرنسية بالعاصمة، وتقلد بوقندورة عدّة وظائف إلى أن وصل إلى منصب مفتي الحنفية، وكان إماما وخطيبا بالجامع الجديد، ولا يعرف تاريخ وفاته سواء أن ابنه محمد خلفه في منصب المفتي الحنفي(يُنظر: تاريخ الجزائر الثقافي، (3/ 75، 76، 4/ 449)).

(8) هو محمد بن مصطفى بن محمد الخوجة الجزائري، الملقب بالمضربة، والمشهور بالشيخ الكمال، شاعر، وعالم في الشريعة، ولد ونشأ وتعلم بمدينة الجزائر، من شيوخه: محمد عبده، من مؤلفاته: ديوان شعر، توفي بعد سنة 1340ه/ 1922م (يُنظر: معجم أعلام الجزائر، ص138، 139، والأعلام، (11/ 101، 102)).

(9) يُنظر: عمر راسم المصلح الثائر، ص7.

(10) هو محمد عبده بن حسن خير الله التركماني: مفتي الديار المصرية، ومن كبار رجال الإصلاح والتجديد في الإسلام، من شيوخه: جمال الدين الأفغاني، من مؤلفاته: الإسلام والرد على منتقديه، توفي سنة:1323ه/ 1905م (يُنظر: الأعلام، (6/ 252، 253)، ومعجم المفسرين، (2/ 566، 567)).

هذا الجزائري في استغلال ريشته للتعبير عن هموم أمته والتصدي لأعداء دينه، فسجن من قبل المستعمر سنة 1915م، ولم يخرج منه إلا في سنة 1921م، إلاّ أن ذلك لم يثن عزيمته ومرّ قُدُماً في شق طريق الإصلاح[11].

2. **وفاته:**

قبل أن يتحقق حلم الشيخ عمر راسم في استقلال وطنه، الذي طالما استنهضه بقلمه وخطابه، انطفأت شمعته بعد مرض عضال لازمه طويلا، وذلك يوم 13 فيفري 1959م بالعاصمة،عند عمر ناهز 75 سنة، ودفن بمقبرة سيدي عبد الرحمن الثعالبي بالعاصمة[12].

الفرع الثاني: حياته العلمية

سأتناول في هذا الفرع الحياة العلمية للشيخ عمر راسم، وأذكر فيه أهم المشايخ الذين تتلمذ عليهم، وكتابته للمصحف الشريف بخط يده.

أولا: شيوخه

من أبرز شيوخه الذي تلقى على أيديهم العلم[13]:

- والده: علي بن سعيد راسم.
- الشيخ الصايجي إمام مسجد سيدي عبد الله بالقصبة.
- الشيخ محمد بن مصطفى خوجه الذي أخذ عنه دروسا في النحو.
- الشيخ فاتح الذي أخذ عليه دروسا في الفرنسية.

[11] يُنظر: معجم أعلام الجزائر، ص 243، وسلسلة جهاد شعب الجزائر، (7/ 82)، وعمر راسم المصلح الثائر، ص5، 6.

[12] يُنظر: معجم أعلام الجزائر، ص 243، وعمر راسم المصلح الثائر، ص12.

[13] يُنظر: تاريخ الجزائر الثقافي، (10/ 402)، وعمر راسم المصلح الثائر، ص13.

ثانيا: كتابة المصحف الشريف

نشأ وترعرع راسم منذ نعومة أظافره وسط عائلة يزاول أغلب أفرادها فن الرسم والزخرفة والفنون الجميلة، هذا المناخ الذي كان له أثر كبير على الأستاذ عمر راسم، فكانت له دراية كبيرة بالخطوط العربية، خاصة الخط الكوفي والنسخي والعثماني، إضافة إلى إتقانه تسفير الكتب وتجليدها، وهو ما ساعده في كتابة ثاني[14] مصحف للقرآن الكريم في الجزائر بخط يده، والذي أصدرته المطبعة الثعالبية[15] سنة 1325ه-1907م[16].

الفرع الثالث: ثناء العلماء عليه ومؤلفاته

في هذا الفرع سأتعرض لبيان ثناء العلماء عليه، وأهم مؤلفاته وآثاره التي خلفها، وذلك من خلال النقاط الآتية:

أولا: ثناء العلماء عليه

مدحه الأستاذ محمد السعيد الزاهري، فقال: "فإنّه رجل من أبرّ الناس بالإسلام، ومن أكثرهم علماً به، وأنا لست أعرف عن الإسلام أكثر مما يعرف الأستاذ راسم... وهو يُعد من قادة الفكر في الجزائر، جاهد في سبيل الجزائر المسلمة، وأوذي في الله"[17].

---

[14] المصحف الأول للمطبعة الثعالبية كتبه بخط يده الخطاط أحمد المنصالي، كما أشار إلى ذلك الخطاط الجزائري محمد شريفي في كتابه اللوحات الخطية في الفن الإسلامي.

[15] تعد المطبعة الثعالبية التي أنشئت سنة 1314هـ/ 1895م أول مطبعة عربية جزائرية ساهمت بدور كبير في طبع ونشر التراث العربي والإسلامي في الجزائر وتونس والمغرب وغرب افريقية كالسنغال وموريتانيا ومالي والنيجر، وغيرها من الدول.

وتعود فكرة تأسيس هذه المطبعة إلى النشاط الكبير الذي قام به الأخوان رودوسي أحمد وقدور التركيان في تجارة الكتب في المشرق ومنها إلى المستعمرات الفرنسية في إفريقيا، وذلك نظرا للتسهيلات التي كانت مقدمة لهما من السلطات الفرنسة آنذاك (يُنظر: غلاف قائمة كتب المطبعة الثعالبية والمكتبة الأدبية، عدد 33 لسنة 1928م، وتاريخ الجزائر الثقافي (5/ 308-309)).

[16] يُنظر: مقال تاريخ طباعة المصحف الشريف في الجزائر وتطورها، للدكتور عبد الهادي لعقاب المقدم في الندوة التي نظمتها مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ص5، وتاريخ الجزائر الثقافي، (10/ 429).

[17] الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير، ص 34.

وأثنى عليه توفيق المدني فقال: "فهمت أن الرجل كان في بادئ الأمر مصلح مؤمنا عصاميا طموحاً، فلما أصابته النائبة بالسجن ضاقت عليه الدنيا بما رحبت..."[18].

وقال عنه: صاحب التفسير والمفسرون في غرب إفريقيا: أنه كان "من الرعيل الأول في الكفاح والإصلاح"[19].

وقال في مدحة شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة[20]:

فزت بالشكر فزت بالتقدير أيها الراسم العزيز النظير

رفعت فنك الجزائر قدراً وأحلته في المقام الكبير

بارع الرسم بارع الخط فيها ﴿عمر راسم﴾ بدون نكير

أزهر الفن في يديك وواتى قلم الخط ريشة التصوير

كل من قد رأى رسومك أبدى كل مدح وفاه بالتكبير

تترقى البلاد بالعامل الما ـهر صنعا والعالم النحرير

هيئ اليوم للجزائر نشئا ماهر الصنع سامي التفكير

يحذق الخط في الجزائر والرســـم ويعنى بكل شأن خطير

قد رقت صنعة ابن آدم فنا فأبانت عن دقة التدبير

إنما صنعة ابن آدم برها ـن مبين على الإله القدير

---

[18] حياة كفاح، (2/ 54).

[19] التفسير والمفسرون في غرب إفريقيا، (1/ 267).

[20] تكملة ديوان محمد العيد آل خليفة، عناية محمد بن سمينة، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1997، ص 96.

ثانيا: مؤلفاته وآثاره[21]

مؤلفات وآثار الشيخ عمر راسم التي ذكرها أغلب من ترجم له، هي:

- تفسير القرآن الكريم كتبه في سجنه، وبالتالي فهو يعد من علماء الجزائر المفسرين.
- تراجم علماء الجزائر[22].
- مقالات كثيرة في الاجتماع والسياسة والفن في الصحف الجزائرية والتونسية.
- خطب قيل إنه كان يلقيها بالعربية والفرنسية.
- أنشأ عدة صحف باسمه: الجزائر، الفاروق، ذو الغفار، ...
- بعض اللوحات الفنية القائمة على توظيف الخط العربي الذي كان يجيده.

والناظر في ثقافة الشيخ السياسية والإسلامية الكبيرة، وطول عمره، يقف حائرا أمام ضئالة تراثه الذي خلفه، وقد أرجع الدكتور أبو القاسم سعد الله ذلك إلى فترة اليأس والقنوط التي مرّ بها رحمه الله، والتي جعلته يعزف عن مواصلة عمله الإصلاحي، نتيجة للأذى الذي تعرض إليه من المستعمر الفرنسي[23].

المطلب الأول: التعريف بتفسيره: "تفسير القرآن الكريم"

في هذا المطلب سنعرف بتفسير العلامة عمر راسم، ونبين أهم معالم منهجه من خلال مقدمة تفسيره التي حفظتها لنا جريدة الشهاب، وذلك من خلال الفروع الآتية:

---

[21] يُنظر: تاريخ الجزائر الثقافي، (5/ 285-287)، ومعجم أعلام الجزائر، ص 243.

[22] يرى الدكتور أبو القاسم سعد الله أن هذا المؤلف ما يزال مخطوطا، ولم ير النور، كما أنه يطرح إمكانية ضياعه (يُنظر: تاريخ الجزائر الثقافي، (5/ 288)).

[23] يُنظر: تاريخ الجزائر الثقافي، (5/ 288).

الفرع الأول : التعريف بتفسيره: "تفسير القرآن الكريم"

ألَّف الشيخ عمر راسم تفسيره في سجن بربروس الذي دخله سنة 1915م، ولم يخرج منه إلا سنة 1921م، وهو بهذا العمل أدرج اسمه في قائمة مَن فسَّر كتاب الله من علماء الجزائر، وفعل كما فعل السيد قطب رحمه الله الذي فسّر تفسيره "في ظلال القرآن" داخل زنزانات السجن.

قلت: والفترة التي قضاها الشيخ عمر راسم كافية لكتابة هذا التفسير الذي لا يزال مجهولا، وقد نشرت جريدة الشهاب مقدمته سنة 1926م في العدد الخامس والسبعين، والتي نحن بصدد دراستها وعرضها.

وقد لفت انتباهي قول محمد السعيد الزاهري: "وقد فسّر الجزء الأول من القرآن الكريم"[24]، مخالفا بذلك قول أغلب من ترجم له، في أن له تفسيراً كاملاً[25]،إذًا فهل أكمل الشيخ عمر راسم تفسيره؟، أو أن الأستاذ الزاهري لم يطلع إلا على الجزء الأول من هذا التفسير؟ أو إلى أي موضع من القرآن وصل عمر راسم في تفسيره؟.

كل هذه التساؤلات لم يستطع الباحث الإجابة عليها لتعذر الحصول على هذا التفسير، المهم أن الشيخ عمر كان راسم له جهد في التفسير لا يزال مجهولا باستثناء جزء كم مقدمته.

---

[24] الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير، ص 34.

[25] يُنظر: معجم أعلام الجزائر، ص 243، ، التفسير والمفسرون في غرب إفريقيا، (1/ 268)، ومعجم المفسرين "من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر، (2/ 789).

الفرع الثاني: توثيق عنوان التفسير وصحة نسبته إلى مؤلفه

1. توثيق عنوان التفسير:

أغلب من ترجم لهذا المفسّر، ذكر أن من الآثار التي خلفها الشيخ تفسيراً للقرآن الكريم، باسم : "تفسير القرآن الكريم"[26]، أما البعض الآخر فقد ذكر أن له تفسيراً ألفه في الفترة التي كان مسجونا فيها، إلا أنهم لم يذكروا تسمية هذا التفسير.

2. توثيق نسبة التفسير لمؤلفه:

ثبتت صحة نسبة هذا التفسير إلى مؤلفه، من خلال عدة دلائل، نذكر منها:

- نقل جريدة الشهاب لجزء من مقدمة تفسيره، ونسبتها إلى الشيخ عمر راسم، حيث جاء في العنوان: "من مقدمة التفسير الذي كتبه عمر راسم الصنهاجي أيام كان في السجن سنة 1916م المفسرون"[27]، وجاء في آخر هذه المقدمة "عمر راسم" كبيان لصاحب هذه المقدمة.

- اطلاع الأستاذ محمد السعيد الزاهري على هذا التفسير، بل إنه اعتبره تجديدا في التفسير، ونسبه إلى مؤلفه وأثناء عليه[28].

- أغلب من ترجم للشيخ عمر راسم ذكر أن له تفسيرًا ألّفه لما كان في سجن بربروس[29].

الفرع الثالث: منهجه في التفسير

من خلال مقدمة تفسيره، حاولنا بيان أهم معالم منهجه في النقاط الآتية:

---

[26] يُنظر: معجم أعلام الجزائر، ص 243، ، التفسير والمفسرون في غرب إفريقيا، (1/ 268)، ومعجم المفسرين "من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر، (2/ 789).

[27] جريدة الشهاب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، العدد: 75، 16 ديسمبر 1926م، ص8.

[28] الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير، ص 34.

[29] يُنظر: معجم أعلام الجزائر، ص 243، ، التفسير والمفسرون في غرب إفريقيا، (1/ 268)، ومعجم المفسرين، (2/ 789)، و آثار ابن باديس (1/ 85).

أولا: موقفه من الأحاديث والأسانيد

التزم الشيخ عمر راسم في تفسيره بذكر الروايات الصحيحة دون غيرها، وقد عاب عن بعض المفسرين اعتناءهم بالتفسير من غير عناية بالسند، فقال: "اعتنى جلّ المفسرين بتفسير الكتاب، ولكن لم يعتنوا بتصحيح الرواية، ولا بالبحث عن سيرة ومقاصد الرواة، كما اعتنى المحدّثون-لله درّهم- في تصفية الحديث وتنقيته، ومع تكبّد المشاق لم يجزموا كل الجزم في صحة كلّ ما رووه..."[30]، ويظهر من خلال هذا النقل دراية الشيخ عمر راسم بعلم الحديث، وهذا ما يدل على عنايته بنقل الأحاديث الصحيحة في تفسيره.

ثانيا: موقفه من الإسرائيليات

يرى الشيخ عمر راسم عدم جواز حشو التفسير بهذه الإسرائيليات، حيث قال في مقدمة تفسيره: "حتى اضطروا إلى الإسرائيليات بل إلى المفتريات بل إلى الكذب الصريح على الله ورسوله وعلى الصحابة الكرام"[31]، بل عدّها من المفتريات والكذب على الله ورسوله.

ثم نقل أن ما روي عن ابن عباس في الإسرائيليات، وكعب الأحبار وعبد الله بن سلام تقشعر منه الجلود، وأن العاقل لابد أن يضرب به عرض الحائط تنزيها لكتاب الله من الأقاويل والحكايات والقصص والخرافات التي هي جديرة برأس الغول وقصص الأنبياء وغيرهما من روايات التقصير والفكاهة"[32].

ويرى الشيخ راسم كذلك أن الإسرائيليات صارفة عن العبرة، فقال: "إن الله لم يقص علينا قصة موسى عليه السلام ويوسف وغيرهم... لنتلوها كما نتلو القصص، مثل: حكاية سيف،

---

[30] جريدة الشهاب، ص9.

[31] جريدة الشهاب، ص9-8.

[32] جريدة الشهاب، ص9.

ورواية ألف ليلة وليلة، وإنما قصّها لنعتبر بها"[33]. ومن هنا يظهر خلو تفسير العلامة عمر راسم من الإسرائيليات التي ردّها بشدّة، وأنكر على من أدرجها من المفسّرين أشدّ الإنكار.

ثالثا: موقفه من نسخ القرآن

بيّن عمر راسم في مقدمة تفسيره أن الآيات المنسوخة في القرآن الكريم قليلة جداً، وليست الأمر كما يصوره بعض المفسّرين أنها بالمئات، حيث قال: "وقالوا إن هناك آيات منسوخة لا يُعمل بها ولا يُلتفت إليها وأكثروا في تعديدها وبالغوا حتى كادوا يقولون إن أكثر القرآن منسوخ، ولم يزالو على ذلك في اختلاف –ريب– وشقاق عند عدد تلك الآيات البيّنات التي نسخوا حكمها وحكمها إلى الآن، وما ذاك إلا ليظهر كل من المفسرين اجتهاده وعناده وليفوق غيره..."[34]، وكما هو معلوم أن السبب في الخلاف يرجع إلى عدم اتفاقهم على مفهوم النسخ، كما هو مقرر في كتب علوم القرآن.

ومن هنا يظهر أن عدد الآيات المنسوخة في تفسيره قليلة جدا، ومواضعها واضحة أشار إليها أهل العلم.

رابعا: العناية والتأثر بآراء محمد عبده وتلميذه محمد رشيد رضا

من خلال دراسة حياة الشيخ عمر راسم، يظهر تأثره بالشيخ محمد عبده الذي التقى به أثناء رحلته المغربية إلى الجزائر سنة 1903م[35]، وقد لمست ذلك من خلال مقارنة موقف الشيخ عمر راسم من بعض المسائل مع موقف الإمام محمد عبده وتلميذه محمد رشيد رضا، وسأكتفي بالتمثيل بمسألة واحدة فقط، أو العثور على تفسير عمر راسم ودراسته، سيضيف هذا الأمر وضوحا وبيانا.

---

[33] جريدة الشهاب، ص9.

[34] جريدة الشهاب، ص10.

[35] يُنظر: عمر راسم حياته ونشاطه(1884–1959)، إمخلاف أمال، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2009–2010، ص 32.

فمثلا في موقفه من الإسرائيليات نجد أن الشيخ عمر راسم وافق الإمام محمد عبده وتلميذه محمد رشيد رضا في عدم جواز حشو التفسير بالإسرائيليات وأنها صارفة عن العبرة، حيث يقول محمد عبده: "ومنشأ هذه الأقوال الروايات الإسرائيلية، ولليهود في هذا المقام كلام كثير وتأويلات خدع بها المفسرون ولا نجيز حشوها في تفسير كلام الله تعالى[36]"، وقال محمد رشيد رضا: "فنأخذ القرآن على ما هو عليه لا ندخل فيه شيئاً من الروايات الإسرائيلية التي ذكروها وهي صارفة عن العبرة لا مزيد كمال فيها"[37].

الفرع الثالث: ثناء العلماء عليه

نكتفي هنا بذكر ما نقله الأستاذ محمد السعيد الزاهري في الثناء على هذا التفسير الذي اعتبره تجديدا في التفسير، وقال: لو أكمله لأفاد به المسلمين، حيث قال: " وقد فسّر الجزء الأول من القرآن الكريم تفسيرا إذا أنت قرأته عرفت أن العلم موهبة يهبها الله من يشاء من عباده"[38].

وهذا النقل شوقني للبحث عن هذا التفسير، إلا أنني لم أوفق للعثور عليه، باستثناء جزء من مقدمته التي حفظته لنا جريدة الشهاب في عددها الخامس والسبعين، وعندما اطلعت عليها زاد لهفي مما وقفت عليه من أسلوب هذا الشيخ، ومكنته العلمية.

خاتمة الدراسة:

كان هذا الموضوع دراسة لجانب من جوانب الحياة العلمية للشيخ عمر راسم، والتي خلصت إلى عدّة نتائج، أُجملها في الآتي:

1. كان الشيخ عمر راسم أديبا وصحفيا ومؤرخا ومفسرا ووطنيا من الطراز الأول.

[36] تفسير المنار، (1/ 269)، وأسباب الخطأ في التفسير، ص171.

[37] تفسير المنار، (2/ 362).

[38] الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير، ص 34.

2. الأرجح أن الشيخ عمر راسم أتمّ تفسيره للقرآن الكريم، ولم يتوقف في الجزء الأول منه.

3. إن تفسير عمر راسم يُعد تجديداً في التفسير، ولو عثر عليه لأفاد به المسلمين.

4. يرى الشيخ عمر راسم عدم جواز حشو التفسير بالإسرائيليات وأنها صارفة عن العبرة .

5. الآيات المنسوخة عند الإمام عمر راسم قليلة في القرآن الكريم، عكس ما يدّعيه بعض المفسّرين.

6. تأثر عمر راسم بتفسير الشيخ محمد عبده وتلميذه محمد رشيد رضا ظاهر واضح في مقدمة تفسيره.

7. تظهر من خلال مقدمته، وثناء العلماء على هذا التفسير، القيمة العلمية الكبيرة لهذا التفسير.

وأهم **التوصيات** التي أستطيع أن أخرج بها في آخر هذا البحث:

1. جوانب كثيرة من حياة الشيخ عمر راسم في التفسير وغيرها من المجالات التي برع فيها، لا تزال غامضة إلى حد اليوم، وتحتاج إلى من يكشف عنها، وذلك من خلال عقد الملتقيات، والندوات، والاستكتاب، ...

2. دعوة الجهات الرسمية وعلى رأسها الشؤون الدينية، للبحث عن تفسير الشيخ عمر راسم الذي لا يزال مجهولا إلى اليوم، وإخراجه إلى النور.

3. العمل على تحقيق تراث عمر راسم الذي لا يزال مكنوزا في خزائن المخطوطات، والمطبوع منه متناثر في الصحف والجرائد، يحتاج إلى جمع وترتيب وخدمة أهل العلم.

4. دعوة هذا المركز المبارك للسعي إلى وضع معالم معجم أعلام التفسير في الجزائر من صدر الإسلام إلى وقتنا الحاضر.

الملاحق:

من مقدمة التفسير الذي كتبه عمر راسم الصنهاجي أيام كان في السجن سنة ١٩١٦

المفســـرون

لما كمل دين الإسلام وأتم الله به نعمته على من رضي به ديناً وسعت واجتهدت الصحابة رضوان الله عليهم في الدعوة إليه رأفة ورحمة بإخوانهم البشر لعلهم يهتدون وإلى حزب الحق ينقادون جمعوا القرآن وأرسلوه إلى البقاع من غير أن يزيدوا فيه من التقاء أنفسهم ولا حرفاً متيقنين أن فيه الكفاية ومنه الهداية ولم يشرحوه ولم يفسروه لأنه مفسر بعضه ببعض والحوادث والوقائع تشرحه وتظهر أسرار حكمه ومخبآت معانيه. ثم أتى بعدهم من أرادوا مزاحمتهم بل مسابقتهم فسعوا في تفسير آياته البينات وكلماته الواضحات لكن على حسب أغراضهم وميولهم وذهب كل منهم مذهباً واتخذ كل واحد طريقة لم يسلكها صاحبه وأيدوا دعاويهم بأسباب النزول الذي اختلفوا فيه وصار كل من هؤلاء يستنبط بعقله أشياء زيادة عما غيره حتى اضطروا إلى

648

الصورة : 01 تمثل مقدمة تفسير عمر راسم في جريدة الشهاب، ص 8

وشقاق عن عدد تلك الآيات البينات التي نسخوا حكمها وحكمها إلى الآن وما ذاك إلا ليظهر كل من المفسرين اجتهاده وعناده وليفوق غيره وما ذاك عند العلماء إلا انحطاطاً في العمل ومرضاً في القلب وسفهاً. لأن اختلافهم وعنادهم وأحلامهم أدت إلى تفرق الأمة الإسلامية شيعاً وكل أمة تعصبت إلى من وثقت بغروره وأغراضه وإما لغرض وإما لعمي التقليد الذي ما دخل أمة إلا أهلكها، وكل فرقة منهم انتسبت إلى الحق وتزينت بأسماء مبرقعة مزركشة اختاروها تشويشاً لعقول الضعفاء والعوام المساكين الذين يصدقون بكل ما يسمعون وانتصرت بعددها وافتخرت بعبوديتهم واحترامهم لأقاويلها، وتزايدوا في الغل والحسد حتى أدى ذلك إلى إرهاق دماء الأبرياء والأمة المحمدية التي دأبها الأخوة والحنان. صار المنتسب إليها يود أن يمحق أخاه في الدين ويسحقه ويمحقه لمخالفة جزئية أو لخلاف لفظي في مسألة من أدنى المسائل وأحقرها. هذا والعدو مراقب يتربص الفرصة التي ينتهزها للفتك بهم والذهاب بسطوتهم وما أصاب المسلمين وما يصيبهم إلا من تعصب المتعصبين واعتماد المنتسبين إلى العلم الغافلين المغفلين على روايات وأقاويل الخراصين والمتحيلين «ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين».

عن قتادة رضي الله عنه «المؤمن من سمع كتاب الله فوعاه بعقله وانتفع به» هؤلاء المفسرون وعوه بأغراضهم لا بعقولهم. وثقوا بغيره وبما أحدثه السفهاء من الحكايات والقصص لا به ولا بحكمه ومواعظه ولا بآياته الباهرات وإرشاداته المحكمات «وكم من آية في السموات يمرون عليها وهم عنها معرضون» بما تسول لهم أنفسهم ويوحيه إليهم شياطين الاضطراب المستولية على عقولهم حتى أوقعوا المسلمين فيما هم فيه من الذل والهوان والعجز والفقر والفاقة والإمحان، وكذلك بسماجة ألفاظهم الركيكة وخوضهم فيما ليس لهم به علم أي بفضولهم أبعدوا عن الإسلام طوائف وإنما لولاهم لكانوا للدين الصحيح حصناً حصيناً ودروعاً متينة تلاقي شر الأعداء والحساد وتدفع عنه ما أضمروه من المكائد والفساد وبقي السلطان للإسلام لا لخصمائه «نعوذ بالله من كل شيطان رجيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

عمر راسم

650

الصورة: 02 تمثل مقدمة تفسير عمر راسم في جريدة الشهاب، الصفحة الأخيرة

فهرس المصادر والمراجع

أولا: الكتب

1. آثَارُ ابْنُ بَادِيسَ، عبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي، تحقيق: عمار طالبي، دار ومكتبة الشركة الجزائرية، ط1، 1388 هـ – 1968م، عدد الأجزاء: 04.

2. الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير، محمد السّعيد الزاهري ، دار الكتب، الجزائر، عدد الأجزاء: 01.

3. الأعلام، الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط5، أيار (مايو) 1980م.

4. تاريخ الجزائر الثقافي، لأبي القاسم سعد الله، دار البصائر، الجزائر، طبعة خاصة، 2007م، عدد الأجزاء : 10.

5. تكملة ديوان محمد العيد آل خليفة، عناية محمد بن سمينة، بيروت : دار الغرب الإسلامي، 1997،عدد الأجزاء: 01.

6. سلسلة جهاد شعب الجزائر، لبسام العسلي، دار النفائس، ط3، 1411ه/ 1990م، عدد الأجزاء : 01.

7. عمر راسم المصلح الثائر، محمد ناصر، مطبوعات وزارة الثقافة، 2007م، عدد الأجزاء: 01.

8. اللوحات الخطية في الفن الإسلامي المركبة بخط الثلث الجلي، محمد بن سعيد شريفي، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية، ط1، 1998م، عدد الأجزاء: 01.

9. معجم أعلام الجزائر، عادل نويهض، مؤسسة نويهض، لبنان، ط2، 1400هـ/ 1980م، عدد الأجزاء 1.

10 . معجم المفسرين «من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر»، عادل نويهض، قدم له: مُفتي الجمهورية اللبنانية الشَّيْخ حسن خالد، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، ط3، 1409 هـ - 1988 م، عدد الأجزاء: 2.

11 . تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990 م، عدد الأجزاء : 12.

12 . موسوعة المدن العربية والإسلامية، ليحيى شامي، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1993م، عدد الأجزاء : 01.

13 . أسباب الخطأ في التفسير، طاهر محمود محمد يعقوب، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط1، 1425ه، عدد الأجزاء: 01.

14 . نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، بالشريف الادريسي، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1409 هـ، عدد الأجزاء: 2.

ثانيا: الجرائد والمجلات

1. جريدة الشهاب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، العدد: 75، 16 ديسمبر 1926.

ثالثا: الرسائل الجامعية

1. التفسير والمفسرون في غرب أفريقيا، : محمد بن رزق الكعبي السلمي أبو الأرقم المصري المدني، رسالة دكتوراه ، نشر دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط: 1، 1426 ه، عدد الأجزاء: 2

2. عمر راسم حياته ونشاطه(1884-1959)، إمخلاف أمال، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2009-2010.

رابعا: المقالات

1. مقال تاريخ طباعة المصحف الشريف في الجزائر وتطورها، للدكتور عبد الهادي لعقاب المقدم في ندوة "طباعة القرآن الكريم ونشره بين الواقع والمأمول" التي نظمتها مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المملكة العربية السعودية.

فهرس مضامين الجزء الأول